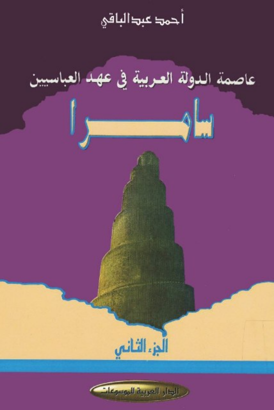
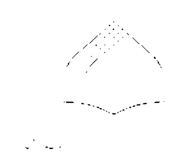

أحمد عبد الباقي
عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين
سامرا
الجزء الثاني
الدار العربية للموسوعات

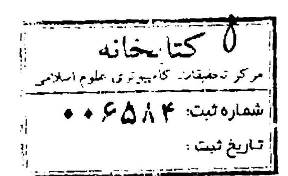
عاصمة الدولة العربية في ع

ســــامــــرا



عاصمة الدولة العربية في عهد العباسيين

سامرا



أحمد عبدالباقي

الجزء الثاني

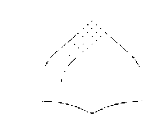
الدار العربية للموسوعات

الباب السـادس

الفتن والاضطرابات في عهد سامرا

١ ـ الفتن الكبرى ٠

٢ ـ الاضطرابات الاخرى ٠



الباب السـادس

الفتن والاضطرابات في عهد سامرا

الفصـل الأول

الفتن الكبرى

١ ـ فتنة الخرمية :

على الرغم من طول مدة حكم الخليفة المأمون التي بلغت عشرين عاما ونصف العام ، وعلى الرغم من كفايته الادارية وما عرف عنه من الحزم والدهاء ، فانه لم يستطع التغلب على الفتنة الخرمية التي اندلعت نيرانها في اذربيجان ، أو التغلب على تمرد الزط وعبثهم في نواحي البطائح · ويبدو ان انهماكه في توطيد عرشه الذي انتزعه من أخيه الخليفة محمد الامين ، وتعيين الامام علي بن موسى الكاظم لولاية العهد ، وما نشأ عن ذلك من مشاكل بينه وبين بني العباس · وكذلك اعتناقه مذهب المعتزلة وتعصبه لآرائهم ، وما اثاره من خلاف مع فقهاء السنة في موضوع خلق القرآن ، قد شغله عن التفرغ للقضاء على تلك الفتن يضاف الى ذلك استمرار العلاقات العدائية بين الدولة العربية والبيزنطيين مما جعل الثغور العربية عرضة لهجمات الروم · بحيث اضطر المأمون ان يقود الحملات في السنوات

الاربع الاخيرة من حكمه لمقارعة البيزنطيين · حتى انه ادركته الوفاة وهو يجاهد في بلاد الروم ·

ولاريب في ان الجهود التي بذلها المأمون في القضايا آنفة الذكر استنفدت منه وقتا وجهدا كبيرين ، مما اضعف من امكانياته في القضاء على الاخطار الداخلية التي أشرنا اليها رغم اهتمامه بأمرها · وقد تمثل هذا الاهتمام بتأكيده في وصيته على أخيه أبي اسحاق ان يتفرغ لها ويبذل كل جهوده للقضاء عليها · ولذا كان من أولى واجبات المعتصم بالله الا يألو جهدا في مقاومة تلك الاخطار والقضاء عليها · اذ لم يكد ينتهي من أمر المبايعة حتى انصرف الى العمل بجد وحزم لمجابهة تلك الاضطرابات التي كانت قائمة والتي قامت بعد ذلك في عهده · وسنحاول فيما يأتي ان نتبين جهوده في القضاء عليها ·

وبالنظر لأهمية الفتنة الخرمية التي كانت تهدد بالقضاء على الخلافة والدولة العربية ، فسنتكلم عنها بشيء من التفصيل ·

الحركة الخرمية :

يرى ياقوت الحموي ان الحركة الخرمية عرفت بهذا الاسم نسبة الى بابك الخرمي · وخرم (بظم أوله وتشديد ثانية مع الفتح) رستاق بارديبل · كما يقول : وقيل ان الخرمية تعبير فارسي معناه الذين يتبعون الشهوات ويستبيحونها[1] · وجاء في كتاب السيادة العربية ان اسمها مشتق من خرم وهي مدينة ببلاد ميديا ، أو من كلمة خرم الفارسية ومعناها لذيذ[2] · ويرى المسعودي ان الخرمية هي الطائفة التي تدعى بالمسلمية القائلين بامامة ابي مسلم الخراساني ، وقد تنازعوا بعد وفاته ، فمنهم من رأى انه لم يمت ولن يموت حتى يظهر فيملأ الدنيا عدلا، وفرقة قطعت بموته وقالت

---

(١) معجم البلدان ، ٢/٣٦٢ ·
(٢) السيادة العربية/٩٩-١٠٠ ·

بامامة ابنته فاطمة وهم يدعون الفاطمية[٣] • أما البغدادي فيرى ان الخرمية صنفان صنف منهم كان قبل الاسلام كالمزدكية الذين استباحوا الحرمات وزعموا ان الناس شركاء في الاموال والنساء • والصنف الثاني الخرميـــة الذين ظهروا في دولة الاســلام ، وهم فريقان : بابكية ومازيارية ، وكلتاهما معروفة بالمحمرة[٤] • ولابن الأثير رأي فاحش في التسمية[٥] •

لقد نشأت هذه الحركة بين سكان اذربيجان والمناطق الفارسية المجاورة لها ، بين من احتفظوا بمجوسيتهم ، والذين كانوا شديدي البغض والكراهية للاسلام والعرب • فكانوا يجرون وراء كل دعوة تستهدف محاربة الاسلام والقضـــاء على دولة العرب • والخرمية اصناف عديدة غير انهم يجمعون على القول بالرجعة ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم[٦] ، اي انهم يؤمنون بتناسخ الأرواح والقول بالحلول • فقد جاء في وصية جاويدان التي بلغتها زوجته لاصحابه بعد موته : اني أريد أن أموت في هذه الليلة ، وان روحي تخرج من بدني وتدخل بدن بابك وتشترك مع روحه[٧] • وكان بابك يقول لمن يستغويه انه اله[٨] • ويدعون الى اباحـــة النساء والاموال • يقول المقدسي ، وجدنا منهم من يقول باباحة النساء على الرضاء منهن ، واباحة كل ما يلذ للنفس وينزع اليه الطبع مالم يعد على أحد بضرر[٩] • وقد أمر المازيار الأكـــرة بانتهاب أموال أرباع

---

(٣) مروج الذهب ٣/٣٠٥ •
(٤) الفرق بين الفرق/١٦١ •
(٥) الكامل ٦/٣٢٨ •
(٦) البدء والتاريخ ٤/٣٠ •
(٧) الفهرست/٤٩٦ •
(٨) نفس المصدر/٤٩٤ •
(٩) البدء والتاريخ ٥/١١٤ •

الضياع وغلاتها[10] . كما انهم يعملون على اعادة الملك الى العجم والدعوة الى الالحاد[11] .

وكانت الحركة منظمة يتولاها انـــاس متمرسون بأساليب الدعاية ، مما ساعد على حفظ آراء مــــزدك ومبادئه ونشرها بين سكان هذه المناطق . وقد آلت رئاستهـــا في نهاية القرن الثاني للهجرة الى جاويدان بن سهل[12] ، وكان من الاغنياء المتنفذين في جبال البذ . وهو الذي اكتشف بابك وقابلياته ، ومهد له السبيل لرياسة الحركة .

بابك يتولى قيادة الحركة :

كان بابك في أول نشأته صبيا مغمورا يرعى البقر ، وعمل سائسا ردحا من حياته ، ثم التحق بخدمة جاويدان الذي وجده على رداءة حاله وتعقد لسانه بالأعجمية ، فهما ، ورآه خبيثا شهما . فاتخذه وكيلا لأعماله وأمواله وضـــياعه[13] ، واطلعه على أسرار الحركة المجوسية . وسرعان ما اظهر بابك تفهما عميقا لمبادئها وأهدافها . ولما مات جاويدان ساعدت زوجته وكيله بابك ليحل محله في رياسة الحركة واتباعها ، بأن لفقت وصيته على لسان زوجها وبلغتها لرجاله ، وخلاصتها ان روح جاويدان حلت في بدن بابك ، الذي سيبلغ أمرا لم يبلغه أحد، وان النصر سيحالفه فيملك الارض، ويقتل الجبابرة ، ويـــرد المزدكية ، ويعتز به الذليــــل ويرتفع الوضيع[14] . وبايعته هي وتزوجت منه ، فتبعها أصحاب جاويدان، فأصبح الرئيس الجديد للحركة . ويقول أبو حنيفة الدينوري انه صح عنــــده ان بابك من ولد مطهر بن فاطمـــــة بنت أبي مسلم

---

(١٠) الطبري ٩/٨١ . والعيون والحدائق ٣/٣٩٩ .

(١١) البدء والتاريخ ٥/١٣٤ .

(١٢) في التنبيه والاشراف/٣٠٦ ورد اسمه جاوذان بن شهرك .

(١٣) الفهرست/٤٩٥ .

(١٤) نفس المصدر/٤٩٦ . والبدء والتاريخ ٦/١١٤–١١٨ .

الخراساني[١٥] • بينما يظهر خبر أورده ابن النديم انه ولد سفاحا لدهان من أهل المدائن[١٦] • وكذلك يـــرى الطبري انه من أصل وضيع[١٧] •

تختلف حركة بابك عن الحـــركات الاخرى التي قامت ضد الدولة العربية في انها كانت منظمة تنظيما جيدا كفل لها سرعة الانتشار ، وطول مدة الصمود في صد الجيوش العربية التي وجهت لضربها • فلم يقتصر انتشارها على المجوس من الفرس وحدهم ، بل انضم اليها كثير من الاكراد والأرمن وغيرهم ممن يتشكون من وطأة الحكم العباسي • ومن الطبيعي ان ينضم اليها كذلك قطاع الطرق واللصوص طمعا في الغنائم والكسب المادي[١٨] ، وهربا من مطاردة السلطة • كما مالأه بعض القواد والحكام المحليين بدوافع شخصية ، فقد شايعه محمد بن البعيث وعصمة الكردي ومنكجور القرتماتي ، وكاتبه حاتم بن هرثمة بن أعين في اذربيجان وهون له الأمر هناك فتحرك بابك وغلب على اذربيجان[١٩] • كما كاتبه مازيار يحرضه ويعرض عليه النصرة[٢٠] •

اعلان الخروج على الدولة :

لقد استطاع بابك خلال فترة قصيرة تنظيم اتباعه واعدادهم للحرب، ويقول المسعودي انهم كانوا مائتي ألف[٢١] • بحيث استطاع أن يعلن الانتفاض على الحكم العـــربي الاسلامي المتمثل بالخلافة العباسية ، في صيف سنة ٢٠١[٢٢] في اران والبيلقان واذربيجان ،

---

(١٥) الاخبار الطوال/٤٩٦ •
(١٦) الفهرست/٤٩٤ •
(١٧) الطبري ٩/٥٤ •
(١٨) التنبيه والاشراف/٣٠٧ •
(١٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٢ •
(٢٠) الطبري ٩/٨١ ، والكامل ٦/٤٩٦ •
(٢١) التنبيه والاشراف/٣٠٧ •
(٢٢) الطبري ٩/١١ •

واتخذ مدينة البذ[٢٣] مركزا حربيا لـــه • واخذ يزحف منها على المناطق المجاورة • ومن العوامل المهمة التي ساعدت بابك في حركته معرفتـــه واصحابه بطبيعة اراضي المناطـــق التي انتشرت فيها الخرمية ، من حيث ممراتها ومكامنها، وقيامهم بتخريب مايستولون عليه من القـــلاع والحصون • وقد اطلق على أصـــحاب بابك من الخرمية اسم «المحمرة»[٢٤] • وسبب هـــذه التسمية انهم صبغوا ثيابهم بالحمرة التي اتخذوها شعارا لهم[٢٥] •

لقد استطاع بابك ان ينشر حركته في أقاليم ومدن عديدة مثل اصبهان وهمذان والري وسائر أراضي العجم[٢٦] • ودخل في سنة ٢١٨هـ وهي السنة التي تولى فيهـــا المعتصم بالله الخلافة ، جماعة كبيرة من أهل الجبال في الدعوة الخرميـــة وتجمعوا وعسكروا في همذان[٢٧] • وكان هـــدف بابـــك ان يزيل ملكـــا ويقلب ملة ويبدلها[٢٨] • كما أراد أن يقيم ملة المجوس[٢٩] • والواقع ان خرمية بابك استهدفت ازالة الحكم العربي واستبدال الخرمية المجوسية به • فهي حركة دينيـــة سياسية معا تسعى الى ادالـــة دولة العرب ودينهم ، وذلك بالقضاء على الدولة العربية أو الاستقلال عنها •

ورغم ما كانت تنطوي عليه الحركة الخرمية من خطر جسيم بات يهدد الدولة العربية والدين الاسلامي ، فان الحرب الاهلية

---

(٢٣) البذ : بتشديد الذال ، كورة بين اذربيجان وايران ، كان بها مخرج بابك الخرمي . ويقال : وفيها تعقد اعلام المحمـــرة المعروفين بالخرمية ، وفيها يتوقعون المهدي ــ معجم البلدان ٣٦١/١ •

(٢٤) تاريخ اليعقوبي ٤٧٢/٢ •

(٢٥) المنتظم ١١٤/٥ •

(٢٦) التنبيه والاشراف /٣٠٦ •

(٢٧) الطبري ٦٦٧/٨ •

(٢٨) مروج الذهب ٥٨/٤ ، وللمسعودي في كتابه التنبيه والاشراف/٣٠٦ قول مماثل اذ يقول ان ما ينتظره الجميع في المستقبل من الزمان الآتي من عودة الملك فيهم . ومن خلق الاسلام منهم •

(٢٩) شذرات الذهب ٣٨٤/١ •

التي قامت بين الخليفة محمد الامين وأخيه المأمون قسمت الجيش على نفسه مما اضعفه ولاشك ، واشغلت الدولة عن الاهتمام بشأن هذه الحركة مدة من الزمن ، مما ساعدها على التوسع والانتشار ۰ وكان من المفروض ان يبادر المأمون بعد أن تربع على عرش الخلافة الى مجابهة هذا الخطر ۰ الا انه لم يتخذ أي اجراء بشأنه حتى سنة ۲۰٤هـ عندما عاد الى بغداد ، وذلك مما يدعو الى الاستغراب ، ولا ندري ما اذا كان المأمون وهـــو في مرو على علم بامرها ولم يعرها الأهمية الكافية استصغارا لشأنها ، أم لم يكن يعلم عنها شيئا ، لان وزيره الفارسي الفضل بن سهـــل كان يحجب عنه بعض الاخبار والحقائق ويموه عليه بعضها ۰ على ان تستر الفضل بن سهل على الحركة الخرمية وعدم اخبار المأمون بها مما يدعو الى التساؤل ۰ هل كان ذلك ناشئا عن عدم اهتمامه بها وانه اعتبرها مجرد حركة دينية محلية تسعى في أحياء المزدكيـــة القديمة ، فلم يلتفت الى خطرها السياسي ، أم انه أراد أن يشجعها ويتيح لها فرصة التوسع والانتشار لانها تستهدف اعادة الحكم الفارسي ؟ ولعل مما يؤيد الاحتمال الثاني ما كان يهدف اليه الفضل نفسه من نقل الدولة الى الفرس ۰ فقد قال له القائد العربي نعيم بن حازم بحضرة المأمون : انك تريد ان تزيل الملك عن بني العبـــاس الى ولد علي ثم تحتال عليهم ، فتصير الملك كسرويا(٣٠) ۰ كمـــا ان هرثمة بن أعين أكبر قواد المأمون من العرب كان قد شعر بخطـــر سياسة الفضل وتبين أهدافه البعيدة ، فجاء الى المأمون مغاضبا وانتقد تصرفات الفضل وسياسته ، وسماه المجوسي(٣١) ۰

ويلاحظ كذلك ان طاهر بن الحسين وهو فارسي الأصل أيضا ، قد تولى امارة خراسان وما جاورها من ولايات المشرق منذ ان وصل المأمون الى بغداد ، واستمر في منصبه الى ان مات في سنة ۲۰۷هـ لم

---

(۳۰) الوزراء والكتاب/۳۱۳ ۰

(۳۱) نفس المصدر/۳۱۷ ۰

يقم بأي اجراء ضد استفحال أمر الخرمية ، لاسيما وانها امتدت الى امهات مدن ولايات المشرق • فهل كان ذلك منه تشجيعا لها ، أو عدم اهتمام واستهانة بأمرها ؟ على ان الدينوري ينفرد بخبر يقول فيه ان المأمون لما اتصل به خبر بابك وجه اليه طاهر بن الحسين في جيش عظيم ، فراقى البذ وقد عظم أمر بابك وتهيبه الناس . فحاربوه فلم يقدروا عليه ، بل انه فض جمعهم[٣٢] •

ومهما كان الامر فان أحد ولاة المأمون وهو يحيى بن معاذ قد اشتبك ببعض قوات بابك في سنة ٢٠٤هـ دون طائل[٣٣] • ثم أخذ المأمون بعد ذلك يوجه الحملات لحرب بابك بين حين واخر حتى سنة ٢١٤هـ • وكانت الغلبة فيها لاتباع بابك اذ هزموا تلك الحملات وأسروا بعضها وقتلوا بعض قادتها • ويظهر مما يذكره اليعقوبي انهم هزموا عددا من قواد المأمون كانوا قد توجهوا لحربهم[٣٤] • أما في السنوات التي تلت ذلك فقد انشغل المأمون في رد هجمات الروم على الثغور العربية ، وغزو ديارهم ، ولـــم يستطع توجيه حملات أخرى لحرب الخرمية ، حتى توفي وهو متألم لعدم استطاعته القضاء على الحركة المذكورة • مما دعاه ان يؤكد على أخيه أبي اسحاق في وصيته بأن يوجه أكفأ قواده واحزمهم لحرب بابك وان لا يالو جهدا في القضاء عليه ، حتى وان تطلب الأمر خروجه بنفسه لحربه[٣٥] •

المعتصم بالله وتمرد بابك :

وهكذا اصبحت حركة بابك وتمـــرده أهم خطر يهدد الدولة العربية واجهه المعتصم بالله عند توليه الخلافة • اذ كانت الحملات التي وجهت اليه في عهد المأمون قد باءت بالفشل • ومن الواضح ان انقسام الجيش العربي في الحرب الاهلية ، وانشغاله بعدها باخماد

---

(٣٢) الأخبار الطوال/٣٣٧ •
(٣٣) الكامل ٦/٣٥٨ •
(٣٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٦٣ •
(٣٥) الطبري ٨/٦٤٩ •

الاضطرابات المتعاقبة في مصر ، وتمرد الزط في بطائح العراق ، ومقارعة الروم في الثغور العربيـــة مما انهكه وجعله دون القوة المطلوبة لمجابهة الحركة الخرمية ، مما اتاح الفرصة لبابك واتباعه ان يعدوا أنفسهم ، بل ويكسبوا بعض المعارك الحربية . ولذلك فقد أولى المعتصم بالله هذا الامر اهتماما بالغا . وقد يكون لوصية أخيه بشأنه أثر مهم في هذا الاهتمـــام . حتى انه لم يكن له شأن يشغله ، ولم تنصرف همته الى غيره(٣٦) . وقد انتهج خطة عسكرية بارعة تضمن هزيمة بابك واتباعه . وتقوم هذه الخطة على توجيه خيرة قواد الدولة وأكفأهم لمحاربتـــه ، واستمالة بعض الموالين له وضمان تأييدهم الجيوش العربية التي توجه الى حربه . واصلاح القلاع والحصون التي خربها اتباعه ، وشحنها بالرجال . فقد وجه الخليفة القائد أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الى اردبيل وأمره باصلاح القلاع والحصون المخربة فيما بين زنجان واردبيل ، وبناء الحصون الضرورية ، وتخصيص القوات الكافية لها ولحفظ الطرق التي ستستخدم لايصال الميرة والمؤن للجيوش المقاتلة(٣٧) .

ولما علم بابك بالاعمال التي يقوم بها أبو سعيد ادرك خطرها عليه . فوجه اليه سرية لتشغله عن انجاز ما كلف به . فاعترضها أبو سعيد بعـــدد وافر من جنوده فقتل أكثر أفرادهـــا وأسر منهم جماعة . فكانت هذه هزيمة أخرى تحـــل باصحاب بابك في عهد المعتصم بالله(٣٨) . فقد كان ثمة انتصار اخر سبق أن أحرزه الجيش العربي وذلك عندما تجمع اتباع بابك وعسكروا في همذان سنة ٢١٨هـ وقطعوا الطريق . فوجه اليهم المعتصم بالله القائد هاشم بن بايتجور فلم يتمكن منهم(٣٩) . فاتبعه باسحاق بن ابراهيم المصعبي

---

(٣٦) الأخبار الطوال/٣٢٩ .
(٣٧) الطبري ٩/١١ .
(٣٨) نفس المصدر/١٣ .
(٣٩) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧١ .

الذي تمكن من سحقهم ، وقتل منهـم مقتلة عظيمة[٤٠] • ويقدر الطبري عدد من قتل من الخرمية بستين ألفا ، ثم يعود فيقول انه قتل منهم نحوا من مائة ألف سوى النساء والصبيان[٤١] • ويقال ان الخرمية كانوا تواعدوا الى موضع علم به اسحاق فكمن لهم فيه ، وكل من جاء منهم قتل وحزت اذنه ، حتى انه وجه الى الخليفه بستين الف اذن[٤٢] • وقد مدح أبـو تمام الطائي اسحاق المصعبي واشاد بايقاعه باتباع بابك بقصيدة جاء فيها قوله[٤٣] .

لاسحاق بن ابراهيـم كف	كفت عاقبة نسوء المرزمين
ومجد لم يدعه الجود حتى	أقام مناوئا للفرقديـن
ازلت الشك عنهم يوم رانت	ضلالتهم عليهـم اي رين
لقيتهم بحلاب المنايـا	بعيد الرز نائي الحجرتين
فاضحوا بعد عـز واختيال	وهم عبـر لأهل المشرقين
رددت الدين وهو قرير عين	بها والكفر وهو سخين عين

وطارد اسحاق فلول المنهزمين حتى حدود بلاد الروم حيث التجأ قسم منهم اليها • وكان لهذه الهزيمة التي حلت بالخرمية في همذان تاثير كبير في اضعـاف شأنهم في اقليم الجبـال • وتضييق رقعة انتشارهم بحيث حصروا في اقليم اذربيجان ومـا حوله • وكانت نكسة ثالثة حلت ببابك ، فقد نزل احـد قواده مع اتباعه في قلعة الشاهي الحصـينة ، وكان صاحبها محمد بن البعيث مصـالحا للخرمية ، الا انه فتك باتباع القائد وأسره وبعث به الى الخليفة

(٤٠) نفس المصدر ، والطبري ٦٦٧/٨ـ٦٦٨ •
(٤١) الطبري ٨/٩ •
(٤٢) ديوان ابي تمام ٢٩٧/٣ •
(٤٣) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ٢٩٧/٣ـ٣٠٧ •

بسامرا ، فسـاله عن بلاد بابك فاعلمه بطرقهـــا ووجوه الحرب فيها[٤٤] ٠

على ان بابك ، رغم هذه الخسائر ، كان يحتفظ بالقسم الاكبر من جيشه في منطقة اران ، بحيث يسـتطيع أن يزج به في ميدان المعركة لمواجهة الجيش الذي يوجهه الخليفة لحربه ٠

توجيه الأفشين لحرب بابك :

عقد المعتصم بالله في أوائل جمادي الآخرة سنة ٢٢٠هـ لأكبر قواده الافشين حيدر بن كاوس ، الأمارة على الجبال ووجه به لحرب بابك[٤٥] ٠ فنزل في برزند من نواحي تفليس ، وعسكر بها - ووزع قواده وامرهم باصلاح الحصون ، وحفر الخنادق ، بحيث امن سلامة تموين جيشه ، ثم الحق به الخليفة عددا من القواد الاخرين ٠ وقد استطاعت حملة الافشين ان تلحق عددا من الهزائم بجيوش بابك وتكبدها خسائر جسيمة في الرجال في عـــدة معارك ٠ ومما ساعد الافشين على الاحتفاظ بانتصاراته ومطاردة الخرمية ، الامدادات المستمرة من الجند والأموال التي كان الخليفة يبعث بها بصورة متلاحقة ٠ فقد بعث اليه بعد أن أخذت جيوشه مواقعها ، بغا الكبير ومعه مال للجند وللنفقات الاخرى كمـــا وجه اليه في سنة ٢٢٢هـ مددا من الجند يقوده القائد جعفر الخياط ٠ وبعث اليه مع القائد ايتاخ ثلاثين ألف ألف درهم ، فاوصلها اليه وعاد ٠

وكان الافشين يحسن معاملة جواسيس بابك عندما يقعون في يده ويجزل عطاءهم ، ويحصل منهم على معلومات عن العدو من حيث مواضعه وعدد قواته ، وتحصيناته ومكامنه ٠ كما استطاع ان يدفع

---

(٤٤) الطبري ٩/١٢ ٠

(٤٥) نفس المصدر/١١ ٠

جنوده الى الاستبسال في القتال بمـــا بذله لهم من بذر الاموال ، والاسورة والاطواق التي كان يقلد بها قواده ، ووعوده لهم بزيادة أرزاقهم ، وبانه سيكتب باســماء المستبسلين الى الخليفة ليجزل عطاءهم(٤٦) ·

كانت خطة الافشين في محاربة الخرمية تقوم على مطاولتهم في الحرب وتضييق الخناق عليهم تدريجيا ، وقطع سبل مواصلاتهم ، مستهدفا حصرهم في عقر دارهم ، ومن ثم الانقضاض عليهم · وأول عمل قام به ، كما سبق ان أشرنا ، أنه آمن سبل مواصلاته بان وزع قواده على مواقــع معينة تؤمن حراسة قوافل تموينـــه وامدادات جيشه ، وأمرهم بتحصينها · كما انه انتهج سياسة الحذر الشديد من مباغتة اتباع بابك وكمائنهم · وكان يجعل نصف جيشه على أهبة الاستعداد دائما ، عملا بتوجيه الخليفة الذي كتب اليه بان يجعل الناس نوائب ، كراديس تقف على ظهور الخيل ، كما يدور العسكر بالليل ، فبعض القوم معسكرون وبعض وقوف على دوابهم ، كما يدور العسكر بالليل والنهار مخافة البيات حتى اذا ما دهمهم امر كان الناس على تعبية(٤٧) ·

لقد اشتبك الجيش بالخرمية في عدد من المعارك انتصر فيها عليهم ، قبل معركة البذ الفاصلة · ولعـــل أهم هذه المعارك التي انهكت الخرمية ، معركة أرشق ومعركة هشتادسر · وتعتبر معركة أرشق أولى المعارك الكبيرة التي انتصر فيها الافشين · وقد أبلى فيها المتطوعون وعلى رأسهم القائد أبو دلف بـــلاء حسنا · فقد وصل القائد بغا الكبير الى اردبيل وهو يحمل أموالا الى الافشين · فعلم به بابك واستعد بكمائن نصبها لقطع الطـــريق عليه والاستيلاء على الاموال · فبلغ ذلك الافشين فلجأ الى الخداع والتضليل ، فأمر بغا بأن يسير بقافلته حتى حصن النهر ثم يعود بالاموال الى أردبيل ،

---

(٤٦) الطبري ٩/٤٠ـ٤١ ·

(٤٧) نفس المصدر/٤١ ·

ويترك القافلة تسير نحو برزند ، مقر الافشين • فلما انقض بابك على القافلة وتمكن منها لم يجد الاموال معها • فظن ان الاموال قد وصلت الى حصن أرشق فتوجه بقواته لمحاصرة الحصن المذكور ، وطلب استسلام حاميته • الا ان الافشين الذي توقع هجوم بابك على حصن ارشق ، كان قد خرج بحملة نحو الحصن المشار اليه وفاجأ قوات بابك وأحاط بها وقضى عليها • ولكن بابك استطاع مع نفر قليل من اتباعه الافلات والهرب الى موقان ، وما لبث ان وصل الى معقله في مدينة البذ(٤٨) •

أما معركة هشتادسر فقد خطط لهـــا الافشين بحيث تكون المعركة الحاسمة اذا تمكن فيهـــا من جيش الخرمية • فوجه ثلاثة جيوش نحو معقل بابك ، وذلك بان يسير الافشين نفسه من برزند ، ويسير محمد بن يوسف الطـــائي من خش ، ويتوجه بغا الكبير من خنادقه قرب جبل هشتادسر • الا ان تسرع بغـــا في دخول المعركة وهزيمته فيها حال دون تحقيق هدف الافشين ، رغم انتصاره على بابك واتباعه في هذه المعركة • لان بابك استطاع الفرار والعودة الى معقله والتحصن فيه أيضا(٤٩) •

معركة البذ الفاصلة ونهاية بابك :

بادرت قوات الجيش العربي الى محاصرة مدينة البذ ، فوزع الافشين قواته حولها منتظرا الفرصة المواتية للهجوم • الا ان قسما من الجيش بقيادة جعفر الخياط وبعض جيش أبي دلف من المطوعة، اشتبكوا باتبـــاع بابك وتغلبوا عليهم ، وأوشـــكوا ان يدخلوا المدينة • وكان ذلك بدون اذن من الافشـــين • فاستدعاهم وانكر عليهم قيامهم بالهجوم قبل الاوان • واستمر مقيما في موضعه حتى

---

(٤٨) الطبري ٩/١٤ــ١٦ •
(٤٩) نفس المصدر/٢٣ــ٢٤ •

سئم الجند ولاسيما المطوعة منهم ، فاتهموه بالتهاون ، وانه لو كان أمرهم عند هجومهم السابق لدخلوا المدينة . فاضطر الافشين ان يامر بالتجهيز والتهيوء للهجوم العام ، ووزع المواقع على قواده ، ثم أمر بالزحف صوب المدينة . فتقدم قسم من الجيش ووصل أسوار المدينة واخذ يقاتل عندها . الا ان القوات المرابطة في المدينة من الخرمية استطاعت ان تصد هذا الهجوم .

أعاد الافشين ترتيب قواته وازمع على تطويق المدينة ليلا ، فوزع رجاله بشكل يؤمن ذلك ، وأمرهم بالاستيلاء أولا على التل الذي تسيطر عليه ثلة من الخرمية بقيادة آذين أحد كبار قواد بابك . وكان بابك قد امره ان يحصن هذا التل المشرف على المدينة ، وجعل معه ثلاثة آلاف رجل للدفاع عنه(٥٠) . الا ان القوة التي وجهها الافشين اجبرت جيش آذين على النزول من التل ، فنشبت معركة كانت فاصلة اذ انتصر الجيش العربي فيها ، مما جعل الاستيلاء على المدينة وشيكا . ويظهر ان هذه المعركة كانت آخر ما استطاعت القوات الخرمية ان تقاتل فيها . لان بابك تقدم على أثرها يطلب الامان من الافشين ويتعهد بتقديم الرهائن والضمانات لاستسلامه(٥١) . محاولا الحفاظ على معقله وعلى ما بقي من جيشه . ولكن قبل ان تتم المفاوضة حول الاستسلام وشروطه ، جاء الخبر ان قسما من الجيش قد دخل مدينة البذ . وكان بابك قد كمن في قصوره الاربعة في المدينة عددا من أشداء رجاله يقدرون بستمائة رجل(٥٢) . فخرجوا للقتال ، فانتهز بابك الفرصة وفر هاربا ومعه أهله وبعض اتباعه ، بعد أن رأى قواته قد قضي عليها . فسقطت المدينة ، واحرقها الجيش وهدم قصورها وقتل من فيها من الخرمية ،

---

(٥٠) الاخبار الطوال/٣٣٩ .
(٥١) الطبري ٩/٤٤ .
(٥٢) الطبري ٩/٤٤ . والعيون والحدائق ٣/٣٨٦ ، ويقدر عددهم باربعة الاف وستمائة رجل .

وأسر من بقي من أولاد بابك وعياله . وكان سقوط مدينة البذ في يوم الجمعة لعشر خلون من شهر رمضان سنة ٢٢٢هـ(٥٣) .

سار بابك فيمن معه يريد الهرب الى ارمينية ، فكتب الافشين الى بطارقتها يأمرهم بحفظ نواحيهم وان لا يتركوا احدا يمر بهم الا اخذوه وعرفوه به . وقد علم الافشين من جواسيسه بموضع بابك ، وكان في واد كثير الاشجار طرفـــه الاول باذربيجان وطرفه الاخر بارمينية ، فأمر بمحاصرة ذلك الوادي . ولما ورد كتاب الخليفة بالامان لبابك كلف الافشين بعض من كان استأمن اليه من أصحاب بابك بان يذهبوا بالكتاب اليه . الا ان بابك رفض الامان الذي عرض عليه(٥٤) . ويقال انه احرق كتاب الامان وشتم الخليفة(٥٥) . وعندما أحس بابك بان جيش الافشين يحيط به ركب هو ومن معه وسار مستخفيا حتى استطاع سهل بن سنباط أحد بطارقة أرمينية ان يحتال عليه ويأسره . وكان الافشين قد جعل لمن جاء به حيا الفي ألف درهم ، ولمن جاء برأسه ألف ألف درهم(٥٦) . فجاء القائد أبو سعيد على رأس قوة من الجيش وقبض عليه وجاء به الى الافشين(٥٧) .

وقد انقذ جيش الافشين من أسرى بابك نساء كثيرات وصبيان ، وجعل لهم حظائر اسكنهم فيها وأجرى لهم الخبز وأمرهم أن يكتبوا الى أوليائهم حيث كانوا . فجاء الناس واسترجعوا كثيرا منهم(٥٨) .

---

(٥٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٤ ، والعبر ١/٣٨٤ .
(٥٤) الطبري ٩/٤٥-٤٦ .
(٥٥) العبر ١/٣٨٤ .
(٥٦) العبر ١/٣٨٤ . وفي النجوم ان الخليفة المعتصم بالله قد جعل لمن جاء ببابك حيا الفي الف درهم ، ولمن جاء برأسه ألف ألف درهم ، فاعطى المعتصم بالله ابن سنباط الفي الف درهم وحط عنه خراج عشرين سنة – ٢/٢٧٣ .
(٥٧) تفصيلات القبض على الافشين في الطبري ٩/٤٧-٥٠ ، وفي مروج الذهب ٤/٥٦ ، وفي الكامل ٦/٤٧٢-٤٧٤ .
(٥٨) الطبري ٩/٥٠ ، وجاء في تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٤ ان عدد الاسرى الذين استنقذوا عند سقوط مدينة البذ ، كان سبعة الاف وستمائة .

وكان بابك أرسل أخاه عبدالله الى حصن اسطفانوس ، اذ قال لسنباط ليس يستقيم أن أكون أنا وأخي في موضع واحد ، فلعله أن يعثر باحدنا فيبقى الاخر[٥٩] • فارسل الافشين الى عيسى بن يوسف بن اسطفانوس يطلب منه عبدالله فانفذه اليه • فلما صار في يده حبسه مع أخيه ووكل بهما حرسا يحافظ عليهما • وكتب الى الخليفة بالفتح واطلق الحمام بذلك[٦٠] • فأمره بالقدوم بهما عليه • فقدم بهما في أوائل صفر سنة ٢٢٣هـ ولما صار قريبا من سامرا تلقاه هارون بن المعتصم بالله وآخرون من عائلة الخليفة ، وانزل الافشين بابك عنده في قصره بالمطيرة •

وفي اليوم التالي قعد المعتصم بالله لبابك ، واصطف الناس من باب العامة الى المطيرة • وأمر الخليفة ان يشهر ببابك وان يراه الناس ، فحمل على فيل • فقال الوزير محمد بن عبدالملك الزيات[٦١] :

قد خضب الفيل كعادته ... يحمل شيطان خراسان
والفيل لا تخضب أعضاؤه ... الا لذي شأن من الشان

فاستشرفه الناس حتى ادخل الى دار العامة أمام أمير المؤمنين ، فأمر بقتله • ويصف المسعودي كيفية قتله وصفا دقيقا • اذ جرد من الزينة وقطعت يداه ورجلاه ، ثم طعن بالسيف في قلبه ، وجز لسانه ، ثم صلبه على خشبة عالية ، وحمل رأسه الى بغداد ونصب على الجسر ، ثم حمل الى خراسان ليطاف به في كل مدينة من مدنها ، لما كان في نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه[٦٢] • ثم أمر

---

(٥٩) الطبري ٤٨/٩ •
(٦٠) مروج الذهب ٥٦/٤ •
(٦١) الطبري ٥٣/٩ ، والكامل ٤٧٧/٦ •
(٦٢) مروج الذهب ٥٨/٤ •

يحمل أخيه الى اسحاق بن ابراهيم المصعبي ببغداد وأمره أن يفعل به ما فعل بأخيه بابك، وصلب في الجانب الشرقي بين الجسرين(٦٣)٠

وكان المعتصم بالله يجزي الافشين في أثناء حربه مع بابك، سوى الارزاق والانزال والمعاون، في كل يوم يركب فيه عشرة آلاف درهم، وفي كل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم(٦٤) ٠ كما كان كثير الاهتمام بسير الحرب دائم الاتصال بقيادتها ٠ ولشدة اهتمامه باخباره ولفساد الطريق بالثلج وغيره رتب بريدا خاصا ليوافيه بالاخبار يوميا ٠ فجعل من سامرا الى حلوان خيلا مضمرة، على رأس كل فرسخ فرسا معه مجر مرتب. فكان يركض بالخبر ركضا حتى يؤديه الى الذي يليه يدا بيد ٠ وكذلك رتب الخيول بعد حلوان الى اذربيجان، فكانت يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ٠ كما اقام دبادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار فيشعروا اذا وصلهم الخبر، لبتهيأ الذي يليهم. وبذا كان البريد يصل من عسكر الافشين الى سامرا في أربعة أيام أو أقل(٦٥) ٠

لقد ارتفعت منزلة الافشين بعد انتصاره على بابك وقضائه على حركته التي شغلت الدولة قرابة اثنتين وعشرين سنة ٠ فتوجه المعتصم بالله وألبسه وشاحين بالجوهر، ووصله بعشرين ألف ألف درهم، منها عشرة آلاف ألف درهم صلة، وعشرة آلاف ألف درهم يفرقها في عسكره. وعقد له على السند(٦٦) ٠ وفي ذلك يقول اسحاق بن خلف الشاعر في قصيدته التي مدح بها المعتصم بالله، وأشاد بالافشين(٦٧) :

---

(٦٣) الطبري ٩/٥٤ ٠
(٦٤) نفس المصدر ٠
(٦٥) الطبري ٩/٥٢ ٠
(٦٦) الطبري ٩/٥٥، والكامل ٦/٤٧٨ وفيه انه وصله بعشرين الف ألف درهم وعشرة الاف الف درهم يفرقها في عسكره ٠
(٦٧) الاخبار الطوال /٣٤١ ٠

ماغبت عن حرب تحرق نارها بالبذ كنت هنا وانت هناكا

عـزت بافشين حسامك امة والدين متمسك به استمساكا

لما اتاك ببابـــك توجتـــه واحق من أضحى له تاجاكا

وقام في مجلس المعتصم بالله بعض الخطباء فتكلموا ، وقالت الشعراء • ومن جملة من قام ابراهيم بن المهدي فقال شعرا منه(٦٨):

يا أمـــين الله ان الحمد لله كثـــيرا

هكذا النصر فلازال لك النصر نصيرا

وعلى الأعداء أعديت من الله ظهيرا

وهنيئا هيأ الله لـــك الفتح الخطيرا

فهو فتح لم ير الناس له فتحا نظيرا

ومع ما كان يتمتع به الافشين من كفاية عسكرية ، وشجاعة فائقة ، فان نجاحـــه في القضاء على بابك وحركته لـــم يتحقق الا بتوجيهات المعتصم بالله ، ومتابعته اليوميـــة اخبار الحرب وسير المعارك ، وانفاقه الاموال الطائلة في سبيل ذلك ، بحيث وفر له كل مستلزمات النجاح للحملة العسكرية التي قادها لحرب الخرمية •

لقد حفظ لنا الطبري احصائية بخسائر كل من الدولة والحركة الخرمية ، اذ يقول : وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة انسان • وغلب من القواد يحي بن معاذ ، وعيسى بن محمد بن أبي خالد ، وأحمد بن الجنيد وقداسره ، وزريق بن علي بن صدقة ، ومحمد بن حميد الطوسي ، وابراهيم بن الليث • وأسر مع بابك ثلاثة آلاف وثلثمائة وتسعة اناسي ، واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهن سبعة

---

(٦٨) مروج الذهب ٤/٥٨ـ٥٩ •

آلاف وستمائة · وعدة من صار في يد الأفشين من بني بابك سبعة عشر رجلا ومن البنات والكنات ثلاث وعشرون امرأة(٦٩) · ويقدر المسعودي مجموع من قتلهم بابك في اثنتين وعشرين سنة من جيوش المأمون والمعتصم بالله من الامراء والقواد وغيرهم من سائر طبقات الناس خمسمائة ألف على أقل تقدير(٧٠)· وما يذكره ابن خلدون عن عدد من قتل ومن أسر ومن أنقـــذ من الاسرى لا يختلف عما جاء في الطبري(٧١) ، وأحسبه قد نقل ذلك عنه · الا اننا اذا أخذنا بنظر الاعتبار عدد المتحاربين من الطرفين ونوع الاسلحة المستخدمة آنذاك وطبيعة الحرب التي لم تكن معاركها متواصلة ، وان المعارك كانت موضعية ، فان في تقدير المسعودي مبالغة ، حتى وان اضيف الى قتلى المعارك ما يقتل من السكان الاخرين · وان تقدير الطبري الذي أيده ابن خلدون أقرب الى الصواب ·

وقد انفق المعتصم بالله على حرب بابك حتى تم القضاء عليه مبالغ طائلة من الاموال · فقد تذاكر بعض الكتاب في مقدار تلك المبالغ التي انفقت ، الا انهـــم لم يتهيأ لهم حصرهـــا ، فقدروها بخمسمائة وقر من الدراهم(٧٢) ·

٢ ـ مؤامرة العباس بن المأمون :

واجه المعتصم بالله وهو يحارب الروم وقد اتم فتح عمورية ، مؤامرة استهدفت اغتياله مع عدد من كبار قواده ، لاسيما الاتراك منهم ، ومبايعة العباس بن المأمون بالخلافة · وكان العباس نفسه يتزعم هذه المؤامرة ويؤيده عدد من القواد · وكان لهذه المؤامرة ،

---

(٦٩) الطبري ٩/٥٤ـ٥٥ ·
(٧٠) التنبيه والاشراف /٣٠٥ ·
(٧١) تاريخ ابن خلدون ٣/٥٥٦ ·
(٧٢) العيون والحدائق ٣/٣٨٩ ·

اضافة الى السبب المباشر لها ، أسباب أخرى غير مباشرة كانت تدفع المتآمرين لتنفيذ مؤامرتهم • ويمكن حصر الاسباب غير المباشرة بأمرين مهمين ، أولهما طمع العباس بالخلافة رغم انه كان قد بايع عمه المعتصم بالله • وسبق ان رأينا ان مبايعته كانت عن اضطرار وكراهية • فقد سبق لمؤيديه ان شغبوا لما بويع لأبي اسحاق غداة وفاة المأمون وأرادوا العباس للخلافة ونادوه باسمها • مما اضطر المعتصم بالله حينذاك الى ان يستدعيه ليعلن لأولئك المعارضين انه بايع عمه ويطلب اليهم ان يقتدوا بـه ، ويخلدوا الى السكينة • وعندما عاد المعتصم بالله الى مدينة السلام استصحب معه العباس لكي لا يتيح له فرصة للاتصال بمؤيديه • ولكن يظهر انه كانت له رغم ذلك علاقات واتصالات ببعض مؤيديه من القواد • وثانيهما ان استفحال سيطرة القـواد الاتراك وازدياد نفوذهـم على الخلافة والجيش ، واستكانة المعتصم بـالله الى ولائهم جعلهم يستأثرون بالمراكز المهمة في الجيش وحصر المغانـم بهم • مما اثار حفيظة القواد العرب ، والخراسانيين على قلتهم ، ومن شايعهم من الجند • وكانوا لا يفتأون يبدون تذمرهم من تزايد نفوذ الاتراك في الجيش والدولة •

أما السبب المباشر فقد نشأ عندما وزع الخليفة كبار قواده على مواقعهم في حملته على بـلاد الروم ، وعين صلاحيات كـل منهم في الشؤون المالية والادارية • فاطلق يـد الافشين والقادة الاتراك الاخرين مثل اشناس وايتاخ في الانفاق ، واناط بهم القيادات المهمة الفعالة • مما جعل بعض القواد الاخرين ينقمون من ذلك واعتبروه استصغارا لشأنهم • وكان القائد العربي عجيف بن عنبسة الذي سبق ان قضى على تمرد الزط ، على رأس هؤلاء الناقمين • اذ اعتقد ان الخليفـة يستصغر شأنه ويستقصر أمره ، فلم يطلق يـده في النفقات كما اطلق يد الافشين(٧٣) • فاشتكى ذلك الى العباس الذي

(٧٣) الطبري ٧١/٩ •

كان في الحملة مع عمه ، ولامه على تفريطه في المبايعة وشجعه على ملافاة ما كان منه ، واكد له ان هناك عددا من القواد ممن ينحازون الى جانبه ويؤيدون مبايعته دون عمـــه • فلقي ذلك استجابة من العباس ، واتفقا على ان يتولى تنظيم الدعوة الى العباس الحارث السمرقندي الذي يصـــفه الطبري بانه كان رجلا أديبـــا له عقل ومداراة(٧٤) • أي انه كان سياسيا بليغـــا • وكان العباس يأنس بالحارث ويطمئن اليـــه ، فصيره سفيره الى القواد الناقمـــين على الخليفة •

وقد استطاع الحارث ببلاغته ودهائه ان يستميل جماعة من القواد الى مبايعة العباس - وكان من بين من بايعه بعض خواص المعتصم بالله • وسمي لكل رجل من رجال الخليفة المخلصين رجلا من ثقات من بايعوه وقال لهم : اذا اظهرنا أمرنا فليثب كل منكم بالقائد الذي كلف به • فوكل من بايعه من خواص الخليفة بقتله ، ومن بايعه من خـــواص القواد الكبار كالافشين وأشنـــاس وغيرهما بقتلهم(٧٥) - أي ان المؤامرة دبرت على أساس اغتنام الفرصة المواتية لاغتيال المعتصم بالله وكبار قواده ممن لـــم يشتركوا في المؤامرة ، ومبايعة العباس بالخلافـــة • ويلاحظ ان التامر بـــدأ قبل تحرك الجيش من سامرا الى بلاد الروم • اذ كان المتحمسون لتنفيذ المؤامرة أرادوا الوثوب بالمعتصم بالله عندما دخل الدرب في قلة من اتباعه وهو في طريقه الى بلاد الروم ، الا ان العباس أبى ذلك ، وقال : لا أفسد هذه الغزاة(٧٦) • ثم حاولوا ثانيـــة عندما تم فتح عمورية وانشغل الجند بالغنائم ، ولكن العباس ارتأى تأجيل الأمر حتى

---

(٧٤) نفس المصدر . وتأريخ ابن خلدون ٣/٥٦١ وفيه ان الحارث السمرقندي من بطانة عجيف بن عنبسة •
(٧٥) الطبري ٩/٧١ ، وتجارب الامم ٦/٤٩٥ . والعيون والحدائق ٣/٣٩٦ •
(٧٦) الطبري ٩/٧٢ . وتجارب الامم ٦/٤٩٦ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٦ •

عودة الجيش ومرور المعتصم بالله بالدرب خاليا من اتباعه ، كما حصل في المرة الاولى فيسهل الوثوب به وقتله[77] .

اكتشاف المؤامرة :

رغم التكتم والحرص الشديد اللذين التزم بهما الحارث السمرقندي ، فقد تسربت اخبار المؤامرة الى بعض القواد الموالين للمعتصم بالله . اذ تقدم أحد المتآمرين وهو أحمد بن الخليل الى القائد اشناس واعلمه بان لديه معلومات مهمة عن مؤامرة دبرت ضد الخليفة وانه لا يخبر بها احدا غير أمير المؤمنين نفسه . الا ان اشناس أرغمه على أن يدلي بمعلوماته الى شخصين يثق بهما الخليفة هما القائد أبي سعيد الثغري والكاتب احمد بن الخصيب . فأفشى اليهما أحمد بن الخليل أمر العباس والحارث السمرقندي ومن والاهما من القواد . ويبدو ان ما دفع أحمد بن الخليل الى أن يفشي سر المؤامرة هو ان اشناس كان قد ازعجته بعض تصرفاته وتصرفات زميله عمرو الفرغاني فقبض عليهما وجعلهما تحت انظاره . فتصور ابن الخليل ان التآمر قد انكشف فحاول ان ينجو بنفسه باعترافه على الاخرين . وعندما علم المعتصم بالله بالأمر تريث حتى تأكد من صحة الخبر لكثرة عدد القواد المتهمين وبينهم عدد من خواص قواده ورجاله . فقبض على الحارث أولا فادلى بمعلومات تطابق لما اخبر به ابن الخليل . فلم يبق لدى الخليفة شك في صحة ما وصله من اخبار عن التآمر على حياته وحياة عدد من قواده ، فقبض على العباس واستطاع ان يستدرجه ويتعرف على القواد المتآمرين معه . وقد ذكر الطبري أسماء عدد ممن تآمروا من القواد وهم : عمرو الفرغاني ، وعجيف بن عنبسة ، والسندي بن بختاشة ،

---

(٧٧) نفس المصادر المذكورة .

والشاه بن سهل ، وهرثمة بن النضر الختلي[٧٨] • فتتبع المعتصم بالله القواد المتآمرين حتى اخذهم جميعا • وقد استخدمت وسائل مختلفة في القضاء عليهم ، بحيث لم يمض على القبض عليهم بضعة أيام حتى قتلوا جميعا ، عدا هرثمة الختلي اذ كان الافشين استوهبه من المعتصم بالله فوهبه اياه[٧٩] ، والسندي بن بختاشة الذي أمر الخليفة بـان يوهب لأبيه القائـد بختاشة لأنـه لم يشـترك في المؤامرة[٨٠] وبذلك قضي على المؤامرة وهي في مهدها • ويظهر ان المعتصم بالله تفنن في طـرق قتلهم تشفيا منهم • ويقـول صاحب العيون والحدائق : لم يزل المعتصم بـالله يقتل واحدا واحدا من القواد كل واحد منهم بفن من القتل ، الواحد بضرب العنق ، والآخر بالخنق ، والآخر بالضرب بالخشب حتى يموت[٨١] •

أما العباس فكان في قبضة الافشين ، فلما وصل المعتصم بالله منبج طلب العباس طعاما فقدم اليـه الكثير منه فأكل • ولما طلب الماء منع منه ، وادرج في مسح فمات[٨٢] • وقد وجد له مائة ألف وستة عشر ألف دينار ، فأمر الخليفة أن تفرق على الجند ويومروا ان يلعنوه • فاحصي عددهم فوجدوا ثمانين ألف مرتزق ، فدفع اليهم دينارين لكل جندي ، وتمم المعتصم بـالله المبلغ المطلوب من عنده[٨٣] • وفي هذا الخبر اشارة الى عدد من بقي من الجند الذين كانوا في الحملة مما يجعلنا نستنتج ان عدد افراد الحملة لم يكن يقل عن المائة ألف جندي • ويقدر ابن لعية عدد الفاتحين بأكثر من

---

(٧٨) الطبري ٧٨/٩ ، والعيون والحدائق ٣٩٨/٣ ويقدر عدد القواد الذين قبض عليهم بسبعين قائدا ، وتجارب الامم ٥٠١/٦-٥٠٢ وفيه : عمر الفرغاني وهرثمة بن النضر الجيلي •
(٧٩) الطبري ٧٨/٩ ، وتجارب الامم ٥٠٢/٦ •
(٨٠) الطبري ٧٨/٩ •
(٨١) العيون والحدائق ٣٩٨/٣ •
(٨٣) تاريخ اليعقوبي ٤٧٦/٢ •

ثلثمائة ألف رجل[٨٤] • ولابد انه أخذ بنظر الاعتبار في تقديره المطوعة الى جانب الجند النظامي •

وذكر ابن الاثير عن عجيف بن عنبسة الذي قتل عطشا ودفن في باعثايا قرب الموصل ، قصة تستدعى التأمل • قال : ان محمد بن علي الاسكافي ، كان يتولى اقطاع عجيف ، فرفع عليه انه خانه ، فاخذه عجيف واراد قتله ، فبال في ثيابه خوفا من عجيف ، ثم شفع فيه فحبسه • ولما قتل عجيف اطلق سراح محمد • ثم ما لبث ان تقلد عملا في نواحي الجزيرة • فخرج يوما الى تل في باعثايا فجلس يبول عليه • فخرج عليه رجل من أهل المنطقة وقال له : في هذا التل الذي تبول عليه قبر عجيف • فعجب محمد الاسكافي من بوله على نفسه خوفا من عجيف ، وبوله على قبره[٨٥] •

عاد المعتصم بالله الى سامرا سالما فسمى العباس يومئذ باللعين • وأمر بسجن أولاد المأمون فحبسهم ايتاخ في أحد سراديب داره حتى ماتوا[٨٦] • وقد انشد مروان بن أبي الجنوب المعتصم بالله قصيدة لما كان من أمر العباس وعجيف ، جاء فيها[٨٧] :

ألا يا دولـة المعصوم دومي ... فانك قلت للدنيا استقيمي

هوى العباس حين أراد غدرا ... فوافى اذ هوى قعر الجحيم

كذلك هوى كمهـواه عجيف ... فاصبح في سواء لظى الحميم

قال المعتصم بالله : أبعده الله •

---

(٨٤) النبراس /٦٣ •

(٨٥) الكامل ٦/٤٩٢–٤٩٣ ، والفرج بعد الشدة ٢/٢٦ وفيه اسمه محمد بن الفضل الجرجرائي •

(٨٦) الطبري ٩/٧٩ • وتفصيل المؤامـرة في : الطبري ٩/٧١–٧٩ ، وتجارب الامم ٦/٤٩٣–٥٠٢ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٥–٣٩٨ ، والكامل ٦/٤٨٩–٤٩٢ •

(٨٧) الاغاني ١٢/٨٤ •

نتائج المؤامرة :

كان من أهـــم نتائج القضاء على مؤامرة العبـــاس استقرار الخلافة للمعتصم بالله وأبنائه ، بعد ان تخلص من منافسة ابن أخيه الذي كانت تـــراوده فكرة الوثوب بعمه بتأييد عـــدد من القواد الناقمين على الخليفة • الا ان ذلك أدى الى زيادة نفوذ الاتراك على الخليفة وتوسع سلطانهم وتدخلهم في شؤون الدولة ، بعد ان وقف قادتهم الى جانبه ضـد المتآمرين ، وعاونوه في القضاء عليهـــم • وبالعكس فقد اضعف ذلك شأن القواد والجند العرب ، لاسيما وانه سبق للمعتصم بالله ان أمر في أوائل خلافته باسقاط عدد من الجند العرب من الديوان وقطع اعطياتهم عندما وقفوا الى جانب المنادين بخلافة العباس عند موت المأمون •

على ان هذه المؤامرة اضطرت الخليفة المعتصم بالله على ايقاف حملته العسكرية على بلاد الروم ، والاسراع في العودة الى العاصمة سامرا • بعد ان كان سير المعارك يبشر بانتصارات وفتوح واسعة للجيش العربي • وقد اشرنا عند الكلام عن فتح عمورية الى ان خطة المعتصم بالله في حربـــه مع الروم كانت تستهدف التقـــدم نحو القسطنطينية عاصمة البيزنطيين • ولذلك فان هذه المؤامرة حالت دون سحق الدولة البيزنطية وفتح عاصمتها ، ويمكن اعتبار ذلك من أهم نتائج المؤامرة المذكورة •

٣ ـ مؤامرة الأفشين :

يظهر مما يرويه البلاذري ان الافشين حيدر بن كاوس كان ابن ملك اشروسنة وقد غضب عليه أبـــوه حين قتل أحد رجاله • فشخص الى مدينة السلام وأظهر اسلامـــه • وانه اتصل بالخليفة المأمون وسهل له أمر الاســـتيلاء على اشروسنة ووصف له طريقا مختصرة لتحقيق ذلك ، فوجه المأمون كاتبـــه احمد بن أبي خالد

لغزوها • فقدمها وافتتحها ، فاستسلم ملكها كاوس وأظهر اسلامه ، فاقره المأمون ملكا عليها(٨٨) • واثر الافشين البقاء في عاصمة الخلافة لانه رأى فيها مجالا واسعا لتحقيق مطامحه •

وقد اتصل الافشين بابي اسحاق وهو امير على مصر وبلاد الشام من قبل أخيه المأمون • فاعجب أبو اسحاق بشجاعته وكفايته في الحرب ، فقربه اليه وجعله من رجاله • وعندما تولى الخلافة أصبح الافشين في مقدمة قواده • وعقد له على رياسة الجيش الذي وجهه لحرب بابك الخرمي الذي استفحلت دعوته • واستطاع الافشين بما بذله الخليفة من الاموال وما سيره من الجيوش وكبار القواد ، ان يقضي على ثورة بابك وجاء به اسيرا الى سامرا حيث قتل وصلب • ولما وصل الافشين سامرا عائدا من حرب بابك أكرمه الخليفة ومنحه مبلغا كبيرا من المال ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك •

وعندما خرج المعتصم بالله الى بلاد الروم لتأديبهم وايقاف اعتداءاتهم على الثغور العربية ، اسند الى الافشين قيادة أحد جيوش الحملة • وقد استطاع ان يهزم ملك الروم في أحد المعارك مما سهل لجيش الخليفة اقتحام عدد من مدن الروم وحصونهم وفتح عمورية أكبر مدنهم بعد القسطنطينية •

الأفشين وعصيان مازيار(٨٩) :

لقد تعرض الافشين الذي بلغ أوج مجده بعد قضائه على تمرد بابك ، وحسن بلائه في حرب الروم ، الى غضب الخليفة المعتصم بالله لما بدر منه من أمور تنطوي على سوء النية • ومن هذه الامور عصيان مازيار حاكم طبرستان • فقد كان الخليفة المأمون قد ولى مازيار بن قارن امارة طبرستان وسماه محمدا • وكان أبوه من قبل ملكا عليها

---

(٨٨) فتوح البلدان /٤١٩ •

(٨٩) يسمية البلاذري مايزديار ـ فتوح البلدان/٣٣٤ •

وقد أعلن العصيان في عهد الخليفـــة أبي جعفر المنصور ، وكان المهدي بن المنصور حينذاك في خراسان على رأس حملة عسكرية ، فأمره أبوه بالقضاء على عصيانه . فوجه اليه القائد خازم بن خزيمة فاسر قارن وفتحت طبرستان(٩٠) .

ولما استخلف المعتصم بالله أقر مازيار على عمله . وكانت علاقة مازيار بعبدالله بن طاهر أمير خراسان سيئة ، ولم يكن مازيار يحمل اليه خراجـــه مباشرة ، بل يتســلمه ممثل للخليفـــة ويحمله الى عبدالله(٩١) . وكان عبدالله لا يفتـــأ يكتب الى المعتصم بـــالله عن مخالفات مازيار مما اقنعه بعدم ولائه للخلافة والدولة العربية .

ومما شجع مازيار على مخالفته أمير خراسان تأييد الافشين له ، لانه كان يطمح بولاية خراسان، ويريد أن ينقل الملك الى العجم(٩٢) . ولذلك اتصـــل بمازيار يستميله ويغريه بعبدالله ويدفعـــه الى محاربته(٩٣) . كما كان بنفس الوقت يحرض المعتصم بالله على والي خراسان سيما وانه كان يسمع من الخليفة أحيانا ما يدل على انه يريد عزله(٩٤) . ويهدف من ذلك ان يضعف مركز عبدالله فيعجز عن القضاء على عصيان مازيار . فلا يجد الخليفة بدا من اقالته وتعيين الافشين بدلا عنه . على ان مناصرة الافشين لمازيار لم تكن بدافع النكاية بعبدالله بن طاهر فقط ، بل كمـــا يبدو من فحوى المكاتبة بينهما انما كانا يسعيان لهدف مشترك هو اضعاف الدولة العربية والاسلام وأحياء المجوسية . فقد اعترف مازيار لما قبض عليه وحمل الى سامرا : انه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا

---

(٩٠) كتاب البلدان/٣٠٣ .

(٩١) الطبري ٩/٨٠ . وتجارب الامم ٦/٥٠٢ .

(٩٢) البدء والتاريخ ٦/١١٩ .

(٩٣) الطبري ٩/٨٠ . وتجارب الامم ٦/٥٠٢-٥٠٣ . والعيون والحدائق ٣/٣٩٩ .

(٩٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٤٠ .

عليـــه ، ودين اتفقـــوا عليـــه من ســـذاهب الثنويـــة والمجوس(٩٥) • ومازيار مثل الافشين لم يعتنق الاسلام الا ظاهريا ، فقد كفر وغدر(٩٦) • وقد سبق ان اشرنا الى انه كاتب بابك الخرمي يحرضه ويعرض عليه النصرة • كما ظهرت ميوله الخرمية عندما أمر الاكرة بانتهاب أموال أرباب الضياع وغلاتهم •

اعلن مازيار تمرده في سنة ٢٢٤هـ واجبر الناس على مبايعته وأخذ منهم الرهائن،واهتم بجمع الاموال فجبى في شهر ماكان يؤخذ في سنة(٩٧) • ثم بعث أحد قواده الى مدينة آمل فاجلى أهلها وخرب سورها • ففزع أهل جرجان القريبة من آمل وخافوا على أنفسهم وأموالهم فهرب منهم كثيرون الى نيسابور • ولما انتهى خبر ذلك الى عبدالله بن طاهر وجه عمه الحسن بن الحسين في جيش كثيف لحماية جرجان ، ووجه حيان بن جبلة في عدة آلاف لحماية قومس • ووجه الخليفة القائد محمد بن ابراهيم المصعبي في جيش كثيف ليدخل طبرستان ، معاونة لعبدالله بن طاهـــر في اخماد الحركة والفتنة المجوسية •

لم يستطع مازيار واتباعه مواجهة الجيوش التي احاطت بهم ، فضعفت مقاومتهم وطردوا من المدن التي كانوا استولوا عليها • وبعد عدة معارك تمكنت هذه الجيوش من الانتصار على المتمردين وأسر رئيسهم مازيار • وللقبض على مازيار قصة ذكرها مفصلة كل من الطبري ومسكوية وصاحب العيون والحدائق(٩٨) • وبعث عبدالله بن طاهر الى عمه الحسن ان يسلم مازيار وأهل بيته الى محمد بن ابراهيم ليحملهم الى أمير المؤمنين بســـامرا ، كما طلب اليه ان

---

(٩٥) مروج الذهب ٤/٦١ •

(٩٦) فتوح البلدان/٣٣٤ •

(٩٧) الطبري ٩/٨٣ •

(٩٨) الطبري ٩/٨٩ـ٩٥ ، وتجارب الامم ٦/٥٠٨ـ٥١١ ، والعيون والحدائق ٣/٤٠٠ـ٤٠٢ •

يستصفي أموال مازيار ، فاحضره الحسن وساله عن أمواله واحضر شهودا ليشهدوا عليه • فاعترف بان جميع ما حمله من أمواله ستة وتسعون ألف دينار ، وسبععشرة قطعة زمرد ، وستعشرة قطعة ياقوت أحمر ، وثمانية أوقار سلال مجلدة فيها ألوان الثياب، وتاج، وسيف من ذهب ، وخنجر من ذهب وكلل بالجواهر، وحق كبير مملوء جواهر • وقد تسلمها منه محمد بن الصياح خازن عبدالله بن طاهر • وذكر علي بن ربن الطبري كاتب مازيار ان ذلك الحق كان ثمن شراء جوهرة ثمانية عشر ألف ألف درهم(٩٩) •

وعندما حمل مازيار الى عبدالله بن طاهر ، وعده ان هو اظهره على كتب الافشين اليه فسوف يسأل فيه الخليفة ليصفح عنه ، فاظهر مازيار الكتب لعبدالله فاخذها منهوسيرها معه الىاسحاق بن ابراهيم المصعبي وطلب اليـــه الا يســـلم مازيار والكتب الا بيـــد أمير المؤمنين(١٠٠) • فاوصل اسحاق ذلك الى الخليفة • فسأل المعتصم ب.. مازيار عن الكتب فانكرها ، فأمر بضربه(١٠١) • الا انه عندما جمع بينه وبين الافشين في دار العامـــة ، وكان الافشين قد حبس ، أقر مازيار بان الافشين كان يكاتبه ويصوب له الخلاف والمعصية(١٠٢) • الا ان الطبري يقول ان المازيار عندما سئل بحضور الافشين ما اذا كان كتب اليه ، قال «نعم ، كتب أخوه خاش الى أخي قوهيار انه لم يكن ينصر هذا الدين الابيض غيري وغيرك وغير بابك ، أما بابك فانه بحمقه قتيل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فابى حمقه الا ان دلاه فيما وقع فيه • فـــان خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غـــيري ••• ثم تجول الخيل عليهم جولـــة فتأتي على

---

(٩٩) الطبري ٩/٩٦ ، وتجارب الامم ٦/٥١٢ ، وفيه : علي بن زين كاتب مازيار •
(١٠٠) الطبري ٩/٩٩ـ١٠٠ ، وتجارب الامم ٦/٥١٤ ، والعيـــون والحدائق ٣/٤٠٣ •
(١٠١) الطبري ٩/١٠٠ •
(١٠٢) الكامل ٦/٥١٠ •

آخرهم ، ويعود الدين الى مالم يزل عليه أيام العجم»[١٠٣] • ويقول اليعقوبي ان مازيار قال والله ما كتب الي ولا راسلني الا ان أبا الحارث وكيلي أخبرني انه لما قدم عليه بره وأكرمه[١٠٤] •

وازاء هذا التردد في الاعتـــراف والانكار من مازيار غضب الخليفة عليه فأمر به فضرب حتى مات ، وصلب الى جانب بابك • ويقال ان الخشبة التي صلب عليها مالت نحو خشبة بابك فتدانت أجسامهما • وكان صلب في ذلك الموضـــع ياطس بطريق عمورية أيضا ، وقد انحنت خشبته نحوهما كذلك • وفي ذلك يقول أبو تمام الطائي[١٠٥] •

ولقد شفى الاحشاء من برحائها ان صار بابك جار مازيار
ثانية في كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان اذ هما في الغار
وكأنما انتبذا لكيما يطويـــا عن ياطس خبراً من الاخبار

الأفشين وعصيان منكجور :

من الامور الاخرى التي اتهم بهـــا الافشين عصيان منكجور الفرغاني خال أولاد الافشين وعامله على اذربيجان • فقد احتجز منكجور لنفسه أموالا وجدها في بعض قرى بابك ، ولما طولب بها انكرها • وبلغ ذلك الخليفة فأمر الافشين بان يعزله من الولاية • فوجه اليه الافشين أبا الساج المعروف بديوداد • ولما بلغ منكجور الخبر أعلن العصيان • الا انه هزم أمـــام الجيش الذي وجه اليه والتجأ الى أحد الحصون في اذربيجان مما خربه بابك ، وحاول ان

---

(١٠٣) الطبري ١٠٩/٩ •
(١٠٤) تاريخ اليعقوبي ٤٧٧/٢ •
(١٠٥) ديوان ابي تمام ١٩٨/٢ـ٢٠٩ ، وجاء اسم ياطس فيه : ناطس •
(١٠٦) تاريخ اليعقوبي ٤٧٨/٢ ، وهو يري ان هذا اول اسباب حبس الافشين ، ص : ٤٧٧ •

يتحصن فيـــه • الا ان بعض اتباعه وثبوا به واســـلموه الى قائد الحملة • ولكن الخليفة اتهم به الافشين لأنه بلغه ان منكجور انما أعلن التمرد بأمره وانه وجه أبا الساج مددا له لا حربا عليه • مما اضطر الخليفة ان يرسل اليه القائد بغا الكبير فاسره وقدم به الى سامرا(١٠٦) ، فأمر الخليفة بحبسه •

غضب الخليفة على الأفشين :

اعتاد الافشين في خلال حربه بابك ان يجمع ما يصل اليه من الاموال والهدايا ويبعث به مع بعض اتباعــه الى بلده اشروسنة • ولما علم عبدالله بن طاهر بذلك كتب به الى الخليفة المعتصم بالله ، فأمره باعلامــــه بكل ما يوجه به الافشين الى هناك • فأخـــذ أمير خراسان يتتبعه ويوصل اخباره الى الخليفة • ولاريب في ان جمع الافشين أمواله في بلده وبين اتباعه دليل على انه كان ينوي أمرا ، مما يقتضي مراقبته ومتابعة حركاته واتصالاته • كما لوحظ ان الافشين كان يتلكـــأ في محاربة بابك مما اثار الشبهة بأنــــه كان متواطئا معه ، وجعل الخليفة يشك بولائه • يقول ابن الجوزي انه عندما توجـــه لمحاربة بابك تخاذل عن قتاله واضمر موافقتـــه في ضلاله(١٠٧) • ويرى ابن دحية ان المعتصم بالله قتل الافشين لما واطأ بابك ، فانه تارة كان معه وتارة كان عليه(١٠٨) • وعندما يتكلم البغدادي عن الباطنية يذكر الافشين منهم ويقول انه كان في سره مع بابك وقد توانى في القتال معه ودله على عورات عساكر المسلمين فقتل الكثير منهم ، ولما اسر بابك وصلب ظهر للخليفة غدر الافشين وخيانته في حروبه مع بابك ، فأمر بقتله وصلبه(١٠٩) •

---

(١٠٧) المنتظم ٥/١١٤ •
(١٠٨) النبراس/٧٣ •
(١٠٩) الفرق بين الفرق/١٧١ •

يمكن الاستنتاج من هذا ان الافشين كان يخطط لحركة انفصالية يقوم بها في منطقته التي يدين اهلها بالولاء له ولعائلته • وتمهيدا لذلك تطلع الى ولاية خراسان فكاتب مازيار وهو حاكم طبرستان ، وكان يتفق معه في أهدافه ، يغريه بالتمرد على عبدالله بن طاهر ويشجعه على الانتقاض على الخلافة العباسية • وازاء هذا كله ليس من الغريب ان يتغير الخليفة على كبير قواده ، ويتوجس منه الانتقاض وشق عصا الطاعة • كما ان الافشين شعر بتغير الخليفة عليه ، فعزم على ان يحتال للهرب قبل أن ينكشف أمره • فدبر أمر هروبه بطريق الموصل الى أرمينيــة ، وكان المعتصم بالله قد ولاه عليها ، ومن هنــاك يعبـر الى بلاد الخــزر ثم يتجـه صوب أشروستة(١١٠) • وقد اختار هذا الطريق للوصول الى بلده تمويها للآخرين • الا ان الهـرب تعسر عليه لكثرة العيـون التي كانت تراقب حركاته • فعزم على ان يفتك بالخليفة وكبار قواده بوليمة يدعوهم اليها ويدس لهم السم في الطعـام فيقضي عليهم جميعا • وحتى اذا تعذر حضور الخليفة الى وليمته فانه سيتخلص من كبار القواد الموالين له امثال ايتاخ واشناس ، مما يسهل له أمر الوثوب ، وقد أخذ يهيء لذلك • الا ان أحد قواده وهو واجن الاشروسني علم بنواياه فاستنكرها فتهدده الافشين • فبادر واجن الى اعلام الخليفة بما عنده من نوايا الافشين وما عزم على القيام به • فوجه المعتصم بالله حاجبه محمد بن حماد بن دنقش يدعـو الافشين اليه • فجاء الافشين في سواد ، فأمر الخليفة بأخـذ سواده وحبسه في الجوسق • وكتب الى عبدالله بن طاهر ان يحمل اليـه الحسن بن الافشين من خراسان • فاحتال عبدالله في القبض عليه ، ثم وجه به وبزوجته اترنجة الى سامرا • ولما حبس الافشين عـزل عن الحرس وولي اسحاق بن يحي بن معاذ بدلا عنه(١١١) •

---

(١١٠) الكامل ٦/٥١٢ •

(١١١) الطبري ٩/١٠٣ •

ويعزو ابو المحاسن غضب المعتصم بالله على الافشين الى عداوته لعبدالله بن طاهر ولأحمد بن ابي دواد ، فعملا عليه ونقلا عنه انه يكاتب مازيار ، ويقول ان المعتصم بالله تأكد من ذلك من كاتبه الافشين الذي اعترف بانه كتب الى مازيار يأمر الافشين يقول له «لم يبق غيري وغيرك وغير بابك الخرمي ، وقد مضى بابك ، وجيوش الخليفة عند ابن طاهر ، ولم يبق عند الخليفة سواي ، فان هزمت ابن طاهر كفيتك أنا المعتصم بالله ، ويخلص لنا الدين الابيض ـ يعني المجوسية ـ وكان الافشين يتهم بها»(١١٢) ٠

ويقول شمس الدين الذهبي ان سبب غضب المعتصم بالله على الافشين انه اتهم بعبادة صنم ، وكان اقلف ، ثم يقول : وخافه أيضا(١١٣) ٠

وقيل ان احمد بن أبي دواد وجد على الافشين لكلام بلغه عنه ، فاشار على المعتصم بالله بان يجعل الجيش نصفا مع الافشين ونصفا مع أشناس ٠ ففعل الخليفة ذلك ، فوجد الافشين من هذا الاجراء باعتباره يقلل من أهميته كقائد عام للجيش ، وطال حزنه واشتد حقده ٠ فقال ابن ابي دواد للمعتصم بالله : ان أبا جعفر المنصور استشار أنصح الناس عنده في أبي مسلم فكان جوابه ان قال : يا أمير المؤمنين ان الله تعالى يقول «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا»(١١٤) فقال له المنصور : حسبك ، ثم قتل أبا مسلم ٠ فقال المعتصم بالله : حسبك انت أيضا يا أبا عبدالملك ، ثم وجه الى الافشين فقتله(١١٥) ٠

وجاء في الهفوات النادرة ان الافشين رأى في منامه قبل ان يسخط عليه المعتصم بالله رؤيا افزعته ، فبعث الى مفسر ليفسرها له ٠

---

(١١٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٤٢ ٠
(١١٣) كتاب دول الاسلام ١/٩٨ ٠
(١١٤) سورة الانبياء ، الاية : ٢٢ ٠
(١١٥) الاخبار الطوال/٣٤١ ٠

قال : رأيت كأن الشمس والقمر دخلا علي وأنا جالس في بهو فقعد احدهما على كتفي الايمن والاخر على كتفي الايسر ، فانتبهت لجزعي منهما • قال المفسر : اقرأ «لا اقسم بيوم القيامة» فقرأها حتى بلغ «جمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر»(١١٦) • فاخذته رعدة وزمع ـ والزمع رعدة تعترى الانسان ان هم بأمر ـ فما مضت عليه ثلاثة حتى قبض عليه(١١٧) • واذا صحت هذه الرواية فهي دليل على ما كان يشغل بال الافشين من الخـــروج عن الخليفة واحتمال فشل حركته وما يترتب على ذلك من وقوعه بأيدي الخليفة وقتله ، مما أظهره عقله الباطن بهذه الرؤيا المرعبة •

محاكمة الأفشين :

أوكل المعتصم بالله الى مجلس خاص مؤلف من وزيره محمد بن عبدالملك الزيــات وكبير قضاته أحمـــد بن أبي دواد ، وخليفته ببغداد اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، وعدد من القضاة والفقهاء ، ليتولى محاكمة الافشين • ولما كان العباسيون قد أقاموا خلافتهم على أساس ديني واتخذوا الدين وسيلة لتثبيت سلطانهم ، وضرب من يخرج عليهم ، اذ انهم مزجوا الدين بالسياسة بحيث يعتبر الخروج على الخلافة جريمة دينية تنطوي على الكفـــر ، فقد حاول المجلس المذكور حشد ما اعتبر من المخالفات الدينية التي قام بها الافشين والتي اذا ما ثبتت عليه كانت كافية لادانته بالكفر والزندقة وانه لم يسلم حقيقــة ، والحكم عليه بالموت بموجب أحـــكام الشريعة الاسلامية •

عقد المجلس المذكور للمحاكمة واحضر الافشين • كما احضر الشهود وهــم مازيار حاكم طبرســتان ، والموبذ ، والمرزبــان بن

---

(١١٦) سورة القيامة ، الايات ١ـ١٠ •

(١١٧) الهفوات النادرة/١٨٥ـ١٨٦ •

تركش وهو أحد ملوك الصغد ، ورجلان من اهل الصغد • وكان المناظر له قاضي القضاة احمد بن أبي دواد • أما التهم التي وجهت اليه فهي :

١ ـ انه ضرب كلا من امام ومؤذن المسجد الذي بني في الصغد ألف سوط كل واحد منهما •

٢ ـ احتفاظه في بيته بكتاب محلى بالذهب والجوهر فيه كفر بالله تعالى •

٣ ـ شهادة الموبذ بأكله لحم المخنوقة ، اذ قال : ان هذا كان يأكل المخنوقة ويحملني على أكلها ، ويزعم انها ارطب لحما •

٤ ـ كتابة أهل بلده اليه بالاشروسنيةما معناه الى اله الآلهة من عبده فلان ابن فلان •

٥ ـ عدم اختتانه •

٦ ـ مكاتبته مازيار واغراؤه بالخروج على أمير خراسان •

أجاب الافشين عن التهمة الاولى بأن بينه وبين ملك الصغد عهد بات يترك كل قوم على دينهم ، وان هذين الرجلين وثبا على بيت فيه أصنام لأهل أشروسنة ، فاخرجا الاصنام وصيراه مسجدا ، نضربهما على ذلك لتعديهما •

وعن احتفاظه بالكتاب المحلي بالذهب والجوهر ، قال انه ورثه عن أبيه وفيه آداب العجم وكفرهم ، وانه كان يأخذ الآداب ويترك الكفر • أما الحلية التي فيه فانه غـــير محتاج الى انتزاعها منه ، فتركها على ما هي عليه •

أما عن أكله لحم المخنوقة ، وكان قد شهد عليه بذلك الموبذ وهو مجوسي ، فقد طعن الافشـــين بشهادته لانه لا يجوز قبولها بموجب أحكام الشريعة الاسلامية ، وان الموبذ شخص غير ثقة •

وأجاب عن أسلوب مكاتبة أهل بلده معه بأن تلك هي عادتهم في مكاتبة أبيه وجده ، وقد كره ان يضع نفسه دونهما فتفسد عليه طاعتهم ٠

وعن عدم اختتانه قال انه خـــاف ان يقطع ذلك العضو من جسمه فيموت ٠ ولما قيل له انه يقاتل بالسيف والرمح ، ويخوض الحرب ، ويجزع من قطع قلفة ٠ أجاب ان تلك ضرورة تصيبه ، والاختتان شيء يستجلبه لنفسه ٠

أما التهمة الاخيرة التي كانت وحدها ذات الطبيعية السياسية والتي كانت سبب غضب الخليفة عليه وحبسه فلم تثبت عليه بشكل قاطع ٠ اذ ان شهادة مازيار ، كمـــا سبق أن أشرنا ، ترددت بين الاعتراف والانكار ٠ وكان الافشين قد انكر التهمة منذ البداية ٠ وعندما قيل له ان أخاه كاتب اخا مازيار بذلك ، انكر ان تكون المكاتبة قد جرت بعلمه ، وانه غير مســـؤول عما كتبه أخوه ٠ ثم استفسر عما اذا كان هناك ما يمنع من أن يحاول استمالة مازيار ليثق به ثم يسلمه الى الخليفة ، فيكون بذلك قد نصر الخليفة ونال الحظوة لديه ٠ وهو استفسار أقـــرب الى أن يدينه من أن يبرىء ساحته من هذه التهمة ، لأنه ينطوي على اعترافه الضمني بمكاتبته مازيار ٠

قال أحمد بن ابي دواد في نهاية المناظـــرة انه قد وضح أمر الافشين ، أي انه ثبتت عليه المخالفات التي اتهم بها ٠ وأمر بغا الكبير ان يعيده الى السجن ، رغم اعتراض الافشين على ذلك ٠ وكان الحبس الذي سجن فيه في الجوسق شـــبيها بالمنارة ، وقد جعل في وسطها دكة لجلوسه(١١٨) ٠

لقد حاول الافشين ان يقنع الخليفة ببراءته مما نسب اليه من التهم ٠ فطلب اليـــه ان يبعث له بمن يثق به لكي يـــؤدي اليه ما

(١١٨) الطبري ٩/١٠٧ ، وتجارب الامم ٦/٥١٩ ٠

سيقوله له • فانفذ المعتصم بالله نديمه حمدون بن اسماعيل • فأخذ الافشين ينفي كل ما قيل فيه من التهم ، وعزا ذلك الى انه حسد على ما ناله من حظوة ومنزلة عالية لدى الخليفة ، وانه لايزال على ولائه له لانه ربي في كنفه وتقدم برعايته • ثم التمس من الخليفة ان يراعي حقه عليه وخدمته له • فلما انصرف حمدون من الافشين وابلغ رسالته الى الخليفة ، أمر بقطـــع الطعام والشراب عنه الا القليل حتى مات(١١٩) • ويذكر حمدون انه رأى بين يدي الافشين طبق فاكهة أرسله اليه المعتصم بالله مع ابنه هارون ، وانه لما خرج منه لم يلبث قليلا حتى قيل ان الافشين يموت أو قدمات(١٢٠) • اشارة الى ان الفاكهة كانت مسمومة •

ولما مات الافشين حمل الى دار ايتـــاخ ، ثم اخرج وصلب على باب العامة بسامرا عريانا ساعة من نهار ليراه الناس • ثم طرح واحرق مع خشبته والقي الرماد في نهر دجلة(١٢١) •

وكان الخليفة حين أمر بحبس الافشين وجه الكاتب سليمان بن وهب ليحصي ما في داره في المطيرة • فوجد بيتا فيه تمثال انسان من خشب عليه حلية كثيرة وجوهـــر ، وفي اذنيه حجران أبيضان مشتبكان ، عليهما ذهب • كما اخرج من منزله اصناما مع الاطراف الخشب التي اعدها لهروبه • ووجد لـــه كتاباً من كتب المجوس ، وكتبا دينية أخرى(١٢٢) •

ومدح أبوتمام الطائي الخليفـــة المعتصم بالله بهذه المناسبة مشيرا الى صلب الافشين وحرقه ، بقصيدة طويلة جاء فيها(١٢٣) :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار

---

(١١٩) الطبري ٩/١١٤ •

(١٢٠) الطبري ٩/١١٣ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٥ ، والكامل ٦/٥١٨ •

(١٢١) الطبري ٩/١١٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٥ ، والكامل ٦/٥١٨ •

(١٢٢) الطبري ٩/١١٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٥ •

(١٢٣) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ٢/١٩٨-٢٠٩ •

ملك غدا جار الخلافة منكم | والله قد اوصى بحفظ الجار
يارب فتنة أمة قــد بزها | جبارها في طاعــة الجبار
جالت بخيذر جولة المقدار | فأحله الطغيــان دار بوار
كم نعمـــة لله كانت عنده | فكأنهــا في غربة وأســـار

ثم يقول :

مكرا بنى ركنيـــه الا انه | وطد الاساس على شفيرهار
حتى اذا ما الله شق ضميره | عن مستكن الكفر والاصرار

ويقول :

مازال سر الكفر بين ضلوعه | حتى اصطلى سر الزناد الوارى
نارا يساور جسمه من حرها | لهب كما عصفرت شق ازار
طارت لها شعل يهدم لفحها | أركانه هدمــا بغير غبـــار
مشبوبة رفعت لاعظم مشرك | ما كان يدفع ضوءها للسارى
فصلن منه كل مجمع مفصل | وفعلن فاقــرة بكـــل فقار
صلى لها حيــا وكان وقودها | ميتا ويدخلها في الفجـــار
وكذلك اهل النار في الدنياهم | يوم القيامة جــل أهل النار

خاتمة :

مما يلفت النظر في محاكمة الافشين عدم سماع شهادة واجن الاشروسني الذي يعتبر الشاهد الاصلي على محاولة الافشين الخروج على الخليفة والفتك بكبار القواد ، والتي بموجبها أمر المعتصم بالله بحبسه • كما ان ما ادلى به هذا الشاهد لم يسال عنه الافشين ، ولم يسال كذلك عن مواطأته بابك ، ومساعدته منكجور • ولاندري

ما اذا كان مجلس التحقيق اغفلها مكتفيا بالتهم الدينية لوضوحها ، أم ان المؤرخين الذين سردوا تفاصيـــل المحاكمة اهملوا الاشارة اليها . أم ان التهم الدينية وحدها كانت سبب غضب الخليفة على كبير قواده • ونرجح ان ما ذهبنا اليه آنفا من ان اهمال الجوانب السياسية والتأكيد على المخالفات الدينية مما اتهم به الافشين كان مقصودا للسبب الذي أشرنا اليه •

على اننا يجب ان لا نغفل مـــا صار اليه الافشين من مركز مرموق ، وما لـــه من دالة على الخليفة المعتصم بـــالله ، بسبب الانتصارات المتتالية التي احرزهـــا في حروبه • بحيث اخذ كبار رجال الدولة يرهبون جانبه ويخشون سطوته • وقد تسرب الحسد الى نفوسهم ، فعملوا على التخلص منه ، مستغلين بعض ما ظهرت منه من تصرفات يؤاخذ عليها ، فكان لهم ما ارادوا • ولعل مما زاد في حقدهم عليه اعتداده بنفسه وتعاليه عليهم • وقد اورد الخطيب الاسكافي ما يؤيد هذا حيث يقول ما خلاصته ا نالافشين بعد عودته مع أمير المؤمنين من حرب عمورية تقدمت حاله لديه لبلائه الحسن في حرب بابك وحرب الروم • فاخذ يستخف برجال الدولة ، لاسيما بالوزير محمد بن عبدالملك الزيات والقاضي أحمد بن ابي دواد ، فاعملا الفكر في كيفية التخلص منه • ولم يريا أبلغ من ايحاشه من الخليفة • فاستخدما لذلك محمد بن ابراهيم ، وكان صديقا حميما للافشين ووعداه بولاية فارس والاهـــواز اذا استطاع ان يوحش الافشين من المعتصم بالله • فادخل محمد في روع الافشين بما لفقه من الاخبار ان امير المؤمنين قد تغير عليه وانه يعمل على التخلص منه ، مما زرع بذور الشك وسوء الظن في نفس الافشين • وعندما دخل الافشين بعد ذلك على المعتصم بالله وكان في حينه ضجرا ببعض أموره ، رآه متغير البشر عابس الوجه ، فصدق عنده ما اخبره به محمد بن ابراهيم ، فحاذر على نفســـه وتحرز في بيته • ولما بلغ المعتصم بالله فعله انكره ، وكان ابن الزيات وابن ابي دواد لم يألوا

جهدا في ايحاشه منه • واغتنم ابن ابي دؤاد الفرصة فحذر المعتصم بالله من دخول الاعاجم عليه وهم مسلحون بالسيوف والخناجر وهو أعزل • فنفر قلب المعتصم بالله من الافشين • ولم تزل الوحشة تتفاقم بينهما حتى أمر المعتصم بالله بحبس الافشين وقتله(١٢٤) •

رغم ان الافشين من أصل تركي من قبائل ما وراء النهر التي كان أغلبها وثنيا ، فقد كان يعتنق المجوسية • وقد اتضح من محاكمته انه لم يكن اسلم عن يقين وايمان • ولهذا فهو يلتقي مع الفرس في مجوسيته وفي كراهيته الشديدة للعرب • فقد كان يقول : اذا ظفرت بالعرب شدخت رؤوس عظمائهم بالدبوس(١٢٥) • ووصفهم في كتابة الى مازيار بقوله : والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس(١٢٦) • وقد اتخذ الدين الاسلامي الذي اعتنقه عندما جاء الى بغداد ، والتقرب الى العرب الحكام وسيلة لتحقيق مطامحه التي تكشفت في عمله على الانفصال عن الدولة العربية واعادة المجوسية • وذلك نفس ما كان يعمل بابك الخرمي على تحقيقه • وقد كانت تصرفات الافشين في حرب بابك تنم عن أهدافه المذكورة التي حاول اخفاءها بولائه الظاهري للخليفة • الا انه لم يستطع الاستمرار على ذلك بحكم ما يعمل له ويستهدف تحقيقه ، فظهرت دلائله في القضايا التي اثيرت ضده وحوكم عليها •

ويمكننا الان على ضوء هذه الحقائق ان نفسر أسباب ارساله ما يتوفر له من الاموال الى اشروسنة ، ونفسر كذلك تلكؤه وتباطؤه في حرب بابك ، وسعيه لاقناعه بالاستسلام ليضمن حياته ويقلل خسائره ، بحيث يصدق عليه قول ابن الجوزي : فتخاذل عن قتاله

---

(١٢٤) لطف التدبير/٩١ـ٩٣ ، وجاء مثل ذلك في آثار الاول مع تغيير طفيف/ ١٠٧ـ١٠٨ •
(١٢٥) البيان والتبيين ٣/٥٨ •
(١٢٦) الطبري ٩/١٠٩ •

واضمر موافقته في ضلاله · وقول ابن دحية : فانه تارة كان معه وتارة كان عليه - الا ان حذره من رقابـــة عبدالله بن طاهر أمير خراسان ، ويقظة الخليفة واتصالـــه المستمر به ، ولهفة الجند والقواد وبخاصـــة العرب منهم على القضاء على بابك والحرمة الخرمية ، جعله لا يستطيع الا ان يستجيب لحرب بابك والقضاء عليه · ولذلك نراه بعد الانتهاء من هذه الحرب والعودة من غزو بلاد الروم . يخطط لحركته التي باءت بالفشل وانتهت بمصرعه · ولعل مما يؤيد تخطيطه للوثوب بالخلافـــة انه حاول القضاء على القواد الموالين للمعتصم بالله · فقد حاول قتل القائد العربي أبا دلف القاسم بن عيسى . فخف القاضي أحمد بن أبي دواد لانقاذه ، وكان مما قاله للافشين : كم تراك قدرت تقتل أولياء أمير المؤمنين واحدا بعد واحد ، وتخالف أمره في قائد بعد قائد(١٢٧) ·

٤ ـ حركة الزنج :

بداية الحركة :

من الحركات الخطـيرة التي جابهت الدولة العربيـــة في عهد سامرا ، وكانت عميقة التأثير في أمن البلاد وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية ، الحركة التي حمـــل لواءها الدعي علي بن محمد وعرفت بحركة الزنج ·

ان ما أصاب الدولة العربية من وهن شديد من جراء استبداد القواد الاتراك بالسلطة ومنازعتهم الخلفاء ، شجع ذوي المطامع على الخروج على سلطانها · وقد استطاع أحد المغامرين وهو علي بن محمد العبقسي(١٢٨) ان يقوم بدعوة في جنوبي العراق مستغلا

---

(١٢٧) الاغاني ٨/٢٥٠ـ٢٥١ ·

(١٢٨) نسبة الى عبدالقيس ـ العبر ٢/٤٢ ·

اوضاع العبيد من الزنوج الذين استطاع ان يثير حفيظتهم على مالكيهم من أصحاب الاراضي الزراعية ، فهربوا منهم والتحقوا به . كما التف حوله كل صاحب فتنة(١٢٩) .

ان دعوة علي بن محمد لم تقم على قواعد سياسية واجتماعية معينة تستهوي الناس اليه ، وانما اكتفى بادعائه بتحسين أحوال العبيد «وانه يريد ان يرفع اقدارهم ، ويملكهم العبيد والاموال والمنازل ، ويبلغ بهم اعلى الامور»(١٣٠) ومناداته بعدم التمييز بين العناصر والاجناس ، وهي من دعاوى الخوارج ، مما بدا ان ذلك كافيا عند اولئك الذين انضموا اليه من الزنوج . وبصرف النظر عن العوامل الاخرى فان مجرد وعد الزنوج بتحريرهم وتمليكهم الاموال كان كافيا لان يسارعوا الى اجابة دعوته . كما انه ادعى الانتساب لآل البيت ليضفي على دعـوته سمة روحيـــة ويكسبها الشرعية المطلوبة .. وقد اطلق على نفســـه لقب أمير المؤمنين ، وضرب ذلك على نقوده الذهبية والفضية(١٣١) .

ولم يلبث علي بن محمد مدة وجيزة حتى التف حوله الوف من الزنوج ينشدون الخلاص من العبودية وشظف العيش . فكون منهم جيشا استطاع ان يتحدى بـه سلطات الدولة مدة من الزمـــن . فاستولى على ضواحي البصرة واخذ يهدد المدينة نفسها . ويظهر انه اختار منطقـــة البصرة لعدة اسباب منها ان طبيعـــة المنطقة الجغرافية ساعدت الزنج على حرب كمائن وعصابات متنقلة ، مما أدى الى اطالة أمد الاضطرابات وتعسر قمعها على الجيش النظامي . وكثرة العبيد العاملين في ازالة السباخ عن الاراضي الزراعية فيها، فقد كانت «كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال ، وكان في

---

(١٢٩) العبر ٢/٨ .
(١٣٠) الطبري ٩/٤١٥ .
(١٣١) ثورة الزنج/١٧٢ .

انهار البصرة منهم عشرات الالوف يعذبون بهذه الخدمة»(١٣٢) ٠ يضاف الى ذلك ان البصرة كانت مركزا لطبقة كبيرة من الاغنياء الذين كونوا ثرواتهم من استثمار العبيد في الزراعة ، وان هذه الطبقة وقفت ضد حركة الزنج منذ البداية(١٣٣) ٠

وقد اتخذ صاحب الزنج منطقة القنوات والمستنقعات جنوبي البصرة للاسباب التي ذكرناها قاعدة له ، واستطاع ان يصمد امام الجيوش التي سيرت اليه ٠

استفحال الحركة :

صرف صاحب الزنـــج جهوده أول أمره لاحتـــواء البصرة فحاصرها حتى أضر بأهلها ، فاســـتولى في سنة ٢٥٦هـ على الأُبلّة وقتل بها نحو ثلاثـين ألف(١٣٤) ٠ ثم هاجم في منتصف شـــوال من السنة التالية مدينة البصرة ٠ وكان القائـــد المكلف بحمايتها قد تهاون في اتخاذ العدة لصد هجوم الزنج(١٣٥) ٠ فدخلوها واحرقوا المسجد الجامع وقسما من المدينة ، ونهبوا ممتلكاتها ، وقتلوا عددا هائلا من أهلها ، وهرب الباقون بأسوأ حال ٠ ويقول المسعودي انهم قتلوا ثلثمائة ألف نفس من أهل المدينة(١٣٦) ٠ فكانت هذه أول مذبحة يقوم بها الزنج ٠

ومما ساعد الزنج على التوسع شرقـــا وشمالا انشغال الجيش بمحاربة يعقوب بن الليث الذي بات يهدد العاصمة سامرا ، فدخلوا

---

(١٣٢) نفس المصدر/٢٨ ٠
(١٣٣) نفس المصدر/١١٢ ٠
(١٣٤) العبر ٢/١٣ ٠
(١٣٥) الطبري ٩/٤٨٤ ٠
(١٣٦) مروج الذهب ٤/٢٠٧ ٠

الاحواز في رجب سنة ٢٥٩هـ(١٣٧) • ودخلوا مدينة واسط في سنة ٢٦٤(١٣٨) ، ثم صاروا الى جبل والنعمانية وجرجرايا فهرب كثير من أهل السواد الى بغداد(١٣٩) • الا ان بعد هزيمة ابن الليث تفرغ الجيش للقضاء على الحركة في جنوبي البلاد •

الموفق يتفرغ لحرب الزنج :

بعد أن أمن الموفق ، أخو الخليفة المعتمد على الله ، جانب ابن الليث ، أخذ يستعد لحرب الزنج الذين استفحل أمرهم وصاروا خطرا كبيرا يهدد الخلافة بعد الانتصارات التي حققوها على الجيوش التي أرسلت لقتالهم • وبعد أن أكمل استعداده أرسل ابنه أبا العباس أحمد في سنة ٢٦٦هـ الى واسط لحربهم ، فقاتلهم أبو العباس في عدد من المعارك وتغلب فيها عليهم واسترد منهم كثيرا من المواقع والاموال وانقذ اعدادا كبيرة من الاسرى والسبايا(١٤٠) • وبهذا بدأ مد الزنج بالانحسار •

أخذ صاحب الزنج بعد أن وصلته انباء الخسائر التي حلت بجيشه ، يجمع جموعا جديدة يسيرهـا الى حرب ابي العباس • فسار الموفق بنفسه الى حربه في صفر سنة ٢٦٧هـ ونزل قريبا من واسط ، وجعل جيش ابنه مقدمة لجيشه في زحفه على قاعدة صاحب الزنج • وكان أول نصر كبير حققـه جيش الموفق انه هزم قائد الزنج سليمان بن موسى الشعراني ودخل مدينة المنيعة واستنقذ زهاء خمسة آلاف امرأة سوى الزنجيات ، وحملن الى واسط ليدفعن الى أوليـائهن ، واستولى على كل ما في المدينة من امتعـة الزنج

---

(١٣٧) الطبري ٩/٥٠٣ •

(١٣٨) نفس المصدر/٥٣٩ •

(١٣٩) نفس المصدر/٥٤٢ و ٥٤٤ •

(١٤٠) نفس المصدر/٥٦٤ •

وميرتهم ، وهدم أسوارها وطم خندقها[١٤١] • ثم استولى على مدينة المنصورة ، وهي معقل آخر من معاقل الزنج ، واصيب قائدهم أحمد بن مهدي الجبائي بسهم مات على أثره • واستنقذ زهاء عشرة آلاف من نساء أهل واسط وصبيانهم ، فاعيدوا الى ذويهم ، واحتوى الجيش على ما في المدينة من الذخائر والاموال والاطعمة والمواشي[١٤٢] •

بعد هذه الانتصارات استعد الموفق للهجوم على المختارة قاعدة صاحب الزنج على نهر أبي الخصيب • وقبل أن يشن عليه الهجوم كتب اليه يدعوه الى التوبة والاتابة الى الله تعالى مما ركب من سفك الدماء وانتهاك المحارم وتخريب البلدان ، ويعلمه ان الأمان مبسوط له ان هو نزع عما هو عليه من الامور التي يسخطها الله ، الا ان صاحب الزنج ازداد عنادا ولم يجب على الكتاب[١٤٣] • ويقال انه قتل الرسول[١٤٤] •

حاصرت جيوش الموفق مدينة المختارة في أواخر رجب سنة ٢٦٧هـ • وكان صاحب الزنج قد جمع قواده كافة من جميع الجهات بجيوشهم ليدافعوا عن عاصمته • فقاتلوا دونها قتالا شديدا • مما حمل الموفق على أن يقيم عسكره مقابل المختارة في موقع سماه الموفقية ، وما لبث هذا العسكر ان صار مدينة عامرة بالاسواق وأنواع التجارات ، وبنى بها أبو أحمد مسجدا جامعا ، واتخذ بها دارا لضرب الدنانير والدراهم[١٤٥] • وقد نشط الموفق في تشديد الحصار على قاعدة صاحب الزنج الذي أخذ يطاول في الحرب • ولما أصيب الموفق بسهم في صدره في جمادي الاولى لم يترك

---

(١٤١) الطبري ٩/٥٦٦_٥٦٨ •
(١٤٢) نفس المصدر/٥٧٣ •
(١٤٣) نفس المصدر/٥٨١ •
(١٤٤) العبر ٢/٤٣ •
(١٤٥) الطبري ٩/٥٨٥_٥٨٦ •

مدينته الموفقية ، فعولج من جرحه حتى شفي منه • فاستأنف تشديد الخناق على صاحب الزنج في عقر داره •

المعركة الفاصلة :

كان صاحب الزنج قد قطع القناطر والجسور التي كانت على نهر ابي الخصيب واحدث سكرا في النهر من جانبه وجعل في وسط السكر بابا ضيقا ليحتد فيه جري الماء فلا تستطيع السفن دخوله • لذا رأى الموفق ضرورة قلع هذا السكر فارسل عليه الجند والفعلة فالحوا عليه حتى قلعوه ، وفتح النهر أمام سفن الجيش • وكان للزنج مزارع في ناحية النهر الغربي ولهم قنطرتان على هذا النهر ، فوجه الموفق ابنه العباس بجمـــع من شجعان جيشه ، فنصب لهم الكمائن وأقام من فوهة النهر المذكور • وعندما هم الزنج بالعبور اعترضتهم سفن أبي العباس ، فقتل منهم في النهر وعلى ضفتيه خلق كثير ، وأسر منهم اعدادا كبيرة •

وقد وصل الى الموفق مدد كبير ، اذ وصله وزيره وقائده صاعد بن مخلد من سامرا ومعه جيش قدر بعشرة آلاف مقاتل • كما وصل لؤلؤ قائد ابن طولون بعد انخرج على سيده ومعه جيش عظيم(١٤٦) • فوزع الموفق قواده وجيوشهم حسب الخطـــة التي أعدها للهجوم الاخير على صاحب الزنـــج ومن بقي يحارب الى جانبه • فتحركت القوات من جهات مختلفة على مواقع الزنج التي ضاقت بهم فولوا منهزمين ، بعد ان احتوى أصحاب الموفق مدينتهم باسرها ، واطلقوا من كان فيها من الاسرى •

وكان صاحب الزنج وابنه وعدد من قواده قد اوغلوا في نهر أبي الخصيب ، هاربين الى موضع كان صاحبهم قد وطأه ملجأ اذا

---

(١٤٦) الطبري ٩/٦٤٩ــ٦٥٠ •

(١٤٧) المنتظم ٥/٥٩ •

غلب على مدينته(١٤٧) • فأمر الموفق بملاحقتهم ، فزحفت اليهم جموع متتالية من الجيش واوقعت بهم • فاسر سليمان بن جامع قائد قواد الزنج ، مع قواد آخرين مما فت في عضد علي بن محمد • ولم يكف الجيش عن مطاردته حتى وافى البشير بقتله ، وجاءوا الى الموفق برأسه ، فخر الموفق ساجدا لله على ما أولاه وأبلاه ، وسجد أبو العباس ، وقواد الموفق شكرا لله • وأمر الموفق برفع الرأس على قناة ونصبه بين يديه ليراه الناس(١٤٨) •

وبذل الموفق الامان لمن يستسلم ممن بقي من الزنج المحاربين، فوافى معظمهم مستسلمين • وأمر أن يكتب الى سائر الامصار بالنداء في أهل البصرة والابلة وكور دجلة ، والاحواز ، وأهل واسط وما حولها ، بقتل صاحب الزنج ، وان يؤمروا بالعودة الى أوطانهم •

وقدم أبو العباس أحمد الى مدينة السلام ، اذ كان الخليفة المعتمد على الله آنذاك فيها ، ومعه رأس علي بن محمد صاحب الزنج ، فدخلها لأثنتي عشرة بقيت من جمادي الأولى سنة ٢٧٠ هـ ، فاستبشر الناس بالقضاء عليه وعلى حركته التي أجج أوزارها ، ودامت أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام(١٤٩) •

أسباب فشل تمرد الزنج وحركتهم :

هناك أسباب عديدة تظافرت على فشل الحركة التي قادها الدعي علي بن محمد • فعلى الرغم من تكاثر اتباعه سواء ممن طمع باسترداد حريته ، أو بالمغانم من الاموال والسبايا ، فان عدم دربتهم على فنون القتال ، وضعف قيادتهم ، اضطره على أن يتبع ما

---

(١٤٨) الطبري ٩/٦٥٩ـ٦٦٠ •

(١٤٩) الطبري ٩/٦٦٣ •

يعرف بحرب العصابات • وقد حققت له هذه الخطة قدرا كبيرا من النجاح ، ولكنه نجاح موضعي موقت • فاذا ما استولى على موضع ما سرعان ما كان ينسحب أو يهرب منه • على انه بمرور الزمن أصبح من الاخطار التي تهدد كيان الدولة العربية • ولما توجه الامير الموفق لمحاربة الزنج اتبع خطة اضطرهم بموجبها على المواجهة وخوض المعارك الكبيرة • فقد شدد الحصار على جماعات الزنج المتفرقين في المناطق الجنوبية من العراق ولاسيما في البطائح والاهوار وأطرافها مما اضطرهم على التجمع بقوات كبيرة لكي تستطيع خرق الحصار المفروض عليها ، ورد الجيوش التي أخذت توالي هجومها عليها • وعلى الرغم من كثرة الخسائر التي حلت بهذه الجيوش فانها اضطرت صاحب الزنج على خوض معارك كبيرة كانت نتائجها في معظم الحالات وبالا عليه •

ومن العوامل الاخرى المهمة التي ساعدت على فشل الحركة ما رافقها من عنف الزنج وقسوتهم وتشبعهم بروح الحقد والانتقام ، مما جعل الناس ينقمون عليها ويتطوعون لمحاربتها • فضعضع ذلك قوات علي بن محمد مما أدى به الى الفشل ، وقد انتهى بقتله كل نشاط للزنوج في جنوبي العراق •

الفصل الثاني

الاضطرابات الأخرى

واجه خلفاء سامرا اضافة الى الفتن والمؤامرات التي ذكرناها آنفا ، حركات أخرى أقل شأنا وأضعف خطرا . وهي أقرب الى أن تكون حركات تمرد وعصيان تقوم بين آن وآخر في ولايات وأقاليم مختلفة من أنحاء الدولة العربية المترامية الأطراف . الا انها مع ذلك استنفدت كثيرا من الجهود للقضاء عليها ، مع ما سببته من خسائر في الارواح والاموال .

ومن المؤسف ان مصادرنا التأريخية التي عاصر أصحابها تلك الاحداث أو جاءوا بعدها بقليل ، عندما تذكر تمردا ما أو حركة عصيان ، لا تهتم بأسبابها ولا تتحرى العوامل التي أدت اليها والظروف التي كانت تحيط بها بقدر ما تركز من اهتمام بتوجيه العساكر اليها واخضاعها ووصف ما يرافق ذلك من قسوة وبطش . ويرجح ان ذلك ناشيء من الاعتقاد بأن الخروج على الخلافة غير جائز شرعا . ولذا فلا داعي لمعرفة أسبابه . أما الاهتمام بالقضاء على تمرد ما وما يتبع ذلك من تقتيل وحرق ونهب ، فيظهر انه تهديد للاخرين وتحذيرهم من سوء المصير اذا ما أقدموا على أمر مماثل .

سوف نتناول في هذا الفصل حركات التمرد والعصيان التي قامت ضد خلفاء سامرا بحسب تسلسلها التــاريخي لكي تعطينا صورة عن جانب من الاوضاع الداخلية للدولة العربية حينذاك . كما سنفرد بحثا خاصا بكل حركة من حركات الخوارج لاختلاف طبيعة خروجهــم على الخلافة ، والفتن التي قــامت في أرمينية واذربيجان لتعددها على فترات متقاربة .

١ ـ تمرد الزط :

تنقل الى منطقة البطائح في جنوبي العراق قبل الفتح العربي بعض القبائل الهندية عرفت بالزط . وقد هاجروا من مواطنهم في الهند لغلاء وقع هناك فتنقلوا في بلاد كرمان والاهواز الى أن صاروا الى هــذه المواضع(١) . ويعتبرهم ابن خلدون انهم أخــلاط من الناس(٢) . والواقع انهم أصبحوا كذلك بعد أن التجأ اليهم عدد من اللصوص وقطاع الطـرق والعبيد الفارين . وهنــاك قول بأن الحجاج الثقفي عندما كان واليــا على العراق أتى بخلق من زط السند واصناف ممن بهــا من الامم ومعهم أهلوهــم وأولادهم وجواميسهم ، واسكنهم باسافل كسكر فغلبوا على البطيحة وتناسلوا بها(٣) . وان محمــد بن القاسم هو الذي حملهم من الســند الى العراق(٤) .

عــاش الزط في منطقة البطائح بعزلة عن بقية الســكان ، واحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الغريبة وبطراز معيشتهم ولباسهم . وعلى الرغم من حسن معاملة العرب لهم ، وخاصة بعد الفتح العربي ، لم يلبثوا ان اصبحوا عنصر فتنة وفساد ، فالتجأ اليهم اباق العبيد والهاربين من وجه السلطة ، واخذوا ينتهبون الغلات الزراعية من

---

(١) التنبيه والاشراف /٣٠٧ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ٣/٥٤٦ .
(٣) فتوح البلدان/٣٦٨ .
(٤) نفس المصدر/١٦٦ .

البيادر . وعندما نشبت الحرب الاهلية بين الخليفة الامين وأخيه المأمون ، اغتنموا فرصة ضعف السلطة فخرجوا عليها . واخذوا يقطعون طريق البصرة بالسلب والاعتــــداء ، فتحامى الناس عن الاجتياز بهم . وانقطع عن بغداد ما كان يحمل اليها من البصرة بالسفن ، فاشتد امرهم على النـــــاس . فلما استقر المأمون ببغداد حاول تاديبهم ، فارســــل في سنة ٢٠٥هـ عيسى بن يزيد الجلودي لمحاربتهم[٥] . ثم بعث في السنة التالية حملة أخرى بقيادة داود بن ماسجور[٦] . الا انه فشل في التغلب عليهم لصعوبة تعقيبهم في أهوار البطائح .

ولما استخلف المعتصم بالله قرر ان يقضي على عبثهم بصرامة . فوجه اليهم أحمــد بن سعيد الباهلي فهزمــوه[٧] . فبعث اليهم في منتصف سنة ٢١٩هـ جيشا بقيادة عجيف بن عنبسة الذي اتبع في محاربتهم خطة تقوم على سد منافذ الطرق النهرية ومحاصرتهم . فضيق عليهم الخناق قرابة ستة شهور حتى اضطرهم على الاستسلام . وكان الخليفة هو الذي أمره باتباع هذه الخطة في حربهم[٨] . ومما يدل على اهتمام المعتصم بالله بامــر الزط انه أمر عجيفا بترتيب الخيل في كل سكة من سكك البريد لتركض بالاخبار . فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل الى المعتصم بالله في يومه[٩] .

وكان يرأس الزط محمد بن عثمان وقد اسقط في يده بعد أن حاصرهم عجيف ، فطلب الامــــان على دمائهم وأموالهم ، فامنهم عجيف . وحملهم في السفن وجاء بهم الى بغـــداد . وكان عددهم

---

(٥) الطبري ٨/٥٨٠ . والكامل ٦/٣٦٢ .
(٦) الطبري ٨/٥٨١ . والكامل ٦/٣٧٩ .
(٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٢ .
(٨) فتوح البلدان/٣٦٩ .
(٩) نفس المصدر . والطبري ٨/٩ ، والكامل ٦/٤٤٣ .

حوالي سبعة وعشرين ألفا بين رجل وامرأة وصبي ، وعدد المقاتلة منهم اثناعشر الفا[10] • ويصف لنا الطبري كيفية عرضهم على الخليفة الذي رغب في مشاهدتهم بازيائهم • اذ عبأهم عجيف في زواريقهم على هيئتهم في الحرب ، معهم البوقات ، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء من سنة ٢٢٠ هـ والمعتصم بالله عند الشماسية في سفينة كبيرة من نوع الزو ، فمر به الزط على تعبئتهم ينفخون بالبوقات • فكان أولهم بالقفص وآخرهم بحذاء الشماسية ،واقاموا في سفنهم ثلاثة أيام ، ثم عبر بهم الى الجانب الشرقي فدفعوا الى بشر بن السميذع فذهب بهم الى خانقين ، ثم نقلوا الى عين زربة[11] • وهي احدى الثغور الشامية ، ويظهر ان نقلهم اليها كان تقوية لحاميتها -

ويقول البلاذري ان عجيفا أخذهم جميعا وقدم بهم بغداد في الزواريق ، فجعل بعضهم بخانقين وفرق سائرهم في عين زربة والثغور[12] • ويؤيد هذا ما ذكره المسعودي بأنه انزلهم بلاد خانقين وجلولاء من طريق خراسان ، وبلاد عين زربة من الثغر الشامي[13] • وقد قضت الهجمات البيزنطية على الثغور العربية على القسم الاكبر منهم •

٢ ـ تمرد جعفر الكردي :

عصى في الموصل أحد زعماء الاكراد اسمه جعفر بن مهرجش[14] في سنة ٢٢٦ هـ وتبعه عدد كبير من الاكراد وغيرهم ممن كانوا يتذمرون من تعسف الولاة • فولى المعتصم بالله عبدالله بن السيد بن انس الأزدي على الموصل وأمره بالقضاء على تمرد جعفر واتباعه • وكان جعفر قد استولى على مدينة الموصل والجبال

---

(١٠) الطبري ٩/١٠ •

(١١) نفس المصدر •

(١٢) فتوح البلدان/١١٨ •

(١٣) التنبيه والاشراف/٢٠٧ •

(١٤) الطبري ٩/١١٨ ، والكامل ٦/٥٠٧ وفيه اسمه جعفر بن فهرجس ، ومثل هذا جاء اسمه في تاريخ ابن خلدون ـ ٣/٥٧٦ •

القريبة منها ، فقاتله عبدالله وأخرجه من الموصل • فلجأ جعفر مع أتباعه الى أحد الجبال المنيعة • ولما تبعه جيش عبدالله استظهر عليه جعفر لمعرفته بتلك المواضع الجبلية ، واعتياد اتباعه على القتال فيها • فهزم عبدالله وقتل كثير من أفـــراد جيشه ، وكاد أن يقضي عليه ، الا ان أحد قواده استطاع ان يشاغل اتباع جعفر عن أصحابه من جيش عبدالله مما سهل لهم الانسحاب والنجاة •

ولما علم الخليفة بفشل حملة عبدالله بن انس وتمزق جيشه ، وجه في المحرم من سنة ٢٢٧هـ القائد ايتاخ على رأس حملة لقتال ابن مهرجش • فالتقى ايتاخ بالمتمردين ، واستطاع بعد عدة معارك أن يتغلب عليهم ويمزق شملهم • فتفرق من بقي من اتباع جعفر عنه ، ووثب به أحد أصحابه فقتلـــه[١٥] • فاوقع ايتاخ باتباعه ولاحقهم وأكثر فيهم القتل والسبي • ثـــم حشد الاسرى والنساء والاموال وحمل ذلك الى تكريت[١٦] •

٣ ـ خروج المبرقع اليماني :

من الحوادث المهمة التي حدثت في السنة الاخيرة من عهد المعتصم بالله ، وكانت من نتـــائج تعاظم سلطة الجند الاتـــراك ، وعدم مراعاتهم حقوق الناس وتعديهم على حرياتهم ، ظهور ثائر في جبال الأردن هو أبو حرب تميم اللخمي ، وقد عرف بالمبرقع اليماني • وهو رجل من أهل فلسطين اشتهر بالشجاعة وشدة البأس • وقد ثار على السلطة عندما حاول أحد الجنود الاتراك النزول في داره وهو غائب ، فمانعته امرأة كانت في البيت فضربها واغلظ لها الكلام •

---

(١٥) الطبري ١١٨/٩ ، والكامل ٥٠٧/٦ ، وفيه : قيل ان جعفرا شرب سما كان معه فمات •

(١٦) الطبري ١١٨/٩ •

فلما عاد أبو حرب شكت اليه الأمرأة سوء معاملة الجندي التركي ، لأن العرب لم يألفوا نزول الجند قســـرا في بيوتهم • فاخذ سيفه وبحث عن الجندي ، فوجده وقتله • ثـــم هرب من ملاحقة السلطة وقصد أحد جبال الاردن وأقام مختفيا • وقد جعل على وجهه برقعا لئلا يعرف[17] • وكان يظهر في النهـــار متبرقعا ، فاذا جاءه أحد أمره بالمعروف ونهاه عن المنكر ، فاذا استجاب له ذكر الخليفة وما يأتيه من الاعمال القبيحة ويعيبه عليها[18] • فاستجاب له جماعة من فلاحي تلك الناحية والقرى القريبة منها ، رغبة في التخلص من أوضاعهم الاقتصادية والمعيشية السيئة •

وزعم المبرقع انه أموي ، ولعل ذلك كان سبب تخوف السلطة من توسع دعوته ، لاسيما اصحابه زعموا انه السفياني[19] • وكان ممن استجاب الى دعوتـــه جماعة من رؤساء اليمانية انتصـــارا له وعصبية لانه من اليمانيين ، منهم زعيم يقال له بيهس وكان مطاعا فيهم ، ورجلان آخران من أهل دمشق[20] • مما جعل الخليفة المعتصم بالله يهتم بأمره ، فسير اليه القائد رجاء الحضاري في زهاء الف من الجند • فلما اتاه رجـــاء وجد جماعته يزيدون على مائـــة ألف ، فتحاشى الاصطدام بهم • ولقلة خبـــرة المبرقع العسكرية فانه لم يبادر الى مهاجمة الجيش الذي قدم لتأديبه • وقد عسكر رجاء بعيدا عنه واخذ يشاغله ويطاوله حتى آن وقت الزرع فانصرف من كان مع المبرقـــع من الفلاحين الى أراضيهم ، ولم يبق معـــه الا قرابة الالفين • ونظرا لقلة معرفتهم بشؤون الحرب فقد استطاع رجاء الحضاري ان يفل جمعهم بسهولة • ويقول مسكويه : فتأمل رجاء عسكر المبرقع فلم يجد فيه من له فروسية غيره ، فقال لاصحابه لا

---

(١٧) نفس المصدر /١١٦ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٧ ، والعيون والحدائق ٣/٨-٤٠٨ •

(١٨) الطبري ٩/١١٦ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٧ ، والكامل ٦/٥٢٢ •

(١٩) نفس المصادر • •

(٢٠) الكامل ٦/٥٢٢ ، والطبري ٩/١١٦ •

تعجلوا عليه فانه سيظهر لاصحابه بعض ما عنده . فما لبث المبرقع ان حمل، فقال رجاء لأصحابه: افرجوا له . فأفرجوا له، ثم حمل ثانية . فقال رجاء : افرجوا له ، فاذا اراد الرجوع فحولوا بينه وبين ذلك وخذوه . فافرجوا له ، ففعل ذلك ، واحاطوا به فانزلوه عن دابته ، واسره رجاء وحمله الى الخليفة بسامرا(٢١) .

ولما قدم رجاء بأبي حرب على المعتصم بالله عاتبة على تلكؤه في حربه . فاوضح رجاء للخليفة ان سبب ذلك هـو قلة جنده وكثرة اتباع المبرقع ، وكلهم من حراثي تلك الناحية ، ولذلك فقد تمهل حتى قل عدد اتباعه لما انصرف أكثرهم الى عملهم في المزارع ووجد الفرصة لحربه والتغلب عليه(٢٢) .

ويستدرك الطبري فيقول ان هناك من يزعم بان خروج المبرقع اليماني كان في سنة ٢٢٦هـ بالرملة ، وقالوا انه سفياني . فصار في خمسين ألفا من أهل اليمن وغيرهـم . وقد ناصره ابن بيهس وآخران معه من رجال دمشق . فسار اليهم رجاء الحضاري وواقعهم بدمشق فتغلب عليهم واخذ ابن بيهس اسيرا . ثم اتجه الى مقاتلة أبي حرب . فقتل عددا كبيرا من أصحابه وأسره وحمله الى سر من رأى . حيث جعل هو وابن بيهس في المطبق(٢٣) .

وما ذكره ابن خلدون يقرب مما استدركه الطبري ، اذ جاء فيه ، انه بينما كان رجاء وجيشه يعسكرون قبالة اصحاب المبرقع ينتظرون أوان الزراعة ، توفى المعتصم بالله . وكانت الفتنة قد ثارت بدمشق ، فأمر الواثق بالله رجاء ان يقضي على هذه الفتنة أولا ثم يعود لحرب المبرقع . ففعل رجاء بأمر الواثق بالله فقاتل ثوار دمشق وهزمهم ، واصلح أمر دمشق ، ورجع الى قتال المبرقع فاخذه

---

(٢١) الطبري ١١٧/٩ ، وتجارب الامم ٥٢٧/٦ .
(٢٢) الطبري ١١٧/٩ .
(٢٣) نفس المصدر/١١٨ .

أسيرا وابن بيهس معه(٢٤) • واذا صحت هذه الرواية ، فان ما ذكره الطبري عن معاتبة المعتصم بالله قائده، يصبح من الاخبار الموضوعة، أو أن يكون الواثق بالله هو الذي عاتب القائد المذكور •

٤ ـ تمرد القبائل العربية :

تمرد القيسيين في دمشق :

كان بعض زعماء اليمانية وعدد من أهل دمشق وعلى رأسهم ابن بيهس الذي كان ذا نفوذ في قومه ، قد استجابوا لدعوة المبرقع اليماني الذي تمرد على الدولة في فلسطين • وقد يكون لعامل العصبية القبلية تأثير في انتصارهم له • وقد سبقت الاشارة الى أسباب تمرده والى توسع دعوته • وخرج ابن بيهس اثر وفاة المعتصم بالله في عدد كبير من بطون قيس بدمشق ، وحاصر أميرها أبا المغيث الرافقي • فبعث الواثق بالله القائد رجاء الحضاري لاخماد ثورته • فقدم رجاء دمشق ورأى ثوارها يعسكرون بمرج راهط ، فنزل بدير مران ودعاهم الى الطاعة ، فلم يرجعوا عن غيهم فقاتلهم وهزمهم وقضى على تمردهم(٢٥) •

تمرد بعض القبائل العربية :

وتمرد عدد من القبائل العربية التي تقع منازلها قرب المدينة المنورة ، منهم بنو سليم وبنو هلال وبنو مرة ، وهم من أقوى القبائل العربية • فكانوا يعتدون على الناس ويغتصبون أموالهم • وعندما هاجم بنو سليم جماعة من كنانة وباهلة وقتلوا بعض أفرادهما وجه اليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس ثلة من الجند ، الا انهم

---

(٢٤) تاريخ ابن خلدون ٣/٥٧٢ـ٥٧٣ •
(٢٥) راجع عن تمرد القيسيين : الكامل ٦/٥٢٨ـ٥٢٩ •

استعدوا للقائها وقطعوا الطريق بين مكة والمدينة ونهبوا القرى والمناهل ، حتى تخلف الناس عن الحج • ونصبوا رجلا من سليم يقال له عزيزة الخفاجي وسلموا عليه بالخلافة[26] • فكان ذلك ولا شك محاولة للخروج على الخلافة العباسية والانفصال عنها اذا ما نجحت • فبادر الواثق بالله ووجه في سنة ٢٣٠هـ حملة على رأسها القائد التركي بغا لاخضاعهم • فهاجمهم بغا وتمكن من دحرهم ، فدعاهم الى الامان فاستسلم أكثرهم • ولكي يأمن تمردهم ثانية احتبس من وصف منهم بالشر والفساد وسجنهم في المدينة المنورة[27] • وكان فيهم عزيزة بن القطاب • فلما انقضى موسم الحج استطاع بغا ان يجبر بني هلال أيضا على الاستسلام ، واحتبس من أشرارهم عددا سجنهم في المدينة المنورة كذلك •

وقد حاول المسجونون الهرب فنقبوا السجن ، وقتلوا الحرس واخذوا سلاحهم • فلما علم بهم اهل المدينة أحاطوا بهم وقاتلوهم حتى قضوا عليهم • وكان عزيرة بن القطاب قد فك قيوده وجعل يقاتل بها ويرتجز قائلا[28] :

لابـد من زحم وان ضـاق الباب
اني انـا عزيـزة بن القطـاب
للمـوت خـير من العـاب
هـذا وربي عمـل للبـواب

حتى قتل فأمر به أمير المدينة المنورة فصلب[29] •

---

(٢٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٠ •
(٢٧) الطبري ٩/١٣٠-١٣١ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٠ •
(٢٨) الطبري ٩/١٣٣ •
(٢٩) النجوم الزاهرة ٢/٢٥٦-٢٥٧ •

وكان القائد بغا قد توجه نحو قبائل بني مرة وفزارة الذين كانوا قد استولوا على مدينة قدك ، واستطاع ان يخضعهم ويأسر عددا كبيرا منهم ٠

وتمردت قبائل بني نمير في اليمامـــة في سنة ٢٣٢هـ وعاثت فسادا ٠ فأمـــر الواثق بالله القائد بغا ان يتوجه اليهـــا بجيشه لتأديبها ٠ فلقيها وحاربها في معارك متعددة حتى تغلب عليها ٠ ولما تم اخضاع جميع القبائل المتمردة قفل عائدا الى بغداد ، وطلب الى أمير المدينة المنورة ان يلحق به بمن معه من الاسرى ٠ فلقيه ببغداد وسارا جميعا الى سامرا ومعهما من الأسرى ما يزيد على الألفي رجل من مختلف تلك القبائل التي تمردت ٠ وبذلك قضي على حركات تمرد القبائل العربية ٠

ان استمرار هذه الاضطرابات المحلية طيلة السنوات ٢٢٨ ــ ٢٣٢هـ ، أي طيلة خلافة الواثق بالله ، بـــين القبائل العربية في الحجاز واليمامة لابد وان تكون لها أسباب دفعت تلك القبائل الى التمرد والخروج على السلطة الى حد انها تسمي خليفة لها ٠ الا ان مراجعنا التأريخية لا تشير الى تلك الاسباب ، وانما اكتفت بذكر حشد الجيوش لاخمادها ونجاحها في القضاء عليها ٠ أي ان أخماد تلك الاضطرابات لم يتم بالقضـــاء على أسبابها ومعالجة دوافعها التي قد تكون اقتصادية او سياسية ، وانما اخضعت بقوة السيف التي تمثلت بحشود الجند التي كانت قاسية في قتالها تلك القبائل ٠ ويقول الطبري ان المتمردين كانوا يرددون حين هاجمهم بغا :

يا بغية الخير وسيف المنتبه　　　وجانب الجور البعيد المشتبه

من كان منا جانيا فلست به　　　أفعل هداك الله ما أمرت به

فقال بغا : انما امرت ان اقتلكم(٣٠) ٠

---

(٣٠) الطبري ١٣٣/٩ ٠

٥ ـ تمرد قبائل البجة[٣١]

البجة قبائل بدوية كانت تسكن شرقي بلاد النوبة ما بين نهر النيل وبحر القلزم . وبين أرض النوبة والبجة جبال منيعة . وفي بلادهم معدن الذهب والزبرجد[٣٢] . وهم ينزلون خياماً من الجلود ، وينتفون لحاهم ، وينزعون فلك ثدي الغلمان لئلا يشبه ثديهم ثدي النساء ، وغالب طعامهم الذرة ، وهم يركبون الابل ويحاربون عليها ، ويرمون بالحراب فلا يخطئون[٣٣] . وهم يقاسمون من يستخرج المعادن النفيسة من أرضهم ، ويؤدون الى عمال مصر في كل سنة أربعمائة مثقال من التبر[٣٤] . وخمسمائة نفر من العبيد والجواري مع عدد من البخت البجاوية وزرافتين وفيلين[٣٥] . وقد توقفوا من دفع ذلك في سنة ٢٤٠هـ ولعدة سنوات ، ومنعوا من كان يعمل من العرب في استخراج الذهب والجوهر ، كما اخذوا يغيرون على أراضي مصر وينتهبون بعض قرى الصعيد مثل اسنا وادفو[٣٦] .

وكتب والي مصر عنبسة بن اسحاق الى الخليفة المتوكل على الله بتمرد البجة واعتداءاتهم ، فانكر الخليفة الامر . الا ان بعد بلادهم الصحراوية عن العمران جعله يتردد في توجيه حملة عسكرية لتأديبهم . فشاور في أمرهم أرباب الخبرة بمسالك تلك البلاد ، فعرفوه انهم أهل بادية وان الوصول الى بلادهم ومنه براري ومفاوز موحشة معطشة ، وانهم متى ما طرقهم طارق استنجدوا بقبائل

---

(٣١) كذا وردت في الطبري وفي مختلف المصادر ماعدا في الكامل ٧/٧٧ فهي : البجاة .
(٣٢) مختصر كتاب البلدان /٥٩و٧٨ .
(٣٣) كتاب البلدان /٣٣٦ .
(٣٤) الطبري ٩/٢٠٦ .
(٣٥) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٥ .
(٣٦) الكامل ٧/٧٧ . والنجوم الزاهرة ٢/٢٩٥ .

الاحباش المتصلة على شواطيء النيـــل حتى بلاد الزنج[٣٧] . فبلغ الامر محمد بن عبدالله ، وكان من القـــواد الذين يتولون خفارة الحجاج أكثر السنين ، فحضر الى الفتح بن خاقان وعرض عليه انه اذا ما أمر الخليفة عامل مصر بتجهيزه كما يريد عبر الصحراء الى بلاد البجة . فلمـــا عرض الفتح ذلك على المتـــوكل على الله أمر بتجهيزه بسائر ما يحتاج اليه وتقدم الى عنبسة ان يمده بالرجال والخيل والجمال وما يحتاج اليه من الميرة والسلاح والاموال[٣٨] .

فخرج اليهم محمد بن عبـــدالله من مصر وقد انضم اليه عدد كبير من المتطوعين ممن كانوا يعملون في استخراج المعادن ، بحيث صار عدد جيشه نحوا من عشرين ألف مقاتل بين فارس وراجل . كما سير بنفس الوقت سبعة مراكب موقـــرة بالمؤونة من الدقيق والتمر والزيت والشعير والسويق في بحـــر القلزم . وامر بعض أصحابه أن يرافقوا هذه السفن لتوافيه في ساحل البحر عند عيذاب من أرض البجة . وقد أعدها احتياطا لاحتمال عدم امكان حصول جيشه على الطعام هناك .

ولما وصل محمد بجيشه الى حصون البجة خرج اليه ملكهم ، واسمه علي بابا ، في جيش كثيف وســـلاحهم الحراب والمزاريق وأكثرهم على الجمال وهي على غايـــة من النفرة والشراسة . ولما قارب البجة عسكر محمـــد رأوا ان لا قِبَل لهم بهم لكثرة عددهم وكمال عدتهم . فعزم ملكهم على مطاولتهم في الحرب حتى تفنى ازوادهم وتضعف خيولهم فيســـهل التغلب عليهم . فاخذ يراوغ بجيشه ويستطرد أمام جيش محمد . الا ان وصول مراكب المؤونة الى جيش محمد أفسد خطة علي بابا الذي أيقن ان المدد لا ينقطع من

---

(٣٧) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٦ .

(٣٨) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٧ .

جهة الساحل ، لاسيما وان محمدا كان قد شدد الحراسة عليها كي لا تستولى عليها جموع البجة • فصمم على الاشتباك بجيش محمد •

ورای محمد بن عبدالله ان يربك جيش البجة ليضعف من أهمية كثرة عددهم فجمع اجراس الابل والخيل التي في جيشه وجعلها في اعناق خيل المقدمة ، وأمر بضرب الطبـــول ونفخ الابواق ساعة الحملة • وعندما حمـــل على البجة نفرت ابلهـــم من الاصوات الصاخبة واشتد رعبها ، فولت الادبار وتساقط عن ظهورها اكثر ركابها • فارتبك جيش علي بابا وداس بعضه بعضا • فتبعهم جيش محمد وأوقع بهم قتلا وأسرا • فلما رأى ملك البجة ذلك وايقن بالهزيمة طلب الامان • فاجابه محمد الى طلبه بعد أن أدى ما عليه من الخراج وغيره عن السنوات التي كان ممتنعا فيها عن الاداء • وأخذه محمد أسيرا الى سامرا ، فوصلها في أواخر سنة ٢٤١هـ •

ولما مثل علي بابا بين يدي المتوكل على الله أمره الحاجب بتقبيل الأرض فامتنع ، فعزم الخليفة على أن يأمـــر بقتله ، وخاطبه على لسان الترجمان : انه بلغني ان معك صنما من حجر اسود تسجد له كل يوم مرتين ، فكيف تتأبى على تقبيل الأرض بين يدي ، وبعض غلماني قد قدر عليك وعفا عنك ؟ فلما سمع علي بابا كلامه قبل الارض ثلاثا ،، فعفا عنه وخلع عليـــه وعلى أصحابه ، وسمح له بالعودة الى بلاده(٣٩) •

وكان قد وقفه بباب العامة بسامرا سبعون من البجة على ابلهم وقد رفعـــوا على حرابهم رؤوس عدد ممن قتل من عســـكرهم في العرب • وقد ولي الخليفة على البجة والطريق بين مكة ومصر سعدا الخادم ، فولي هذا محمد بن عبدالله خليفة عنه ، فخرج محمد عائدا بعلي بابا الى بلاده(٤٠) •

---

(٣٩) النجوم الزاهرة ٢/٢٩٩ •

(٤٠) الطبري ٩/٢٠٦ ، والكامل ٧/٧٩ •

٦ ـ الاضطرابات في ارمينية :

كان المأمون قد ولى خالد بن يزيـــد بن مزيد الشيباني على ارمينية ، فخالط بطارقتها ، أي أمراءها المحليين ــ وقبل هداياهم ، مما جرأهم على من جاء بعده من العمال(٤١) ٠ وبقي خالد في منصبه هذا الى أيام المعتصم بالله ، فولى بدلا عنه الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالماموني ٠ فأهمل شؤون البطارقـــة ولان لهم فازدادوا فسادا على الدولة(٤٢) ٠ وقد ولي المعتصم بالله بعده عددا من الولاة لم يتمكنوا من السيطرة على المنطقة ٠ وكان اخرهم علي بن الحسين بن سباع القيسي ٠ فاستضعفه الامراء المحليون حتى سموه اليتيم لضعفه ومهانته(٤٣) ٠ فاعاد المعتصم بالله خالد بن يزيد الشيباني الى الولاية على أرمينية وديار ربيعة ٠ فلما بلغ خبره البطارقة خافوه وعملوا على العصيان عليه ، وقـــد تحصن كل منهم في قلعته ٠ مما اضطر الخليفة على رد خالـــد ، واعادة الوالي الســـابق علي بن الحسين ٠

وكانت رواتب الجند قـــد تأخر دفعها لقلة الجباية فشغبوا مطالبين بارزاقهم ، فطالب الوالي أهل البلاد بدفع ما عليهم من الخراج ، فامتنعوا عن الدفع وثاروا به وحاصروه ، مما اضطر الخليفة على أن يبعث القائد حمـــدون بن علي بن الفضل ليتولى مساعدة الوالي في اخضاع الولاية(٤٤) ٠

ثم اضطربت أرمينية في عهـــد الواثق بالله وتحرك بها بعض البطاركة والعرب وتغلبوا على نواحيهـــم ٠ فولى الخليفة خالد بن يزيد الشيباني الولايـــة عليها وضم اليه بعض الكـــور من ديار

---

(٤١) فتوح البلدان/٢١٢ ٠
(٤٢) فتوح البلدان/٢١٢ ، ومختصر كتاب البلدان/٢٩٤ ٠
(٤٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٥ ٠
(٤٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٥ ٠

ربيعة ، فسار اليها في جيش كثيف • فلما بلغ المتغلبين امره خافه أكثرهم وكتبوا اليه يعلنون طاعتهم وارسلوا اليه الهدايا ، فرفضها وطلب ان يأتي بهـــا مرسلوها بانفسهم ، وذلك ليختبـــر ولاءهم وطاعتهم • وطلب الى اسحاق بن اسماعيل العامل على تفليس ، وكان من جملة المتغلبين يأمره بالقدوم اليه ، فلم يفعل • فزحف اليه ، الا ان الموت عاجلة قبل ان يصل اليه • فولي الخليفة محمد بن خالد مكان أبيه • ولما كان أصحاب أبيه قد انصرفوا عند موته فقد طلب الى الخليفة ان يمده• فسير اليه القائد أحمد بن بسطام الذي ساعده في جمع أصحاب أبيـــه ومواليه ، وفي محاربة قســـم من المتغلبين واخضاعهم ، مما ساعده على ضبط شؤون الولاية •

عصيان ابن البعيث في اذربيجان :

كان محمد بن البعيث من جملـــة المتغلبين على بعض نواحي اذربيجان ، فقاتله عاملها فظفر به وأسره وحمله الى سامرا فسجن فيها • الا انه ما لبث ان هرب في سنة ٢٣٤هـ وعاد الى منطقة مرند ، وجمع اليه اتباعه من ربيعة وغـــيرهم ، واعلن الخلاف والعصيان ثانية • ولم يستطع والي اذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة ان يظفر به • فولى المتوكل على الله حمدويـــه بن الفضل السعدي على اذربيجان ووجهه من سامرا على البريـــد(٤٥) • فلما وصل الى مقر عمله زحف الى ابن البعيث والجأه الى مدينـــة مرند • وكان ابن البعيث قد حصنها وجمع فيها ما يحتاجه من آلة ومؤونة للحصار • فاقام حمدوية على حصاره زمنا دون جـــدوى لمتانة أسوار المدينة وقوة حاميتها • فوجه الخليفة اليه قائدا اخر لمساعدته ، فلم يفلحا في فتح المدينة • فسير الخليفة القائد بغا الشرابي في أربعة آلاف من الجند الأتراك والمغاربة • فلما قرب بغا من مرند حاول ان يستميل

---

(٤٥) الطبري ٩/١٦٥ ، والكامل ٧/٤٢ •

بعض أصحاب ابن البعيث ، فارســل عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني[٤٦] . ومعه امان لوجوه المدينة ولابن البعيث نفسه ، على أن ينزلوا على حكم أمير المؤمنين الخليفة ، والا فانه سيقاتلهم . وان ظفر بهم لم يستبق احدا منهم ، وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة قوم عيسى بن الشيخ ، فخـــرج اليه عدد كبير منهم[٤٧] . ثم فتحت المدينة أبوابها فدخلها الجيش ، وحاول ابن البعيث الهرب فلحقه بعض الجند وأخذوه أسيرا ، وانتهب الجند منزله ومنازل أصحابه وأهل المدينة ممن لم يستأمنوا .

وقدم بغا الشرابي الى سامرا في شوال سنة ٢٣٥هـ بابن البعيث مع أخوين له واحد أبنائه ، وكانوا خرجـــوا بأمان ، مع عدد من الاسرى . وقد حملوا على الجمال ليراهــم الناس . فأمر المتوكل على الله بحبسهم . وذكــر انه لما أتي المتوكل على الله بمحمـــد بن البعيث أمر بضرب عنقه ، وقبل ان يقتله السياف سأله الخليفة عما دعاه الى ما صنع ، فقال : الشقوة ، وانت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه . وان لي فيك لظنين اسبقهمـــا الى قلبي أولاهما بك وهو العفو ، ثم اندفع يقول[٤٨] :

أبى الناس الا انك اليوم قاتلي أمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا الا جبلـــة من خطية وعفوك من نور النبـــوة يجبل
فانك خـــير السابقين الى العلا ولا شك ان خير الفعالين تفعل

فقال الخليفة لبعض أصحابه : ان معه لأدبا . فقال : بل يفعل أمير المؤمنين خيرهما ويمن عليه . فأمر برده فحبس مقيدا . وقيل

---

(٤٦) في الكامل ٧/٢٠٤ : ابن الشليل ، وفي المختصر في اخبار البشر ٢/٤٤ ابن السليك .

(٤٧) الطبري ٩/١٦٥ . والكامل ٧/٤٢ .

(٤٨) الطبري ٩/١٧٠ . والكامل ٧/٤٧-٤٨ وفيه آخر البيت الاول : بالمرء أجمل .

ان المعتز شفع فيه الى أبيه فعفا عنه(٤٩) • ولم يلبث ابن البعيث ان مات في السجن بعد وصوله سامرا بشهر واحد •

خروج ارمينية في سنة ٢٣٧هـ :

عين المتوكل على الله القائد أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري على أرمينية واذربيجان ، فعسكر بكـــرخ فيروز متأهبا للخروج الى ولايته • الا انه توفي فجأة في أوائـــل شوال سنة ٢٣٦هـ • فولى الخليفة ابنه يوسف ، فشخص الى ارمينية واستطاع ان يضبطها • وعندما خرج بقراط بن آشور ، وهو بطـــريق البطارقة ، يطالب الامارة على الولاية في سنة ٢٣٧هـ استطاع يوسف ان يظفر به فقيده وبعث به الى سامرا ، فاثار عمله هذا عـددا من البطارقة فاعلنوا عصيانهم على الوالي ، وتحالفوا على قتله ، وقد انضم اليهم اسحاق بن اسماعيل عامل تفليس • وصادف موسم سقوط الثلج في طرون ، وهي المدينة التي كان فيها يوسف الثغري ، فحاصروه ، فقاتلهم الا انهم تغلبوا عليــه وقتلوه ، كما قتلوا كل من قاتل معـــه من أهل المدينة ، وأما من لم يقاتل معه قالوا له : انزع ثيابك وانج بنفسك عريانا ، ففعلـــوا ومشوا حفاة عراة فهلك أكثرهم من البـــرد ، وسقطت أصابع كثير ممن نجا منهم ، وكان ذلك في رمضان(٥٠) • ثم تغلبوا على عمال بقية النواحي فقتلوهم •

لما بلغ المتوكل على الله خبر خروج البطارقة وقتلهم يوسف بن محمد وعماله وجه بغا الشرابي الى ارمينية طالبـــا بدم يوسف • فسار اليهم بغا بجيش كبير وحارب قتلة يوسف فظفر باكثرهم ، وقتل زهاء ثلاثين ألفا من أهل أرمينية وسبى منهم خلقا كثيرا(٥١) • ثم توجه بغـــا الى تفليس للقبض على عاملها الثائر اســحاق بن

---

(٤٩) الطبري ١٧١/٩ ، والكامل ٤٨/٧ •
(٥٠) الطبري ١٨٧/٩ ، والكامل ٥٨/٧ •
(٥١) الطبري ١٨٨/٩ ، والكامل ٥٨/٧_٥٩ •

اسماعيل • وأمر قائده زيرك التـــركي بمهاجمة المدينة ، فخرج اسماعيل الى محاربته • وكان بغـــا يقف على تل مطل على المدينة يراقب المعركة . فلما رأى خروج اسحاق بعث النفاطين فضربوا المدينة بالنار ، وكان أكثر بيوتهـــا من خشب الصنوبر فالتهمتها النيران • فعاد اسحاق الى المدينة ليعـــالج أمر الحريق فاحاط به الجند وأخذوه أســـيرا فضرب بغا عنقه وسير رأســـه الى الخليفة بسامرا • واحترق بالمدينة نحو خمسين ألف انسان ، وأسر الجند من بقي حيا فيها ، وسلبوا الموتى(٥٢) •

ثم وجه بغا جيشه لتأديب بقية العصاة من البطارقة ، ففتح قلعة الجردمـــان(٥٣) ، وهي بين برذعة وتفليس واخـــذ بطريقها اسيرا • كما استطاع ان يخضع البيلقان وأران ويأسر أصحابهما من البطارقة • وبذلك قضى على حركة العصيان والتمرد الذي كان قد عم أغلب أنحاء أرمينية • الا ان اليعقوبي يذكر ان بغا زحف الى الصنارية نحاربهـــم فهزموه فانصرف عنهم ، وتتبـــع من كان أعطاهم الامان فأخذ بعضهم ، وهرب جماعة وكاتبوا صاحب الروم وصاحب الخزر وصاحب الصقالبة ، فاجتمعوا في خلق عظيم ، فكتب بغا بذلك الى المتوكل على الله ، فندب للبلد محمد بن خالد بن يزيد الشيباني ، فلما قدم ارمينية جدد الامان للثائرين فسكنوا(٥٤) •

مما يلفت النظر تعدد الفتن التي قامت في أرمينية واذربيجان• ويظهر ان السياسة التي انتهجتها الدولة العربية في تلك المناطق ، في الابقاء على الامـــراء المحليين بمراكزهم طالما كانـــوا موالين للدولة ، كانت نتيجتها ان تمسك هـــؤلاء الامراء بسلطاتهم التي غدت مشروعة باعتراف الدولة بها • وكانوا يسخطون لأي تدخل من الولاة في شؤونهـــم ، لاسيما اذا كان اولئـــك الولاة ضعفاء •

---

(٥٢) الطبري ٩/١٩٢-١٩٣ ، والكامل ٧/٦٧ •

(٥٣) الطبري ٩/١٩٣ ، والكامل ٧/٦٨ ، وجاء فيه اسم لقلعة الحرزمان •

(٥٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٠ •

والواقع ان بطارقة ارمينية كانوا شبه مستقلين في اماراتهم • فاذا قدم عليهم وال داروه فان رأوا منه عفة وصرامة وكان في قوة وعدة اذعنوا له بالطاعة وأدوا الخراج ، والا طمعوا فيه واستخفوا بأمره(٥٥) • كما ان القسوة المتناهية التي كان يلجأ اليها قواد الحملات العسكرية التي توجه لاخضاع العصاة كاحراق المدن والامعان في تقتيل السكان وسبيهم ، كانت تولد رد فعل لدى سكان تلك المناطق فيزدادون بغضا للسلطة وبعدا عنها ، ويبادرون الى مناصرة كل من يناهضها ، انتقاما لما أصابهم • ولذلك يلاحظ ان حركات التمرد في المناطق المذكورة قلت كثيرا وكادت تتلاشى عندما شغلت الدولة بمقاومة حركة الزنج ، اذ انصرفت بكل جهودها للقضاء عليها • مما ترك للبطارقة الحرية الكاملة في ادارة شؤونهم ، ولذا لم يكن ثمة ما يدعوهم الى التمرد والعصيان •

٧ ــ فتن الخوارج :

كان جمهور الخوارج بدوا تغلب عليهم نزعة المساواة ، ولذا لم يختصوا قبيلة أو فخذا بالخلافة ، بل قالوا بترشيح كل مسلم لها ، وان يختار لها أفضل الناس بانتخاب الامة كافة(٥٦) • ويذكر الشهرستاني ان عدد فرقهم الرئيسة ثمانية ، وقد تشعبت بحيث أصبحت خمسا وعشرين فرقة ، يجمعها كلها وجوب الخروج على الامام اذا غير السيرة وعدل عن الحق(٥٧) • وهم لا يقرون مبدأ الوراثة أو التفويض ولذلك اعتبروا الخلفاء الامويين جائرين يجب الخروج عليهم ، لانهم لم تختارهم الامة •

وكان رأي الخوارج في الخلفاء العباسيين لا يختلف عن رأيهم في الخلفاء الامويين ، فانهم لا يرونهم صالحين للخلافة لانهم لم

---

(٥٥) فتوح البلدان /٢١٢ •
(٥٦) النظم الاسلامية للدوري/٨٧ـ٨٨ •
(٥٧) الملل والنحل ١/١١٥ •

يستوفوا شروطها ، ولم يختاروا من قبل الامة اختيارا حرا ، ولذلك ظلوا يحملون لـــواء الخروج عليهم طيلة عهد ســـامرا • وكانوا يستفيدون من الاضطراب القائم في حاضرة الخلافة بسبب النزاع بين الخلفاء والقواد الاتراك، فيستفحل أمرهم ويشنون الغارات على القرى والرساتيق ويجبون منها الزكاة والعشور • وقد دخلوا اكثر من مرة بعض المدن والقرى • ولم تستطع الدولة القضاء عليهم رغم الحملات التي وجهت اليهم ، لانهم لم يكونوا يتبعون قواعد الحرب النظامية • فهـم يظهرون عندما تسنح لهم الفرصـــة ، فيقاتلون بشجاعـة واستبسال ، ثم يفرون ملتجئين الى الجبـــال أو المناطق الوعرة عندما يهزمون أمام الجيش الموجه لقتالهم • ولم يتيسر لهم ان يستولوا على منطقة معينة بصورة دائمة ويؤسسوا امارة خاصة بهم • ولعل أهم أسباب ذلك قلة عددهـــم ، وان الناس لم يكونوا يؤيدونهم ، فضلا عن انهم كانوا يرهبون جانبهم لشدتهم وصرامتهم في معاملة من لـــم يأخذ بعقيدتهم ، وكثيرا ما كانـــوا يتطوعون لمحاربتهم •

وسنستعرض فيمـــا يأتي الانتفاضات التي قـــام بها رؤساء الخوارج ممن طالت مقارعتهم جيوش الخلافة في عهد سامرا • فقد خرج عدد من زعماء الخوارج في أماكن مختلفـــة من أرجاء الدولة العربية لاسيما في منطقة الموصل والجزيرة • كما كان أمرهم قد استفحل لوقت ما في سجستان من الولايات الشرقية • الا ان أكثرهم لم يتمكنوا من الثبات في وجه السلطة ، اذ سرعان ما كان يقبض عليهم فيسجنون أو يقتلون • ولـــم يستطع الاستمرار في مقارعة الحملات التي توجه اليهم سوى نفر قليل منهم • فقد خرج في سنة ٢٣١هـ على عهد الواثق بالله ، محمد بن عمرو الشيباني الخارجي من بني تغلب . في ثلاثة‌عشر رجـــلا من اتباعه ، في ديار ربيعة في الجزيرة ، واستجاب له كثيرون • فخرج الى محاربته غانم بن ابي مسلم ، وكان على جيش الموصل ، فاخذه أسيرا وبعث به الى سامرا ،

فحبس في سجن المطبق ببغداد ، ونصبت رؤوس القتلى من أصحابه عند خشبة بابك بسامرا[58] • ويروي اليعقوبي اخبار هذا الخارجي بشكل آخر فيقول ان محمد بن عمرو الشيباني خرج بديار ربيعة وابو سعيد محمد بن يوسف بها فخرج اليه مع الجند ، وكان محمد بن عمرو في ثلاثمائة أو أربعمائة من الخوارج فصار الى سنجار ثم انهزم الى ناحية الموصل ، فتبعه أبو سعيد فاسره وادخله تصيبين على بقرة ، وحمله الى الواثق فكتب اليه : ما ينبغي ان يقتل ، فانه لن يخرج خارجي مادام حيا ، فلم يترك محبوسا في أيام الواثق بالله[59] •

ويظهر ان محمد بن عمرو اطلق من السجن او انه استطاع الهرب ، لانه خرج ثانية بناحية الموصل في سنة ٢٤٨هـ في أيام المنتصر بالله • فوجه اليه القائد اسحاق بن ثابت الفرغاني ، فاخذه أسيرا مع عدد من أصحابه فقتلوا وصلبوا[60] • الا ان ابن الأثير يشير في حوادث سنة ٢٥٢هـ الى ان محمدا المذكور قتل في ديار ربيعة ، قتله خليفة لأيوب بن احمد في ذي القعدة[61] • ولعله واهم في ذلك لأنه سبق له أن أيد رواية الطبري ، الا ان يكون قد نجا من القتل في سنة ٢٤٨هـ وهرب من السجن ، أو ان الطبري واهم في تاريخ قتله وصلبه • على ان المسعودي يذكر وثوب خارجي آخر في أيام المنتصر بالله غير محمد بن عمرو ، هو ابو العمود الشاري الذي ظهر بالبوازيج قرب تكريت ، وقد استفحل أمره اذ انضمت اليه جماعات من ربيعة ومن الاكراد • فسرح اليه المنتصر بالله جيشا على رأسه القائد التركي سيما ، فكانت بين الفريقين عدة مواقع تمكن الجيش بعدها من أمر الشاري فجيء به الى سامرا • ويظهر ان

---

(٥٨) الطبري ١٤٠/٩ ، والكامل ٢٣/٧ وجاء اسمه فيه محمد بن عبدالله التغلبي ، ولعلها مصحفة عن التغلبي •

(٥٩) تاريخ اليعقوبي ٤٨٣/٢ •

(٦٠) الطبري ٢٥٥/٩ ، والكامل ١٢٠/٧ •

(٦١) الكامل ١٧٦/٧ـ١٧٧ •

المنتصر بالله عفا عنه واطلق سراحه بعد ان اخذ عليه العهد والمواثيق بعدم الخروج ثانية(٦٢) • ولا يعرف ما اذا كان أبو العمود هذا هو نفسه محمد بن عمرو الذي سبقت الاشارة اليه • ويبدو ان المسعودي قد توهم في التفصيلات ، لاسيما وانه لم يذكر شيئا عن خروج ابن عمرو الشاري • كما ان مدة خلافة المنتصر بالله وهي ستة أشهر ، لا تتسع لقيام فتنتين في نفس المنطقة • الا ان اختلاف مصير أبي العمود واختلاف القائد الذي وجه اليه ، وعفو المنتصر بالله عنه ، مما يستدعى التأمل في رواية المسعودي •

ويشير ابن الاثير الى خارجي آخر اسمه طوق من بني زهير خرج في سنة ٢٥٧ هـ فاجتمع اليه أربعة آلاف فسار الى أذرمة(٦٣) ، فحاربه أهلها ، الا انه استطاع ان يدخلها عنوة ، ويظهر انه استباح المدينة • فجمع عليه الحسن بن أيوب بن أحمد العدوي جمعا كثيرا فحاربه وظفر به فقتله وقطع رأسه وانفذه الى سامرا(٦٤) •

على ان اهم فتن الخوارج في خلال هذه المدة هي فتنة مساور بن عبدالحميد الشاري البجلي الموصلي وخلفه هارون بن عبدالله التي استمرت قرابة ثلاثين سنة ، وفتنة حمدان بن حمدون التغلبي التي دامت أربعةعشر عاما •

مساور بن عبدالحميد البجلي :

ظهر لأول مرة في رجب سنة ٢٥٣ بالبوازيج ، وهي بلد على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة(٦٥) • وكان من دهاقينها • وقد

---

(٦٢) مروج الذهب ١٣٧/٤ •
(٦٣) أذرمة : بلدة من ديار ربيعة قريبة من نصيبين ، وهي من أعمال الموصل — معجم البلدان ١٣١/١—١٣٢ •
(٦٤) الكامل ٢٤٩/٧ •
(٦٥) معجم البلدان ٥٠٣/١ •

اعتنق مذهب الخوارج واعلن العصيان لأن صاحب الشرطة ، كما يذكر ابن الاثير ، اخذ ابنا لمساور اسمه حوثرة فحبسه في الحديثة ، وهي بليدة صغيرة كانت على الجانب الشرقي من دجلة قرب الزاب الاعلى(٦٦) • وكان حوثرة فتى جميلا ، فكان صاحب الشرطة يخرجه من السجن ليلا ويحضره عنده ، ثم يرده الى الحبس نهارا • فغضب مساور لذلك وخرج وأيده جماعة فقصد الحديثة واستولى عليها واخرج ابنه من الحبس • فاختـــفى صاحب الشرطة ولم يظفر به مساور • وكثر اتباع مساور من العرب والاكراد فطمع بالاستيلاء على الموصل فسار اليها ونزل بجانبها الشرقي • وكان الوالي عليها آنذاك عقبة بن محمد بن جعفر الخزاعي ، فخرج لمقاتلته • الا ان مساورا كره القتال وآثر الانسحاب الى البوازيج ، وكان ابنه معه فسمع يقول(٦٧) :

أنا الغلام البجلي الشاري اخرجني جوركم من داري

ولما ادرك الخليفة المعتز بالله خطر فتنة مساور الخارجي وجه اليه القـــائد التركي ساتكين لحربه ، فهرب مساور نحـــو طريق خراسان • وكان المسؤول عن هذا الطريق بندار الطبري قد علم بخبره فاستعد لملاقاته ، وتوجه نحوه بثلاثمائة فارس حتى اشرف على معسكره ليلا ، فرأى اتباع مساور مشغولين بالصلاة • فأشار عليه بعض أصحابه بمباغتتهم ، الا انه امتنع عن مهاجمتهم حيلة • فلما أحس مساور واتباعه بالخطر تنادوا بالسلاح فاشتبك الطرفان وتمكن مساور من ان يهزم جيش بندار ، وتبعهم حتى لحق ببندار وتمكن منه فقتله ، وفر من نجا من أصحاب بندار ويتراوح عددهم بين مائة ومائة وخمسين رجلا • فسار مساور باتباعه الى حلوان(٦٨)،

---

(٦٦) نفس المصدر ٢/٢٣٠ •

(٦٧) الكامل ٧/١٧٥ •

(٦٨) حلوان : مدينة في اخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد فتحها العرب صلحا في سنة (١٩) • ــ معجم البلدان ٢/٢٩٠ •

يريد الاستيلاء عليها ، فخرج اليه أهلها فقاتلوه ومنعوه من دخول مدينتهم ، فقال ابن مساور في ذلك(٦٩) :

فجمت العـــراق ببندارها وحــزت البلاد بأقطارهـــا
وحلـوان صبحتها غـــارة فقتلت أغـرار غرارهـــا
وعقبة بالموصـــل أحجرته وطوقتــه الذل في كارهـــا

وكان مساور قد استولى في سنة ٢٥٤هـ على أكثر أعمال الموصل وقوي أمره • فنهض لقتاله الحسن بن أيــوب بن أحمد العدوي التغلبي ، وكان خليفة لابيه بالموصل ، ومعــه خلق كثير ، فعبر الزاب، فانسحب مساور ونزل في واد عميق، فسار الحسن في طلبه• فالتقى به واقتتلوا ، فانهزم الحسن وعـــاد بعسكره الى الموصل مغلولا • فقوي شأن مساور وخافه الناس •

ورغم ان القائد نوشري خرج اليه في رمضان وقتل من أصحابه عددا كبيرا ، الا انه لم يستطع التغلب عليه • مما شجع مساورا على أن يطمع بالاستيلاء على الموصل ، فقصدهـــا ونزل بظاهرها عند الدير الاعلى • فاستتر امير البلد منه ، وهو عبدالله بن سليمان ، لضعفه عن مقاتلته ، كما لم يساعده أهل المدينة لميلهم الى الخلاف • فدخل مساور المدينة بغير حرب ، ولم يعرض لأحد من أهلها بسوء ، سوى ان اتباعــه احرقوا دار عبدالله بن سليمان • ولمـــا حل يوم الجمعة دخل مساور المسجد الجامع ، فصعد المنبر وخطب عليه وقال في خطبته : اللهم اصلحنا واصلح ولاتنا(٧٠) • وعندما خطب وصلى جعل من أصحابه من يحرسه بالسيوف لانه لم يكن مطمئنا الى أهل الموصل لكثرتهم وعدم ميلهم اليه فضلا عن حذرهم منه • ويظهر انه

---

(٦٩) الكامل ١٨٠/٧ •

(٧٠) نفس المصدر/٢٠٥ •

لم يستطع المقام بها فتركها وسار الى الحديثة التي اتخذها مقرا له •

وقد استفاد مساور من الاضطراب السائد في حاضرة الخلافة بسبب الخلاف بين الخليفة والقواد الاتراك فاستولى على جزء من شمالي العراق ومنـــع الأموال عن الخليفة فضـــاقت على الجند أرزاقهم(٧١) • فخرج اليه القائد يارجوخ الا ان مساورا هزمه •

ولما بلغ الخليفة المهتدى بالله في أول صـــفر سنة ٢٥٦هـ ان مساورا الشاري صار الى بلد فقتل من أهلها وأحرق منازلهم ، عزم على تجريد حملة كبيرة للقضاء عليه • فأمر كبير قواده موسى بن بغا والقائدين مفلحا وبايكباك بالخروج اليه • الا انهم لم يخرجوا لعدم اطمئنانهم الى نية الخليفة تجاههم وخوفهـم من اتفاقه مع غريمهم القائد صالح بن وصيف • الا انهم بعد ان ظفروا بصالح وقتلوه سار موسى وبايكباك لحرب مساور في مستهل جمادي الاولى ، وقد شيعهما الخليفة ، الا انهما سرعان مـا عادا الى سامرا لاضطراب الاحوال فيها •

وعندما بويع الخليفة المعتمد على الله سير القائد مفلحا في عسكر حسن العدة الى قتال مساور والقضاء على تمرده ، فلما قرب العسكر من الحديثة فارقها مساور واتجه الى الجبال فتبعه جيش مفلح • فالتقى الجيشان واقتتلا ، فهزم مساور وفر باصحابه صاعدين أحد الجبال وصاروا الى ذروتـــه • فعسكر جيش مفلح في سفح الجبل لمحاصرتهم ، فعمد مساور الى الخداع فأمر اصحابه بايقاد النيران وان يركزوا رماحهـم ليوهم جيش مفلح بانهم معســـكرون فوق الجبل ، ثم هبط بهم من الجهة الاخرى من الجبل ومضى هاربا لضعف أصحابه ولكثرة ما أصابهم من الجراح(٧٢) •

---

(٧١) نفس المصدر/٢٢٦ •

(٧٢) الطبري ٩/٤٥٥-٤٥٦ ، والكامل ٧/٢٢٧ •

عاد القائد مفلح الى الموصل وأخذ يتهيأ للخروج للقاء مساور الذي كان قد عاد الى الحديثة ، فلما اقترب جيش مفلح منها ، تركها مساور وتوغل باتباعه في الجبال والوديان ، فاستعصى على مفلح الظفر به ، فعاد وقد اصاب جيشه الارهاق • فارسل مساور جماعة من أصحابه لملاحقة الجيش المنسحب ، حتى وصل مفلح الى الحديثة • الا ان هجمات أصحاب مساور اضطرته على تركها والانحدار في أول شهر رمضان سنة ٢٥٦هـ الى سامرا ، مما ساعد مساوراً على فرض هيمنته على المنطقة وجباية خراجها ، فاشتد أمره وقوى شأنه(٧٣) •

واستطاع مساور ان يظفر في سنة ٢٦١هـ بوالي خراسان يحيى بن جعفر فقتله(٧٤) ، فشخص القائد مسرور البلخي في طلبه ، فهرب مساور ولم يستطع اللحاق به • وقد توفى مساور في سنة ٢٦٣هـ وهو في طريقه الى لقاء الجيش الذي وجه من سامرا لحربه(٧٥) •

يستخلص مما ذكرناه عن مساور الشاري انه خرج عاصيا على الدولة انتقاما لسوء تصرف صاحب الشرطة ، وانه لم يكن له من المؤيدين والاتباع ما يساعده على ان يستثمر تغلبه على الحملات العسكرية التي وجهت اليه • وانه كان شجاعا لا ينقصه المكر والخديعة ، وانه كان ينهج حرب العصابات ، فكان يهاجم مكانا ما فيقتل ويحرق وينهب ثم يهرب • وبقي يظهر بين مدة وأخرى في أماكن مختلفة حتى توفى وهو يستعد لمحاربة أحد الجيوش التي وجهت اليه •

---

(٧٣) الكامل ٢٢٧/٧ •
(٧٤) الكامل ٢٨٨/٧ ، والطبري ٥١٢/٩ ، وجاء فيه اسم والي خراسان يحيى بن جقص •
(٧٥) الطبري ٥٣٢/٩ ، والكامل ٣٠٩/٧ •

حمدان بن حمدون التغلبي :

أما الخارجي الآخر الذي استمر مدة طويلة أيضا فهو حمدان بن حمدون التغلبي • وقـد انتصر لهارون الشاري في بعض معاركه • وسار اليه أول خروجه في أول رمضان سنة ٢٦٧هـ والي الموصل اسحاق بن كنداج فهزمه واتباعه الى نصيبين ، وتبعهم الى قرب آمد ، وجرت بين الطرفين معارك لم تكن حاسمة ، ويظهر ان حمدانا واتباعه استطاعوا الافلات من ابن كنداج فلم يظفر بهم(٧٦) •

وكان حمدان قد دخل الموصل بمعية هارون الشاري ، الا انهما ما لبثا ان خرجا منها • وظل حمدان يقارع الجيوش التي ترسل الى محاربته ، حتى خرج اليه الخليفة المعتضد بالله في سنة ٢٨١هـ ، وكان حمدان قد التجأ الى قلعة ماردين • فلما بلغه مجيء المعتضد بالله هرب منها فاستولى الجيش على مـا فيها من الاموال والاثاث وهدمها • وتوجهت ثلة من الجنـد خلف حمدان ، فطلبوه حتى ظفروا به ، فأمر الخليفة بحبسه(٧٧) •

هارون بن عبدالله البجلي :

عندما توفي مساور الشاري كتب اصحابه الى محمد بن خرزاد الخارجي بشهرزور ليولوه أمرهم فامتنع ، فبايعوا أيوب بن حيان البجلي • الا ان ابن خـرزاد مالبث ان ارسل الى اصحاب مساور يعلمهم بموافقته على ان يتولى أمرهم • فاجابوه انهم بايعوا ابن حيان البجلي ولا يغدرون به ، فسـار ابن خرزاد اليهم وقاتلهم ، فقتل ابن حيان ، فبايع اصحابه محمد بن عبدالله الوارقي المعروف بالغلام فقتل أيضا ، فبايعوا بعده هارون بن عبدالله البجلي الذي

---

(٧٦) الطبري ٥٨٧/٩ ، والكامل ٣٦٢/٧ •
(٧٧) الطبري ٣٨/١٠ •

استطاع ان يهزم ابن خرزاد وان يستولى على أعمال الموصل ويجبى خراجها[78] .

ثم تجدد النزاع بين محمد بن خرزاد وهارون البجلي . وكان ابن خرزاد زاهدا خشن العيش ، يلبس الصوف الغليظ ويرقع ثيابه ، ولذلك انفض عنه أغلب اتباعه . وكان هارون قد كاتبهم واستمالهم اليه فاتاه منهم الكثيرون . ولم يبق مع ابن خرزاد غير أبناء عشيرته ، فضعف أمره ، وما لبث أن قتل في أحد معاركه مع الاكراد في منطقة شهرزور . فانفرد هارون البجلي بالرئاسة على الخوارج ، فقوى شأنه وكثر اتباعه ، وتغلب على القرى والرساتيق ، وجعل على دجلة من يأخذ الزكاة من الاموال المتحدرة والمصعدة ، وبث نوابه في الرساتيق يأخذون العشر من الغلات[79] .

واستطاع هارون ان يدخل مدينة الموصل بمعاونة حمدان بن حمدون التغلبي الخارجي . وصلى هارون بالناس في جامع المدينة . الا ان بني شيبان كانوا قد تجمعوا في بعض جهات الموصل ، فجمع هارون اتباعه لمقاتلتهم . وكتب الى حمدان التغلبي يطلب نجدته ، فسار الاثنان الى نهر الخازر فاصطدما بتجمع بني شيبان واشتبكا معهم في قتال هزم فيه هارون وصاحبه حمدان واتباعهما .

استمر هارون الشاري خارجا على الدولة حتى عهد المعتضد بالله . فخرج اليه بنفسه الى الموصل في سنة ٢٨٣ هـ ، وانتدب الحسين بن حمدان التغلبي لحربه . فاشترط الحسين على الخليفة ان هو جاء بهارون ان يطلق سراح ابيه حمدان الذي سبق ان ظفر به المعتضد بالله قبل سنتين وسجنه ، فوافق الخليفة على ذلك . ومن الواضح ان المعتضد بالله اختار الحسين لهذه المهمة لانه كان بمعية أبيه الخارجي مدة . وكان أبوه يتعاون مع هارون الشاري ، ولذا

---

(٧٨) الكامل ٧ / ٣٠٩ـ٣١٠ .

(٧٩) الكامل ٧ / ٢٥٩ـ٢٦٠ .

فانه كان على معرفة بكمائن الشراة ومخابئهم وأساليب القتال التي يتبعونها · ولـم يخيب الحسين ظن الخليفة بـه ، فطارد هارون الشاري واتباعه واشتبك معهم وهزمهم وظفر بهارون وجاء به أسيرا بغير عهد ولا عقد[٨٠] ·

ولما تم القبض على هارون الشاري انصرف المعتضد راجعا الى مدينة السلام ، وخلع على الحسين بن حمـدان وطوقه بطوق من ذهب ، وأمر بفك قيد أبيه حمدان والتوسعة عليه والاحسان اليه ، ثم اطلق سراحه ·

---

(٨٠) الطبري ١٠/٤٤ ·



الباب السابع

خلفاء سامرا والمحنة

١ ـ المعتزلة وأهل السنة •

٢ ـ المعتصم بالله والمحنة •

٣ ـ المحنة في عهد الواثق بالله •

٤ ـ نهاية المحنة •



الباب السابع

خلفاء سامرا والمحنة

الفصل الأول

المعتزلة وأهل السنة

١ - مقدمة :

المعتزلة طائفة من المسلمين يسمون بأصحاب العدل والتوحيد . وتتلخص عقيدتهم بان الله تعالى قديم ، والقدم أخص صفاته ، وهو عالم قادر وحي بذاته ، وانه لايرى يوم القيامة بالابصار ، ونفوا عنه التشبيه من كل وجه . وان كلامه ، أي القرآن ، مخلوق محدث وليس أزليا ، وسموا هذا النمط توحيدا . وان الانسان قادر على أفعاله من خير أو شر ولذا فهو يستحق في الدار الآخرة على أفعاله ثوابا أو عقابا . وان الله تعالى منزه عن أن يضاف اليه شر أو ظلم وانه لا يفعل الا الخير والصلاح ، وسموا هذا النمط عدلا . وان المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة فانه يستحق الثواب ، واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، ولكن عقابه أخف من عقاب الكافر ، وهذا ما يعبرون عنه بالمنزلة بين المنزلتين ، أي انه لا مؤمن ولا كافر ، وسموا هذا النمط وعدا ووعيدا . وهم يدعون الى اقامة حكم الله على من يخالف أوامره

ونواهيه ، وذلك هو النهي عن المنكر • وبهذا تقوم عقيدة المعتزلة على الاعتقاد بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والقول بالمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر •

وسموا معتزلة لان رأسهم واصـــل بن عطاء كان يجلس الى الحسن البصري في حلقات الدرس ، فلما نشب الخلاف في الرأي حول مرتكب الكبائـر ، فقالت الخوارج بكفره ، وقالت الجماعـة بانه مؤمن وان فسق، قال واصل ان الفاسق من هذه الامة ليس مؤمنا ولا كافرا ، بل هو في منزلة بين المنزلتين • فطرده الحسن من مجلسه ، فاعتزل واصل عنه ، فاطلق عليـــه وعلى اتباعه ممن يقولون قوله اسم المعتزلة(١) • وبالنظر لايمان المعتزلة بحرية الرأي فقد تعددت اراؤهم حول القواعد الاساسية لمذهب الاعتزال ، باختلاف اجتهاد البارزين منهم •

ومع تعدد فـرق المعتزلة فهم متفقون على عـــدد من العقائد أهمها(٢) :

١ ـ نفي الصفات عن الخالق عزوجل واستحالة رؤيته بالابصار •

٢ ـ ان كلام الله محدث مخلوق •

٣ ـ الفاسق من المسلمين لا مؤمن ولا كافر ، وانما هو بمنزلة بين المنزلتين •

٤ ـ ان كل ما أمر الله به أو نهى عنه من أعمال لم يشاء الله منها شيئا ، لانه خلق الاجسام ولم يخلق شيئا من الاعراض ، أي انه لم يخلق أفعال العباد وانما هم يفعلون أعمالهم بالقدرة التي خلقها الله فيهم •

---

(١) راجع عن المعتزلة ونشوئهم وفرقهم : الملل والنحل ١/٤٣ـ٨٥ ، وثمرات الاوراق ١/١٦ ، والفرق بين الفرق/٦٧ـ١٢٢ •
(٢) الفرق بين الفرق/٦٨ـ٦٩ •

٥ ـ ان الله تعالى شيء لا كالاشياء وانه خلق كل ما خلقه من لاشيء ٠

وكان مذهب الاعتزال قد ظهر في أيام الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان ، ولم يزل ينمو ويتزايد اتباعه الى أيام الخليفة المأمون العباسي الذي اعتنق هذا المذهب واظهـــر القول بخلق القرآن ، وحاول ان يجعل الاعتزال مذهب الخلافة الرسمي ٠

أما خلاصة عقيدة أهل السنة في القرآن الكريم فقد لخصها ابن دحية بما يلي : ان القـــرآن كلام الله عزوجل ، صفة ذاتـــه وهو سبحانه متكلم به ٠ نزل به جبريل على رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم فدعاه عنه وبلغه بلسانه العربي ٠ وانه في المصاحف مثبوت ، وفي القلوب محفوظ ، وبالآذان مسموع ، وبالاصوات متلو ، وبالافهام مفهوم ، وبالحروف والاشكال والاصـــباغ مخطوط ، وبالالفاظ مقروء ، فمكتوبه ومخطوطه ومسموعه ومتلوه ومحفوظه ومقروءه، حقيقة كلام الله عزوجل غير محدث ولا مخلوق ولا مجعول ٠ وان كل تلك الصفات محدثة كائنة بعد ان لم تكن ، مختلفة متغايرة فانية ، وكلام الله باق واحد ثابت لا يزول ولا يحول ولا يبدل(٣) ٠

وقد اتفق جمهـور اهل السنة والجماعة على أصـــول أركان الدين ، وأهمها(٤) :

١ ـ ان العالم كل شيء هو غير الله عزوجل ، وان كل ما هو غير الله تعالى وغير صفاته الأزلية مخلوق مصنوع ، وان صانعه ليس بمخلوق ولا مصنوع ٠ وان الحوادث كلها لابد لها من محدث صانع ، وان صانع العالم خالق الأجسام والأعراض خيرها وشرها ٠

٢ ـ ان علم الله تعالى وقدرته وحياتـــه وارادته وسمعه وبصره وكلامه صفات أزلية له ونعوت أبدية ٠

---

(٣) النبراس/٧١ـ٧٢ ٠

(٤) للمزيد من التفصيلات راجع الفرق بين الفرق /١٩٤ـ٢١٧ ٠

٣ ـ ان مآخذ أسماء الله تعالى وأوصافه ، التوقيف عليها أما بالقرآن أو بالسنة الصحيحة وأما باجماع الأمة عليه ، ولايجوز اطلاق اسم عليه من طريق القياس ٠

٤ ـ الفرق بين الرسول والنبي ، ان كل من نزل عليه الوحي من الله تعالى على لسان ملك من الملائكة وكان مؤيدا بنوع من الكرامات الناقضة للعادات فهو نبي ٠ ومن حصلت له هذه الصفة وخص أيضا بشرع جديد أو بفسخ بعض أحكام شريعة كانت قبله فهو رسول ٠ وان المعجزة أمر يظهر بخلاف العادة على يدي مدعي النبوة مع تحديه قومه بها ومع عجز قومه عن معارضته بمثلها ، على وجه يدل على صدقه ٠

٥ ـ ان اركان شريعة الاسلام خمسة : شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، واقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ٠ ومن اسقط وجوب ركن منها أو تأويله فهو كافر ٠ وان الايمان هو المعرفة والتصديق بالقلب ٠

٦ ـ ان أفعال المكلفين خمسة : واجب ومحظور ومسنون ومكروه ومباح ٠ فالواجب ما أمر به الله تعالى على وجه اللزوم وتاركه مستحق العذاب ٠ والمحظور ما نهى الله تعالى عنه وفاعله يستحق العقاب ٠ والمسنون ما يثاب عليه فاعله ولا يعاقب تاركه ٠ والمكروه ما يثاب عليه تاركه ولا يعاقب فاعله ٠ والمباح ما ليس في فعله ثواب ولا عقاب ٠

٧ ـ ان الله سبحانه وتعالى قادر على افناء جميع العالم جملة ، وعلى افناء بعض الاجسام مع بقاء بعضها ٠

٨ ـ ان الخلافة والامامة فرض واجب على الأمة وان طريق عقد الامامة للامام الاختيار بالاجتهاد ٠

٢ ـ بداية المحنة في أيام المأمون :

ان تمسك أهل السنة بنصـوص القرآن والسنة النبوية ، وقولهم بأن الايمان ليس بحاجة الى غيرهما ، وان الاعتماد على النظر والعقل قد يوصل الى الالحاد ، يجعلهم على طرفي نقيض من مبادىء المعتزلة التي تقوم على العقل والنظر • مما أدى الى ذلك الصراع العنيف بين الفريقين حول القول بخلق القرآن • فقد كتب الخليفة المأمون في ربيع الاول سنة ٢١٨ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها ، وكان على رأس حملة عسكرية في بلاد الروم ، الى خليفته بمدينة السلام اسـحاق بن ابراهيم المصعبي ، يأمره بامتحـان القضاة والمحدثين ، وخلاصة كتابه(٥) : ان السواد الاعظم من الرعية أهل جهالة بالله ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده ، وانهم ساووا بينه تبارك وتعالى وبين ما انـزل من القرآن • فاتفقوا على ان القرآن قديم أول لم يخلقه الله ولم يحدثه • وينسب هؤلاء أنفسهم الى أهل السنة • وطلب اليه ان يجمع القضاة ويمتحنهم فيما يقولونه في خلق القرآن واحداثه ، فان أقروا بذلـك كانوا على سبيل الهدى والنجاة ، وعليهم ان لا يقبلوا شهادة من لم يقر بان القرآن مخلوق محدث • وأمره أن يكتب اليه بما يحصل من ذلك •

ثم كتب المأمون بعد ذلك الى اسحاق كتابا ثانيا خلاصته(٦) : ان من واجب أمير المؤمنين أن يجهد لله نفسه ، ويهدي من زاغ عنه ، وان يقف رعيتـه على حدود ايمانهم وسبيل فوزهـم • وان أمير المؤمنين رأى ما ينال المسلمين من القول في القرآن الذي جعل الله اماما لهم . واشتباهه على كثير منهم بأنه غير مخلوق • مما أدى الى الثلم بالدين والاعتراف بالتبديل والالحـاد • وطلب اليه أن يمتحن قاضيي بغداد وسائر القضاة في عمله ، فلا يبقى أحدا منهم مالم يقر

---

(٥) نص الكتاب في الطبري ٨/٦٣١ـ٦٣٤ •

(٦) نص الكتاب في الطبري ٨/٦٣٤ـ٦٣٧ •

بأن القـــرآن مخلوق • وان يطلب اليهم ان يمتحنـــوا من يحضر مجالسهم للشهادة ، وان لا يقبلوا شهادة من لم يقر بذلك •

فدعا اسحاق بقضـــاة بغداد وفقهائها وينوف عددهـم على العشرين(٧) ، فمنهم من أجاب ومنهم من امتنع ومنهم من راوغ في جوابه • فكتب اسحاق بجواب كل منهم الى الخليفة المأمون • فكتب الخليفة الى اسحاق كتابا ثالثا(٨) • وفيه رد المأمون على من لم يجبه وابرز عيوبهم والماخذ عليهم وطلب الى اسحاق أن يعاود امتحانهم ، ومن لم يرجع منهم عن شركه ، يشخصهم موثقـــين الى أمير المؤمنين ليرى فيهم رأيه • وقد انفذ الخليفة هذا الكتاب في خريطة بندارية ــ أي بالبريد المستعجل ــ فأجاب القوم كلهم عدا أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح ، فقيدا بالحديد ووجها الى طرسوس • الا ان المأمون كان قد مات قبل وصولهما اليه ، فاعيدا الى مدينة السلام •

وكان صاحب الخبر قد أبلغ المأمون ان بشر بن الوليد ، وهو أحد الفقهاء الذين أقروا بخلق القرآن ، قد تأول الآية الكريمة «الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان»(٩) • أي انه أقر بخلق القرآن تقية خوفا من البطش به • فكتب المأمون الى اسحاق بانهم أخطأوا تأويل الآية الكريمة ، وانما عني الله تعالى بها من كان معتقد الايمان مظهر الشرك ، فليست هذه لهم • وطلب اليـــه ان يشخصهم جميعا الى طرسوس ، فاشخصهم اليه • فلما وصلوا الرقة بلغتهم وفاة المأمون ، فاعادهم واليها عنبسة بن اسحاق الى مدينة السلام •

ويبدو ان المأمون كان يستهدف من اظهار مذهب الاعتزال ان يضعف نفوذ الفقهاء وسلطانهم على عامة الناس •

---

(٧) اورد الطبري اسمائهم في ٨/٦٣٧ •
(٨) نص الكتاب في الطبري ٨/٦٤٠ـ٦٤٤ •
(٩) سورة النحل ، الاية : ١٦٠ •

الفصل الثاني

المعتصم بالله والمحنة

١ ـ المعتصم بالله يناصر المعتزلة :

كان أبو اسحاق قد ولاه المأمون على مصر منذ سنة ٢١٤هـ ، فكتب الى كيدر وهو خليفته في مصر ، بأن أخاه أمير المؤمنين عبدالله المأمون أمره بـأن يكتب الى قضاة عمله بامتحـان من يحضرون للشهادة ، فمن أقـر منهم بان القرآن مخلوق وكان عـدلا قبلت شهادته ، ومن امتنع أسقطت شهادته • كما طلب اليه ان يمتحن القضاة بذلك أيضا ، فمن قال ان القرآن مخلوق أقره بموضعه ، ومن رفض أمره باعتزال عمله ، وأوعز اليه بمثل ذلك فيما يتعلق باهل الفقه والحديث(١) •

ولما بويع المعتصم بالله بالخلافة جعل أحمد بن أبي دواد رئيس قضاته ، واتخذه مستشارا له في كـل أموره ، حسب ما أوصاه به أخوه المأمـون • وابن أبي دواد هذا كان رأس القائلـين بخلق القرآن • والمعتصم بالله شبه أمي لايكاد يعرف شيئا من علوم الدين أو فقهه ، لاسيما ما يقول به المعتزلة من الآراء • ولذا فقد وقع

---

(١) نص الكتاب في كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٤٥ـ٤٤٧ •

تحت تأثير رئيس قضاته من جهـــة ، كما انه رغب أن لا يكون أقل اهتماما من أخيه بهذه الدعوة من جهة أخرى وبخاصة انه قد قال له في وصيته : وخذ بسيرة أخيك في القرآن • ولذا فقد استمر على نهج المأمون بأن جعل الاعتزال مذهب الخلافة الرسمي، وفي امتحان رجال الدين بخلق القرآن • وامر المعلمين ان يعلموا الصبيان ذلك(٢) • كما أمر بمناظرة أحمد بن حنبل •

٢ ـ المحنة وأحمد بن حنبل :

يعتبر الامام أحمد بن حنبل أقوى من تصدى للمحنة من رجال الفقه والحديث • وقد أصبح أبرز فقهاء أهل السنة بعد وفاة الامام محمد بن أدريس الشافعي • وبعد ان قضى في السجن ما ينوف على السنتين اخرجه المعتصم بالله لامتحانه مجددا طمعا في ان يلين ويقر بخلق القرآن • فعقد له مجلسا لمناظرته حضرة قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد وقاضي بغداد عبدالرحمن بـــن اسحاق وغيرهما من رجال الدين المعتزلة • فناظروه ثلاثة أيام فلم يقر بذلك • فأمر الخليفة به فجلد جلدا عظيما حتى غاب عقله وتقطع جلده(٣) •

الا ان لليعقوبي رأيا آخر في موقف أحمد بن حنبل من المحنة • فهو يقول انه امتنع أول الأمر عن أن يقـــول بان القرآن مخلوق فضرب عدة سياط • فطلب اسحاق بن ابراهيم الى الخليفة ان يسمح له بمناظرته لعله يستطيع ان يقنعه بتغيير رأيه • فحاجه اسحاق واستدرجه الى ان يعترف بانه لا يعلم كل شيء ، وان ما يعلمه من أمور قد تعلمه بالتدريج ، وانه لايزال يجهل أمورا كثيرة • واقنعه اسحاق بان مالم يعلمه قد علمه أمير المؤمنين • فقال ابن حنبل اني أقول بقول أمير المؤمنين في خلق القرآن ، فاشهد اسحاق على قوله ،

---

(٢) تاريخ الخلفاء/٣٣٥ •

(٣) الكامل ٦/٤٤٥ •

وخلع عليه واطلقه الى منزله(٤) • ويؤيـــد هذا ان الجاحظ قال في رسالة له بعنوان «فضيلة المعتزلة» طبعت على هامش كتاب الكامل للمبرد في سنة ١٣٢٤هـ ، ان أحمد بن حنبل لم يضرب سوى ثلاثين سوطا مقطوعة الثمار ، مشعبة الأطـــراف ، حتى أفصح بالاقرار مرارا(٥) • ولكن ابن دحية يقول : ان هـــذا القول لا يصح ، وهي حكاية مفتعلة من بعض سفلة المعتزلة ، ثم يصف طريقة ضرب ابن حنبل ، وكيف ان المعتصم بالله كان يهيب بالجلادين ان يوجعه ضربا، ويطلب منه بين آن وآخر ان يجيب الى ما يدعوه اليه فلا يرضى . وان ضربه استمر حتى فقد وعيه(٦) •

ان دعوى اقرار الامام احمد بن حنبل التي قال بها اليعقوبي والجاحظ تناقض ما اجمعت عليه المصادر الاخرى من انه رفض القول بخلق القرآن رغم سجنه وضربه ، وقـــد عرف الامام أحمد بصلابة رأيه وانه فضل الموت لـــا حمل مقيدا الى الخليفة المأمون بطرسوس ، على القول بذلك • كما انه كان يدرك اهمية موقفه من دعوة المعتزلة ، وتأثيره على أهل الســـنة • وقدلام الفقهاء السبعة الذين أجابوا بالموافقة ، فقال : لو انهـــم صبروا وقاموا لله لكان انقطع الامر وحذرهم الرجل ـ يعني المأمون ـ ولكن لما أجابوا ، وهم عين البلد ، اجترأ على غيرهم(٧) • ويرجح ان ما اورده اليعقوبي والجاحظ موضوع من قبل المعتزلة أو غيرهم من مناوئي أحمد بن حنبل ، للحط من منزلته من جهة ، وانتصارا لموقف السلطة وتأييدا لدعوتها الى القول بخلق القرآن •

---

(٤) تفصيل ذلك في تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٢ •
(٥) احمد بن حنبل والمحنة/١٤ •
(٦) النبراس/٦٨ـ٦٩ •
(٧) احمد بن حنبل والمحنة/١٠٩ •

على ان امر المحنة كان في عهـد المعتصم بالله سهلا ، اذ لم يكن الناس يلزمون بالقول بخلق القرآن[٨] . ويظهر ان الامر اقتصر على القضاة والفقهاء والمحدثين والشهود .

ولابن الأثير تسلسل تاريخي طريف في نشوء فكرة القول بخلق القرآن يذكره عندما يشير الى وفاة أحمد بن أبي دواد ، فيقول عنه وانه أخذ ذلك عن بشر المريسي ، واخذه بشر عن الجهم بن صفوان. وانه أخذ ذلك عن بشد المريسي ، واخذه بشد عن الجهم بن صفوان. وأخذه الجهم عن الجعد بن أدهم ، وأخذه الجعد عن ابان بن سمعان، وأخذه ابان عن طالوت ابن أخت لبيـد الأعصم وختنه ، وأخذه طالوت عن لبيد اليهودي الذي سـحر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لبيد يقول بخلق التـوراة ، وأول من صنف في ذلك طالوت وكان زنديقا فافشى الزندقة[٩] . وهدف ابن الأثير من هذا التسلسل اعتبار القول بخلق القرآن رأيا يهوديا ، يقول به الزنادقة ، ومن ثم فهو دخيل على الاسلام والقول به كفر .

---

(٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٥١ .

(٩) الكامل ٧/٧٥ .

الفصل الثالث

المحنة في عهد الواثق بالله

١ ـ التشدد في المحنة :

أخذ الخليفة الواثق بالله بمباديء الاعتزال ٠ اذ كان قد الزم نفسه بتقليد عمه المأمون في ادخاله فانساق في دعوته على حمل الناس على القول بخلق القرآن من جهة ، كما انه وقع تحت تأثير ابن أبي دواد من جهة أخرى ٠ فناصر المعتزلة في نشر آرائهم ٠ وبلغ من تأييده لهم وتعصبه لآرائهم انه أمر بحصر الوظائف الدينية فيهم ٠ بل انه عندما اتفق مع الروم على مفاداة اسرى العرب لديهم ، أمر بأن يمتحن الاسارى فمن قال بخلق القرآن وان الله لا يرى في الاخرة فودى به ، ومن لم يقل بذلك ترك في أيدي الروم ٠ كما سبق أن أمر بامتحان أهل الثغور وأمر بضرب أعناق من لم يقل بخلق القرآن[1] ٠

ويلاحظ ان النزاع بين المعتزلة وخصومهم انحصر في موضوع القول بخلق القرآن دون آراء المعتزلة الاخرى كالعدل الالهي وحرية الارادة ومسؤولية الانسان عن أعماله ، وغير ذلك ٠ وذلك لأن هذا الموضوع يسير الفهم فلا يحتاج الى عمق في التفكير أو مزيد من

---

(١) الطبري ٩/١٤١ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٢ ٠

العلم • فهو يتلخص في أن القـــرآن وان كان كلام الله تعالى فانه مخلوق وليس أزليا مثله • اذ ان مـــا القي في اذن الرسول صلى الله عليه وسلم من كلام الله تعالى ، عند نزول الوحي عليه ، لم يكن هو صوت الخالق عزوجل ، بل انه كلام خلقه الله تعالى وظهر بارادته بصورة غير مباشرة ، وهو يتفق في وضعه وفحواه مع ارادته تعالى • وعلى هذا فانه من مخلوقات الله تعالى المادية مثل غيره من المخلوقات الاخرى ، وليس فكرته الأبدية التي هي جزء من حقيقته لا تنفصل عنه • وهذا يناقض رأي أهل السنة الذين يقولون ان كلام الله تعالى صفة أبدية ملازمة له لا بداية له ولا نهاية ، وهو في ذلك مثل الخالق نفسه • ولذا فان القرآن الذي هو كلام الله تعالى أوحاه الى رسوله الكريم لم يحدث في مجرى الزمن ، بل انه وجد منذ الأزل ، أي انه وجد بوجوده تعالى ، ولذا لا يمكن أن يكون مخلوقا •

على الرغم من بساطة الموضوع وعقـــم نتائجه ، فان اهتمام السلطة والرأي العام به مما يدل على التقدم الثقافي الذي وصل اليه المجتمع العربي في عهد الواثق بالله في سامرا • ومع ان المعتزلة اتيح لهم ان يستخدموا سلطة الخلافة في فرض آرائهم على الناس ، فانهم لم ينجحوا في النهاية ، لأن عددا غير قليـــل من العلماء والفقهاء ، اظهروا استقلالا فكريا وشجاعة أدبية في مناهضة هذه الآراء ، ولأن المحافظين من رجال الدين كان لهم نفوذ كبير على عامة الناس •

لقد قام الاعتزال أصلا على الاجتهاد والرأي ، وشأنه في ذلك شأن المذاهب الاسلامية الاخرى • فهي تختلف في عديد من القضايا الفقهية ، غير ان خلافاتها لم تتعد المساجلة والمناقشة وحشد الآيات القرآنية والاحاديث النبوية لتأييد وجهة نظرها • أما دعاة الاعتزال فقد أخذوا مخالفيهم بالشدة والعنف، بل بالسجن والتعذيب والقتل أيضا • وانهم وسموا بالكفر كل من لم يقل بمقولتهم • وهذا مما يدعو الى الاستغراب ، اذ اوقع المعتزلة أنفسهم بتناقض واضح بين دعوتهم الى التمسك بالمبادىء العقلية والدفاع عن حرية الرأي ،

وممارستهم التعصب الأعمى باضطهاد مخالفيهم ، وعدم التسامح معهم . والواقع انهم اساءوا استخدام السلطة في فرض آرائهم على الآخرين ، مما كان له رد فعل واضح . فقد ناهض عدد من الفقهاء والعلماء هذه الدعوة رغم ما تعرضوا له من اضطهاد وتنكيل وصل ببعضهم الى السجن وبالبعض الآخر الى القتل .

كان أمر المحنة في أيام المعتصم بالله سهلا اذ لم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أم أبوا . فلما استخلف الواثق بالله أمر أن يؤخذ الناس بها بالشدة(٢) . ويقال ان قاضي قضاته ابن ابي دواد قد استولى عليه وحمله على التشدد في المحنة(٣) . وقد أمر القضاة في سائر الامصار ان لا يقبلوا شهادة من لم يقل بخلق القرآن(٤) . فقد ورد في سنة ٢٣١هـ كتاب الواثق بالله على أمير البصرة بامتحان الأئمة والمؤذنين بخلق القرآن(٥) . وجاء في كتاب الولاة والقضاة انه لما ورد كتاب الخليفة الواثق بالله على قاضي مصر محمد بن ابي الليث بامتحان الناس أجمع ، لم يبق فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن انكر المحنة ، وأمر ابن ابي الليث بأن يكتب على المساجد : لا اله الا الله رب القرآن المخلوق . فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر . ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد وأمرهم ان لا يقربوه(٦) .

ويبدو ان الناس في مصر أخذوا بعنف وألزموا القول بخلق القرآن بتأثير الجو الارهابي الذي أحدثه القاضي ابن ابي الليث . وقد أورد صاحب كتاب القضاة وكتاب الولاة أمثلة على ذلك . اذ

---

(٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٥١ .
(٣) تاريخ بغداد ١٤/١٨ . وتاريخ الخلفاء/٣٤١ .
(٤) مروج الذهب ٤/٣١٩ .
(٥) شذرات الذهب ١/٤٠٨ . والعبر ٢/٦٩ .
(٦) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٥١ .

روى عن نصر بن مرزوق انه قال : كنت جالسا في المسجد فسمعت ضوضاء ورأيت الناس قد جفلوا فنظرت فـــاذا هارون بن سعيد الأيلي وطيلسانه تحت عضـــده وعمامته في رقبته ، ومطر غلام القاضي ابن ابي الليث يســـوقه بعمامته ، وهارون ينادي بأعلى صوته القرآن كذا وكذا ، ثم اخرجـــه من المسجد يطاف بـــه في الطرق(٧) • كما يذكر اسماء عدد من العلماء الذين هربوا من مصر لأنهم امتنعوا عن القول بخلق القرآن(٨) •

ومن طريف ما يروى عن الحارث بن مسكين وقد أمتحن على عهد الواثق بالله ، فقيل له أتشهد ان القرآن مخلوق مخلوق ؟ قال : قال : أشهد ان التوراة والانجيـــل والزبور والقرآن هذه الأربعة مخلوقة ، وقد مد أصابعه الأربـــع ، فعرض بها وكنى عن خلق القرآن ، وخلص مهجته من القتل(٩) •

٢ ـ محنة أحمد بن نصر الخزاعي :

ان الفقهاء وغيرهم من رجال الدين الذين رفضوا القول بخلق القرآن وتحملوا الطـــرد من وظائفهم والســـجن والتعذيب ، لم يتوقفوا عن تحدي السلطة ومعارضة دعوتهـــا • وقد تمثلت هذه المعارضة في أيام الواثق بالله بفقيه من فقهـــاء بغداد هو احمد بن نصر بن مالك الخزاعي ، وهو اخـو ثابت بن نصر الخزاعي الذي كان أميرا على الثغور مدة سبع عشرة سنة وقد حسن أثره فيها(١٠) • وكان أحمد بن نصر قد سبق له أن تزعم المتطوعين الذين بايعوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمقاومة أهل الشر والفساد ممن

---

(٧) نفس المصدر/٤٥١ـ٤٥٢ •
(٨) نفس المصدر/٤٥٣ •
(٩) العقد الفريد ٢/٤٦٥ •
(١٠) تاريخ بغداد ٧/١٤٢ •

استغلوا ضعف السلطة ببغداد أيام الحرب بين الأمين والمأمون فعاثوا في البلد فسادا • واستطاع ابن نصر واتباعه حينذاك ان يعيدوا الأمن الى نفوس الناس ويطمئنوهم على أموالهم • ولذلك تيسر له ان يقود حملة ضد الدعوة الدينية الجديدة التي يدعو اليها الخليفة وقاضي قضاته •

وقد بدأت دعوة ابن نصر هذه مثل غيرها ، تنتشر بصورة سرية في أول الأمر وقد ساعدته ظروف معينة على كسب مزيد من الاتباع • ولعل أهم تلك الظروف هي شخصيته نفسه ، فان نسبة يتصل بكعب بن عمرو الذي ورد ذكره في الحديث الشريف «نزل القرآن على لغة الكعبين ، كعب بن لؤي وهو ابو قريش ، وكعب بن عمرو وهو ابو خزاعة»(١١) وكان جده مالك الخزاعي أحد نقباء الدعوة العباسية ، مما جعل له منزلة مميزة في مجتمع بغداد • يضاف الى ذلك انه من أهل العلم والحديث ، أمار بالمعروف قوال بالحق وداع اليه • فكان يشنع على القائلين بالدعوة الجديدة • فقد روى عنه انه قال(١٢) : رأيت مصابا قد وقع فقرأت في اذنه فكلمتني الجنية من جوفه فقالت : يا أبا عبدالله باالله دعني أخنقه فانه يقول القرآن مخلوق • كما كان يطلق لسانه في الطعن بالخليفة وحاشيته، ويقول : ما دخل عليه أحد يصدقه •

وجاء في تاريخ اليعقوبي ان احمد بن نصر كان قد قصد قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد في بعض أموره فرده ، فانصرف غاضبا عليه ذاما له ، وجعل يبسط عليه لسانه ويتهمه بالكفر والمروق عن الدين ،فمال اليه قوم لا يشكون بان ذلك غضب للدين ، فاشرأبت قلوبهم للمعصية انتصارا للقرآن(١٤) • فاعاد ابن نصر تنظيمه

---

(١١) تاريخ بغداد ٥/١٧٤ •
(١٢) نفس المصدر/١٧٥ •
(١٣) نفس المصدر /١٧٦ •
(١٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٢ •

السابق القائم على مبايعته على الامـــر بالمعروف ومعارضة القول بخلق القرآن • وقد بايعه عدد من العامة ، كمـــا اشرنا انتصارا للدين • فاتسعت دعوته وقويت حتى طمع بعض اتباعه بالثورة على الخلافة •

ان المصادر المتوفرة عن الموضوع لا توضح ما اذا كان احمد بن نصر قد استهدف من تنظيمه الجديد الخروج على الخلافة لانها لم تعد شرعية في نظره ونظر اتباعـــه • ولكن يبدو انه قد استغلته جماعات أخرى واتخذته واجهة لتحقيق مطامعها • اذ يذكر الخطيب البغدادي ان اثنين من الموسرين بـــذلا مالا وعزما على الوثوب في بغداد في شعبان سنة ٢٣١هـ(١٥) • وذكـــر الطبري ما يشبه هذا وخلاصته ان شخصين من أهل بغداد أحدهما يعرف بابي هارون السراج ، والآخر يقال لـــه طالب ، ومعهما شخص ثالث من أهل خراسان من أصحاب اسحاق بن ابراهيم المصعبي صاحب الشرطة ، وهم ممن كانوا يظهرون تأييـــد ابن نصر ، ويحركون اتباعه من اصحاب الحديث ، وممن ينكر القول بخلق القرآن من أهل بغداد ، ليحملوه على اظهار حركته ، وانهم قصدوه دون غيره لمنزلته التي أشرنا اليها • وكان طالب واتباعه يعملون في الجانب الغربي من بغداد ، ويعمل أبو هارون واتباعه في الجانب الشرقي منها ، وان هذين الشخصين فرقا أموالا في سبيل الوثوب بالخلافة ، وقد عينوا موعدا لذلك(١٦) •

على ان اخبار المؤامرة بلغت صاحب الشرطة ، فبادر بالقبض على بعض اتباع احمد بن نصر ثم تتبع الآخرين ، وأصابت الشرطة في منزل أحدهم اعلاما • ثم أخذ ابن نصر وأولاده وجماعة كانوا عنده فحملوا مقيدين الى سامرا • فعقد الخليفة مجلسا حضره قاضي

---

(١٥) تاريخ بغداد ٥/١٧٦ •

(١٦) الطبري ٩/١٣٥ـ١٣٦ •

القضاة أحمد بن أبي دواد ، واسحاق بن ابراهيم ، وعبدالرحمن بن اسحاق، وكان قاضيا على الجانب الغربي من بغداد ، وهو صديق لأحمد بن نصر . ولم يناظره الخليفـــة في الشغب ، ولا في ارادته الخروج عليه ، وقال له : دع ما اخذت لـــه(١٧) . وانما امتحنه في القول بخلق القرآن ، فأبى ان يعترف بأنه مخلوق . ولما سأله عن رؤية الرب عزوجل في الآخرة ، أجاب بالايجاب مستشهدا بالحديث النبوي القائل «ترون ربكم يوم القيامـــة لا تضامون في رؤيته» وبالحديث «ان قلب ابن آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن» فقال الواثق بالله : ويحك ، يرى كما يرى المحدود والمتجسم ، يحويه مكان ويحصره الناظر ؟ أنا أكفر برب هذه صفته(١٨) .

ولما استطلع الخليفة ممن حضر المجلس رأيهم في أقوال أحمد بن نصر ، أحل القاضي عبدالرحمن بن اسحاق دمه ، وطلب آخر ان يشرب من دمه . أما ابن أبي دواد فقال انه شيخ مختل العقل أو انه كافر يستتاب . الا ان الواثق بالله ضرب عنقه . وصلب وفي رجليه قيود ، في الحظيرة التي صلب فيها بابـــك الخرمي وحمل رأسه الى بغداد فنصب في الجانب الشرقي أياما ، ثم حول الى الجانب الغربي . ومنع الناس من التقرب منه ، واقيم عليه الحرس . وعلقت في أذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر قتله الله على يدي هارون الامام الواثق أمير المؤمنين بعد ان اقام الحجة عليه في خلق القـــرآن ونفي التشبيه ، وعرض التوبة عليـــه فابى الا المعاندة ، فعجل الله به الى ناره وأليم عذابه(١٩) .

وامر الواثق بالله بحبس كل من عرف بصحبه أحمد بن نصر ممن ذكر انه كان مشايعا له . ووضع نيف وعشرون رجلا منهم في

---

(١٧) تاريخ بغداد ١٧٧/٥ .

(١٨) نفس المصدر .

(١٩) تجارب الامم ٥٣٢/٦ ، وورد هـــذا النص بشيء من التغيير في الطبري ١٣٩/٩ وفي تاريخ بغداد ١٧٨/٥ .

حبوس الظلمة ، ومنعوا من أخذ الصدقة التي يعطاها المسجونون ، كما منعوا من الزوار وثقلوا بالحديد(٢٠) •

ويقول الذهبي ان الواثق بالله قتل ابن نصر بيده لامتناعه من القول بخلق القرآن ، ولكونه اغلظ له في الخطاب ، وقال له : يا صبي • ويقول ان أحمد بن نصر كان رأسا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقام ومعه خلق من المطوعة واستفحل امرهم ، فخافته الدولة من فتق يتم بذلك(٢١) •

ويلاحظ على محاكمة أحمد بن نصر ان الخليفة تغاضى عن جريمته السياسية وما قام به من الشغب والتآمر على الدولة والاستعداد للوثوب بالخلافة ، رغم وضوح الأدلة على ذلك وثبوتها• وانما استهدف من المحاكمة اثبات كفره ومروقه من الدين مما يحلل قتله • ويظهر ان ذلك ناشيء عن اعتبار الخلافة منصبا دينيا وان الخروج عليها والكفر بالدين سواء • وقد يكون اغفال الجانب السياسي مقصودا لصرف اذهان الناس عن فكرة التآمر على الخلافة أو الخروج عليها(٢٢) •

ويذكرنا هذا بمحاكمة الأفشين حيدر بن كاوس عندما تهيأ للانتقاض على الخليفة المعتصم بالله ، فقد اغفلت جريمته السياسية كذلك ، وحوكم على مخالفاته الدينية فقط • لأن السياسة والدين سواء في نظر العباسيين •

---

(٢٠) تجارب الامم ٦/٥٢٢ ، والطبري ٩/١٣٩ •

(٢١) العبر ١/٤٠٨ •

(٢٢) راجع عن تفصيلات حركة احمد بن نصر ومحاكمته وقتله : الطبري ٩/١٣٥ـ١٣٩ ، وتجارب الامم ٦/٥٢٩ـ٥٣٢ ، تاريخ بغداد ٥/١٧٥ـ١٧٨ ، والكامل ٧/٢٠ـ٢٣ •

٣ ـ رجوع الواثق بالله عن القول بخلق القرآن :

تدل حركة احمد بن نصر بشـــكل واضح على قوة مناهضي الاعتزال من الفقهاء رغم تشدد ثلاثة من الخلفاء في فرضه • ويقال ان الخليفة الواثق بالله رجع عن القول بخلق القرآن قبل موته(٢٣) • ويروي المسعودي سبب رجوعه كما رواه ابنه محمد المهتدي بالله الذي قال ما خلاصته انه أقدم على الواثق بالله بشيخ من أهل الفقه والحديث من أهل أذنة من الثغر الشامي مقيد ••• فقال له : يا شيخ أجب أبا عبدالله أحمد بن ابي دواد فيما يسألك عنه • فقال : يا أمير المؤمنين ، أحمد يقل عن المناظرة •• أتأذن لي في كلامه ؟ فاذن له ، فاقبل الشيخ على ابن ابي دواد وقال له : مقالتك هذه التي دعوت الناس اليها من القول بخلق القرآن ، داخلة في الدين بحيث لا يكون تاما الا بالقول بها ؟ قال : نعـــم • قال الشيخ : رسول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم [دعـــ النـــاس اليهـــا أو تركهـــم ؟ قـــال : تركهـــم • فقـــال : فعلمهـــا أو لـــم يعلمها ؟ قال : علمها • قال : فلم دعوت الناس الى مالم يدعهم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم منه ؟ فأمسك أحمد •• فصرف الرجل وجهه الى الواثق بالله وقال : يا أمير المؤمنين ، اذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه فلا وسع الله علينا • فقال الواثق بالله : نعم لا وسع الله علينا ان لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله] صلى الله عليه وسلم • • ثـــم قال الواثق بالله : اقطعوا قيده •• وأمر له بجائزة •• واحسب ان الواثق بالله رجع عنها منذ ذلك الوقت(٢٤) •

---

(٢٣) تاريخ الخلفاء /٣٤١ •

(٢٣) في تاريخ بغداد ٧٥/١٠ ، وتاريخ الخلفاء/٣٤٢ هو ابو عبدالرحمن عبدالله بن محمد الاذرمي شيخ أبي داود والنسائي • مفصل الخبر في مروج الذهب ١٩٢ـ١٩٠/٤ ، والنجوم الزاهرة ٢٦٩ـ٢٦١/٢ ، وجاء الخبر فيه بثلاث روايات ـ وتاريخ بغداد ١٥٢ـ١٥١/٤ •

ويظهر ان محاولة الانتقاض على خلافة الواثق بالله لم تقتصر على أحمد بن نصر الخزاعي واتباعه • فقد كان هناك عدد غير قليل من رجال الدين ، ممن رفضوا القول بخلق القرآن ، قد راودتهم فكرة الخروج على الخليفة الا ان الامام أحمد بن حنبل الذي كان رأس المعارضين لم تؤيد ذلك حرصا على وحدة الامة وسلامتها ولم ير في دعوة الخليفة الى القول بخلق القرآن ما يخرجه عن الخلافة • ويقول ابو يعلى الحنبلي : اجتمع فقهاء بغداد الى ابي عبدالله أحمد بن حنبل ، وقالوا : هذا أمر قد تفاقم وفشا ـ يعنون القول بخلق القرآن ـ نشاورك في انا لسنا نرضى بأمرته ولا سلطانه • فقال : عليكم بالنكرة بقلوبكم ، ولا تخلعوا يدا من طاعة ، ولا تشقوا عصا المسلمين[٢٥] •

---

(٢٥) الاحكام السلطانية لابي يعلى الحنبلي/٥ •

الفصل الرابع

نهايـــة المحنـــة

١ ـ المتوكل على الله ينهي المحنة :

سبقت الاشارة الى ان الواثق بـــالله كان قد تراجع في أواخر أيامه عن الامعان في فرض اراء المعتزلـــة على الفقهاء والمحدثين . ويقال انه تاب ورجع عن القول بخلق القرآن . الا ان المنية ادركته قبل ان يشيع ذلك(٢٦) . فلما تولى المتوكل على الله الخلافة خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم بالله والواثق بالله من الاعتقاد بمذهب المعتزلة ، فنهى عن الجدل والمناظرة وعاقب عليه . وأظهر السنة وتكلم بها في مجلسه ، وكتب الى الولايات برفع المحنة واظهار مذهب السنة(٢٧) .

ويظهر مما ذكره أبو المحاسن عن المحنة ان مبادرة المتوكل على الله بانهاء القول بخلق القرآن كانت في سنة ٢٣٤هـ ويؤيده في ذلك السيوطي(٢٨) . ويبدو ان الخليفة الجديد كان متحمسا لالغاء المحنة واعادة الطمأنينة الى النفوس باظهار السنة . فقد استقدم المحدثين والفقهاء الى سامرا واجزل لهم العطاء واكرمهـــم وطلب اليهم ان

(٢٦) النجوم الزاهرة ٢/٢٦٦ .
(٢٧) الطبري ٩/١٩٠ ، ومروج الذهب ٤/٨٦ .
(٢٨) النجوم الزاهرة ٢/٢٧٥ ، وتاريخ الخلفاء/٣٤٦ .

يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية[٢٩] . تلـــك الامور التي منع المعتزلة القول بها . ومن جملـــة من استقدمهم المتوكل على الله من بغداد وغيرها ، عبدالله وعثمان ابنا محمدين ابي شيبة الكوفيين وكانا من حفـــاظ الناس ، وقاضي البصرة ابراهيـــم بن محمد اليتمي ، ومحمـــد بن عبدالملك بن أبي الشوارب . وقســم فيهم الجوائز والاعطيـــات ، واجرى عليهم الارزاق ، وأمـــرهم بان يجلسوا للناس ويحدثوا بالاحاديث التي فيها رد على المعتزلة[٣٠] .

وقد لقيت مبادرة المتوكل على الله بالغاء المحنة واظهار السنة قبولا حسنا من عامة الناس ، فتركوا تلك المقالة ، وانكرها من كان يقول بها ، وارتفع الجدل والمناظرة[٣١] . واستحق عليها ثناء الناس وتقديرهم . حتى قال القـــاضي اليتمي : الخلفاء ثلاثة : أبوبكر الصديق قاتل أهل الردة حتى استجابوا ، وعمر بن عبدالعزيز رد مظالم بني أمية ، والمتوكل على الله محـــا البدع وأظهر السنة[٣٢] . وقال محمد بن عبدالملك بـــن ابي الشوارب : اني جعلت دعائي في المشاهد كلها للمتوكل ، وذلك ان عمر بن عبدالعزيز جاء الله به لرد المظالم ، وجاء بالمتوكل لرد الدين[٣٣] .

وقال الشاعر البحتري يمتدح سياسة المتوكل الدينية باحياء السنة ، ويعرض بالقاضي أحمد بن ابي دواد ، منها قوله[٣٤] :

أمير المؤمنـين لقـــد سكنا الى أيامـــك الغر الحســان

رددت الدين فذا بعد ما قد اراه فرقتـين تخاصــمان

---

(٢٩) نفس المصدرين السابقين .
(٣٠) تاريخ بغداد ١٠/٢٧ و ٢/٣٤٤ .
(٣١) مشاكلة الناس لزمانهم/٣٢ .
(٣٢) فوات الوفيات ١/٢٥٢ .
(٣٣) نفس المصدر ٢/٩٠ .
(٣٤) تاريخ بغداد ٧/١٦٩ـ١٧٠ .

قصمت الظالمين بكل أرض فاضحى الظلم مجهول المكان
في سنة رمت متجبريهم على قدر بداهية عوان
فما ابقت من ابن أبي دواد سوى جسد يخاطب بالمعاني
تحير فيه سابور بن سهل فطاوله ومناه الاماني
اذا اصحابه اصطحبوا بليل أطالوا الخوض في خلق القرآن
يديرون الكؤوس وهم نشاوى يحدثنا فلان عن فلان

ثم خطا المتوكل على الله في سنة ٢٣٧هـ خطوة أخرى في تصفية آثار المحنة ، فاطلق من كان في السجون من أهل البلدان ممن امتنع عن القول بخلق القرآن في أيام أبيه ، أو أخذ في خلافة الواثق بالله ، فخلاهم جميعا وكساهم(٣٥) ٠ وكان ممن اطلق سراحه القاضي بشر بن الوليد الكندي أحد اصحاب ابي يوسف وقد اخذ عنه الفقه ، وكان المأمون ولاه القضاء على مدينة المنصور ، وقد ابتلي بالمحنة في عهد المعتصم بالله ، فاعفاه من القضاء وأمر أن يحبس في منزله ووكل ببابه الشرط ، ونهى ان يفتي احدا بشيء ٠ فأمر المتوكل على الله باطلاقه وان يفتي للناس ويحدثهم(٣٦) ٠

وقد هم المتوكل على الله بانزال جثة احمد بن نصر الخزاعي المصلوبة منذ أيام الواثق بالله ٠ فاجتمع الغوغاء حولها وكثروا وتكلموا في أمر ابن نصر ٠ فبلغ ذلك الخليفة فأمر بضرب قسم منهم وحبسهم ٠ ثم أمر بعد ذلك بانزال الجثة ودفعها الى أوليائه فغسلت ودفنت ٠ وكتب صاحب البريد ببغداد الى الخليفة بخبر العامة الذين احتشدوا حول الجنازة باعداد لا تحصى وتمسحوا بها ٠ فأمر المتوكل على الله خليفته ببغداد ان يمنع اجتماع العامة في مثل هذا الأمر وشبهه(٣٧) ٠

---

(٣٥) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٤-٤٨٥ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٩٠ ٠
(٣٦) تاريخ بغداد ٧/٨٣ ٠
(٣٧) الطبري ٩/١٩٠ ٠

لقد كانت هناك بعض العوامل التي دفعت المتوكل على الله الى انتهاج هذه السياسة ، لعل أهمها انه كان يتعصب للسنة ويمقت المعتزلة • يضاف الى ذلك رغبته في التقرب الى عامة الناس التي كان تأثير الفقهاء ورجال الدين عليهــا كبيرا • فقد لمس فشل اسلافه الثلاثة في استمالة الناس الى اعتناق مذهب المعتزلة ، وحاول كسب رضاهم وولاءهم بالغاء المحنة واحياء السنة • قال يزيد المهلبي(٣٨): قال لي المتوكل يوما يا مهلبي ان الخلفاء كانت تتغضب على الرعية لتطيعها ، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني(٣٩) •

٢ ـ من ضحايا المحنة :

كان الى جانب من ذكرنا من الفقهاء ورجال الدين ممن تعرضوا لغضب السلطة لعدم قولهم بان القــرآن مخلوق ، فقهاء ومحدثون آخرون أوذوا في ســبيل تمسكهم بالسنة وعدم اقرارهــم بخلق القرآن • وكان اشهرهم :

عفان بن مسلم الصفار :

أبو عثمان عفان بن مسلم الصفار البصري ، نشأ في البصرة وانتقل الى بغداد وصار من رجال الفقه والحديث المرموقين فيها • روى عنه الامام أحمــد بن حنبل ، ومحمد بن سعد الزهــري ، والبخاري في صحيحه • يقول الخطيب البغدادي ان عفان بن مسلم اول من امتحن من الناس بمحنة القول بخلق القرآن ، وروى عنه انه قال : دعــاني اسحاق بن ابراهيم ، فلما دخلت عليه قــرأ علي الكتاب الذي بعث به المأمون من الرقة ، فاذا فيــه امتحن عفان

---

(٣٨) تاريخ بغداد ١٦٦/٧ ، وفوات الوفيات ٢٠٣/١ •

(٣٩) يزيد بن المهلب من بني المهلب بن ابي صفرة ، شاعر محسن ، من الندماء الرواة ، اتصل بالمتوكل على الله ونادمه ومدحه ، ورثاه بعد موته • وهو بصري الاصل نشأ ببغداد وبها اشتهر ، توفي سنة ٢٥٩ •

واشعه الى أن يقـــول القرآن كذا وكذا ، فان قال ذلـــك فاقره على عمله ، وان لم يجبك بما كتبت به اليـــك فاقطع عنه الذي يجرى عليه ــ وكان المأمون يجري على عفان خمسمائة درهم كل شهر ــ فلما قرأ اسحاق الكتاب ، قال لي : ماذا تقول ؟ فقرأت عليه : «قل هو الله أحد . الله الصمد ...» حتى ختمتهـــا ، فقلت : مخلوق هذا ؟ فقال اسحاق يا شيخ ان امير المؤمنين يقـــول انك ان لم تجبه الى الذي يدعوك اليه يقطـــع عنك ما يجرى عليك ، وان قطع عنـــك أمير المؤمنين قطعنا نحن عنك ايضا . فقلت له : يقول الله تعالى «وفي السماء رزقكم وما توعدون»(٤٠) . فسكت اسحاق فانصرفت(٤١) .

ويلاحظ ان الطبري الذي أورد تفصـــيلات دعوة المأمون الى القول بخلق القرآن والمراحل التي مرت بها تلك الدعوة ، لم يشر الى ما ذكره الخطيب البغدادي . فقد ذكر الطبري ان المأمون طلب الى اسحاق بن ابراهيم ان ينفذ اليه سبعة نفر عددهم(٤٢) ، ليس فيهم عفان بن مسلم . وطلب اليه في كتابـــه الثاني ان يمتحن القضاة والفقهاء ، فاحضر اسحاق ستة وعشرين عالما وفقيها(٤٣) ، ولم يكن عفان بن مسلم بينهم . ولما اشخص اســـحاق الى المأمون اثنين من الفقهاء مقيدين بالحديد(٤٤) ، لـــم يكن عفان أحدهما . وعندما اشخص اسحاق عددا اخر من الممتنعين عن الاجابة بالقول بخلق القرآن الى طرسوس ليقيموا فيهـــا حتى خروج المأمون من بلاد الروم(٤٥) ، فان عفان بن مسلم لم يكن بينهم كذلك .

وما جاء في الكامل عن هـــذا الموضوع يكاد يطابق ما اورده الطبري(٤٦) . وهو خال أيضـــا من الاشارة الى امتحان عفان بن

---

(٤٠) سورة والذاريات . الاية : ٢٢ .
(٤١) تاريخ بغداد ١٢/٢٧١ .
(٤٢) الطبري ٨/٦٣٤ .
(٤٣) الطبري ٨/٦٣٧ .
(٤٤) نفس المصدر/٦٤٤ .
(٤٥) نفس المصدر/٦٤٥ .

مسلم • وكذلك ما جاء في كتاب العيون والحدائق ، وكتاب تجارب الأمم عن أمر المأمون بامتحان القضاة والفقهاء(٤٧) ، خلا من الاشارة الى عفان بن مسلم • الا ان عدم ذكر اسم عفان بن مسلم الصفار في المصادر التي أشرنا اليها لا يعني عـــدم صحة ما اورده الخطيب البغدادي ، فقد يكون امتحانه قد جرى فرديا ، قبل ورود كتاب الخليفة الى اسحاق بن ابراهيم بامتحان القضاة والفقهاء •

توفى عفان ببغداد في صفر سنة ٢١٩هـ وعمره خمس وثمانون سنة(٤٨) •

محمد بن نوح :

الفقيه الزاهد محمد بن نوح بن ميمون بن عبدالحميد العجلي، ويعرف أبوه بالمضروب(٤٩) • عرف بشدة التمسك بالسنة والدين ، وحدث شيئا يسيرا • وكان ممن ابتلي بالمحنة بالقول بخلق القرآن في أواخر عهد المأمون • ويعتبر من الرعيل الأول من ضحايا تلك المحنة • اذ كان هو والامام احمد بن حنبل ممن امتنع عن الاجابة بالقول بخلق القرآن عندمـــا امتحن اسحاق بن ابراهيم القضاة والفقهاء والمحدثين ببغداد بأمر من المأمون • ولما كتب اسحاق الى الخليفة ، وكان حينذاك غازيا في بلاد الروم غزوته الأخيرة ، باسماء من رفض الاجابة ، كتب اليه يـــرد على الممتنعين عن القول بخلق القرآن ، وقد اتهم محمد بن نوح بالتعامل بالربا ، اذ قال عنه : واما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بابن معمر ، فاعلمهم انهم مشـاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيـــد ، وان امير

---

(٤٦) الكامل ٦/٤٢٣-٤٢٤ و ٤٢٧ •

(٤٧) العيون والحدائق ٣/٣٧٦-٣٧٧ ، وتجارب الامم ٦/٤٦٥-٤٦٦ •

(٤٨) تاريخ بغداد ١٢/٢٧٧ ، والكامل ٦/٤٥٤ •

(٤٩) تاريخ بغداد ١٣/٣٢٣ •

المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله ومجاهدتهم الا لأربائهم وما نزل به كتاب الله في امثالهم ، لاستحل ذلك ، فكيف وقد جمعوا مع الأرباء شركا وصاروا للنصارى شبها[50] . ثم أمره بعد ذلك ان يشخص اليه المخالفين . فقيد اسحاق الامام احمد بن حنبل ومحمد بن نوح بالحديد ووجه بهما الى طرسوس ليقيما فيها حتى يصلها المأمون عند عودته من بلاد الروم . وقد حملا متلازمين على بعير واحد ، فلما وصلا الرقة جاء النبأ بوفاة المأمون ، فاعادهما والي الرقة الى مدينة السلام .

وكان محمد بن نوح قد مرض في الطريق ، فمات في عانة . فصلى عليه الامام احمد ، ودفنه هناك ، وكانت وفاته في سنة ٢١٨هـ[51] . قال عنه الامام احمد : ما رأيت أحدا أقوم بأمرالله من محمد بن نوح رغم حداثة سنه ، وقلة علمه ، فقد قال لي ذات يوم يا ابا عبدالله انت رجل يقتدى بك ... فاتق‌الله واثبت لأمره ، أو بما معناه ، يشجعني على الثبات بمعارضة القول بخلق القرآن[52] .

نعيم بن حماد :

نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن همام ، أبو عبدالله الخزاعي الفارضي . كان من الرحالة في طلب الحديث . نشأ في مرو من اسرة عربية ورحل الى العراق والحجاز ، ثم سكن مصر ولم يزل مقيما فيها الى ان أشخص الى سامرا في أيام المعتصم بالله ، سمع الحديث على بعض محدثي عصره ، واختص بالمحدث عبدالله بن

---

(٥٠) الطبري ٦٤٢/٨ .
(٥١) العبر ٣٧٧/١ ، والنجوم الزاهرة ٢٢٩/٢ .
(٥٢) تاريخ بغداد ٣٢٣/٣ .

المبارك . وسمي الفارضي لأنه كان من أعلم الناس بالفرائض[٥٣] .
ويقال انه أول من جمع المسند في الحديث وصنفه[٥٤] .

وقد اختلفت فيه آراء رجال الحديث ، فمنهم من وثق بروايته واعتبره ثقة صدوقا فروى عنه ، ومنهم من اتهمه بوضع الحديث والحكايات المزورة ، ووصفه بالوهم فيما يرويه ، وقال بعضهم انه ليس من الحديث في شيء[٥٥] .

عندما استخلف المعتصم بالله أمر قاضي مصر بحمل الفقهاء على القول بخلق القرآن . وقد تولى محمـــد بن ابي الليث تنفيذ أمر الخليفة ، بعد ان استعفى القاضي هارون العوفي من هذه المهمة ، فحمل نعيم بن حماد وآخرين ممن لم يجيبوا الى القول بخلق القرآن، الى دار الخلافة . وهناك قيد وسجن ، وكان ذلك في سنة ٢٢٤هـ . ولنعيم عدة كتب في الرد على الجهمية ، وهو الخبير بآرائهم وأقوالهم، وقد قال : أنا كنت جهميا ، فلذلـــك عرفت كلامهم ، فلما طلبت الحديث عرفت انهم يدعون الى التعطيل[٥٦] . ومن هنا انبرى للرد عليهم . وجاء في هدية العارفين ان له ثلاثة عشر كتابا في الرد على الجهمية ، وكتبا في الرد على أبي حنيفة ، وناقض محمد بن الحسن الشيباني ، وان من تصانيفه أيضا كتاب الملاحم والفتن ، ومسند في الحديث[٥٧] .

ظل نعيم محبوسا حتى مات في السجن . فكان ضحية من ضحايا المحنة . وكان أوصى ان يدفن في قيوده ، وقال : اني مخاصم[٥٨] .

---

(٥٣) تاريخ بغداد ٣/٣٠٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٥٤ .
(٥٤) تاريخ بغداد ٣/٣٠٦ .
(٥٥) شذرات الذهب ٢/٦٧ ، وتاريخ بغداد ٣/٣١٢ .
(٥٦) تاريخ بغداد ٣/٣١٢ .
(٥٧) هدية العارفين ٢/٤٩٧ .
(٥٨) تاريخ بغداد ٣/٣١٣ .

وقد مات في جمادي الاولى من سنة ٢٢٨ هـ(٥٩) • فجر في قيوده والقي في حفرة دون ان يكفن او يصلي عليه أحد(٦٠) • لأن دعوة المعتزلة كانت في عنفوان قوتها •

محمد بن اسماعيل البخاري :

يظهر ان الخلاف في القول في القرآن اتخذ وسيلة للطعن على بعض الفقهاء ورجال الحديث • فقد كان أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري يقول : ان أفعال العباد مخلوقة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال «ان الله يصنع كل صانع وصنعته» وعلى هذا فان حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم مخلوقة • أما القرآن المتلو المبين ، المثبت في المصاحف ، المسطور في الكتب ، المدعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلق • قال الله تعالى «بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم»(٦١) • فاتخذ منافسو البخاري قوله هذا حجة لاتهامه في عقيدته • فقد قال محمد بن يحيى المحدث : من زعم ان القرآن مخلوق فقد كفر وخرج عن الايمان••• ومن قال لا أقول مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى الكفر، ومن زعم ان لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع لا يجالس ولا يكلم • ومن ذهب بعد مجلسنا هذا الى محمد بن اسماعيل البخاري فاتهموه ، فانه لا يحضر مجلسه الا من كان على مذهبه(٦٢) •

وقد رد البخاري على ذلك بقوله «من زعم اني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كاذب فاني لم أقله ••• الا اني قلت ان افعال العباد مخلوقة(٦٣) •

---

(٥٩) نفس المصدر ، والنجوم الزاهرة ، ٢٥٤/٢ • ويقال انه توفى سنة ٢٢٩ ـ تاريخ بغداد ٣١٤/٣ ، والنجوم الزاهرة ٢٥٧/٢ •
(٦٠) تاريخ بغداد ٣١٤/٣ •
(٦١) سورة العنكبوت ، الاية : ٤٩ •
(٦٢) تاريخ بغداد ٣١/٢ـ٣٢ •
(٦٣) نفس المصدر/٣٣ •



الباب الثامن

علاقات الدولة العربية بمملكة الروم

١ ـ الحروب بين العرب والروم •

٢ ـ المفاداة بين العرب والروم •

٣ ـ العلاقات الثقافية والتجارية بين العرب والروم •



الباب الثامن

علاقات الدولة العربية بمملكة الروم

الفصل الأول

الحروب بين العرب والروم

١ ــ مقدمة :

اضطر الخليفة المأمون الى أن يخرج غازيا الى بلاد الروم في كل سنة من السنوات الأربع الأخيرة من سني حكمه • فقد خرج في سنة ٢١٥هـ وفتح بعض الحصون الرومية • ولما هجم الروم في السنة التالية ٢١٦هـ على طرسوس والمصيصة خرج على رأس حملة لردهم وتأديبهم ، ففتح هرقلة وعــددا من الحصون • كما خرج في سنة ٢١٧هـ وحاصر مدينة لؤلؤة فهادنه أهلها • وقد توفي في السنة التالية وهو في بلاد الروم • وكان قد قرر انشاء حصن قوي فأمر ببناء مدينة طوانة من أرض الروم وحشد لها الصناع ، وولي أبنه العباس أمر بنائها[١] •

(١) تجارب الامم ٦/٤٦٤ ، والعبر ١/٣٧٢ •

ان هذه اللمحة القصيرة عن أواخر أيام المأمون تعطينا صورة واضحة عن طبيعة العلاقة العدائيـــة المستمرة بين الدولة العربية ومملكة الروم ٠

لقد كان أبو اســحاق محمد بمعية أخيه المأمــون في حملته الاخيرة ، وكان المأمون أوصى لهبالخلافة من بعده ٠ ونظرا لما واجهه أبو اسحاق من معارضة بعض القواد الذين طالبوا بمبايعة العباس بن المأمون بدلا عنه ، فقد قبل مهادنة الروم ، واسرع في العودة الى عاصمة الخلافة ٠ وأمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه في طوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة الحربية وغيرها مما قدر عليه ، واحرق مالم يقدر على حمله ، وأمـــر بصرف من كان المأمون قد أسكنهم هناك ، الى بلادهم(٢) ٠ وقـــد يكون اسراع المعتصم بالله بالعودة الى العاصمة تنفيذا لما جـــاء في وصية المأمون له «وعجل الرحلة عني والقـــدوم الى دار ملكك بالعـراق»(٣) ٠ الا ان قيامه بتخريب الحصـــن الذي أمر أخوه ببنائه ليقف في وجـــه هجمات البيزنطيين لم يعرف سببه ، الا ان يكون يخالف أخاه في أهمية موقع هذا الحصن من الناحية العسكرية ، أو انه أراد أن يغيض العباس ، وقد كلفه أبوه بالقيام على بناء الحصن المذكور ٠

لقد شغل المعتصم بالله في خـــلال السنوات الخمس الاولى من خلافته بالقضاء على ما واجهه من المشاكل والاضطرابات الداخلية مما لم يستطع معه مهاجمة بلاد الروم أو توجيه بعض الحملات الى مدنهم الحدودية ٠ ويظهر ان الروم من جانبهم قد ملوا استمرار القتال مع الجيوش العربية ، واغتنموها فرصة للراحة والاستعداد على ان انشغال الجيش العربي في القضاء على الاضطرابات ، وبخاصة حركة بابك الخرمي ، أصابه شيء من الانهاك ٠ مما اثار في نفوس

(٢) الطبري ٨/٦٦٧ ، وتجارب الامم ٦/٤٧٠ ٠
(٣) الطبري ٨/٦٤٩ ٠

البيزنطيين أطماعهم الدفينة في اجتيـــاح بعض الثغور العربية ٠ لاسيما وان بابك الخرمي كان يغري ملك الروم بمهاجمة الدولة العربية لانشغال جيوشها بمقاتلة اتباعـــه ، مستهدفا من ذلك ان يخفف ضغط الجيش العربي عليه ، اذا ما شغل الجيش المذكور في جبهة أخرى ٠

وبالنظر لما كان للمدن الحدودية القائمة بين الدولة العربية وبلاد الروم من دور كبـير في الحروب التي كانت شـــبه مستمرة بينهما ، فقد اهتم الخلفاء العباسيون الأوائل بهذه المدن والحصون فاعادوا بناء ما تخرب منها ، وزادوا في تحصينها وفي عدد القوات المقاتلة المرابطة فيها ، كما شجعوا على السكن بها ٠

ويطلق اسم الثغور على المدن الحدودية الحصينة التي حشدت بالمقاتلين ، ومنها كانت تشن الغارات على مدن الروم ٠ كما يطلق اسم العواصم على الحصون والمدن العربية الداخلية التي تنزل فيها الجيوش فتعتصم بها وتحتمي اذا عادت من هجماتها ، او اذا أرادت الخروج الى الثغور(٤) ٠ وهي بهذا الاعتبار تعصم الثغور وتمدها في وقت الحاجة ٠

٢ ـ فتح عمورية :

عندما ضيقت الجيوش العربية الخنـــاق على بابك الخرمي ، ووجد نفسه واتباعه مشرفين على الهزيمة والهلاك . كتب الى ملك الروم توفيل يعلمه ان جيوش الخليفة مشغولة بمقاتلته ، حتى ان المعتصم بالله وجه خياطة وطباخة ـ ويقصد بذلك من باب التهكم والسخرية ، القائد جعفر الخياط والقائد ايتاخ الذي كان في أول أمره طباخا ـ ويحثه على مهاجمة الثغور العربية ، لأنه ليس هناك

---

(٤) فتوح البلدان/١٣٨ ٠

من يستطيع منعه عنها وصـــده عنها . وكان يستهدف من ذلك ان يضطر الجيش العربي على الحرب في جبهة أخرى ، فيسحب الخليفة بعض الجيوش التي تحاربه ويوجهها الى محاربة الروم ، فيخف عليه ضغطها(٥) . وذلك مما يتيح له فرصـــة لجمع شمل جيشه الممزق ومطاولة الجيش العربي .

وقد لقي اقتراح بابك استجابـــة من لدن توفيل الذي اغتنم الفرصة فخــــرج في سنة ٢٢٣هـ ومعــه ملوك برجـــان والبرغر والصقالية وغيرهم ممن جاورهـــم(٦) . على رأس جيش كبير قدر بمائة ألف مقاتل ، وقيل أكثر من ذلـــك ، وفيهم من الجند نيف وسبعون ألفا ، وبقيتهم اتباع منهم المحمرة الذين كانوا قد انهزموا الى بلاد الروم حين قاتلهم اســـحاق بن ابراهيم المصعبي في سنة ٢١٩هـ . وسار حتى وصل الى زبطرة فدخلها وقتل عددا كبيرا من رجالها ، وسبى نساءها وأطفالها ، وأحرقها(٧) . ثم اغار على ملطية وماجاورها من الحصون العربية وأمعن فيها قتلا وسبيا ونهبا . ومثل بمن صار في يـــده من العرب فسمل اعينهم وقطـــع آذانهم وأنوفهم(٨) . فضـــج الناس في سامرا وبغداد ، واســـتغاثوا في المساجد . ودخل ابراهيم بن المهدي على المعتصم بالله وانشده قائما قصيدة يذكر فيها ما نزل باهل الثغـــور على أيدي الروم ويحضه على الانتصار لهم ، ومما قاله(٩) :

---

(٥) الطبري ٩/٥٦ .
(٦) مروج الذهب ٤/٥٩ .
(٧) الطبري ٩/٥٦ ، ومختصر تاريخ العرب/٢٥٠ ، وجاء فيه ان زبطرة مسقط رأس المعتصم بالله ، بينما يذكر المسعودي ان مولده كان بالخلد ببغداد سنة سنة ثمانين ومائة ـ مروج الذهب ٤/٦٤ .
(٨) الكامل ٦/٤٧٩ .
(٩) مروج الذهب ٤/٥٩ـ٦٠ ، وثمار القلوب/١٦ وفيه : يا عترةالله ، كناية عن بني العباس .

ياغارة الله قد عاينت فانتهكي هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على أجرامها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

استعظم الخليفة الأمر ، لاسيما عندما بلغه ما يقال ان امرأة أسيرة عند الروم صاحت : وا معتصماه • فاستثارته الحمية وأجابها وهو جالس على سريره : لبيك لبيك ، وأعلن نفير الحرب(١٠) ويقول ابن العماد الحنبلي ان المعتصم بالله كان في مجلس انسه والكأس في يده ، فبلغه ان أمرأة عباسية أسيرة في عمورية عند علج رومي وقد لطمها على وجهها يوما فصاحت وا معتصماه • فقال لها العلج متهكما ما يجيء اليك الا على حصان أبلق • فختم المعتصم بالله كأسه واقسم الا يشربه ا لابعد قتل العلج وتحرير الامرأة الاسيرة • ويقول انه عندما نادى بالرحيل لغزو عمورية أمر أن لا يخرج أحد من العسكر الا على حصان أبلق • فلما فتح عمورية دخلها وهو يقول : لبيك لبيك ، فطلب العلج وضرب عنقه وفك قيود الاسيرة ، وأمر ساقيه أن يأتيه بكأسه المختوم ، ففك ختمه ، وقال : الآن طاب الشراب(١١) •

أما سبب الحملة على رأي القزويني فهو ان الروم في انقرة اعتدوا على رجل من أهل العراق ، فنادى يا معتصماه • فقالوا له اصبر حتى يأتيك على الأبلق لينصرك • فوصل هذا الخبر الى المعتصم بالله فأمر بشراء كل فرس ابلق وقصد بلاد الروم(١٢) •

ان ما اورده كل من المؤرخين المذكورين لا يعدو عن نقل ما اشيع من روايات واخبار بين أهل سامرا و بغداد عندما بلغهم خبر اجتياح الروم بعض الثغور ، واعلان الخليفة نفير الحرب • وليس

---

(١٠) العيون والحدائق ٣/٣٩٠ ، والكامل ٦/٤٨٠ •
(١١) شذرات الذهب ٢/٦٣-٦٤ •
(١٢) اثار البلاد/٥٠٦ •

بالضرورة ان تكون تلك الروايات والأخبار حقيقية • على انها بنفس الوقت تعطينا صورة عن اهتمام الناس بالأمر ومحاولتهم استثارة الخليفة بمثل هذه الروايات • كما انها دليل على وقوع اعتداء الروم على المدن الحدودية مما يستلزم نهوض الدولة لصده والرد عليه •

دعا المعتصم بالله الناس الى الجهاد وأمر بالاسراع في تهيئة الجيش وتجهيزه بما يلزمه من السلاح والآلة والعدد ، وحياض الادم والروايا والقرب ، وآلة الحديد والنفط ، والدواب • حتى ذكر انه لم يتجهز مثله قبله خليفة قط • وبعد ان اكتمل اعداد الحملة قادها المعتصم بالله بنفسه • فخرج غازيا عليه دراعة بيضاء من الصوف ، وقد تعمم بعمامة الغزاة(١٣) وركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فيها زاده(١٤) •

وكان ورود الخبر بهجوم الروم بعد الظفر ببابك الخرمي ، مما سهل للخليفة التهيؤ لحرب واسعة جديدة • وقد اشهد المعتصم بالله قاضي بغداد عبدالرحمن بن اسحاق ومعه عدد من أهل العدالة، على ما أوقفه من ضياعه ، فجعل ثلثا لولده ، وثلثا لله تعالى ، وثلثا لمواليه(١٥) • ثم عسكر بموضع خارج سامرا يعرف بالعيون غربي دجلة ، في أوائل جمادي الاولى سنة ٢٢٣هـ(١٦) • وقد تألفت الحملة من جيشين تولى الخليفة نفسه قيادة الجيش الرئيس وعبر به جبال كيليكيا سالكا درب طرسوس • واناط قيادة الجيش الآخر بالافشين حيدر بن كاوس وأمره بدخول بلاد الروم من الممر الشمالي ، درب الحدث ، عبر جبال طوروس ، على أن يتلاقيا بأنقرة ، وجعل الخليفة على مقدمة جيشه القائد أشناس واتبعه

---

(١٣) مروج الذهب ٤/٦٠ •
(١٤) الطبري ٩/٥٦ ، والفخري/٢١٠ •
(١٥) الطبري ٩/٥٦ •
(١٦) نفس المصدر ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٥ •

بالقائد محمد بن ابراهيم ، وعلى يمنته ايتاخ ، وعلى ميسرته جعفر بن دينـــار الخياط ، أما القلب فقد اناط قيادتـــه بعجيف بن عنبسة[١٧] ·

وقبل ان يتحرك المعتصم بالله بجيشه وجه عجيف بن عنبسة وعمر الفرغاني وجماعـة من القواد الى زبطرة اعانة لأهلهـــا ، فوجدوا ان الروم قد انصرفوا عنها ، فمكثوا بها قليلا حتى اطمأن أهلها وعادوا الى قراهم وبيوتهم[١٨] ·

لقد عزم المعتصم بالله على ان يسير الى مدينة عمورية بعد أن عرف انها أكبر المدن الرومية بعد القسطنطينية وأمنعها ، وانها موطن الاسرة التي كانت تحكم الروم يومئـــذ · ولأهمية عمورية يسميها الدينوري القسطنطينية الصغرى[١٩] · ويفهم مما جاء في كتابي الطبري والعيون والحدائق، ان المعتصم بالله كان قد استفسر وهو بسامرا ، أي قبل أن يتحرك بحملته ، عن أمنع بلاد الروم فقيل له عمورية[٢٠] · الا ان صاحب الفخري يقول ان المعتصم بالله ظفر ببعض أهل الروم فســأله عن أحصن مدنهم وأعظمهـــا وأعزها عندهم ، فقال لـه الرومي ان عمورية هي عين بلادهـــم ، فتوجه اليها[٢١] · الا اننـــا نرى ان ما ذكره ابن الطقطقي كان من بـــاب الاستنتاج ، لأن معرفة مدن العـــدو من حيث مواقعها وتحصينها وطرق الوصول اليها من ضرورات الامور العسكرية التي يتعين على الجيش الغازي أن يعرفها قبل سيره الى ساحة القتال · ومما يؤيد ذلك ان المعتصم بالله لما خرج بجيشه نقش على الألوية والتروس اسم

---

(١٧) الطبري ٩/٥٧ ·
(١٨) نفس المصدر ·
(١٩) الاخبار الطوال /٣٣٨ ·
(٢٠) الطبري ٩/٥٧ ، والعيون والحدائق ٣/٣٩٠ ·
(٢١) الفخري/٢١٠ ·

عمورية وأمر أن يكتب كل حامل لواء على انه يقصد عمورية باللغة اليونانية[٢٢] ٠

لقد استطاع قواد الحملة تنفيذ مـا كلفوا به من الواجبات ٠ وكان جيش الافشين قد توغل في بلاد الروم بعد ان هزم ملكهم في معركة مهمة ، ودخل بجيشه انقرة ، بعـــد ان استولى على عدد من المدن والحصون الرومية ٠ وتقدم الجيش العربي حتى وافى مدينة عمورية فاحاط بها ٠ وكانت محصنة تحصينا قويا ولسورها أربعة وأربعون برجا[٢٣] ٠ وبعد حصار شديد استخدمت فيه العرادات والمجانيق تمكن المهاجمون من عبور الخندق المحيط بالمدينة ٠ وقد حاول المعتصم بالله ان يستخدم الدبابات في اجتياز الخندق فأمر بأن يطم جزء منه بجلود الغنم المملوءة بالتراب ، وعمل دبابات كبارا تسع الواحدة منها عشرة رجال ليدحرجها على الجلود المذكورة الى السور ٠ الا انه لما تقدمت واحدة من الدبابات وصارت في منتصف الطريق تعلقت بتلك الجلود ، ولم يتخلص الرجال منها الا بعد جهد وشدة ، فاهمل استخدامها[٢٤] ٠

ومما ساعد على اقتحام المدينة ان احد اسرى العرب بعمورية اخبر الخليفة بان السيول كانت قد اجتاحت جزء من السور ، فأمر ملك الروم عامل عمورية بأن يعمـــره ، فتعجل في ذلك وبناه بناء ضعيفا موقتا ٠ فتعرف المعتصم بالله على ذلك الموضع من السور وامر بضربه بالمجانيق فتهدم ، مما مكن الجيش العربي من دخول المدينة ، فاضطرت حاميتها على الاستسلام ، وأسر كبير قوادها ياطس[٢٥] ٠ وأمر الخليفة بهدم المدينة واحراقها ٠ ولكثرة الغنائم والاسرى ،

---

(٢٢) العرب والروم/١٣١ ٠
(٢٣) المسالك والممالك/١٠٧ ٠
(٢٤) الطبري ٩/٦٥ ٠
(٢٥) الطبري ٩/٦٨ ٠

كان لا ينادي على بيع شيء منها أكثر من ثلاثة أصوات ثم يباع ، أما الاسرى فكان ينادي عليهم خمسة خمسة وعشرة عشرة ، وذلك طلبا للسرعة(٢٦) .

ويقال ان ملك الروم عندما هزمته الجيوش العربية قبل فتح عمورية أرسل وفدا الى الخليفة المعتصم بـــالله يقول له «ان الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمري ، وأنا أبنيها بمالي ورجالي ، وارد ما أخذ من أهلها واخلي جملة من في بلد الروم من الاسارى ، وابعث اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة»(٢٧) . الا ان المعتصم بالله لم يأذن لوفد الروم في المصير اليه واحتجزه حتى تم فتح عمورية فاذن له بالانصراف(٢٨) . ويؤيد خبر الوفد ما ذكره صاحب كتاب رسل الملوك من ان ملـــك الروم توفيل بن ميخائيل ارسل الى المعتصم بالله اثر موقعة عموريـــة وفدا يحمل هدايا من ثياب الديباج المذهبة وغيرها ، ومعـــه كتاب يعتذر فيه عما بدر من جيشه في زبطرة ، ويسأل الخليفة ان ينعم عليه باطلاق سراح البطارقة الذين اسرهم الجيش العـــربي وعددهم مائة وخمسون بطريقا ، وانـــه مستعد لافتداء كل واحد منهم بمائـــة من أسرى المسلمين لديـــه(٢٩) . ولا يظهر من الخبر ما اذا كان الخليفـــة قد استجاب لالتماس ملك الروم .

يقول المسعودي ان المعتصم بالله أراد المسير الى القسطنطينية والنزول على خليجها ، والحيلة في فتحها برا وبحرا ، فاتاه ما أزعجه وصرف عما عزم عليه ، من أمر العباس بن المأمون وان بعض القواد قد بايعوه ، وانه كاتب طاغية الروم ، فاعجل المعتصم في العودة بعد

---

(٢٦) العيون والحدائق ٣/٣٩٥ ، والكامل ٦/٤٨٨ .
(٢٧) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٦ .
(٢٨) الطبري ٩/٦٩ .
(٢٩) رسل الملوك/٣٤-٣٥ .

ان حبس العباس ومؤيديه(٣٠) • ويقول السيوطي ان المعتصم بالله كان قد عزم على المسير الى أقصى الغرب ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس ، وقد روى عن أحمد بن الخصيب انه قال : ان المعتصم بالله قال لي ان بني أمية ملكوا وما لأحدنا ملك ، وملكنا نحن ولهم بالاندلس هذا الأموي ، فقدر ما يحتاج اليه لمحاربته وشرع في ذلك فاشتدت علته ومات(٣١) •

يتضح من هذا ان المعتصم بـــالله كان يطمح في الاستيلاء على الاندلس ، والقضاء على المملكة البيزنطية • ويبدو ان الروم كانوا يتوقعون ان يسير الجيش العربي ، بعد اكتساحه عمورية ، قدما نحو القسطنطينيـــة ، بحيث بات الملـــك البيزنطي يخشى سقوط عاصمته فاستنجد بمدينة البندقية وبملك الفرنج وبعبدالرحمن الثاني أمير الأندلس ، الا انه لم يتلق اية معونة من أحد منهم(٣٢) • على ان مؤامرة العباس قد اضطرت المعتصم بالله على عقد الصلح مع ملك الروم والعـــودة الى سامرا ، فسلمت بذلـــك القسطنطينية والمملكة البيزنطية •

وكان الشاعر أبو تمام الطـــائي الذي صحب المعتصم بالله في حملته هذه ، قال قصيدته المشهورة يمدح بها المعتصم بالله ويرد على تخرصات المنجمين ودعاواهم الكاذبة ، وان الفتح جلي وجه الجيش العربي بانتصاره المبين على الروم المخذولين ، فكان ذلك انتصارا عظيما للاسلام ، ننتخب منها الأبيات التالية(٣٣) :

السيف أصدق انباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف في ... متونهن جــلاء الشك والريب

---

(٣٠) مروج الذهب ٤/٦٠ •

(٣١) تاريخ الخلفاء/٣٣٧ •

(٣٢) الحدود الاسلامية البيزنطية ١/٣٨٨ •

(٣٣) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ١/٤٠ـ٧٤ •

والعلم في شهب الارماح لامعة بين الخميسين لافي السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست بنبع اذا عدت ولا غرب
عجائبا زعموا الايام مجفلة عنهن في صفر الأصفار أورجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة اذا بدا الكوكب الغربي ذوالذنب
وصيروا الابرج العليا مرتبة ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة مادار في فلك منها وفي قطب
لو بينت قط أمرا قبل موقعه لم تخف ماحل بالأوثان والصلب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت منك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام في صعد والمشركين ودار الشرك في صبب

ثم يصف هزائم الروم ، حتى يقول :

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتعب

الى أن يقول :

لم يغز قوما ولم ينهد الى بلد الا تقدمه جيش من الرعب
لولم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها في جحفل لجب
رمى بك الله برجيها فهدمها ولو رمى بك غيرالله لم يصب
من بعدما اشبوها واثقين بها والله مفتاح باب المعقل الأشب
لبيت صوتا زبطريا هرقت له كأس الكرى رضاب الخرد العرب
أجبته معلنا بالسيف منصلتا ولو اجبت بغير السيف لم تجب
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب

فمنحه المعتصم بالله عن كل بيت منها ألف دينار[٣٤] • وكان عدد أبياتها واحدا وسبعين بيتا • ويقول ابن دحية ان أبا تمام كرر انشاد القصيدة ثلاثة أيام ، فقـــال له المعتصم بالله : الى كم تجلو علينا عجوزك ؟ قال : حتى استوفي مهرها يا أمير المؤمنين • فأمر له باثنين وسبعين ألف درهم نقرة ، عن كل بيت ألف درهم شرعي[٣٥] • ويقول أبو الفرج الاصبهاني ان أول خليفة عد أبيات الشعر وأعطى على عددها هو الوليد بن يزيد الخليفة الأموي لما هنأه الشاعر يزيد بن ضبة بتوليه الخلافة ، فأمـــر أن يعطى ألف درهم لكل بيت من قصيدته[٣٦] •

استغرقت حملة المعتصم بالله على عمورية منذ أن عسكر بجيشه غربي دجلة في الثاني من جمـادي الأول حتى افتتاح المدينة قرابة ستة شهور ، أما حصارها فقد دام خمســة وخمسين يوما[٣٧] • أما عدد من اشترك من الجند في الحملة فــان الطبري رغم التفصيلات التي أوردها عن الحملة والمعارك التي جرت فيها لم يشر الى عدد المشتركين فيها • الا ان المسعودي قال عن عددهم «لم يكن يحصي الناس العدد ولا يضبطون كثرة ، فمن مكثر ومقلل ، فالمكثر يقول خمسمائة ألف ، والمقلل يقول مائتي ألف»[٣٨] ويقدر ابن دحية عدد المشتركين في الحملـــة بأكثر من ثلثمائة ألف رجـــل[٣٩] • وذكر اليعقوبي عددهم بصورة غير مباشرة ، فقــد جاء في تأريخه انه لما حبس العباس بن المأمون بعد اكتشاف مؤامرته ، وجدله مائة ألف وستة عشر ألف دينار ، فأمر المعتصم بـــالله أن تفرق على الجند ،

---

(٣٤) خلاصة الذهب المسبوك/٢٢١ •
(٣٥) النبراس/٦٤ •
(٣٦) الاغاني ٧/٩٩ •
(٣٧) الطبري ٩/٧٠ •
(٣٨) مروج الذهب ٤/٦٠ •
(٣٩) النبراس/٦٣ •

فاحصوا فوجدوا ثمانين ألف مرتزق[٤٠] • ولا يغرب عن البال ان هذا العدد يمثل الباقين من الجند المسترزقة المشتركين في الحملة ، وان تقدير كـل من المسعودي وابن دحية يشمل جميـع الرجال المقاتلين ، المسترزقة منهم والمتطوعة والمجاهدين مع أمراء الجيش وقادته • وجاء في كتاب العيون والحدائق ان القواد والامراء الذين شهدوا فتح عمورية كانوا نحو سـبعين[٤١] • فاذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ان القائد يرأس ألف جندي ، فان عدد المشتركين في الحملة سبعون ألف جندي مرتزق ، أي نظامي • ويمكن القول على ضوء ما ذكر ان عدد افراد الحملة لم يكن يقل عن مائة ألف جندي نظامي ، يضاف اليهم المتطوعة والمجاهدون •

٣ ـ أهم الحروب الحدودية :

كانت الحـروب على الحدود العربية البيزنطية سـجالا بين الطرفين ، ينال العرب من العدو ، وينال العدو منهم • والذي يلفت النظر في هذه الحروب كثرة عدد أسرى العـرب لدى الروم ، وقد يكون سبب ذلـك كثرة هجمات العرب وغزواتهـم على الثغور والحصون الرومية • يقول المقريزي «ولكثرة هجوم أساطيل العرب على بلاد العدو ، فانها كانت تسير من مصر والشام ومن أفريقية ، فلذلك احتاج الخلفاء الى الفداء»[٤٢] • والواقع ان كثرة الهجمات العربية لم تقتصر على البحر فقط بل كانت في البر أكثر •

ويلاحظ ان أكثر الغزو كان يقـع في الربيع والصيف ، لان الشتاء في بلاد الروم قارس البرد كثير الثلوج ، وذلك مما لم يعتد عليه العرب • ويظهر ان حرب عمورية قد ارهقت الروم وانهكتهم،

---

(٤٠) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٧٦ •
(٤١) العيون والحدائق ٣/٣٩٨ •
(٤٢) الخطط المقريزية ٢/١٩١ •

فلم يعد باستطاعتهم ان يثأروا لها طيلة أيام الواثق بالله . كما ان الواثق بـــالله نفسه لم تراوده فكـــرة اســـتثمار ضعف الدولة البيزنطية ، ولم يكن له أي طموح عسكري فساد السلام على الحدود بين الدولتين في عهده ، مما أفسح المجال لمفاداة الاسرى بين الطرفين، فتم فداء سنة ٢٣١هـ الذي عرف بفداء خاقان الخادم .

ويظهر ان العرب استشعروا ضعف الروم ، ولما انقضت مدة الاربعين يوما ، وهي مدة الهدنة التي حددت للمفادات ، غزا الامير أحمد بن سعيد بن مســـلم الباهلي . الا ان التوفيق لم يحالفه اذ اصاب جيشه الثلج والمطر فمات من جنده حوالي المائتين ، وغرق منهم في نهر البرندون عدد آخر وأسر منهم آخرون ، بحيث خسرت الحملة زهاء الخمسمائة رجل . وكان الروم قد تجمعوا لصد الحملة بعدد كبير مما اضطر الامير أحمد بن سعيد على التراجع مكتفيا بما غنمه من قطعان البقر والماشية . فغضب الخليفة الواثق بالله عليه وعزله(٤٣) . وهذا يؤيد ما قلنـــاه من ان الواثق بالله كان يؤثر ان يسود السلام أرجاء الدولة العربية .

وعندما عين الأمـــير علي بن يحي الأرمني أمـــيرا على الثغور الشامية اخذ يخرج لغزو الصواقي . فخرج في سنة ٢٣٧هـ، واستمر في قيادة صوائف السنتين التاليتين . ويبدو ان الغرض من خروجه سنويا كان لأرهاب العدو ومنعـــه من التمرض للثغور العربية . ويقول أبو المحاسن عن غزوة علي بن يحي في سنة ٢٣٩هـ انه أوغل في بلاد الروم حتى شارف القسطنطينية ، واحرق ألف قرية ، وقتل عشرة آلاف علج ، وسبي عشرين ألفا ، وعاد سالما غانما(٤٤) .

وهاجم الروم في يوم عرفة من سنة ٢٣٨هـ السواحل المصرية ، وكان والي مصر عنبسة بن اســـحاق أراد طهور ولديه يوم العيد

---

(٤٣) الطبري ٩/١٤٤ـ١٤٥ .
(٤٤) النجوم الزاهرة ٢/٣٠٠ .

الاضحى حتى يجمع بين العيد والفـــرح ، واحتفل لذلك احتفالا كبيرا واحضر جميع من كان من الجنـــد في الثغور المصرية ، تنيس ودمياط والاسكندرية ، ليشاركوا في الاحتفال ، فخلت تلك الثغور من حامياتها • ويبدو ان اســـطول الروم في البحر المتوسط اغتنم الفرصة فجـــاءت ثلاثمائة سفينة من سفنه مشحونـــة بالمقاتلين وهاجمت ثغر دمياط في صباح يوم عرفـة ودخلوا المدينة دون ان يلقوا مقاومـــة ، سوى ان أحد المحبوسين يقال له أبوجعفـــر بن الأكشف ، وكان من وجوه المدينة وقـد حبسه عنبسة مقيدا ، قد أخرجه بعض أعوانـــه من السجن ، فقاتل بهـــم الروم فهزمهم واخرجهم من دمياط • الا ان الروم كانوا قد احرقوا بعض دور المدينة ، واستولوا على الاسلحة وقتلـــوا كثيرا من الرجال العزل وسبوا نحوا من ستمائة امرأة ، ويقـــال ان المسلمات منهن مائة وخمس وعشرون ، والبقية من نساء القبط • كما استحوذوا على الاموال التي كانت قد وضعت لتحمل الى العراق كالقند والكتان • وكان عـدد الروم الذين نزلوا المدينة زها خمســـة آلاف رجل ، فاوقروا سفنهم من المتاع والأمـــوال والنساء ، واحرقوا المسجد الجامع والكنائس في المدينـــة ، وكان من غرق في بحيرة دمياط من النساء والصبيان أكثر مما سباه الروم(٤٥) •

ولما بلغ عنبسة نبأ هجوم الروم على دمياط نفر اليها بعد النحر في جيشه فلم يدركهم لأنهم كانوا قد مضوا الى مدينة تنيس ونزلوا في اشتومها وهو الموضع الذي يصب فيه النيل في البحر المتوسط • وكان لها سور له بابان من الحديد كان المعتصم بالله قد امر بعمله • فخربوا السور واحرقوا مـــا في الحصن من المجانيق والعرادات ، وأخذوا بابيه الحديد وحملوهما معهم(٤٦) • وكان أحد شعراء مصر

(٤٥) راجع عن مهاجمة الروم دمياط : الطبري ٩/١٩٣ـ١٩٥ ، والكامل ٧/٦٨ـ ٦٩ وفيه اسم ابن الاكشف يسر ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٩١ـ٢٩٥ •

(٤٦) الطبري ٩/١٩٤ـ١٩٥ ، والكامل/٦٩ •

وهو يحي بن الفضيل نظم شعرا يستنهض به همة الخليفة ويستثيره، ويعيب على الوالي تهاونه ، اذ قال(٤٧) :

أترضى بأن يوطأ حريمك عنوة ... وان يستباح المسلمون ويحربوا

حمار اتى دمياط والروم وثب ... بتنيس رأى العين منه وأقرب

مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما ... أصابوه من دمياط والحرب ترتب

فمارام من دمياط شبرا ولادرى ... من العجز ما ياتي وما يتجنب

فلا تنسانا بدار مضيعة ... بمصر وان الدين قدكاد يذهب

فأمر المتوكل على الله ببناء حصن دمياط ، فتولى عمارته عنبسة بن اسحاق وانفق فيه أموالا طائلة • وقد دفع هجوم الروم على دمياط وتنيس الخليفة الى الاهتمام بانشاء اسطول بحري في مصر ليؤمن صد الهجمات البحرية التي قد تقع عليها • فانشأ عنبسة أول اسطول حربي لمصر ، وبنى الموانى للسفن الحربية • وجعل الارزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر • وانتخب له القواد العارفين بمحاربة العدو في البحر • وكان لا يستخدم في الاسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وفنون الحرب البحرية • وصار للعاملين في الاسطول حرمة ومكانة ، بحيث صار كل واحد من الناس يرغب في ان يعد من جملتهم ويسعى الى ذلك بكل الوسائل(٤٨) •

واغار الروم في سنة ٢٤١هـ على عين زربة فاسروا من كان فيها من الزط مع نسائهم وأطفالهم وجواميسهم وبقرهم(٤٩) ، وكان المعتصم بالله نقلهم اليها عندما قضى على تمردهم في سنة ٢٢٠هـ •

---

(٤٧) الخطط المقريزية ١/٢١٤ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠١ وفيه اسمه يحي بن الفضل •

(٤٨) الخطط المقريزية ٢/١٩١ •

(٤٩) الطبري ٩/٢٠١ ، والكامل ٧/٨٠ •

وكان قد جرى في هذه السنة ، أي ٢٤١ هـ ، فداء بين العرب والروم، وعندما انتهت مدة هدنة الفداء هاجم الروم في السنة التالية ثغر شمشاط(٥٠) ، بعد خروج علي بن يحي من الصائفة وتقدموا حتى قاربوا مدينة آمد • وكان دخولهم من ناحية أبرق شمالي ملطية ، ثم اتجهوا الى الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا نحو عشرة آلاف رجل • فتبعهم عمر بن عبدالله الأقطع ومعه عدد كبير من المتطوعين فلم يلحقوا بهم ، لأنهم كانوا قد انصرفوا الى بلادهم ، فأمر الخليفة المتوكل على الله علي بن يحي ان يسير الى بلادهم شاتيا(٥١) •

وحينما كان المتوكل على الله في دمشق في سنة ٢٤٤ هـ وجه القائد بغا لغزو الروم ، فغزا الصائفة وافتتح صملة وعاد غانما(٥٢) • كما خرج علي بن يحي لغزو الصائفة في السنة التالية ، الا ان الروم كانوا بنفس الوقت قد أغاروا على سميساط فقتلوا وسبوا نحوا من خمسمائة انسان • وبعث ملك الروم الى أهل حصن لؤلؤة بطريقا يقال له لغنثيط(٥٣) ، يضمن لكل رجل منهم ألف دينار اذا ما سلموه الحصن ، فقبضوا عليه وسلموه الى القائد التركي بلكاجور فحمله الى أمير الثغور علي بن يحي ، فبعث به الى الخليفة ، وكتب ملك الروم يبذل مكانه ألف رجل من أسرى العرب(٥٤) •

وشهدت سنة ٢٤٦ هـ عدة غزوات عربية قام بها عدد من القواد • فقد غزا عمر بن عبدالله الأقطع الصائفة وعاد بسبعة آلاف أسير(٥٥) • وغزا قربياس وعاد بخمسة آلاف أسير ، وغزا الفضل بن

---

(٥٠) الطبري ٩/٢٠٧ ، والكامل ٧/٨١ وفيه انهم هاجموا سميساط •
(٥١) الطبري ٩/٢٠٧ ، والكامل ٧/٨١ •
(٥٢) الطبري ٩/٢٠٩ •
(٥٣) يقول ابن حوقل ان اللغنثيط هو الوزير ـ صورة الارض/١٧٨ •
(٥٤) الطبري ٩/٢١٨ ، والكامل ٧/٨٩ •
(٥٥) في الكامل سبعةعشر الفا •

قارن بحرا في عشرين مركبـا وافتتح حصن انطاكية على الساحل الجنوبي لبلاد الروم ، كما غزا علي بن يحيى فعاد بخمسة آلاف أسير ومن الدواب بعشرة آلاف رأس ، وغـــزا بلكاجور فغنـــم وسبا أيضا(٥٦) • فكان موسم الغزو العربي في هذه السنة مفعما بالمغانم والانتصارات الموضعية •

ولما تولى المنتصر بالله الخلافة اخرج القائد وصيفا على رأس جيش قوامه أثنى عشر ألف رجل عدا المتطوعين ، لرد هجوم رومي مزعوم ، فنزل ملطية وغزا الصائفة فدخل بلاد الروم وافتتح حصن فرردرية(٥٧) •

وغزا الصائفة في سنة ٢٤٩هـ القائد جعفر بن دنيار فافتتح حصنا ، واستأذنه عمر الأقطع أمير ملطية في المصير الى ناحية الروم فاذن له ، فسار عمر ومعه جيش كثير العدد فتوغل في بلاد الروم ، فتصدى له ملك الروم في جيش يزيد على خمسين ألف مقاتل فاحاطوا بالحملة العربية ، فقتل الأقطع مع ألف رجل من جيشه • وتقدم جيش الروم نحو الثغور الجزرية وتغلب عليها • فبلغ ذلك الأمير علي بن يحيى الذي قد نقل الى الولايـــة على أرمينية واذربيجان ، فبادر الى مساعدة جيش ابن الأقطع واشتبك بجيش الروم ، فقتل مع أربعمائة من أصحابه • وكان هذان القائدان الأقطع والأرمني من أبرز القادة الشجعان ، ويصفهما الطبري انهما كانا نابين من أنياب المسلمين ، وكان الروم يرهبون جانبهما • ولذا كان مقتلهما، وهما في ميدان الجهاد ، خسارة كبيرة أصيب بها الجيش العربي ، مما كان له صدى قويا في مختلف أرجاء الدولة العربية ، وبخاصة في حاضرتها سامراء وفي مدينة الســـلام • اذ شق الأمر على الناس وعظم عليهم فقدهما ، مـــع حنقهم الشديد على القـــواد الاتراك

---

(٥٦) الطبري ٢١٩/٩ ، والكامل ٩٣/٧ •
(٥٧) الطبري ٢٦٠/٩ ، والكامل ١١٩/٧ •

واستفضاعهم معاملتهم الخلفاء ، اذ صاروا يستخلفون من يحبون استخلافه ولا يحدوهم في ذلك غـــير مصالحهم الخاصة دون رعاية لشؤون الدين أو مصالح الامة • فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير • وانضم اليهم الجند من الانباء والشاكرية بحجة مطالبتهم بارزاقهم ، ففتحوا السجون واخرجوا من فيها ، واحرقوا أحد جسري المدينة وقطعوا الآخر • أما في سامرا فقد وثب جمع كبير من الناس ففتحوا السجن واخرجوا من فيه ، ولما حاولت قوة من الجند تشتيتهم وثب بهم العامة واتسع نطاق شغبهم • فخرج كبار قواد الأتراك : وصيف وبغا واوتامش ، على رأس جنودهم وقتلوا من العامة جماعة • ولما رمي وصيف بحجر أمر النفاطين فقذفوا حوانيت التجسار ومنازل الناس بالنـــار ، وانتهبـــوا بعض المنازل والحوانيت • فاستثارت هذه الحوادث حمية بعض أهل اليسار من سامرا وبغداد فاخرجوا أموالا كثــــيرة وفرقوها فيمن ينهض الى الثغور لحرب الروم ، فاقبل المتطوعون من نواحي مختلفة من أرجاء الدولة(٥٨) •

ويظهر ان الدولة العربية لم تكن مستعدة لتوجيه جيش لحرب الروم في تلك المدة ، وذلك لاضطراب شـــؤون الخليفة المستضعف المستعين بالله بسبب النزاع القائم بـــين القواد الاتراك من جهة والخليفة والقائد المتسلط أوتامش من جهة أخرى والذي انتهى بقتل أوتامش وازدياد ضعف مركز الخلافـــة ، ولهذا لم يستطع الخليفة ان يستفيد من حماس الناس ويوجههم لحرب العدو • وفي هذا يقول الطبري «فلم يبلغنا انـــه كان للسلطان فيما كان من الروم الى المسلمين من ذلك تغيير ، ولا توجيه جيش اليهم لحربهم في تلك الايام»(٥٩) •

---

(٥٨) راجع عن حوادث الشغب المذكورة : الطبري ٩/٢٦١-٢٦٣ ، والكامل ٧/ ١٢١-١٢٣ •

(٥٩) الطبري ٩/٢٦٢ •

على ان القائد بلكاجور استطاع أن يغزو في صيفين متتاليين في السنتين التاليتين ويستولى على بعض الحصون ويأسر جماعة من الروم(٦٠) ٠

ان انقسام الخلافة العباسية في عهد المستعين بالله وقيام خليفتين في وقت واحد ، ونشوب الحرب بين سامرا وبغداد ، وماتبع ذلك من مشاكل داخلية وازدياد نفوذ القواد الاتراك ، واشتداد الصراع بينهم وبين الخلفاء ، ثم قيام ثورة الزنج واستفحالها ٠ كل ذلك أدى الى انشغال الدولة عن الثغور العربية فضعفت حامياتها ، ولم تعد متحمسة للغزو والقتال ٠ بحيث انه لما غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية في سنة ٢٥٣ وقع أسيرا بيد الروم وهزم جيشه(٦١) ٠ وتلت هزيمته واسره مدة هدوء على الحدود العربية ـ الرومية ٠ الا ان انهماك الجيش العربي داخليا في اخضاع ثورة الزنج في عهد المعتمد على الله شجع الروم على اغتنام الفرصة ، فارسل باسيل الأول ، مؤسس الاسرة المقدونية في بلاد الروم ، جيشا كبيرا ليقوم بهجوم واسع على طول حدود الدولة العربية الفاصلة بينها وبين مملكته ٠ وقد استطاعت احدى الحملات أن تستولى على سميساط في سنة ٢٥٩هـ ، ثم حاصرت ملطية ، الا ان أهلها استطاعوا رد المهاجمين ، وقتلوا قائد الحملة(٦٢) ٠

وفي سنة ٢٦٣هـ سلمت حامية لؤلؤة من الصقالية الحصن الى الروم(٦٣) ٠ ويعزو ابن الاثير ذلك الى والى طرسوس القائد التركي ارخوز بن يولغ بن طرخان ، وكان غرا جاهلا فاساء السيرة في أهل الثغر وأخر عن حامية لؤلؤة ارزاقهم وميرتهم ، فضجوا من ذلك وكتبوا الى أهل طرسوس يشكون منه ويهددون بتسليم القلعة الى

(٦٠) الطبري ٢٧٧/٩ و ٣٢٧ ، والكامل ١٦٤/٧ ٠
(٦١) الطبري ٢٧٧/٩ ، والكامل ١٨٣/٧ ٠
(٦٢) الطبري ٥٠٦/٩ ، والكامل ٣٦٧/٧ ٠
(٦٣) الطبري ٥٣٢/٩ ٠

الروم اذا لم تصلهم ميراتهم وأرزاقهم • فعظم ذلك على أهل طرسوس فبادروا الى جمع مبلغ خمسة عشر ألف دينار من بينهم وسلموها الى ارخوز ليحملها الى أهل لؤلؤة فأخذها لنفسه • فلما أبطأ المال على أهل لؤلؤة سلموا القلعة الى الروم • ولما اتصل الخبر بالخليفة المعتمد على الله اضاف ولاية طرسوس الى امارة احمد بن طولون ليقوم بأمرها وأمر الحصون التابعة لهم ، وليغزو الروم منها(٦٤) •

وغزا في السنة التالية عبدالله بن رشيد بن كاوس عامل الثغور في أربعة آلاف رجل من أهل الثغور الشامية ، فدخل بلاد الروم فقتل وسبى وغنم • ولما رحل عائدا احاط به ثلاثة من بطارقة الروم بجيوشهم ، فقاتلهم باتباعه فقتل أكثرهم وتمكن الروم من أسره بعد اصابته بعدة طعنات ، فحمل الى ملك الروم • ولم يلبث في الأسر الا قليلا ، اذ ان الروم شعروا بقوة ابن طولون المتنامية وشدته في منازلتهم ، فبعث ملكهم بعبدالله بن رشيد وعدد من الاسرى وانفذ معهم عددا من المصاحف المذهبة هدية اليه(٦٥) •

ويظهر ان اناطة امارة الثغور بأمير مصر أحمد بن طولون أعاد الحماس الى حامياتها والمتطوعة فيها • فاخذت غزواتهم تترى سنة بعد أخرى فيغنمون ويعودون • فقد غزا سيما الخادم عامل ابن طولون على الثغور الشامية في سنة ٢٦٦هـ في ثلاثمائة رجل من أهل طرسوس ، فخرج عليهم نحو أربعة آلاف من الروم فاقتتلوا قتالا شديدا قتل فيه خلق كثير من العدو وأصيب آخرون ، الا ان قسما من جيش الروم وصل الى ديار ربيعة شمالي الجزيرة غربي نهر دجلة ، فقتلوا وأسروا نحوا من مائتين وخمسين شخصا • فنفر اليهم بعض رجال الموصل ونصيبين ، ففر الروم راجعين(٦٦) •

---

(٦٤) الكامل ٧/٣٠٨-٣٠٩ •
(٦٥) الطبري ٩/٥٤٥ ، والكامل ٧/٣٢٨ •
(٦٦) الطبري ٩/٥٤٩ ، والكامل ٧/٣٣٢ •

وغزا في سنة ٢٦٨هـ خلف الفرغاني عامل ابن طولون ، من ناحية الثغور الشامية فقتل من الروم بضعة عشر ألفا ، وغنم من الأموال كثيرا ، بحيث بلغ سهم المحارب منها أربعين دينارا(٦٧) •

ولما أغار ملك الروم المعروف بابن الصقلبية واناخ على ملطية في نفس السنة المذكورة ، بادر أهل مرعش والحدث الى نجدتها ، وارغموا الجيش الرومي على الفرار(٦٨) •

وحاول الروم في سنة ٢٧٠هـ القيام بهجوم واسع على الثغور العربية • فتقدم بطريق البطارقة اندرياس على رأس جيش يربو عدده على مائة ألف مقاتل ، فنزل على قلمية ، وهي على بعد ستة أميال من طرسوس • فخرج اليه القائد يازمان عامل ابن طولون على الثغور وكمن لجيش الروم وأوقع به هزيمة منكرة وأصابه بخسائر جسيمة جدا ، اذ يقال انه كبده سبعين ألف قتيل ، منهم عدد من البطارقة وكبيرهم بطريق البطارقة ، وغنم العرب غنــائم لا تحصى • فقد اخذوا لهم سبعة صلبان ذهب وفضة مع صليبهم الاعظم من الذهب المكلل بالجوهر • واستحوذوا على خمسة عشر ألف دابة ومن السروج نحــو ذلك ، واستولوا على سيوف محــلاة بالذهب والفضة ، واربعة كراس من ذهب ومائتي كرسي من فضة ، ومائتي طو قذهب ، ونحو عشرة آلاف علـم ديباج ، وغير ذلك كثير(٦٩) • ويعتبر هذا أعظم انتصار للجيش العربي على الروم بعد عمورية • ثم غزا يازمان القائد في سنة ٢٧٥هـ بحرا وهزم الروم وغنم منهم أربعة مراكب(٧٠) • ويقول ابن خلدون ان يازمان غزا بالصائفة

---

(٦٧) الطبري ٩/٦١٢ ، والكامل ٧/٣٧٣ •

(٦٨) نفس المصدرين السابقين •

(٦٩) الكامل ٧/٤٠٦-٤٠٧ ، والمنتظم ٥/٧٠-٧١ ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٧١٠ وجاء اسم القائد في الكامل : بازمار •

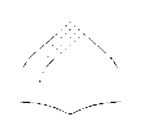
(٧٠) الكامل ٧/٤٣٣ ، والمنتظم ٥/٩٤ •

أيضا وتوغل في أرض الروم وقتل وسبى وأسر وغنم وعاد الى طرسوس(71) .

وعندما خرج يازمان للغزو في سنة ٢٧٩هـ وصل الى «شكند» ، فاصابته شظية من حجر منجنيق في اضلاعه ، فارتحل عائدا بعد أن أوشك على الاستيلاء عليها ، فتوفي في الطريق ، فحمل الى طرسوس فدفن فيها(72) . وكانت هذه آخر غزوه خرجت الى بلاد الروم من الثغور العربية في عهد الخلفاء العباسين في سامرا .

---

(71) تاريخ ابن خلدون ٣/٧١١ .
(72) الكامل ٧/٤٤٩ ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٧١١ وسمى المدينة : اسكندا .



الفصل الثاني

المفاداة بين العرب والروم

١ ـ فداء سنة ٢٣١هـ :

لعل أهم الاحداث التي جرت مع الروم في عهد الواثق بالله هي عملية الفـداء التي تمت في سنة ٢٣١هـ • وتعتبر هـــذه المفاداة الثالثة التي تمت منذ تولى العباسيون حكم الدولة العربية(١) • فقد قدم على الخليفة بسامرا وفد من ملكة الروم تيودورة الوصية على ابنها ميخائيل بن توفيل ، يفاوض في فـــداء أسرى الروم بمن في أيديهم من أسرى العرب ، فاجاب الخليفة بالموافقة(٢) • وقد جرت بين الوفد البيزنطي والوزير محمد بن عبدالملك الزيات مفاوضة للاتفاق على شروط المفاداة • وكان رسل الروم قد اشترطوا ان لا يأخذوا في الفداء امرأة عجوزا ولا شيخا كبيرا ولا صبيا ، واستمرت المفاوضة عدة أيام الى ان اتفق الطرفان على أن يكون الفداء على أساس كل نفس بنفس(٣) •

---

(١) تم الفداءان الاول والثاني في عهد هارون الرشيد ـ التنبيه والاشراف/١٦١ ويقول الطبري ٩/١٤٢ ان اخر فداء قد تم في عهد محمد الامين •

(٢) الطبري ٩/١٤١ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٢ •

(٣) الطبري ٩/١٤٢ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٣ •

وكان الخليفة قد بعث الى بلاد الروم من يتعرف على عدد أسرى العرب هناك ، فكان عددهم ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة[٤] . وكان عدد أسرى الروم أقل من ذلـــك ، فأمر الواثق بالله بشراء الرقيق والاسرى الروم من سامرا وبغداد وغيرهما . فاشتري من وجد منهم ، فلم يتم العدد المطلوب فتبرع الخليفة فاخرج من كان في قصره من النساء الروميات العجائز وغيرهن حتى تم العدد[٥] .

وعقد الخليفة لأحمد بن سعيد بـــن مسلم الباهلي على ولاية الثغور والعواصم وأمره ان يحضر عملية الفداء ، وبعث معه خاقان الخادم الذي عرف هذا الفداء بأسمه باعتباره ممثل الخليفة . كما حضر أحد الخبراء بالشؤون الرومية هو مسلم الجرمي ، وكان ذا معرفة بأهل الروم وأرضها ، وله مصنفات في اخبارهم وملوكهم وبلادهم وطرقها ومسالكها ، وأوقات الغزو والغارات عليها[٦] . كما وجه باثنين من أصحاب القاضي ابن ابي دواد ، أي من المعتزلة، هما يحي بن آدم الكرخي ويكنى بابي رملـــة ، وجعفر بن محمد الحذاء . وبعث معهما كاتبا يدعى طالب بن داود ، وامرهم بامتحان الاسرى العرب وقت المفاداة ، فمن قال بخلق القرآن وان الله لا يرى يوم القيامة ، فودي به واعطى دينارا واحدا ، ومن لم يقل بذلك ترك في أيدي الروم[٧] .

ولما كان يوم عاشوراء من سنة ٢٣١هـ اجتمع العرب ومعهم أسرى الروم ، واتى الروم ومعهم الاسرى العرب . وحضر المفاداة عدد كبير من العرب من جند ومتطوعة ، ويقدر اليعقوبي عددهم

---

(٤) الطبري ١٤٢/٩ .
(٥) الطبري ١٤٢/٩ ، وتجارب الامم ٥٣٢/٦ ، والكامل ٢٤/٧ .
(٦) التنبيه والاشراف/١٦٢ .
(٧) الطبري ١٤٢/٩ ، وتجارب الامم ٥٣٢/٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٨٢/٢ وفيه، دفع لمن فودى به ديناران وثوبان .

بسبعة آلاف رامح سوى من ليس معه رمح[٨] • ويظهر ان تقديره لا يخلو من المبالغة ، اذ يقدر الطبري عـــدد الحاضرين بأربعة آلاف فارس وراجل[٩] • فخاف الروم لقلتهـــم وكثرة العرب ، فأمنهم خاقان الخادم وضرب لهم أربعين يوما هدنة لا يقوم العرب خلالها بغزوهم ، حتى تتسنى لهم العودة الى بلادهم[١٠] •

وتمت عملية المفاداة على نهـــر اللامس على بعد مرحلتين من طرسوس • وكان النهر يفصل بين الطرفين ، فوقف العرب من جانبه الشرقي ، والروم من الجانب الغربي • وكان العرب يطلقون الأسير من الروم ، فيطلق الروم أسيرا من العرب ، فيلتقيان في وسط النهر وكان مخاضة يعبره الاسرى • وقيل كان على النهر جسر ، كما قيل كان عليه جسران احدهما للعرب والآخر للروم • فيأتي كل منهم الى أصحابه فاذا وصل الأسير العربي كبر العرب ، واذا وصل الاسير الرومي استقبله الروم بالصـــياح ، حتى فرغوا من الفداء[١١] • ويقول ياقوت الحموي ان اللامس قرية على شاطيء بحر الروم من ناحية طرسوس ، كان فيها الفداء بين العرب والروم ، يقدم الروم في البحر فيكونون في سفنهم ، والعرب في البر ، فيتم الفداء ، ويؤيده ابن حوقل في ذلك[١٢] •

استغرقت عملية الفداء بين العرب والروم أربعة أيام[١٣] • أما عدد من فودي بهم من الاسرى العـــرب ومن كان معهم من أهل الذمة ، فقد تراوح بين خمسمائة رجل وسبعمائة امرأة على ما ذكره

---

(٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٢ •
(٩) الطبري ٩/١٤٣ •
(١٠) الطبري ٩/١٤٤ •
(١١) الطبري ٩/١٤٣-١٤٤ ، وتجارب الامم ٦/٥٣٣ ، والكامل ٧/٢٤ •
(١٢) معجم البلدان ٥/٨ ، وصورة الارض/١٨٣ •
(١٣) الطبري ٩/١٤٤ ، والتنبيه والاشراف/١٦١ ، وفيه انها استغرقت عشرة أيام •

اليعقوبي ، وبين اربعة آلاف وستمائة انسان بما فيهم من أهل الذمة على ما جاء في تاريخ الطبـــري والتنبيه والاشراف وتجارب الامم والكامل(١٤) • ويبدو ان اليعقوبي متحفظ جدا في تقدير عدد من تم افتداؤهم ، لاسيما اذا أخذنا بنظـــر الاعتبار عدد من احصي من أسرى العرب في بلاد الروم قبل عملية الفداء • ويقدر ابن خلدون عدد الذين فودي بهـــم من العرب باربعة آلاف وأربعـــة وستين ، والنساء والصبيان بثمانمائة ، واهـــل الذمة بمائة(١٥) • ويقول الطبري ان خاقان الخادم استفرغ جميع من كان في بلد الروم من الاسرى العرب ممن علم موضعه ، وانه أعطى صاحب الروم ممن كان قد فضل في يده من أسرى الروم مائـــة نفس ، ليكون عليهم الفضل استظهارا مكان من يخشى أن يأسروه من المسلمين الى انقضاء المدة ، ورد الباقين الى طرسوس فباعهم(١٦) •

٢ ـ فداء سنة ٢٤١ :

يعتبر هذا الفداء الرابع حسب ما يقول المسعودي • ويفهم مما جاء في الطبري عنه ان الملكة تيودورة الوصـــية على ابنها ميخائيل الثالث ، وجهت في هذه السنة الى الخليفة المتوكل على الله أحد رجالها المدعو قرياقس تطلب مفاداة من في أيدي الروم من أسرى العرب • فوجه المتوكل على الله في شعبان نصر بن الازهر بن المفرج المعروف بالشيعي ، ليعرف عدد الاسرى في بـــلاد الروم ، لكي يتدبر امر مفاداتهم • ويقال ان تيودورة ، بعد خروج نصر من بلادها ، أمرت بعرض النصرانيـــة على أسرى المسلمين فمن تنصر منهـــم بقي في

---

(١٤) الطبري ١٤٣/٩ ، وتـــاريخ اليعقوبي ٤٨٢/٢ ، وتجارب الامم ٥٣٢/٦ ، والتنبيه والاشراف/١٦١ ، والكامل ٢٤/٧ •

(١٥) تاريخ ابن خلدون ٥٧٧/٣ــ٥٧٨ •

(١٦) الطبري ١٤٣/٩ــ١٤٤ •

بلادها ، ومن ابى قتلته ، وذكر انهـــا قتلت اثني عشر ألفا لانهم رفضوا الدخول في النصرانية ·

وكتب الخليفة الى عمال الثغور الشامية والجزرية ان خادمه شنيفا قد فاوض الروم واتفق معهم على هدنة أمدها ثلاثة أشهر ليقوم كل من الطرفين بجمع الاسرى الذين لديه · وعندما انتهت المدة اجتمع الطرفان على نهر اللامس أيضا في الثاني عشر من شوال، وتم الفداء بينهما · وكان عـــدد من فودي به من الاسرى العرب خمسا وسبعين وثمانمائة انسان ، منهـــم خمس وعشرون ومائة امرأة(١٧) · ولا يختلف ما ذكره ابن الاثير عن هذا الفداء عما جاء في الطبري سوى قوله ان الملكة تيودورة ارسلت تطلب المفاداة بمن بقي من أسرى العرب بعد ان قتلت من لم يدخل في النصرانية منهم ، وان قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد الهاشمي طلب ان يحضر عملية الفداء فأذن له(١٨) ·

أما المسعودي فانه لا يذكر موضـــوع عرض النصرانية على المسلمين وقتل من لم يتنصر منهم ، كما انه يختلف في عدد من فودي به من الاسرى العرب ، ويقول كان عددهم مائتين وألفين من الرجال ومائتين من النساء ، كما يذكر انه كان في الاسرى بعض النصارى المأسورين من دار الاسلام بلغ عددهم مائة رجل ونيف ، فعرضوا مكانهم عدة اعلاج لأن الفداء لا يقـــع على نصراني(١٩) · ويؤيده المقريزي ما ذكره المسعودي(٢٠) ، واحسب انه نقله عنه ·

وذكر اليعقوبي هذا الفداء باختصار ، فلم يذكر عدد من فودي به من أسرى العرب ، كما انه لم يشر الى الاسرى من النصارى · فهو

---

(١٧) الطبري ٩/٢٠٢ـ٢٠٣ ·
(١٨) الكامل ٧/٧٦ ·
(١٩) التنبيه والاشراف/١٦٢ ·
(٢٠) الخطط المقريزية ٢/١٩١ ·

يذكر ان ملك الروم وجه برسل وبعض الهدايا يطلب المفاداة ، وقد بعث له باضعافها • ويشير الى انه قد حمل من كل بلد فيه من أسرى الروم ، واشتري عبيد النصارى[٢١] • مما يدل على ان عدد اسرى الروم لدى الدولة العربية كان قليلا •

مما يلفت النظر في هذه الروايات التي ذكرناها عن هذا الفداء الاختلاف الكبير في عدد من فودي بهم بين ما ذكره الطبري وما ذكره المسعودي • ثم اذا كانت ملكة الروم قد ابقت في بلادها من تنصر من الأسرى وقتلت من رفض التنصر ، فانه لم يعد هناك من ينادى به من الاسرى العرب ، مما يستدل منه ان الرواية مبالغ فيها وتنقصها الدقة • وتتضمن رواية ابن خلدون وضوحا أكثر ، وهي أحرى بالقبول ، اذ يقول: وكانت تدورة ملكة الروم حملت اسرى المسلمين على التنصر ، فتنصر الكثير منهم ، ثم طلبت المفاداة فيمن بقي منهم على الاسلام[٢٢] •

٣ ـ فداء سنة ٢٤٦هـ :

وهو الفداء الخامس على قـــول المسعودي ، وقد تم في خلافة المتوكل على الله أيضا • يقول الطبري عن هذا الفداء ان ملك الروم ميخائيل بن توفيل بعث الى الخليفة رسولا يدعى أطروبيليس ومعه سبعة وسبعون رجلا من أسرى المسلمين أهداهم الى الخليفة • فانزل الرسول على شنيف الخادم • ثم وجه المتوكل على الله نصر بن الازهر الشيعي مع رسول ملك الروم ، فشخص في هذه السنة للمفاوضة مع ملكها على الشروط التي يتم الفداء بموجبها •

وقد وصف ابن الازهر مقابلتـــه ملك الروم وتقديمه هدايا الخليفة اليه ، واتفاقه حول شروط المفاداة ، وصفا طريفا نقتطف

(٢١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٠ـ٤٩١ •
(٢٢) تاريخ ابن خلدون ٣/٥٨٧ـ٥٨٨ •

منه ما يأتي «لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي ، فجرت المناظرة بيني وبين خال الملك بطرناس (وهو بادراس اخـــو تيودورة أم الملك ، وقد صار وصيا عليه) وكانوا قد أبوا ان يدخلوني بسيفي وسوادي ، فقلت : انصرف ، فانصرفت • فرددت من الطريق ومعي الهدايا ، منها نحو ألف نافجة من المسك ، وثياب حرير ، وزعفران كثير ، وطرائف ••• وحملت الهدايا معي ، فدخلت عليه ، فاذا هو على سرير فوق سرير ، واذا البطارقة حوله قيام • فسلمت وجلست على طرف السرير الكبير ، وقد هيء لي مجلس ، ووضعت الهدايا بين يديه • وبين يديه ثلاثة تراجمة : غلام فراش كان لمسرور الخادم ، وغلام لعباس بن سعيد الجوهـــري ، وترجمان له قديم يقال له سرحون • فقالوا لي : ما تبلغه ؟ قلت : لا تزيدون على ما أقول لكم شيئا • فاقبلوا يترجمون ما أقول • فقبل الهدايا ولم يأمر لأحد منها بشيء • وقربني وأكرمني ، وهيأ لي منزلا بقربه • فخرجت فنزلت في منزلي ••• فراجعوا في مخاطبتي ، وانقطع الأمر بيني وبينهم في الفداء على ان يعطوا جميع من عندهم من الاسرى وهم اكثر من الفين منهم عشرون امرأة ومعهن عشرة من الصبيان ، وأعطي جميع من عندي وكانوا أكثر من ألف قليـــلا ، فاجابوني الى المحالفة • فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ، فقلت : أيها الملك ، قد حلف لي خالك ، فهذه اليمين لازمة لك ؟ فقال برأسه نعم • ولم اسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى أن خرجت منها • انما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول برأسه نعم أولا ، وليس يتكلم ، وخاله المدبر أمره • ثم خرجت من عنده بالاسرى بأحسن حال • حتى اذا جئنا موضع الفداء ، أطلقنا هؤلاء جملة وهؤلاء جملة • وكان عداد من صار في أيدينا من المسلمين أكثر من الفين ، منهم عدد ممن كان تنصر ، وصار في أيديهم اكثر من ألف قليلا ••»(٢٣) •

---

(٢٣) الطبري ٩/٢١٩-٢٢٠ •

وقد تم هذا الفداء في صفر من سـنة ٢٤٦ ، وقيل انه تم في جمادي الأولى ، وذلك على يد الأمير علي بن يحى الارمني • وكان عدد من فودي بهم ألفين وثلاثمائة وسبعة وستين شخصا • ويسمي المسعودي هذا الفداء، فداء نصر بن الأزهر وعلي بن يحيى الأرمني. ويقول انه تم في مستهل صفر ، وهو يتفق في عدد من فودي بهم مع ما ذكره الطبري ، ويضيف ان الفداء تـم في سبعة أيام وان من فودي بهم كانوا من الذكور والاناث(٢٤) • وما ذكره المقريزي عن هذا الفداء يطابق رواية المسعودي(٢٥) • ويقتصر ابن الاثير في ذكر هذا الفداء على انه تم في سنة ٢٤٦هـ على يد علي بن يحيى الأرمني . ويتفق مع الطبري والمسعودي في عدد من فودي بهم(٢٦) •

ويشير المسعودي الى ما يقـال عن فدائين آخرين تما في عهد الخلفاء العباسيين في سامرا ، أحدهما في سنة ٢٥٣هـ في أيام المعتز بالله على يد شفيع الخادم • والآخر في أيام المعتمد على الله في رمضان سنة ٢٥٨هـ على يد شفيع ومحمد بن علي • وهو يشكك في حدوثهما بقوله : لم نجد لهما حقيقة ولا اشتهر أمرهما ولا استفاض خبرهما، وان الصحيح المعول عليه ما كان قد ذكره(٢٧) • ومن الجدير بالذكر ان الطبري وابن الاثير لا يذكران شـيئا عن الفدائين المذكورين اللذين نفى المسعودي حصولهما في عهد سامرا •

---

(٢٤) التنبيه والاشراف/١٦٢ـ١٦٣ •
(٢٥) الخطط المقريزية ٢/١٩١ •
(٢٦) الكامل ٧/٩٣ •
(٢٧) التنبيه والاشراف/١٦٣ و ١٦٦ـ١٦٧ على التوالي •

الفصل الثالث

العلاقات الثقافية والتجارية

بين العرب والروم

١ ـ الاتصال الحضاري بين العرب والروم :

عندما انتقلت عاصمة الدولة العربية في عهد المعتصم بالله الى سامرا كانت بلاد الشام ومصر وشمالي أفريقية والنصف الشرقي من آسيا الصغرى ، جزء من الدولة العربية • وكان العرب قد حرروا هذه البلاد من الامبراطورية البيزنطية، الاان الطابع الرومي استمر في هذه البلاد عهدا غير قصير في النواحي الاجتماعية كالتقاليد وطراز الحياة ، والناحية الفنية المتمثلة في الغناء والموسيقى وطراز البناء ، وكذلك في الناحية الثقافية والفكرية • ويروي أبو الفرج عن المغني المدني مسلم بن محرز المتوفى سنة ١٤٠هـ انه صار الى الشام فتعلم ألحان الروم وأخذ غناءهم ، فاسقط من ذلك ما لا يستحسن ، وأتى بما لم يسمع المرء مثله[١] • وقد وجد العرب في هذه البلاد انظمة ادارية ومراكز ثقافية متقدمة ، فأولوها رعايتهم

(١) الاغاني ١/٣٧٨ •

واستفادوا منها كثيرا مما ساعدهم على تقدمهم الحضاري • ولا ينكر انهم تعرفوا عن طريق الحضـــارة الهيلينية التي كانت سائدة في البلاد المذكورة على آثار القدماء في ميدان العلوم والفنون[٢] •

وقد استهدف العرب في عهد الفتوح اجتياح بلاد الروم نفسها والاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية ، وقد اوشكت الامبراطورية البيزنطية ان تمحى من الوجود تماما على أيديهم ثلاث مرات بين سنتي ٤٨ و ٩٩هـ ، وكان الخطر العربي ماثلا على الدوام في ذهن كل بيزنطي[٣] • وكانت آخر مرة استهدفت فيها العرب الاستيلاء على القسطنطينية في سنة ٢٢٣هـ عندما اجتاح المعتصم بالله بلاد الروم وافتتح عمورية ، الا ان مؤامرة قامت ضده حالت دون تحقيق ذلك •

وعلى الرغم من توقف موجة الفتح العربي في بلاد الروم على عهد الخلفاء العباسيين في سامرا ، فان الحروب ظلت مستمرة تقريبا بين الدولة العربية وامبراطورية الروم • الا انها كانت على شكل غزوات على أطراف الحدود بينهما، وهدفها رد العدو ومنع اذاه ، أو ارهابه والحاق الاذى به والفوز بالغنائم • وقد اشرنا الى هذه الحروب في فصل سابق •

وكانت هذه الحروب ، كما رأينا ، متصلة بحيث لم تمر سنة من سنوات الخلافة العباسية في سامرا دون نشوب قتال بين الجانبين، خلا فترات وجيزة من الهدوء كما اشرنا في صدر هذا الباب • وقد أدى استمرار الحروب الحدودية بين الدولتين الى أن تقوم كل منهما بتحصين ثغورها وشحنها بالمقاتلين المحترفين ، مما كان يستلزم حالة مستديمة من اليقظة والاستعداد لدفع عدوان المغيرين • على أن تواصل هـذه المعارك بما يستتبع من علاقات غـير مقصودة بين

---

(٢) الامبراطورية البيزنطية/٣٦٦ •
(٣) حضارة الاسلام/٥١ •

شعبين كبيرين لا يخلو من تأثير على التطور الداخلي لدى كل منهما ٠ واذا كانت التجارة قد تأتي في المكان الاول من حيث انها عامل في التطور الثقافي للشعوب ، فان العلاقات السياسية أيضا قد خدمت الثقافة في كثير من الاحيان ٠ اذ يتطاحن شعبان فيتبادل المنتصرون والمنهزمون الافكار والعادات والاخلاق واللغات والاداب[٤] ٠

لقد كان للروم ، كشعب عريق في حضارته ، عاداتهم وتقاليدهم يمارسونها في حياتهم الاعتيادية ٠ كما ان لهم طريقتهم في أصول الحكم ، ولهم فنونهم الخاصة بهم ٠ وانهم يحتفظون بتراث كبير من كتب اليونان في الطب والفلسفة والادب ٠ وقد اقتبس العرب بعض ما تيسر لهم من ذلك عن طريق المعارك الحدودية التي أشرنا اليها٠ فان استيلاء الروم على أحد الثغور العربية وبقاؤهم فيه مدة حتى يجليهم العرب عنه ، يترك بين سكانه شيئا من تأثيرهم ولاسيما في اللغة وأسلوب الحياة اليومية ٠ وذلك بحكم اتصالهم المباشر بهم ٠ وكذلك الامر عندما يقع الاسرى العرب بأيدي الروم ، وكان عددهم كبيرا نسبيا بسبب كثرة غزواتهم وهجماتهم على الثغور والحصون الرومية ٠ أو عندما يقع الاسرى الروم بأيدي الغزاة العرب ، وكانوا من الكثرة أحيانا بحيث ينادى على بيعهم خمسة خمسة وعشرة عشرة ، كما حصل في معركة عمورية ٠ فيختلط هذا العدد الكبير منهم بأهل دار السلام ٠ فكان هذا الاختلاط عاملا مهما في الاتصال الحضاري والثقافي بين الجانبين ٠ اذ ان كل طرف يقتبس من الطرف الآخر بحكم معايشته قوما يختلفون عنه ، بعضا من عاداتهم وتقاليدهم وأسلوبهم في الحياة ، ويتعلم شيئا قليلا أو كثيرا من لغتهم ٠ ولعل ظهور بعض الشعراء والادباء ممن كانوا من أصل رومي مثل ابن الرومي الشاعر ، وياقوت الحموي الرومي الأديب البلداني البارع ، دليل واضح على التأثير الذي أشرنا اليه ٠

---

(٤) العرب والروم/١٨ ٠

ومن الطبيعي ان يزداد تأثر الأسير كلما اتسعت ثقافته وارتفع مستواه الاجتماعي والحضاري ، وذلك بحكم نوع علاقاته وسعة اطلاعه • فينقل عند عودته من الأسر ما تعلمه أو اعتاده ، الى بلاده • ويذكر أحد الاسرى العرب ، وهو هارون بن يحيى ، انه اسر في عسقلان وحمل الى القسطنطينية على طريق البحر ، ويذكر المدن والقرى والاماكن التي مر بها حتى انتهى الى عاصمة الروم، فيصف مالفت نظره فيها أو تأثر به • كأبواب المدينة وبلاط الملك ، وهو قصر كبير في وسط المدينة يحيط به سور ، والبذرون وهو ميدان واسع يجتمع فيه البطارقة فيشرف عليهم الملك من قصره • وما شاهده في القصر من التماثيل النحاسية للبشر والحيوانات • ويصف سياق العجلات المذهبة ولباس الرجال الذين يسوقونها • وكنيسة الملك وقبتها وأعمدتها وأبوابها ومقصورتها والتماثيل التي فيها ، وحضور الملك اليها يوم الميلاد • وكيف يحضرون اسرى المسلمين ليأكلوا على مائدة الملك بعد أن ينادي منادى الملك ان هذه الاطعمة ليس فيها شيء من لحم الخنزير • ثم يصف (الارقنا) وهو الأرغن • ويبدي اعجابه بفخامة موكب الملك عند خروجه الى الكنيسة العظمى التي هي للعامة ، ويذكر اديرة الرهبان حوالي القسطنطينية ، ويتعجب من كثرة الرهبان فيها • ثم يصف سفره الى روما ومروره بسلانيك(٥) • وهو في وضعه هذا يعطينا كثيرا من التفصيلات التي يبدو في بعضها شيء من المبالغة • ويرجح انهارون بن يحيى قد اسر وحمل الى عاصمة الروم في أيام الملك باسيل الأول (٢٥٣ ـ ٢٧٣هـ)(٦) •

كما لا يخفى تأثير الرقيق الرومي في البيوت العربية ، لاسيما النساء وتأثيرهن على تربية الأولاد ، وتنظيم الشؤون المنزلية • بل لقد صار بعضهن آمهات خلفاء ، فقد كان أربعة من خلفاء سامرا

---

(٥) الاعلاق النفيسة/١١٩ـ١٣٢ •
(٦) الامبراطورية البيزنطية/٤٨٤ •

من أمهات روميات ، فان قراطيس أم الواثــق بالله ، وحبشية أم المنتصر بالله ، وقبيحة أم المعتز بـــالله ، وقرب أم المهتدى بالله كن أمهات أولاد روميات ·

ومهما كان البون بين العـــرب والروم شاسعا في أدب اللياقة وأسلوب الحياة ، فقد كان بينهمـــا من الامور المشتركة ما يكفي لتمكين كل منهما من التأثير في الجانب الآخر(٧) ·

٢ ـ العلاقات الثقافية :

لاحظنا مما تقدم ان الحروب الحدوديــة بين الدولة العربية والمملكة البيزنطية رغم استمرارها لم تمنع من قيام علاقات بين العرب والروم· ولعل أوضح أوجه هذه العلاقات كانت في النواحي الثقافية والتجارية · أما العلاقات الثقافية فقــد كان أبرز مظاهرها تلك المصادر الفلسفية والطبية لارسطو وجالينوس وابقراط وغيرهم من فلاسفة اليونان وحكمائها ، التي جلبت من بلاد الروم · اذ حصل العرب على كثير من كتب اليونان في نواحي الطب والفلسفة بصورة خاصة · وقد انكب عليها المترجمـــون ونقلوها الى اللغة العربية بتشجيع من الخلفـــاء ورجال الدولة الذين لم يدخـــروا وسعا في الانفاق على ذلك · مما كان له عظيم الأثر في حركة التقدم العلمي التي ازدهرت في القرنين الثالث والرابع · وقد اسهبنا في بحث هذا الموضوع في الباب الخاص بالحركة العلمية في عهد سامرا ·

وقد اشتهر في سامرا عدد من فطاحـل المترجمين وعلى رأسهم حنين بن اسحاق العبادي المتوفى سنة ٢٦٠هـ الذي كلفه المأمون بنقل كتب الحكماء اليونانيين الى اللغة العربية ، وأوفده على وفد الى بلاد

---

(٧) حضارة الاسلام/٤٤ ·

الروم لاختيار ما يرونه مفيــدا من الكتب[٨] • وكان حنين يتقن اليونانية وآدابها كما يتقن العربية والسريانية • وقد عينه المتوكل على الله رئيسا للمترجمين وعين له كتابــا نحارير عالمين بالترجمة ليماونوه في عمله ، وقد ترجـم كتب ابقراط وجالينوس ولخصها أحسن تلخيص[٩] •

ويمكن اعتبار بعثة الواثق بــالله الى بلاد الروم للتحري عن الفتية الذين آوا الى كهف هربا من تعسف دقليديانوس ، من مظاهر العلاقة الثقافية بين العرب والروم أيضا • فقد أشرنا في فصل آخر الى ان الواثق بالله قد بعث بأحد علماء العرب الى مدينة أفسوس في بلاد الروم لتحري أمر أولئك الفتيــة ، ورأينا كيف ان امبراطور الروم آنذاك ميخائيل الثالث قد أســتجاب لطلب الخليفة العربي فأرسل مع مبعوثه رجلا عارفا بموقع الكهف ليكون دليلا له • وهذا يدل ولاشك على نوع من التعاون في الحقول العلمية بين الدولتين رغم الحروب التي كادت أن تكون متصلة بينهما •

وكان من بعض نتائج هذا التأثر الثقافي المتبادل ان انتقلت كلمات عربيــة كثيرة الى لغة الروم ، وكلمات يونانيــة الى اللغة العربية • وهذه الكلمات المنقولة سواء كانت عربية أم يونانية • أصابها كثير من التحريف بحيث بــات من الصعب معرفة أصلها المختفي وراءها •

٣ ـ العلاقات التجارية :

رأينا ان الحروب الحدودية بين الدولة العربية وبلاد الروم لم تقف حائلا دون قيام علاقات ثقافية بين الطرفين • والواقع انها لم تمنع كذلك قيام علاقات تجارية بينهما • ويبين المقدسي البشاري

---

(٨) اخبار الحكماء/١١٧ ، وعيون الانباء/٢٦٠ •
(٩) عيون الانباء/٢٦٢ •

ان سبب ذكره الطرق الموصلة الى القسطنطينية هو «لحاجة المسلمين الى ذلـــك وقصدهم في شراء الاسارى ، والرسالات ، والغـــزو ، والتجارات »(١٠) • وفي هذا دلالة على تردد العرب على عاصمة الروم كوفود رسمية ، أو لافتداء الاسرى ، أو للغزو ، أو لغرض التجارة • وكما كان التجار البيزنطيون يظهرون في كثير من المدن العربية ، كان التجار العرب يغدون على بيزنطـــة لانجاز أعمالهم • وكانت مملكــة الخــزر بموقعهـــا الجغــرافي بـــين اقليـــم قــزوين والامبراطورية البيزنطية والروس حلقـــة اتصال أبقت التجارة العربية متصلة مع أوربا وبلاد الروم ، كمـــا كانت طرابزون على البحر الاسود مركز الاتصالات التجارية بين الطرفين ، ويتضح مما يذكره المسعودي ان طرابزندة (طرابزون) كانت تقام فيها أسواق سنوية يأتي اليها كثير من الامم للتجارة من المسلمين والروم والارمن وغيرهم(١١) • والواقع ان طرابزون كانت حينذاك أهم الموانيء التي يعرض فيها التجار العرب بضائعهم على التجار من الروم وغيرهم • وكان يقطنها عدد من التجار العرب(١٢) •

لقد كانت بضائع الشرق تنقل الى أوربا في خلال القرن الثالث عن طريق الدولـــة البيزنطية سواء بواسطة تجارهـــا أو التجار العرب • فصارت القسطنطينية مركـــزا لاستقبال بضائع الشرق ومصنوعاته كالحرير والكتان ، والتـــوابل والبخور والعطور ، والمنسوجات العراقية والشامية التي اشتهر منها الموسلين والدمقس، والمصنوعات النحاسية والزجاجية وغيرها من البضائع التي كانت تبهر الغرب آنذاك • ومنها تنقـــل الى أواسط أوربا وغربيها • ولاشك في ان قيـــام بيزنطة بدور الوسيط اكسبها مركـــزا مهما بالنسبة للبـــلاد الاوربية الاخـــرى ، وأدى الى ازدهـــار حياتها

---

(١٠) احسن التقاسيم/١٤٧ •
(١١) مروج الذهب ١/١٧٦ •
(١٢) تراث الاسلام/١٥٩ •

الاقتصادية لما كانت تجنبه من الارباح من ذلك ، كما كان التجار العرب يربحون الكثير من تجاراتهم هذه ٠

وعندما يذكر ابن خرداذبــــة مسالك التجار حينذاك يعطينا صورة واضحة عن البضائع التي كانت تنقل من الشرق الى الغرب أو بالعكس ٠ فهم يجلبون من الغرب الخـدم والجواري والغلمان والديباج الرومي وجلود الخز والفراء والسمور ٠ ويركبون البحر فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم برا على الحيوانات الى القلزم (السويس) ومنها يركبون البحر ثانية الى جدة فينطلقون منها الى السند والهند والصين ، فيحملون بضائع هذه البلدان ومصنوعاتها كالمسك والعنبر والعود والكافور والدار صيني والصندل والساج والفلفل والحرير الصيني والسرج وغـــير ذلك مما يحمل من تلك البلدان(١٣) ، ثم يرجعون بنفس الطريق ٠ وقد يعدلون بتجاراتهم الى القسطنطينية ليبيعوها الى الروم ٠ وربما صاروا بها الى بلاد الفرنج مباشرة لبيعها هناك ٠ كما كانوا يحملون تجاراتهم أحيانا في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيرون برا حتى يبلغوا نهر الفرات ، ثم يركبون دجلة الى بغداد ومنهـــا الى الابلة ، ومنها الى عمان فالسند والهند والصين(١٤) ٠

ويقول المقدسي عن كفر ســـلام ، وهي احدى قرى قيسارية «ولهذه القصبة رباطات على البحر يقع منها النفير ، وتقلع اليها شلنديات الروم مع اسارى المسلمين للبيـع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم في الرسالات»(١٥) ٠ وفي قوله هذا دليل آخر على قيام العلاقات التجارية بين الدولتين حتى انها لتشمل بيع الاسرى وشرائهم ، كما يظهر منه وجود من يحسن

(١٣) و (١٤) المسالك والممالك/١٥٣ـ١٥٤ ٠
(١٥) أحسن التقاسيم/١٧٧ ٠

اللغة الرومية من العرب ليسهل أمـــور معاملات البيع والشراء بين الطرفين ·

وكان للثغور العربية الشامية منها والجزرية أهمية خاصة في العلاقات التجارية بين الدولة العربية وبلاد الروم ، بالنظر لأهمية موقعها بينهما · فهي تتوزع في منطقة متوسطة بين البحر المتوسط والبحر الاسود وبحر الخزر ، وترتبط بمواني البحر المذكورة · مما ساعدها على ان تلعب دورا مميـــزا في التجارة بين الدولتين · ويذكر المقريزي ان الخليفة المستعين بالله كان قد انفذ أحد خدمه الى بلاد الروم ليجلب له أشياء نفيسة منها ، فلما ابتاعها وكانت وقر بغل ، عاد بها الى طرســـوس وسافر منها مع القافلـــة الى سامرا(١٦) ·

ومما زاد في أهمية الثغور العربية ان استمرار تدفق المجاهدين والغزاة عليها أكسب طرقها الأمن والسلامة لسالكيها من التجار · اذ كانت تلك الطرق عامرة بدور الاستراحة والمرابط المخصصة للغزاة بالاصل الا انها كانت بنفس الوقت ملجأ للتجار وقوافلهم عند مرورهم بها ·

وكانت المسالح والمواضع الحدودية تراقب التجار بدقة وذلك لاستيفاء العشور منهم عن البضـــائع التي يحملونها للتجارة ، أما أمتعتهم الشخصية فلا عشر عليها(١٧) · وكان من واجبها أيضا التأكد من هوية التجار الغرباء فيفتشونهم لئلا يكون معهم سلاح ، أو انهم

---

(١٦) الخطط المقريزية ١/٣١٤ ·

(١٧) كتاب الخراج/١٨٨ ·

يحملون كتبا تتضمن اخبارا تتعلق بشؤون الدولة العربية[18] ٠
الا ان ذلك لم يحل دون نقل البضائع والسلع ومبادلتها ٠ اذ كان
التجار الاجانب يعتبرون مستأمنين في دار الاسلام ولهم حق الاقامة
والعمل في التجارة ، ولكنهم اذا اطالوا المقام أكثر من سنة أمروا
بالخروج ، والا وضعت عليهم الجزية[19] ٠

---

(١٨) نفس المصدر/١٩٠ ٠
(١٩) نفس المصدر/١٨٩ ٠

الباب التاسع

الامارات شبه المستقلة في عهد سامرا

١ ـ امارة بني الأغلب •

٢ ـ امارة الطاهريين •

٣ ـ امارة بني طولون •

٤ ـ امارة الصفارين •

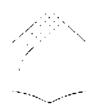


الباب التاسع

الامارات شبه المستقلة في عهد سامرا

كان من جملة نتائج سيطرة القواد الاتراك واستبدادهم بالخلفاء ان نفوذ الخلافة قد تداعى وغدا اسميا لاسيما في أيام الفتنة ، مما كان له أثر واضح في اضعاف الدولة العربية بصورة عامة • ويلاحظ انه كلما كانت الخلافة تزداد ضعفا بنتيجة الصراع بين الخلفاء والقواد الاتراك ظهرت امارات في شرقي الدولة أو في غربيها ، وهي تقتطع جزء من ممتلكات الدولة وترغم الخليفة أو تتوسل اليه بالاموال والهدايا للاعتراف بها ، لكي تضفي الشرعية على وجودها •

وكانت درجة استقلال هذه الامارات تتوقف على علاقاتها بالخلافة • وكلما ضعف مركز الخلافة ازدادت تلك الامارات حرية في تصريف شؤونها . وتوسعت على حساب الدولة • وسنعرض فيما يلي الى نشوء تلك الامارات التي قامت في عهد سامرا ، واستمرارها ، او التي كانت قد قامت قبل ذلك واستمرت أو توسعت في خلال العهد المذكور •



الفصل الأول

امارة بني الأغلب

١ ـ تاسيس الامارة :

ساد الاضطراب في أفريقية في عهد الخليفة هارون الرشيد ، فظل يغير الولاة عليها دون جدوى . فارسل القائد هرثمة بن أعين مع جيش كبير لتهدئة الاضطرابات ودراسة حالة البلاد . ولما رجع هرثمة بعد ثلاث سنوات نصح الرشيد بأن يولي ابراهيم بن الاغلب ، وهو أحد الزعماء المتغلبين هناك ، ولاية افريقية ، لما لمسه من عقله ودينه وكفايته[١] . وقد تعهد ابراهيم بتهدئة الاحوال وتقديم أربعين ألف دينار سنويا الى بيت المال ، مع الاستغناء عن الاعانة المالية وقدرها مائة ألف دينار كانت مصر ترسلها من ايراداتها الى أفريقية في كل سنة ، وبشرط أن يعهد الخليفة بالولاية اليه ولأبنائه من بعده بالوراثة ، فوافق الرشيد وولاه ولاية أفريقية في منتصف جمادي الآخرة سنة ١٨٤[٢] . وكان هذا التعيين ينطوي على اعتراف الخلافة باستقلال أفريقيا استقلالا داخليا .

---

(١) الكامل ١٥٥/٦ .
(٢) البيان المغرب ٩٢/١ .

وقد بقيت العلاقة بين امـارة بني الأغلب والخلافة في سامرا ودية • ولابد من الاشارة الى ان امارة بني الأغلب تختلف عن بقية الامارات المستقلة التي قامت في أنحاء أخرى من الدولة ، بانها كانت عربية بأمرائها وبأغلبية رعاياها ، وانها عملت على توسيع رقعة سلطانها على حساب دولة الروم • والواقع ان التوسع العربي ونشر الدين الاسلامي في جزر البحـــر المتوسط تم على أيدي أمراء بني الأغلب •

كان ابراهيم بن الأغلب فقيها ، شاعرا وخطيبا مفوها ، ذا رأي وحزم ودراية في الحرب • ولم يتول أفريقية أحسن سيرة وسياسة منه ، ولا أرأف برعية ، ولا أوفى بعهد ، فدانت له قبائل البربر بالطاعة ، وهدأت البلاد في أيامه(٣) • فقد استطاع بمؤهلاته وما امتاز به من صفات قيادية أن يقضي على الفوضى في أفريقية ويعيد اليها الأمن في خلال مدة حكمه التي دامت اثنتيعشرة سنة •

وأسس ابراهيم عند توليه الامارة مدينة على بعد ثلاثة أميال من مدينة القيروان ، سماها مدينة القصر ، واتخذها مقاما له • ثم صارت من بعده دار للاقامة سكنها الأمراء من بني الأغلب • وعندما انتقل ابراهيم الى مدينة القصر خرب دار الامارة التي كانت بالقيروان بقبلي الجامع • وبنى في مدينة القصر جامعـــا رحيبا له صومعة مستديرة بنيت بالآجر والعمد سبع طبقات ، لم يبن أحكم منها ولا أحسن منظرا • وأسس فيها الاسواق والحمامات ، وحفر مراجل للماء كانت مياهها غزيرة بحيث اذا نزر الماء في مراجل القيروان نقلوا الماء اليها من مدينة القصر(٤) •

ان جد بني الأغلب الذي ينتسبون اليـــه هو الأغلب بن سالم التميمي أحد رجال الدعوة العباسية ، وكان من القادة الشجعان •

---

(٣) البيان المغرب ١/٩٢ •
(٤) المغرب للبكري/٢٨ •

وقد عهد اليه أبو جعفر المنصور بولاية أفريقية في سنة ١٤٨هـ ، وقتل في شعبان سنة ١٥٠هـ لما خرج عليه الحسن بن حرب الكندي(٥) .

وحكم الامارة من أسرة بني الأغلب أحد عشر أميرا دامت امارتهم مائة واثنتي عشرة سنة (١٨٤-٢٩٦هـ) وكان اخرهم أبو نصر زيادةالله الثالث الذي فر لما دخل أبو عبدالله الشيعي قائد جيش الفاطميين مدينة رقادة في رجب سنة ٢٩٦هـ . وما لبث أبو نصر ان مات في مدينة الرملة وهو في طريقه الى القدس في سنة ٢٩٩هـ(٦) .

وعاصر خلفاء سامرا من بني الأغلب سبعة امراء أولهم أبو محمد زيادةالله الذي كان على الامارة عند تولي المعتصم بالله الخلافة . ولسوف يقتصر بحثنا على مدة حكم هؤلاء الامراء فقط .

٢ ـ زيادةالله الأول :

أبو محمد زيادةالله بن ابراهيم ، وهو الثالث من أمرائهم . تولى الامارة في سنة ٢٠١هـ بعد أخيه أبي العباس عبدالله بن ابراهيم . وعندما نشب الخلاف بين الخليفة محمد الأمين وأخيه المأمون وبايع بنو العباس ابراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد ، ثبت زيادةالله على ولائه للمأمون والدعاء له . فلما انتصر المأمون شكر لزيادةالله فعله فأقره على ولايته ومنحه مزيدا من تأييده(٧) .

قامت على عهد زيادةالله عدة اضطرابات لقسوته وجوره وسوء ادارته . وقد اساء السيرة في الجند وسفك فيهم الدماء لسوء ظنه

---

(٥) البيان المغرب ١/٧٥ .
(٦) المختصر في اخبار البشر ٢/٦٣ .
(٧) الاعلام ٣/٩٣ .

بهم ووثوبهم بالأمراء قبله وخلافهم على أبيه(٨) • وقد بلغ من شدة قسوته عليهم انه عندما شيع الجيش الذي وجهه الى قتال المنصور الطنبذي في تونس هدد القائد الأغلب بن عبدالله المعروف بغلبون وجنده بالقتل اذا حلت بهم الهزيمة • مما جعل أكثر الجند ينقمون عليه وينضمون الى عدوه(٩) • وكانت خروج الطنبذي بتونس أهم الفتن التي قامت في عهده • وقد استطاع الطنبذي في أول الأمر ان يهزم عدة حملات وجهت اليه ، حتى انه زحف على القيروان • الا انه بعد عدة معارك هزم وتفرق اتباعه • وكان أهل القيروان قد رحبوا بالطنبذي للتخلص من جور زيادةالله الا انه عندما تمت له الغلبة على الطنبذي صفح عنهم وجعل عقوبتهم هدم سور القيروان حتى الصقه بالأرض(١٠) • وبقيت المدينة بلا سور حتى اعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجي في سنة ٤٤٤هـ(١١) • وكذلك هدم سور مدينة تونس لأن أهلها أيدوا ثورة الطنبذي • وكان عليها سور من اللبن والطين عدا القسم المواجه للبحر فكان من الحجارة(١٢) • كما تعرضت تونس مرة أخرى لانتقام زيادةالله عندما التجأ اليها فضل بن ابي العنبر فقتل كثيرا من أهلها وشرد آخرين منهم ، ثم عاد وأمن الهاربين فعادوا اليها(١٣) •

فقد قامت في سنة ٢١٨هـ فتنة أخرى في تونس تزعمها فضل بن ابي العنبر واستطاع ان يصد جيشا لزيادة الله • الا ان الجيش الآخر الذي وجه اليه بقيادة ابي فهر محمد بن عبدالله بن الأغلب

---

(٨) البيان المغرب ١/٩٦ •
(٩) الكامل ٦/٣٣١ •
(١٠) البيان المغرب ١/١٠٠ •
(١١) المغرب للبكري/٢٥ •
(١٢) كتاب البلدان/٣٤٨ـ٣٤٩ •
(١٣) الكامل ٦/٤٤٠ •

استطاع اقتحام المدينة والتغلب عليه • فأمن زيادةالله كل من طلب الأمان ممن هرب من أهلها عند دخول أبي فهر اليها(١٤) •

زيادةالله الأول وصقلية :

تطلع أمراء بني الأغلب الى الاستيلاء على جزيرة صقلية • وقد لخص القزويني ما ذكره عنها ياقوت الحموي وابن حوقل ، فوصفها بأنها جزيرة عظيمة من جزائر المغرب مقابلة لافريقية . وهي مثلثة الشكل بين كل زاوية وأخرى من زواياها مسيرة سبعة أيام، وهي خصبة كثيرة البلدان والقرى، كثيرة المواشي والحيوانات الاخرى من الخيل والبغال والحمير والبقر ، والحيوان الوحشي ، وارضها تنبت الزعفران • وكانت قليلة العمارة ، خاملة الذكر حتى فتح العرب بـــلاد أفريقية ، فهرب بعض أهلهـــا الى صقلية وعمروها ، وبالجزيرة جبال شامخة ، وعيـــون غزيرة ، وانهار جارية • قال ابن حمديس مشتاقا اليها :

ذكـــرت صـــقلية والهـــوى
يهيـــــج للنفس تذكارهـــا
فان كنت أخرجت من جنـــة
فـــاني أحـــدث أخبارهـــا

وبها جبل النار وهو مطل على البحر ، في أعلاه منافس يخرج منها النار والدخان ، وربما سالت النار منه الى جهة تحرق كل ما مرت به ، وتجعل الارض مثل خبث الحديد لا تنبت شيئا ، ويسميه الناس الأخباث • وفي أعلى هذا الجبل السحاب والثلوج • والأمطار دائمة لا تكاد تنقلع عنه في صيف ولا شتاء ، والثلج لا يفارق أعلاه في الصيف • وفيها البركان العظيم وليس في الدنيا بركان أشنع منه

(١٤) البيان المغرب ١/١٠٥ •

منظرا ولا أعجب منه مخبرا ، فاذا هبت الريح سمع له دوي عظيم كالرعد القاصف • ويقطع من البسركان الكبريت الذي لا يوجد مثله • وبها آبار ثلاث يخرج منها أول الربيع الى آخره زيت النفط • فينزل في هذه الآبار على درج ويتقنع النازل ويسد منخره ، فاذا تنفس في أسفلها هلك من ساعته ، يغرف ماءها ويجعله في اجانات فما كان نفطا علا فيجمع ويجعل في القوارير(١٥) •

لقد دفع العرب في أفريقية الى الاستيلاء على جزيرة صقلية عدة عوامل أهمها عاملان ، أولهما القضاء على القراصنة الروم الذين اتخذوا من موانيء الجزيرة مراكزا لهم يشنون منها الغارات البحرية على سواحل أفريقية فيخربون ثغورها وينهبون أموالها ويأسرون من يقدرون عليهم من سكانها ويبيعونهم عبيدا أو يأخذون الفدية عنهم • والعامل الآخر انهم رأوا في ذلك وسيلة لقطع دابر الفتن والثورات الداخلية • فاعتبروا القتال فيسبيل الاستيلاء على صقلية جهادا يهدف الى نشر الدين الاسلامي • فدفع الأمير أبو محمد زيادةالله الأول العناصر المثيرةللفتن نحوغزو موانيء صقليةومدنها وفتحها • ولاشك ان مما شجع على ذلك قرب الجزيرة من سواحل أفريقية • فنزلت فيها طلائع القوات العربية في سنة ٢١٢هـ في ميناء مازرة(١٦) ، على الساحل الجنوبي الغربي من الجزيرة وتمكنت من الاستيلاء عليه •

واستمرت الحملات العربية في فتح الموانى والمدن في القسم المذكور من جزيرة صقلية حتى وصلت بالرم(١٧) ، فحاصروها

---

(١٥) اثار العباد/٢١٥-٢١٦ ، ومعجم البلدان ٣/٤١٦-٤١٩ ، وصورة الارض/ ١١٣-١٢٥ •

(١٦) مازرة : مدينة جميلة عامرة ذات أسوار حصينة - المسلمون في صقلية/ ٢١٧ •

(١٧) بالرم : أعظم مدن صقلية ولها سور مبني بالحجر - معجم البلدان ١/ ٤٨٣ •

وضيقوا الخناق عليها حتى اضطر قائدها الرومي على تسليمها بعد أن سمح له بمغادرتها بحرا مع بعض اتباعه ، وذلك في سنة ٢٢٠هـ ، وقد جعلها العرب عاصمة للجزيرة ، فكثر فيها العمران وبنيت فيها المساجد(١٨) • فتوسعت المدينة ونمت حتى صارت من مراكز الحضارة العربية المهمة آنذاك ، مما ساعد على انتشار الدين الاسلامي بين سكانها الأصليين(١٩) •

وكانت مسينا(٢٠) قد افتتحت في سنة ٢١٩هـ في خلال حصار بالرم ، وهي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الجزيرة • وبذلك استولى العرب على القسم الغربي من الجزيرة وعلى قسم من شماليها • وبقي بيد الروم الساحل الشرقي وأواسط الجزيرة وقلاعها • فركز بنو الاغلب اهتمامهم في اجلاء الروم عنها والاستيلاء عليها لتتم لهم السيطرة على الجزيرة كلها •

لما توفي قائد الجيش العربي في صقلية زهير بن عوف في سنة ٢٢٠هـ خلفه أبو الأغلب ابراهيم بن عبدالله بن الأغلب ، وهو ابن أخي الامير زيادةالله ، فانتهج سياسة جديدة للاستيلاء على ما بقي بيد الروم من الجزيرة • فعمل على تقوية اسطوله البحري ، وأخذت سفنه تهاجم السواحل الجنوبية وتطرد الروم منها • وبنفس الوقت تواجه النجدات البحرية القادمة لمساعدة الروم ، فتضربها بقوة وتضطرها على الهروب والتراجع • مما اضعف القوات الرومية الموجودة في الجزيرة • حتى استطاعت احدى الحملات العربية التوغل الى أواسط الجزيرة والاستيلاء على كبرى مدنها

---

(١٨) مما يلفت النظر كثرة المساجد فيها ، ولياقوت راي طريف في ذلك ، هو رقاعة اهلها بسبب كثرة اكلهم البصل ـ معجم البلدان ٤٨٣/١ •

(١٩) يراجع عن فتح بالرم ومسينا كتاب «المسلمون في جزيرة صقلية» ٧٠-٧٢ •

(٢٠) مسينا : على ساحل صقلية المواجه لبلاد الروم ، وهي أكبر موانئ الجزيرة واكثرها عمارة • بها تجتمع السفن الكبيرة والمسافرون والتجار من بلاد الاسلام وبلاد الروم • وكان مرساها يستقبل أكبر ما يكون من السفن ـ معجم البلدان ١٣٠/٥ والمسلمون في صقلية/٢١٤ •

قصريانة في سنة ٢٢٣هـ[٢١] • وكان الـــروم قد حشدوا جيشهم للدفاع عنها ، فحاصرها الجيش العربي وما لبث أن تمكن من فتح ثغرة في سورها مما سهل له اجتيازه والدخول الى المدينة ، فاضطرت حاميتها على الاستسلام •

وكانت سفن بني الأغلب ، تهاجم في نفس الوقت ، سواحل ايطاليا الجنوبيـــة فاستولت على مدينة طارنطـــة[٢٢] ، ومدينة باري[٢٣] ، اللتين اتخذهما الجيش العربي قواعد لزحفه شمالا نحو مدينة روما •

أعماله العمرانية :

كان الأمـــير زيادةالله محبا للعمران ، فجدد عمـــارة جامع القيروان بعد أن هدمه كله • وأراد أن يهدم المحراب ويبني غيره ، فقيل له ان من تقدمه من الولاة توقفـــوا عن ذلك باعتباره أثرا قديما وقد وضعه الصحابي عقبة بن نافع • ولما الح على ذلك قال له أحد البنائين انه يستطيع أن يخفيه بـــين جداريه ويبني أمامه محرابا جديدا ، فاستصوب رأيه وعمـــل بموجبه[٢٤] • ولا يزال الجامع المذكور على بنائه حتى اليوم • والمحراب كله وما يليه مبني بالرخام الأبيض من أعلاه الى أسفله ، ومخـــرم بالنقوش بكتابة وزخارف جميلة الصناعة • وطـــول الجامع ٢٢٠ ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا وعدد أعمدته ٤١٤ عمودا ، وقد بنيت فيه مقصورة • وبلغ ما انفقته عليه ستة وثمانين ألف مثقال من الذهب[٢٥] • أما

---

(٢١) قصريانة : مدينة جبلية ذات حصون وقلاع منيعة صعبة المنال •
(٢٢) طارنطة : تقع في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة ايطاليا على الخليج المسمى باسمها ، وتسمى اليوم ترنتو •
(٢٣) باري : تقع شمالي شرقي طارنطة على الساحل الشرقي لجنوبي ايطاليا •
(٢٤) المغرب للبكري/٢٣ •
(٢٥) نفس المصدر/٢٣-٢٤ •

المئذنة المربعة التي كانت قد شيدت على طراز المآذن السورية فقد حافظت على شكلها وطرازها . وهي تعتبر من أقدم المآذن القائمة في شمالي أفريقية • وقد افضى هذا الجامع بفخامته وروعة بنائه على القيروان حلـــة من المهابة جعلها من أمهات المـــدن العربية الاسلامية •

وقد اهتم زيادةالله كذلك بتحصين مدن أفريقية • فبنى لمدينة سوسة سورا كان يفخر به ويقول(٢٦) : ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنيـــاني الجامع بالقيروان ، وبنياني قنطرة الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي أحمد بن محرز قضاء أفريقية • وكان زيادة قد ولى الفقيه المالكي أحمد بن محرز الكلابي قضاء افريقية في سنة ٢٢٢هـ ، الا انه ما لبث أن توفي بعد سنة من تعيينه ، وكان أوصى أخاه بن أبي محرز أن يكتم موته الى أن يتم تجهيزه والصلاة عليه خوفا من أن يكفنه زيادةالله ، ففعل عمران ذلك • فلما حمل نعشه من داره اقبل أحد فتيان الأمير بمسك واكفان ، فلما علم انه قد كفن ذر المسك الذي كان معه • ولما وصلوا بالجنازة الى المقبرة حضر زيادةالله وعزى أخا القاضي ، وقال : يا أهل القيروان لو أراد الله بكم خيرا لما أخرج ابن أبي محرز من بين ظهرانيكم(٢٧) •

توفي زيادةالله في القيروان يوم الثلاثاء لاربع عشرة خلت من رجب سنة ٢٢٣هـ وعمره احدى وخمسون سنة وبضعة أشهر(٢٨) • وقد دامت امارته احدى وعشرين سنة وسبعة أشهر •

٣ ـ ابو عقال الأغلب بن ابراهيم :

تولى الامارة بعد أخيه زيادةالله ، وهـــو رابع الامراء من بني الأغلب ، وقد عرف بحسن السيرة ، فاحسن الى الجنود وازال مظالم

---

(٢٦) نفس المصدر/٣٥ ، ومعجم البلدان ٢٨٣/٣ •
(٢٧) البيان المغرب ١٠٦/١ •
(٢٨) نفس المصدر ، والكامل ٤٩٣/٦ •

كثيرة . وزاد في أرزاق العمال واجـــزل صلاتهم وكف أيديهم عن الرعية . وقطع النبيذ عن القيروان وعاقب على بيعه وشربه(٢٩) .

استمر العرب في حملاتهم على جزيرة صقلية في عهد الأمير ابي عقال . فاستولوا على عدد من الحصون صلحا بعد أن استأمنوا أهلها في سنة ٢٢٣هـ منهـا حصن البلوط ، وحصن ابلاطنـــو ، وحصن قرلون . كما سير أبو عقـــال اسطولا الى قلورية ففتحها ، ولقي الاسطول البيزنطي الذي جاء لنجدتها فهزمه . وغزت سرية من جيشه في صقلية مدينة قصريانـــة فغنمت وعادت دون مقاومة . ورغم انها لم تستطع الاستيلاء على المدينـــة الا انها استولت على حصن مهم هو حصن الغيران ، وهو أربعون غارا(٣٠) .

توفي أبو عقال في القيروان في ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ وهو ابن ثلاث وخمســين سنة(٣١) . وكانت مدة امارته ســنتين وتسعة أشهر .

٤ ـ محمد الأول :

عند تولي الواثق بالله الخلافة كان الوالي على أفريقية الأمير أبا العباس محمد بن الأغلب الملقب بمحمـــد الأول ، وهو خامس أمرائها . وقد تولى امارتها في أواخر ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ بعد موت أبيه ابي عقال في عهد المعتصم بالله . بقيت امارة بني الأغلب في عهد محمد الأول مستقلة بشؤونها الداخلية عن حاضرة الخلافة التي لم تكن لها أية سلطة عليها سوى ما تقدمه من المبلغ السنوي المقطوع ، والخطبة في يوم الجمعة باسم الخليفة .

---

(٢٩) البيان المغرب ١٠٧/١ ، والعيون والحدائق ٣٩٨/٣ ، والكامل ٤٩٣/٦ .
(٣٠) تراجع تفاصيل هذه الحملات في الكامل ٤٩٤/٦ .
(٣١) البيان المغرب ١٠٧/١ ، والمختصر في اخبار البشر ٣٤/٢ .

كان الأمير محمد قد قلد أخاه أحمـد كثيرا من شؤون الامارة رغم ان احمد كان جاهلا مغرورا يطمع بالامارة دون أخيه • ويروى ابن عذارى خبرا يؤيد جهله وقلة علمه ومكابرته ، وذلك انه كتب مرة «لحم ضبي» بالضاد ، فقال له كاتبـه : أيداالله الأمير ، الظبي يكتب بالظاء لا بالضاد • فقال أحمد : قد علمنا فيه اختلافا فابو حنيفة يجعله بالظاء ومالك يجعله بالضاد[32] • وقد استطاع أحمد بن الأغلب أن يغري بعض الجند ويكسب ولاءهم ، فقصد بهم مدينة القصر القديم ، وهي مقر الامارة ، وقد خلا بابها من الرجال ، فدخلوها وهاجموا دار الوزير ابي عبدالله بن علي بن حميد فقبضوا عليه وقتلوه • ونشب القتال بين رجال الأمير محمد واتباع أخيه أحمد • فقال أصحاب أحمد لرجال الأمير : ما بالكم تقاتلوننا ونحن في طاعة الأمير ؟ انما قمنا على أولاد حميد الذين استولوا على أموال البلاد • فوقف القتال ، لأن الأمـير محمدا رأى انه بوغت بهجوم أخيه ولم يكن مستعدا له ، فمال الى المسالمة • فعقدت المصالحة بين الأخوين وتحالفا ألا يغدر أحدهما بالآخـر • فاستولى أحمد على مرافق الامارة ودواوينها فقبض على من شاء واستصفى أموال من أراد . وجبى الأموال من الناس ، واستوزر نصر بن حمزة[33] • وبذلك بقي الأمير أبو العباس محمد وليس لـه من الامارة سوى اسمها حتى نهاية عهد الواثق بالله[34] •

الا ان الأمير محمد تمكن في سنة ٢٣٣هـ ان يظفر بأخيه احمد المتغلب على الحكم ، اذ ساعده جماعة من بني عمه ومن مواليه فهاجم بهم القيروان ليلا على غفلة من أحمد وحرسه واستولى عليها وقبض على أخيه ونفاه الى المشرق . فمـات في العراق ، وعندما دخل أبو

---

(٣٢) البيان المغرب ١/١٠٧–١٠٨ •
(٣٣) البيان المغرب ١/١٠٨ •
(٣٤) الكامل ٧/٢٥ •

العباس محمد القيروان وصل أهلها واغدق عليهم العطاء حتى استنفذ جميع ما في خزائنه من الأموال والملابس[٣٥] ٠

بعد ان استماد أبو العباس سلطانه على الامارة واجهته فتنتان الأولى فتنة سالم بن غلبون عامله على الزاب ٠ وكان قد عزله في سنة ٢٣٣ ، فأعلن التمرد وتوجه على رأس جيش يريد القيروان ٠ فدخل مدينة باجة واحتمى بها ليستعد لحرب ابن الأغلب ٠ فوجه اليه الامير أبو العباس جيشا بقيادة خفاجة بن سفيان ، فاستطاع ان يلحق الهزيمة بابن غلبون واتباعه فقتله وحمل رأسه الى ابن الأغلب ٠ وكان ازهر بن سالم رهينة عند ابن الأغلب فقتله عندما اعلن أبوه العصيان[٣٦] ٠

أما الفتنة الثانية فقد قام بها عمرو بن سليم التجيبي المعروف بالقويع ، في تونس في سنة ٢٣٤هـ ودامت أكثر من سنتين، ولم يستطع القائد خفاجة بن سفيان الذي توجه لقتاله ، اقتحام المدينة فرجع ادراجه ٠ فسير ابو العباس في السنة التالية قائد اخر هو محمد بن موسى المدعو عربان على رأس جيش لمحاربة القويع ، الا ان كثيرا من أفراد جيشه انضموا الى جانب الثوار مما اضعف قوة عربان الذي قتل في المعركة وهزم ما بقي من أفراد حملته فعادوا الى القيروان مفلولين[٣٧] ٠ فوجه أبو العباس في سنة ٢٣٦هـ حملة ثالثة على رأسها قائد جيوشه خفاجة بن سفيان ، فهاجمت مدينة تونس وجرى قتال عنيف عند أبوابها ٠ وبعد عدة معارك هزم القويع وقتل الكثير من اتباعه ، وقد ادركه احد جنود خفاجة فقتله وجاء برأسه اليه ، فحمله خفاجة الى الامير أبي العباس ، ودخل الجيش الأغلبي مدينة تونس ٠ وقد سر أبو العباس بالقضاء على

---

(٣٥) البيان المغرب ١/١٠٩ ٠
(٣٦) نفس المصدر ١/١١٠ ، والكامل ٧/٤٠ ٠
(٣٧) الكامل ٧/٤٤ ، والبيان المغرب ١/١١٠ وفيه القويّع بدلا من القويع ٠

فتنة القويع وعودة تونس الى طاعته . فاكرم قائده ووصل قاتل القويع وكساه(٣٨) .

وكان البربر في منطقة «لهـــا» بطرابلس تمردوا على عامل المدينة وامتنعوا عن أداء العشور والصدقات ، وحاربوه واضطروه على ترك المدينة ، فالتجأ الى مدينة لبــدة وبعث بطلب النجدة من القيروان ، فبعث اليه الأمير محمد جيشـــا بقيادة أخيه زيادةالله ، فهزم البربر وقتل منهم خلقا كثيرا واسر آخرين فضرب أعناقهم ، واحرق ما كان في معسكرهم ، فقضى بذلـــك على تمردهم ، فعاد الباقون الى الطاعة .

لقد اعجب أبو العباس بالفقيه المالكي سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، واسمه عبدالسلام وانما لقب بسحنون باسم طائر حديد الذهن بالمغرب يسمى سحنون ، وذلـــك لحدة ذهنه وفرط ذكائه(٤٠) . وكان سحنون كبير علماء القيروان في حينه واليه انتهت الرياسة في العلم في المغرب . وقد صنف «كتاب المدونة» في مذهب الامام مالك بن انس ، وصار له من الاصحاب والطلاب مالم يحصل لغيره من رجال مالك . وعنه اشتهر المذهب المالكي في المغرب(٤١) وكان سحنون الى جانب علمه عادلا نزيها ، فولاه أبو العباس القضاء بعد ان أبى وامتنع عليه عاما كاملا خشية التدخل في أعماله ، حتى حلف له الأمير بالايمان المؤكدة ان يطلق يده على أهل بيته وقرابته وحاشيته ، وينفذ عليهم الحق أحبوا أو كرهوا(٤٢) . وبقي سحنون على القضاء الى ان توفى في شهر رجب سنة ٢٤٠هـ .

---

(٣٨) البيان المغرب ١/١١٠ ، والكامل ٧/٤٤ .
(٣٩) الكامل ٧/٩١ .
(٤٠) البيان المغرب ١/١٠٩ ، ووفيات الاعيان ٢/٣٥٤ .
(٤١) وفيات الاعيان ٣/٣٥٢ .
(٤٢) وفيات الاعيان ٣/٣٥٢ ، والبيان المغرب ١/١٠٩ .

وبنى أبو العباس في سنة ٢٣٩هـ مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية . وظلت قائمة حتى استولى عليها أفلح بن عبدالوهاب الأباضي واحرقها ، وكتب الى الاموي في الاندلس يعلمه بذلك تقربا اليه . فبعث اليه بمائة ألف درهم جزاء على ما قام به(٤٣) .

الفتوحات في صقلية :

استمرت سياسة بني الأغلب في عهد الأمير محمد الاول في محاربة الروم وطردهم من صقلية . وكان الروم قد استرجعوا مسينا التي فتحها العرب قبل عدة سنوات ، فاوعز الأمير محمد الى الفضل بن جعفر باستردادها . فهاجمها الفضل وحاصرها برا وبحرا حتى اضطر أهلها في سنة ٢٢٨هـ ان يطلبوا الأمان لقاء تسليم المدينة . فأمنهم الفضل ، ودخلها بجيشه(٤٤) . ثم سار الفضل بن جعفر الى حصار مدينة لينتيني في سنة ٢٣٢هـ ، وهي تقع جنوبي شرقي بثيرة ، وهي قلعة حصينة على بعد ستة أميال من البحر ، تقع على النهر المسمى باسمها ، وكانت تصلها المراكب القادمة في البحر(٤٥) . فسارع أهلها الى الاستنجاد بقائد الروم في مدينة قصريانة لينصرهم في صد الحملة العربية . فأجابهم الى طلبهم ، وجعلوا بينهم علامة لوصول النجدة للانضمام الى حامية المدينة . ويظهر ان العلامة التي اتفقوا عليها ، وهي ايقاد النيران على جبل معين في ليلة معينة ، قد تسربت الى القائد العربي فاشعل النيران في الوقت المعين وفي المكان المحدد . فظنها أهل لينتيني انها نيران النجدة التي جاءت لمساعدتهم ، ففتحوا باب الحصن لاستقبالهم . ففاجأهم الجيش العربي الذي اقتحم الحصن قبل ان تصل النجدة الموعودة ،

---

(٤٣) فتوح البلدان/٢٣٦ ، والكامل ٦/٥١٩ .
(٤٤) المسلمون في جزيرة صقلية/٧٧ .
(٤٥) نفس المصدر/٢١٥ .

واستطاع الاستيلاء على المدينة التي اضطر أهلها على تسنيمها بعد أن أمنهم الفضل على أنفسهم وأموالهم(٤٦) ٠

ولما مات عامل صقلية محمـــد بن عبدالله بن الأغلب في سنة ٢٣٦هـ اجتمعت كلمة العرب فيها على تولية العباس بن الفضل ، وكتبوا بذلك الى الأمير محمد فأقر العباس عاملا على الجزيرة وبعث اليه بعهده(٤٧) ٠ وكان العباس قبـــل أن يصله العهد بتعيينه يغير ويرسل السرايا لمهاجمة الحصون والقلاع التي لاتزال بيد الروم ٠ فلما تم تعيينه جاهد كثيرا وغزا طويلا ، وكانت له مع الروم مواقف هزمهم فيها واذلهم(٤٨) ٠ فقد خرج في العام التالي لتعيينه على رأس حملة فبلغ مدينة بثيرة وهي من مدن الجزيرة المهمة تقع الى الشرق من قصريانة ، وحاصرها خمسة أشهر ، فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس ، وكان في حملته هذه قد خرب عددا من الحصون وغنم كثيرا من الاموال(٤٩) ٠

توفي الأمير أبو العباس الأغلبي في أوائل المحرم سنة ٢٤٢هـ وله من العمر ست وثلاثون سنة(٥٠) ٠ وكانت مدة ولايته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وعدة أيام ٠

٥ ـ أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الاغلب :

ولي الامارة بعد أبيه وهو ابن عشرين سنة وكان حسن السيرة، كريم الأخلاق والأفعال ، ومن أجود الناس وأسمحهم ، وأرفقهم بالرعية مع تدين واجتناب للظلم ٠ وقد أحسن السيرة مع الرعية

---

(٤٦) الكامل ٧/٦ ٠
(٤٧) نفس المصدر ٧/٦٠ ٠
(٤٨) البيان المغرب ١/١١١ ٠
(٤٩) الكامل ٧/٦٠ـ٦١ ٠
(٥٠) البيان المغرب ١/١١٢ ٠

وأكثر العطاء للجند ومنع الظلم عن الناس(٥١) • فكان عهده هادئا فلم تقم أية ثورة أو خلاف ضده • فصرف جهده الى بناء الحصون وتقوية القائم منها ، ويقول ابن الأثير انه بنى بارض أفريقية عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد(٥٢) • ويظهر ان اهتمامه بتقوية الحصون جاء نتيجة استرداد الروم عددا من الحصون التي كان العرب استولوا عليها في صقلية بسبب ضعف تحصينها • اذ لا يخفى ان مناعة أسوار الحصون ومتانة أبوابها وضخامتها كانت من أهم وسائل الدفاع عنها حينذاك •

كما اهتم الأمير أبو ابراهيم بالنواحي العمرانية فانفق كثيرا من الأموال لحفر مواجل الماء وبناء المساجد وتشييد القناطر • واهتم بصورة خاصة بجامع القيروان فزاد في بنائه • وقد أشرنا في فصل سابق الى انه جلب من سامرا تربيعات من الفضار المذهب وزين بها محراب الجامع المذكور ، كما انه جلب له منبرا خشبيا من بغداد وقد زين بزخارف سامرا ، وهو يتكون من صفوف من الحشوات المقسمة الى مناطق مستطيلة تزينها الزخارف الهندسية المتشابكة والنباتات المجردة وتفريعات من ورق العنب(٥٣) • وهو لايزال قائما شاهدا على ما بلغته الزخرفة العربية من أرقى درجات الروعة في عهد سامرا • وعندما حدث سيل عظيم في مدينة القيروان في سنة ٢٤٧هـ وكسر قنطرة باب الربيع أمر أبو ابراهيم باصلاحها ، واكمل كذلك مأجل باب تونس الكبير(٥٤) •

ويروي عن احسانه الى الفقراء انه كان يركب في ليالي شعبان ورمضان من القصر القديم حتى ينتهي الى جامع القيروان وبين يديه الشموع ، ومعه دواب محملة بالدراهم يتصدق بها على الضعفاء

---

(٥١) البيان المغرب ١/١١٢ . والكامل ٦/٥٢٠ •
(٥٢) الكامل ٦/٥٢٠ •
(٥٣) الفنون الاسلامية/١١٦ •
(٥٤) البيان المغرب ١/١١٣ •

والمساكين[55] . وقد ولي القضاء بافريقية أبا الربيع سليمان بن عمران بن أبي هاشم الملقب بخروفة .

أما فيما يتعلق بصقلية فقد استمر الامير أحمد في سياسة اسلافه في فتح مدنها وحصونها . فقد أرسل العباس بن الفضل عامله عليها عدة حملات للاستيلاء على مدينة قصريانة ، كانت آخرها حملته عليها في سنة ٢٤٢ هـ حيث استطاع فتحها بعد أن قضى على الجيش الرومي المدافع عنها . وقد ساعد على فتحها أحد أسرى الروم الذي نصح القائد العربي بمهاجمة المدينة في مدة اشتداد البرد وتراكم الثلوج وانحباس الناس في بيوتهم ، فتمكنت ثلة من الجند من الوصول الى سور المدينة فدلهم الأسير على فتحة صغيرة فيه يدخل منها الماء الى المدينة ، فدخلوا منها وفتحوا الابواب . فدخلها العباس صبيحة يوم الخميس منتصف شهر شوال بجيشه . وبعد قتال عنيف تغلبوا على من كان فيها من جيش الروم ، وأصابوا من الغنائم ما يعجز الوصف عنه[56] . وبنى العباس في المدينة مسجدا في يومه ونصب فيه منبرا خطب عليه الخطيب في يوم الجمعة[57] .

وفي سنة ٢٤٦ هـ نكثت بعض القلاع التي سبق ان هادنت العرب مثل قلعة البلوط وقلعة ابلاطنوا وقلعة أبي ثور ، فبعث العباس بعض السرايا لتأديبها . ثم انصرف الى تعمير مدينة قصريانة وتحصينها وشحنها بالعساكر[58] . وسار العباس في السنة التالية الى سرقوسة الا انه اعتل في الطريق ووافته المنية في أوائل رجب ، وقد دامت ولايته على جزيرة صقلية احدى عشرة سنة قضاها في

---

(٥٥) نفس المصدر ١/١١٢ .
(٥٦) الكامل ٧/٦٢-٦٣ .
(٥٧) نفس المصدر ٧/٦٣ .
(٥٨) نفس المصدر ٧/٦٤ .

مطاردة الروم واجلائهم عنها • وكان في بعض حملاته قد غزا أرض قلورية وانكبردة واسكنها المسلمين(٥٩) •

وعند توفي العباس بن الفضل اجتمع اهل صقلية على تولية ابنه عبدالله مكانه ، وعرضوا الامر على الأمير أحمد في القيروان • فاستمر عبدالله بارسال السرايا واستولى على عدة حصون • الا ان الامير أحمد بعث خفاجة بن سفيان عاملا على الجزيرة • وأول عمل قام به خفاجة انه سير حملة يقودها ابنه محمود لمهاجمة سرقوسة ، فتغلب على بعض حصونها وغنم ما فيها • كما تمكنت احدى السرايا التي بعث بها خفاجة من الاستيلاء على مدينة توطس بعد حصارها مدة قصيرة(٦٠) •

توفي الامير أبو ابراهيم يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة سنة ٢٤٩(٦١) • وكانت مدة امارته سبع سنوات وعشر اشهر ونصف الشهر •

٦ ـ زيادةالله الثاني :

ولي الامارة بعد وفاة الأمير احمد أخوه أبو محمد زيادةالله بن محمد بن الأغلب وكان يعاصر الخليفة المستعين بالله • وأول عمل قام به انه أقر خفاجة بن سفيان على ولايته على صقلية وخلع عليه لما لمسه من تفانيه في الجهـــاد ، وانشغاله المستمر في حرب الروم واجلائهم عن أراضي الجزيرة • وقد واصل خفاجة في عهد زيادةالله الثاني هجماته على القلاع والمـــدن التي مازالت في حوزة الروم

---

(٥٩) نفس المصدر ، وارض قلورية هي القسم الغربي من جنوبي شبه جزيرة ايطاليا وتدعى اليوم (كلابريا) أمـــا انكبردة فهي ما يدعى اليوم بالجبل الاسود وتقع على الساحل الشرقي لبحر الادرياتيك •

(٦٠) الكامل ١٠٦/٧ •

(٦١) الكامل ١٢٥/٧ •

وبخاصة سرقوسة . وكانت حملاته غزوات تكسب الغنائم وتعود دون ان تستولي على ما تهاجمه من القلاع والمدن . الا انه تمكن في احدى حملاته ان يستولي على مدينة نوطس وهي من المدن الكبيرة في الجزيرة ، وتقع في أقصى الجنـــوب الشرقي منها على مقربة من الساحل . وكان بعض أهلها اخبـــر العرب بموضع دخلو منه الى المدينة ، فغنموا منها أموالا جليلة(٦٢) .

كان الأمير زيادةالله الثاني حليما جوادا ، حسن السيرة ، ذا رأى وشجاعة ، الا ان أيامه لم تطل . فقد توفى في ليلة السبت لعشر بقين من ذي القعدة سنة ٢٥٠هـ(٦٣) ، وكانت ولايته سنة واحدة وبضعة أيام .

٧ ـ محمد الثاني :

تولى أبو عبدالله محمد الثاني بن احمد الأول الامارة بعد وفاة عمه زيادةالله الثاني ، ولقب بابي الغرانيق لولعه بصيدها ، حتى انه بنى قصرا يخرج اليه لصيدها ، انفق عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب(٦٤) . وكان كريما الى حد الاسراف ولم تكن له همة في جمع المال ، ولما مات لم يترك خلفه في بيت المال شيئا(٦٥) . كما كان حسن السيرة ، عادلا في الرعية . وفي عهده بنى جامع المعافري بالقيروان . وقد شيده محمد بن حمـــدون الاندلسي المعافري في سنة ٢٥٢هـ فنسب اليـــه . وبناه بالآجر والجص والرخام وبنى فيـــه جبايا للماء(٦٦) .

---

(٦٢) الكامل ٧/١٠٦ .
(٦٣) البيان المغرب ١/١١٤ ، والكامل ٧/١٣٥ .
(٦٤) البيان المغرب ١/١١٤ .
(٦٥) البيان المغرب ١/١١٤ .
(٦٦) نفس المصدر .

وغضب الأمير محمد الثاني على قاضي القيروان سليمان بن عمران فصرفه وعين عبدالله بن احمد بن طالب أحد كبار فقهاء المالكية ، الا انه ما لبث بعد مدة ان عزله واعاد القاضي السابق الى منصبه . وحلت في أيامه في سنة ٢٦٠ مجاعة عامة بالمشرق والمغرب مع وباء الطاعون(٦٧) . وممن توفى بالوباء المذكور عالم افريقية وفقيهها محمد بن ابراهيم بن عبدوس الذي دون المجموعة في الفقه المالكي(٦٨) .

أما في صقلية فقد تميز عهد الامير محمد الثاني باشتداد الحرب وتواصلها ، وانها كانت سجالا بين العرب والروم . اذ كان الروم قد استردوا بعض المدن والحصون التي كان العرب قد استولوا عليها . مما دفع الجيش العربي هناك الى محاولة استعادتها . فقد غزا خفاجة بن سفيان في سنة ٢٥١ هـ مدينة قصريانة ، ثم قصد سرقوسة وقاتل حاميتها ورجع عنها . ثم بعث ابنه محمدا في حملة استطاعت ان تقتل ألف فارس من الروم ، وعرفت حملته هذه بسرية الألف فارس .

وتكررت حملات خفاجة في السنوات التالية على المدن الرئيسة التي بيد الروم مثل سرقوسة وقصريانة وطرمين . ولعل أهمها حربه مع القائد الذي ارسلته القسطنطينية على رأس جيش للدفاع عن سرقوسة ، فانهزم القائد الرومي بعد قتال شديد ، وقتل الاف من أصحابه . وقد اصاب الجيش العربي منهم سلاحا وخيلا ومغانم أخرى كثيرة(٧٠) .

---

(٦٧) البيان المغرب ١/١١٦ .
(٦٨) نفس المصدر ، والكامل ٧/٢٧٣ .
(٦٩) البيان المغرب ١/١١٤ .
(٧٠) الكامل ٧/١٠٧ .

وخرج خفاجة في سنة ٢٥٥هـ فهاجم سرقوسة وحاصرها وضيق عليها ، ثم ما لبث ان عاد منها الى بلرم . وفي طريقه اغتاله أحد جنوده فطعنه طعنة قاتلة، وذلك فيمستهل رجب منالسنة المذكورة ، فحمل جثمانه الى بلرم فدفن فيهـــا[٧١] . فولى أهل صقلية ولده محمدا وكتبوا بذلك الى أمير بني الأغلب محمد الثاني فأقره على ولايته ، وسير له العهد بالولاية والخلع . ويظهر انه أصبح لأهل صقلية الحق في اختيار الوالي على الجزيـــرة بحيث يضعون أمير أفريقية أمام الأمر الواقع فيقر اختيارهم الا فيما ندر من الحالات.

استمر محمد بن خفاجة على نهج أبيه في مهاجمة مدن جزيرة صقلية التي مازالت بيد الروم ، ومحاولة انتزاعها منهم . ولعل أهم ما انجزه خلال مدة ولايته القصيرة انـــه ارسل حملة في سنة ٢٥٦هـ الى جزيرة مالطـــة وكان الروم يدافعون عنها ، فاستطاع قائد الحملة أحمد بن عبيدالله بن الأغلب ان يهزم الروم ويطردهم منها ويستولي عليها[٧٢] .

الا ان محمدا ما لبث ان قتل في السنة التالية ، اذ تواطأ عدد من خدمه الخصيان فقتلوه لثلاث خلـــون من رجب وكتموا أمره ولم يعرف أمر قتله الا بعد يوم من هروب الخـــدم ، فادركهم حرسه وقتلوا بعضهم[٧٣] . فعهد الامير محمد الثاني بولاية صقلية الى أحد قواده أحمد بن يعقوب بن المضاء بن سلمة الذي ما لبث ان مات في السنة التالية[٧٤] . فولى أهل صقلية ابنه الحسين مكانه ، وأقره أمير بني الأغلب عليها[٧٥] .

---

(٧١) البيان المغرب ١/١١٥ ، والكامل ٧/١٠٨ .
(٧٢) الكامل ٧/١٠٩ .
(٧٣) البيان المغرب ١/١١٥ ، والكامل ٧/١٠٩ و ٢٤٩ .
(٧٤) نفس المصدرين السابقين .
(٧٥) البيان المغرب ١/١١٥ .

هاجم الحسين بن أحمد في السنة التالية سرقوسة فصالحه أهلها على أن يخرجوا اليه من أسرى العــــرب الذين كانوا لديهم ٣٦٠ أسيرا(٧٦) •

وبعد ان حكم الامير أبو الغرانيق امارة بني الأغلب مدة عشر سنوات ونصف السنة توفي في ليلة الاربعاء لست خلون من جمادي الاولى سنة ٢٦١هـ • وكان قـــد عاصر من خلفاء سامرا كلا من المستعين بالله والمعتز بالله والمهتدى بـــالله والمعتمد على الله • ولما حضرته الوفاة عهد بالامارة لابنه ابي عقال وأوصى بأن يتولى أخوه ابراهيم حتى يكبر ولده ، واستحلف أخاه الا ينازع ابنه وأشهد عليه آل الأغلب ومشايخ القيروان(٧٧) •

٨ ـ ابراهيم الثاني :

كان الأمير محمد الثاني قد عهد بالامارة لابنه أبي عقال ونظرا لصغر سنه فقد أوصى بأن يتولى الأمرة أخوه ابراهيم بن أحمد حتى يكبر ولده • الا ان أهل القيروان سألوا ابراهيم الذي كان واليا عليها آنذاك ان يتولى الامارة دون ابن أخيـــه ، لما عرفوه عنه من العدالة والحزم وحسن السيرة • فاجاب بعد تردد وامتناع ، فبايعه مشايخ أفريقية ووجوهها وجماعـــة من بني الاغلب • ولعل من الطريف ان نشير الى انه اعتذر عن قبول تولي الامارة بانه حلف لأخيه بأن لا ينازع ولده ولا يدخل قصره • فكانت الفتوى للخروج من يمينه ان يتولى الامارة في داره وليس في قصر الامارة ، فدخل داره وبايعوه(٧٨) • فكان خلال السنوات السبع الاولى من امارته

---

(٧٦) البيان المغرب ١/١١٦ ، والكامل ٧/٢٦٦ •
(٧٧) البيان المغرب ١/١١٦ ، والكامل ٧/٢٨٤ •
(٧٨) البيان المغرب ١/١١٦ •
(٧٩) الكامل ٧/٢٨٣ •

حسن السيرة حميد الافعال • وقد اهتـــم ببناء الحصون وتقوية الجيش ، واشاعة العدل بين الناس • وكان يجلس بجامع القيروان ليسمع شكوى الخصوم ويفصـــل بينهم[٧٩] • ويظهر انه فعل ذلك مقتديا بمن جلس من الخلفاء لرد المظالم •

بناء مدينة رقّادة :

عني الامير ابراهيم الثاني بالنواحي العمرانية عناية خاصة ، وكان من أول أعماله انه بني مدينة جديدة اتخذها عاصمة له هي مدينة رقادة • وتقع على أربعة أميال من القيروان ، وأكثرها بساتين وليس بأفريقية أعدل هواء ولا ارق نسيما ولا أطيب تربة منها[٨٠] • وهناك روايتان عن سبب تسميتها بهذا الاسم، أولاهما ان أحد أمراء بني الأغلب أرق وفاقه النوم فعولج بالمشي • فلما وصل الى موضع رقادة تعب فغلب عليه النـــوم ، فسمي من يومئذ رقادة • وتقول الرواية الاخرى ان ابا الخطاب عبـــد الأعلى بن السمح المعافري القائم بالدعوة الاباضية باطرابلس ، لما نهد الى القيروان لقتال قبائل رفجومة وكانوا قد تغلبوا عليهـا ، التقى بهم بهذا الموضع فقتلهم فيه قتلا ذريعا ، فسمي رقادة لرقاد جثث القتلى فيه بعضها فوق بعض[٨١] •

لقد انشأ الأمير ابراهيم في هذا الموضع مدينة بنى بها قصورا عجيبة وجامعا • فعمرت بالاسواق والفنادق والحمامات • ولما تم بناء القصر المسمى بقصر الفتح انتقـــل ابراهيم اليه من القصر القديم • وقد استغرق بناء المدينة زهاء السنتين (٢٦٣-٢٦٤هـ) •

---

(٨٠) معجم البلدان ٣/٥٥ ، والمغرب للبكري/٢٧ •
(٨١) معجم البلدان ٣/٥٥ ، والمغرب للبكري/٢٨ •

وبقيت رقادة عاصمة لامــــراء بني الأغلب الى ان هرب منها آخر أمرائهم زيادةالله الثالث •

ولما منع الامير ابراهيم بيـــع النبيذ وشربه بمدينة القيروان وأباحه بمدينة رقادة ، قال بعض الظرفاء من أهل القيروان[82] :

يا سيد النـــاس وابن سيدهم
ومن اليــه الرقاب منقـــاده
ما حـرم الشرب في مدينتنـــا
وهــو حلال بـــأرض رقادة ؟

ومن اعمال ابراهيم العمرانية الاخرى توسيعه جامع القيروان • فقد زاد في عدد بلاطاته ، وبنى فوقه قبة شاهقة تقوم على اثنتين وثلاثين ســـارية من بديع الرخام ، وزينت جدرانهـــا وسقوفها بالزخارف والنقوش العربية الجميلة • وكانت محكمة البناء عجيبة المنظر يشهد كل من رآها انه لم ير احسن منها بناء• وبنى في الجامع مقصورة للنساء يؤدين فيها الصلاة وجعلهـــا محجوزة عن الجامع بحائط مخرم بالزخارف محكم العمل[83] •

الحرب مع ابن طولون :

لعل أهم الاحداث التي واجهت الأمير ابراهيم الثاني وهددت امارته هو هجوم العباس بن احمد بن طولـــون على افريقية في سنة ٢٦٥هـ يريد انتزاعها من بني الاغلب • وكان العباس قد خرج على أبيه أحمـــد بن طولون فاشار عليه بعض اصحابه ان يتجـــه الى افريقية • فكاتب عددا من زعماء القبائل فيها فاجابه قسم منهم • وكتب الى الامير ابراهيم يقول ان امير المؤمنـــين الخليفة قد قلده

---

(٨٢) المغرب للبكري/٢٧ـ٢٨ •
(٨٣) المغرب للبكري/٢٤ •

أفريقية وأعمالها وانه متوجه اليها • ثم سار الى برقة من ثمانمائة فارس وعشرة الاف راجل من سودان أبيه حملهم على خمسة آلاف جمل • وقيل انه حمل من بيت مـــال مصر ثمانمائة حمل دنانير ذهبا ، قيل ان مبلغها ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار • فلما وصل الى مدينة لبدة بعث اليه الأمير ابراهيم القائد احمد بن قرهب على رأس جيش من الفرسان ، فالتقى بجيش العباس وانهزم أمامه ، والتجأ الى اطرابلس ، فاستنجد أهلها بأبي منصور الاباضي صاحب مدينة نفوسة ، فزحف هذا في اثنيعشر ألف من رجاله لنجدتهم • وكان الأمير ابراهيم قد ضرب حلي نسائه دنانير ودراهم لأن سلفه لم يبق في بيت المال شيئا يذكر •

وجهز جيشا أرسله الى عامل اطرابلس وأمره بمقاتلة ابن طولون • فاجتمع رئيس الاباضية وعامل اطرابلس على قتال ابن طولون• فقتل من جيش ابنطولون عدد كبير، ونهبت أمواله. وهزم أقبح هزيمة ، وكاد ان يقع في الاسر ، فعـــاد ادراجه بأسوأ حال • ولشدة اهتمام الامير ابراهيم بالأمر خرج بنفسه يريد اطرابلس ، فجاءه خبر هزيمة العباس • فبحث عن الاموال التي نهبها جيشه واخذها ممن وجد معه منها ، وكان الرجل من العسكر يبيع مثاقيل ابن طولون سرا خوفا من أن تؤخذ منه(٨٤) •

الفتوحات في صقلية :

فتحت في عهد ابراهيم الثاني مدينـــة سرقوسة ، وكان فتحها هذه المرة نهائيا اذ احتفظ بها العرب ولم يستطع الروم الاستيلاء عليها مرة أخرى • فقد توجه اليها في رمضان سنة ٢٦٤هـ جعفر بن

---

(٨٤) البيان المغـــرب ١/١١٨-١١٩ ، والكامـــــل ٧/٢٢٤-٢٢٥ ، والخطط المقريزية ١/٣٢٠ •

محمد وحاصرها برا وبحرا • ولما سير الروم اسطولا لنجدتها هزمه العرب • ودام حصار المدينة تسعة أشهر ، اضطر أهلها بعدها على الاستسلام • فقتل ألوف من جنودها ، وأصاب العرب من الغنائم مالم يصيبوا مثله من مدينة أخرى(٨٥) •

ولما توفى عامل صقلية الحسين بن أحمد في سنة ٢٧١هـ تولى بعده سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي(٨٦) • وكان أول عمل قام به انه قاد حملة الى مدينة قطانية فاهلك ما فيها • ثم سار الى طرمين وقاتل أهلها ، حتى طلب اليه الروم المهادنـــة والمفاداة فوافق على ذلك ، فانقذ ٣٠٠ أسير من العرب كانوا فيها ، وعاد الى بلرم(٨٧) • الا ان اهل صقلية لم ترضهم سياسة العامل الجديد سوادة التميمي فوثبوا به في سنة ٢٧٣هـ وتمكنوا منه ، فبعثوه مقيدا مع أخ له الى أفريقية ، واجتمعوا على تولية العباس بن علي ولاية الجزيرة(٨٨) •

وعندما تنسك الامير ابراهيم الثاني في أواخر أيامه وعزم على الحج الى بيت الله الحرام ، جعل طريقه على جزيرة صقلية ليتلافي الاحتكاك بابن طولون بمصر ، وليجمع الحج والجهاد بفتح ما بقي من حصون الجزيرة • واخرج جميـــع ما عنده من المال والسلاح وسار في اسطول كبير • ولما وصل الى صقلية في سنة ٢٨٩هـ غزا بعض المدن والحصون التي بيد الروم، واستولى على مدينة برطينو• ثم هاجم مدينـــة طبرمين وكان اهلها قد استعدوا لقتالـــه الا انه هزمهم ودخل المدينة • ويقال ان ملك الروم لما سمع هزيمة جيشه في طبرمين واستيلاء العرب عليها حـــزن وبقي سبعة ايام لا يضع التاج على رأسه • وبعد ان تم فتح طبرســـين ارسل الامير ابراهيم

---

(٨٥) البيان المغرب ١/١١٨-١١٩ ، والكامل ٧/٣٢٠ •
(٨٦) البيان المغرب ١/١١٩ ، والكامل ٧/٤١٧ •
(٨٧) الكامل ٧/٤١٧ •
(٨٨) البيان المغرب ١/١٢٠ •

سرايا إلى حصون اخرى ، فاستولت على بعضها وخربت البعض الآخر[89] ٠

سوء سيرة ابراهيم :

سار الامير ابراهيم الثاني في خلال السنوات السبع الاولى من حكمه سيرة حسنة ٠ وقد ذكرنا ما قام به من أعمال خلالها اكسبته رضاء الناس ٠ الا انه بعد ذلك غلبت عليه السوداء فتغيرت أحواله وساء ظنه بالآخرين ، فالتجأ الى القتل للتخلص ممن يسيء الظن بهم ٠ ويقول ابن عذارى المراكشي انه قتل أخوته الثمانية واعدادا كبيرة من أقربائه وأصحابه وحجابه وخدمـــه وجنده ، وقتل ابنه وبناته[90] ٠ ولما عزل أحمد بن طالب بن سفيان التميمي عن قضاء أفريقية في سنة ٢٧٥هـ حبسه ثم قتله بالسم[91] ٠ وكان قد حبس كاتبه محمد بن حيون المعروف بابن البريدي في سنة ٢٧٦هـ فكتب اليه هذا من السجن يستعطفه :

هبني اسأت فاين العفو والكرم
اذ قادني نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الايدي اليه اما
ترثى لصب نهاه عنـدك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر
ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

---

(٨٩) الكامل ٧/٢٨٥-٢٨٦ ٠
(٩٠) البيان المغرب ١/١٣٢ ٠
(٩١)و(٩٢) البيان المغرب ١/١٢١-١٢٣ ، والمسلمون في جزيرة صقلية/١٠٣-١٠٥ وجاء فيه ان ما نسب اليه من هذه الاعمال الفظيعة قد تكون الدعاية الفاطمية قد بالغت في ذلك لتسيء الى سمعته ٠

فلما قرأ ابراهيم الأبيات ، قال : يكتب لي هبني أسأت وهو قد اساء ، أما انه لو قال :

ونحن الكاتبون وقــــد أسأنا

فهبنــا للكـــرام الكاتبينـــا

لعفوت عنه · ثم امر به فجعل في تابوت حتى مات ·

وقتل في ســنة ٢٧٧هـ حاجبه نصر بن الصمصامــــة بضربه خمسمائة سوط ، فلم ينطق بكلمة ولا تحرك من موضعه ، فأمر بضرب عنقه · وعرض في سنة ٢٧٨هـ ديوان الخراج على سوادة النصراني على ان يسلم ، فقال سوادة : مـــا كنت لأدع ديني على رياسه أنالها · فأمر به فقطع نصفين وصلب · واستشرى في سنة ٢٧٩هـ بالقتل بحيث صار يقتل بطرا وشهوة · فقد قتل في هذه السنة اسحاق بن عمران المستطيب المعـــروف بسم ساعة · وقتل جميع فتيانه ، لأن المنجمين قالوا له انه يقتله رجل ناقص العقل وانه قد يكون احد الفتيان · فقتل كل من رآه منهم يتقلد سيفا وفيه حركة ونشاط · ولما اوغل في قتلهم خاف ان تفسد قلوب البقية عليه فقتلهم جميعا · واستخدم عوضا عنهم السودان ، ثم عرض لهم منه ما عرض للفتيان الصقالبة فقتلهم كذلك جميعا[92] ·

ووثب اهل الزاب بعامله في سنة ٢٦٨هـ وكان وجوههم قد قدموا اليه فاحسن اليهم واكرمهم ، الا انه ما لبث ان فتك بهم ، وامعن في قتل أهل البلد حتى الاطفال منهم · ولكثرة من قتل منهم أمر بأن تحمل جثثهم على العجلات الى حفرة ليدفنوا فيها[93] ·

---

(٩٣) الكامل ٧/٣٧٠ ، والبيان المغرب ١/١١٩ · والزاب كورة عظيمة بارض المغرب تمتد بين تلمسان وسجلماسة ، وتكتنفها القرى العديدة · وقيل ان زرعها يحصد في السنة مرتين ـ معجم البلدان ٣/١٢٤ ·

الا انه أظهر التوبة في أواخر أيامه ، لما استقام أمر ابي عبدالله الشيعي ، فأراد أن يرضي العامة ويستميل قلوب الخاصة • فرد المظالم ، واعتق مماليكه ، واعطى فقهاء القيروان ووجوهها أموالا كثيرة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين(٩٤) •

وعندما ذهب الى صقلية في طريقه الى الحج أصيب بالذرب ، واشتد عليه المرض حتى توفي في آخـــر ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ ، فجعل جثمانه في تابوت وحمل الى القيروان ودفن فيها(٩٥) • وكان عمره اثنتين وخمسين سنة ، وطالت ولايته ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، فكان أطول أمراء بني الأغلب عهدا في الحكم • وقد عاصر طيلة حكمه الخليفة المعتمد على الله •

---

(٩٤) البيان المغرب ١/١٣٢ •

(٩٥) الكامل ٧/٢٨٦ ، والبيان المغرب ١/١٣٢ وفيه انه توفي بارض الروم ونقل جثمانه الى جزيرة صقلية ودفن فيها • وجاء مثل هذا في كتاب (المسلمون في جزيرة صقلية) انه مات وهو يحارب في قلورية ، ونقل جثمانه الى بلرم فدفن هناك ، وبني على قبره قصر ــ ص : ١٠٢ •



الفصل الثاني

امارة الطاهريين

١ ـ تاسيسها :

استطاع طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون أن يؤسس امارة مستقلة شملت عددا من ولايات القسم الشرقي من الدولة العربية في عهد العباسيين • وذلك عندما عينه المأمون في سنة ٢٠٥هـ واليا على خراسان من مدينة السلام الى أقصى أعمال المشرق(١)• بعد أن حقق له النصر على أخيه محمد الامين • فاخذ طاهر يعمل على الانفصال عن الدولة بعد أن بلغه سوء رأي المأمون فيه(٢) • وكان طاهر قد قتل الخليفة محمدا الأمين عندما وجهه المأمون لمحاربته • فاشتد ذلك على المأمون ، وكان كلما تذكر مقتل أخيه ازداد حنقا على طاهر ، وقد قال مرة : لن يفوت طاهرا مني مـــــا يكره(٣) • ولذلك احتال

---

(١) الطبري ٥٧٧/٨ ، وتجارب الامم ٤٤٨/٦ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٥٦/٢ وفيه انه ولاه في سنة ٢٠٦ •

(٢) كتاب البلدان/٣٠٧ •

(٣) الطبري ٥٧٩/٨ •

طاهر لتعيينه على ولاية خراسان[4] • لكي يبتعد عن انظار المأمون من جهة ، ولكي يكون بين بني قومه وانصاره فيأمن الايقاع به من جهة أخرى • ويظهر ان المأمون لـــم يكن مطمئنا الى ولائه لانه لم يوافق على تعيينه الا بعد أن خمنه وزيره أحمد بن أبي خالد[5] •

وكان طاهر في أواخر أيامه يحكم خراسان والولايات الشرقية التي ضمت اليه كأمير مستقل لا يخضع للخليفة الا بالاسم • وقد تحقق ما توقعه المأمون عن محاولة طاهر الاستقلال عن الخليفة ، اذ انه اسقط في سنة ٢٠٧هـ اسم الخليفة من خطبة الجمعة ، دليلا على استقلاله • فقـــد صعد المنبر وخطب الناس ، فلما بلـــغ الى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له[6] • ويقول الذهبي انه دعوة الامام المأمون وعزم على الخروج عليه[7] • وكان ذلك قبيل وفاته بأيام ، اذ باغته الأجل فمات في جمـــادي الأولى من تلك السنة من حمى اصابته فوجد ميتا في فراشه[8] • ويقال انه احتيل له بشربة[9] •

وقد تتابع على حكم الامارة أولاد طاهـــر واحفاده • ورغم علاقتهم الودية بالخلافة وانهم لم يتأخروا عن نصرتها اذا ما طلب اليهم ذلك ، فقد حافظوا على استقلالهم الداخلي ، واستمر خضوعهم للدولة العربية شكليا • واستطاعوا أن يوســـعوا نطاق امارتهم برضاء الخليفة حتى حدود الهند • ودامت امارتهم خمسا وخمسين سنة تولاها خمسة أمراء منهم •

---

(٤) تفصيلات ذلك في الطبري ٨/٥٧٧ـ٥٧٩ •
(٥) الطبري ٨/٥٧٩ ، وتجارب الامم ٦/٤٥٠ •
(٦) الطبري ٨/٥٩٤ ، وتاريخ اليعقوبي ٢/٤٥٧ ، وتجارب الامم ٦/٤٥٣ •
(٧) العبر ١/٣٥١ •
(٨) الطبري ٨/٥٩٣ ، وتجارب الامم ٦/٤٥٢ •
(٩) كتاب البلدان/٣٠٧ •

خلف طلحة أباه طاهرا في امارة خراسان · ويظهر ان المأمون اضطر على توليته لعدة أسباب ، منها رغبته في ازالة الشك في أن له يدا في موت طاهر ، ثم عظم نفـــوذ اسرة بني طاهر في خراسان · وعندما توفى طلحة عين المأمون أخاه عبدالله بن طاهر مكانه لأنه كان شديد الثقة به والاعتماد عليه · وكانت هذه التعيينات التي تمت في عهد المأمون لطاهر وولديه من بعده قد اكسبت بني طاهر حقا وراثيا في امارتهم ·

٢ ـ امارة الطاهريين وخلفاء سامرا :

عندما استخلف المعتصم بـــالله كان الوالي على خراسان وما يتبعها من الولايات الشرقية عبدالله بن طاهر ، وقد تولاها منذ سنة ٢١٤هـ عندما توفى أخوه طلحة · وقد اختلفت الروايات في كيفية توليه ، فان اليعقوبي يقول ان المأمون كان قد ولى عبدالله في سنة ٢١٤هـ أقاليم الجبال وأرمينية واذربيجان ، فاتخذ عبدالله مدينة الدينور مقرا له ، ولما مات طلحـــة بن طاهر ولي المأمون عبدالله مكانه ووجه اليه بعهدة وعقده مـــع اسحاق بن ابراهيم وقاضي القضاة يحيى بن أكثم، فنفذ عبدالله الى خراسان(١٠)· الا ان الطبري يقول قد وردت وفاة طلحة على المأمـــون فبعث الى عبدالله يحيى بن أكثم يعزيه عن أخيـــه ويهنئه بولاية خراسان(١١) · وهنـــاك رواية تقول ان المأمون خير عبدالله بين ولاية خراسان وما اليها ، أو ان يبقى على ولايته على الجبل وارمينيـــة واذربيجان وحرب بابك ، فاختار خراسان وشخص اليها(١٢) · أما ابن الاثير فيقول لما مات

---

(١٠) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٦٣ ، وكتاب البلدان/٣٠٧ ·
(١١) الطبري ٨/٥٩٥ ·
(١٢) الطبري ٨/٦٢٢ ، وتجارب الامم ٦/٤٦٣ـ٤٦٤ ، والعيون والحدائق ٣/ ٣٧٤ ·

طلحة ولي خراسان علي بن طاهر خليفة لأخيه عبدالله الذي كان بالدينور ، فثار الخوارج بخراسان فسار اليها عبدالله بأمر من المأمون ، واتخذ مدينة نيسابور مقرا له(١٣) . ولم يكن قد نزلها وال من ولاة خراسان قبله(١٤) .

وكيفما كان الأمر فان عبدالله بن طاهر قد ولي خراسان بعد وفاة اخيه طلحة وبقي على ولايتها الى أن توفي سنة ٢٣٠هـ . وكان عبدالله نشأ في كنف المأمون ورعايته ، ولذلك اعتمد عليه في مهمات الامور . وأوصى أخاه أبا اسحاق ألا يفرط به ، فقد قال له في وصيته : أقره على عمله ولا تهجه ، فقد عرفت الذي سلف بينكما أيام حياتي وبحضرتي ، استعطفه بقلبك ، وخصه ببرك ، فقد عرفت بلاءه وغناءه عن أخيك(١٥) . ورغم ان المعتصم بالله كان سيء الرأي بعبدالله الا انه أقره على عمله ، سواء كان ذلك استجابة منه لوصية اخيه ، أو لأنه كان بحاجة الى مناصرته في حرب بابك الخرمي . ويقول الشابشتي ان المعتصم بالله كتب الى عبدالله عن رأيه فيه وطلب اليه الا يقدم عليه الى عاصمة الخلافة ، ومع ذلك أجاب عبدالله بانه على طاعة أمير المؤمنين ، وانه لو ورد عليه كتابه بالشخوص اليه لما امسى حتى يشخص(١٦) .

لقد أظهر عبدالله اخلاصا واضحا للدولة العربية ، فقد افسد خطط الأفشين حيدر بن كاوس في توجيه أمواله الى بلده أشروسنة في أثناء محاربته بابك الخرمي . فكان عبدالله يكتب الى الخليفة المعتصم بالله بكل ما يوجه به الأفشين الى أشروسنة . واخذ مرة مالا كان الأفشين قد بعث به مع بعض رجاله ، ووزعه على الجند ، وكتب

---

(١٣) الكامل ٦/٤١٤ .
(١٤) كتاب البلدان/٣٠٧ .
(١٥) الطبري ٨/٦٤٩ .
(١٦) الديارات/١٣٩ـ١٤٠ .

الى الافشين بذلك ، فأقر الافشين عبدالله مرغما[17] • وكان الافشين يطمع في أن يحل محل عبدالله بن طاهـــر في ولاية خراسان توطئة للوثوب بالخلافة • ويظهر ان هذا هو ما دعا عبدالله الى أن يكون مخلصا في ولائه للمعتصم بالله • وكان موقف عبدالله من الافشين من أهم الاسباب التي حالت دون تحقيق الافشين نواياه •

كان عبدالله اداريـــا مجربا ، وعلى درجة عاليـــة من الكفاية والحزم ، بحيث ضبط خراسان ضبطا ما ضبطه أحد قبله ، ودانت له البلاد ، واستقامت عليـــه الكلمة[18] • ومن مظاهر حزمه انه عندما ولي خراسان استناب بنيسابور محمد بن حميد الطاهري ، فبنى هذا دارا خرج بحائطها الى الطريق • فلما قدمها عبدالله جمع الناس وسألهم عن سيرة محمد فيهم، فسكتوا• فقال بعض الحاضرين ان سكوتهم يدل على سوء سيرته فيهم • فعزله وأمره بهدم ما بنى في الطريق[19] •

ويعتبر عبدالله من الأجواد • فقـــد ذكر الخطيب البغدادي اخبارا عديدة عن كرمه الزائد ، فيها كثير من المبالغة • وفي الخبر التالي مثال على ذلك : لما رجع عبدالله من الشام الى بغداد ، صعد فوق سطح داره فرأى دخانا يرتفع الى جواره • فسأل حاجبه عن سبب الدخان ، فأعلمه ان القـــوم يخبزون • فقال : وهل يحتاج جيراننا الى ان يتكلفوا ذلك ؟ ثـــم أمره أن يحصي جيرانه ممن لا يقطعهم عنه شارع • فمضى واحصاهم فبلـــغ عددهم أربعة آلاف نفس • فأمر عبدالله لكل واحد منهم في كل يوم بمنين من الخبز ، ومن من اللحم ، وبعشرة دراهم للتوابل في كل شهر ، ومائة وخمسين درهما لكسوة الشتاء ، ومائة درهم لكسوة الصيف • وبقي ذلك دأبه

---

(17) الطبري ٩/١٠٤ •
(18) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٨٠ •
(19) الكامل ٧/١٤ •

مدة مقامة ببغداد · فلما خرج انقطعت تلك المخصصات الا الكسوة ما عاش أبو العباس عبدالله(٢٠) · لا يخفى ان وجود أربعة آلاف نفس في شارع واحد مبالغ فيه أو انه كان تقديرا اعتباطيا · وان اعالة هذا العدد واكسائهم صيفا وشتاء أمر بالغ التكاليف ، ولا اخال الامير عبدالله يطيق ذلك ، لان كلفة الكسوة وحدها تبلغ ألف ألف درهم سنويا ، ناهيك عن كلفة الخبز واللحوم والتوابل · ومما يشبه هذا ما رواه الذهبي من ان عبدالله وقع مرة على قصص بصلات بلغت اربعة آلاف ألف درهم(٢١) · وانما قيل هذا عنه ، على ما نرى، مغالاة في مدحه ، ولا تنسى انه فارسي الاصل والفرس ميالون الى المبالغة بطبيعتهم · وقد بولغ في اخبار كرمه لرفع شأنه واظهاره على الآخرين ممن اشتهروا بالجود والكرم من الولاة والقواد العرب ·

وكان عبدالله أديبا شاعرا له شعر مليح ورسائل ظريفة · وقد انقطع اليه أبو العميثل عبدالله بن خليد الأديب الشاعر(٢٢) · وكان كاتبا لأبيه طاهر بن الحسين ، وقد تولى تأديب عبدالله في صغره · ولما صار عبدالله واليا على خراسان صار أبو العميثل كاتبه وشاعره · كما كان عبدالله يحسن الغناء والموسيقى · وقد نسب اليه أبو الفرج أصواتا صنع ألحانها(٢٣) · وقد بلغ من علمه بالألحان انه صنع ألحانا مشهورة وألقاها على جواريه فأخذنها عنه وغنين بها وسمعها الناس عنهن وعمن أخذ عنهن(٢٤) · الا انه يظهر

---

(٢٠) تاريخ بغداد ٤٨٦/٩ ·
(٢١) العبر ٤٠٦/١ ·
(٢٢) من موالي العباسيين نشأ في البادية واحسن قول الشعر · له عدد من كتب اللغة والشعر · توفي سنة ٢٤٠ ·
(٢٣) راجع عن بعض الاصوات التي نسبت اليه : الاغاني ١٠٦/١٢ـ١١٢ ·
(٢٤) الاغاني ١١٢/١٢ ·

مما رواه ابنه عبيدالله انه لـــم يكن يحب ان يشيع عنه شيء من ألحانه ، أو ان ينسب اليه ، لأنه كان يترفع عن الغناء ، وانه ماجس وترا بيده قط[٢٥] • ويقول الذهبي انه تاب قبل موته وكسر آلات الملاهي[٢٦] •

وقد مدح عبدالله بن طاهر عددا من الشعراء على رأسهم أبو تمام الطائي الذي قصده الى خراسان • فلما وصل الى قومس ، وكان قد طالت به الشقة وعظمت عليه المشقة ، فقال[٢٧] :

يقول في قومس صحبي وقد اخذت
منا السرى وخطـا المهرية القـــود
أمطلع الشمس تنوي أن تـــؤم بنا
فقلت : كـــلا ولكن مطلــــع الجود

وعندما دخل عليـــه انشده قصيدتـــه التي مدحه فيهـــا ، ومطلعها[٢٨] :

هن عوادي يـــوسف وصــــواحبه
فعزما فقدمـــا ادرك السؤل طالبه

ويقول فيها :

وركب كأطراف الأســـنة عرســـوا
على مثلها والليـــل تسطو غياهبـه
لأمر عليهـــم أن تتـــم صـــدوره
وليس عليهـــم أن تتـم عواقبـــه

---

(٢٥) نفس المصدر ١٢/١١١ •
(٢٦) العبر ١/٤٠٦ •
(٢٧) ديوان ابي تمام ٢/١٣٢ •
(٢٨) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ١/٢١٦-٢٣٣ •

فقـــد بث عبدالله خوف انتقامـــه
على الليـــل ما تـــدب عقاربـــه
يقولـــون ان الليث ليث خفيـــة
نواجـــذه مطـــرورة ومخالبـــه

ويختمها بقوله :

بحسبك من نيـــل المناقب أن تـــرى
عليما بـــأن ليست تنال مناقبـــه
اذا ما امـــرؤ القى بربعك رحلـــة
فقـــد طالبته بالنجـــاح مطالبـــه

فاعجب الحاضرون في مجلس عبـــدالله بن طاهـــر بشعره ، واستحسنوا قوله في الأمير · حتى ان أحـــد الشعراء من الحاضرين تنازل لأبي تمام عن جائزة قد أمر له بها الأمير ، فقال له عبدالله : بل نضعفها لك ، ونقوم بالواجب له جزاء عن قوله ·

وقد استمر عبدالله في أيام الخليفـــة الواثق بالله ، أميرا على خراسان وأقاليم الري وجرجان وطبرستان وكرمان ، وظل يحكمها محتفظا باستقلاله الداخلي · الا ان علاقته بالخليفة كانت ودية · وتوفى عبدالله بنيسابور في ربيع الأول من سنة ٢٣٠هـ وعمره ثمان وأربعون سنة(٢٩) ·

وعندما توفى عبدالله اســـتعمل الواثق بالله ابنه طاهر بن عبدالله على أعمال أبيه كلها ، وذلك عملا بمشورة قاضي القضاة أحمد بن أبي دواد · اذ عندما ورد الخبر بموت عبدالله أشار الوزير محمد بن عبدالملك الزيات على الخليفة أن يخرج اسحاق بن ابراهيم،

---

(٢٩) الطبري ١٣١/٩ ، وتاريخ اليعقوبي ٤٨/٢ وفيه انه مات وهو ابن سبع واربعين سنة ، والكامل ١٣/٧ ، ووفيات الاعيان ٢٧٥/٢ وفيه انه مات في مرو ·

نائب الخليفة ببغداد ورئيس شرطته ، وهو من آل طاهر أيضا ، الى خراسان واليا ، ويظهر ان ابن الزيات كان يهدف بذلك الى اضعاف نفوذ الطاهريين ، وضمان ولاء الوالي الجديـــد ، وقد اقترح ان يضم اليه خمسة آلاف من الجند ويطلـــق ارزاقهم ، وان يمنحه الخليفة خمسة آلاف درهم معونة • ولما استطلع الواثق بالله رأي ابن أبي دواد بما اقترحه الوزير ابن الزيات قال ابن ابي دواد : ان اسحاق رهينة القوم ـ يقصد الطاهريين ـ عندك يا أمير المؤمنين ، فان اخرجته لم يكن في يدك أحد منهم ، وأما الجند فانت محتاج الى الزيادة منهم فكيف تفرقهم ولاسيما مع ما ينفق عليهم ، واخراج هذه الاموال لا وجه له ، وهناك ما هو خير من ذلك • قال الواثق بالله : ما هو ؟ قال : طومار ورق بدرهمين تكتب فيه الى طاهر بن عبدالله بالتعزية عن أبيه ، وبتجديد الولاية له ، وتربح ما عزمت على انقـــاذه ، وتكون قد اتممت الصنيعة عند عبـــدالله وولده ، واحسنت الخلافة فيه • فاستصوب الواثق بـــالله رأيه ، وأمر ابن الزيات ان يكتب بموجبه(٣٠) •

وقد اقام طاهر بن عبدالله واليـــا على خراسان طيلة خلافة الواثق بالله ، واستمر بعده حـــتى توفى بنيسابور في رجب سنة ٢٤٨هـ ولـــه من العمر اربع وأربعون سنة(٣١) • فعـــين الخليفة المستعين بالله ابنه محمدا واليا مكانه • وقد جابه محمد بن طاهر كثيرا من المتاعب في خلال فترة ولايته • وفي أيامه انتهت امارة بني طاهر في خراسان •

٣ ـ نهاية الامارة :

كانت نهاية امارة بني طاهر على يد يعقوب بن الليث الصفار الذي اطمعه ما لمسه من ضعف محمد بن طاهر أمير خراسان • وقد

---

(٣٠) الديارات/١٤٠ـ١٤١ •

(٣١) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٤ •

بدا ضعف محمد واضحا عندما عجـــز عن مقاومة الحسن بن زيد العلوي الذي استفحل أمره في طبرستان واستولى على الري وجرجان، وكلها أقاليم تابعة لولاية خراسان • وكذلك فشله في القضاء على عبث الشراة الذين خرجوا في امارته ولم يستطع دفعهم • فانتهز يعقوب الصفار الذي خرج في سجستان واستولى على كرمان وبلخ وهرات وولاية فارس ، فرصة هروب عبدالله السجزي الذي نازعه على ولاية سجستان ، والتجائه الى محمد بن عبدالله بن طاهر الذي رفض تسليمه الى يعقوب • فسار ابن الليث نحوه الى نيسابور • ولما شعر محمد بخطر ابن الليث حاول ان يترضاه ، فلم يرض ، بل دخل المدينة وقبض عليه وعلى أهل بيته • وأرسل ابن الليث كتابا الى الخليفة يبرر فيه استيلاؤه على خراسان ودخوله نيسابور وانهاء امارة الطاهريين ، بتفريط محمد في عمله ، وان أهل خراسان هم الذين سألوه المسير اليهم[٣٢] •

ويقال ان بعض أصـــحاب محمد بن عبـــدالله وبعض أفراد عائلته لما رؤا ادبار أمره مالوا الى ابن الليث فكاتبوه وشجعوه على الاستيلاء على خراسان • وبنفس الوقت هونوا على محمد أمر ابن الليث وانه لا خوف عليه منه ، فثبطوه من الاحتراز منه والاستعداد لحربه[٣٣] • واذا صح هذا فهو دليل على ضعف محمد وقصر نظره •

ولما دخل يعقوب ابن الليث نيسابور في شوال ٢٥٩هـ وقبض على محمد وجميع أهل بيته استولى على أموالهم وما تحويه منازلهم ، وحملهم في الأصفاد الى قلعة بم بكرمان[٣٤] • فانتهت ولاية محمد بن عبدالله بن طاهر التي دامت احدى عشرة سنة وشهرين ، وبذلك انتهت ما عرفت بامارة الطاهريين •

---

(٣٢) الكامل ٧/٢٦٢ •

(٣٣) نفس المصدر •

(٣٤) كتاب البلدان/٣٠٨ •

الفصل الثالث

امـــارة بني طولون

١ ـ ولاية مصر :

كانت علاقة مصر بالدولة العربية خلال عهد خلفاء سامرا قد مرت بدورين ، أولهما الدور الذي مر منذ أن اتخذت سامرا حاضرة للدولة في سنة ٢٢٢هـ في عهد المعتصم بالله ، حتى أواخر عهد المعتز بالله سنة ٢٥٤هـ ٠ وكانت مصر خلال هـــذا الدور احدى ولايات الدولة العربية خاضعة للخلفاء العباسيين الذين كانوا يعينون عليها الولاة والقضاة وعمال الخـــراج ويتولون شؤون امنها الداخلي والدفاع عنها ، ويجبى خراجها لبيت المال في سامرا ٠ ويبدأ الدور الثاني منذ ان تولى القائد التركي أحمد بن طولون ولايتها في سنة ٢٥٤هـ وتأسيسه امارة شبه مستقلة فيها استمرت حتى سنة ٢٨٢هـ عندما عادت مصر ولاية من ولايـــات الدولة العربية كما كانت ٠ وسنستعرض فيما يأتي احداث كل من هذين الدورين ٠

وكانت أحوال مصر السياسية والادارية قد اضطربت في عهد الخليفة المأمون ، فقد انتقض أسفل البلاد ـ الوجه البحري ـ كله ، عربه وأقباطه «وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة بسبب سوء سيرة

العمال فيهم»(١) • مما اضطر المأمون الى ان يقدم الى مصر بنفسه في مطلع سنة ٢١٧هـ فسخط على عيسى بن منصور وعزله عن الولاية ، ونسب ما وقع في البلاد الى سوء ادارته ، اذ قـــال له «لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعـــل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد»(٢) • وعين بدلا عنه الأمير التركي أبا مالك كيدر الصغدى ، واسمه نصر بن عبدالله • كما عين هارون بن عبدالله الزهري على قضاء مصر • فقدم اليها هارون في أواخر رمضان من تلك السنة ، و«كان محمود السيرة عفيفا محبوبا من أهل البلد»(٣) وقد اعتنى بشؤون الاوقاف، فثبت غلاتها وأوجه انفاقها ، كما رعى شؤون الأيتام وعاقب من يتهاون بأمورهم من الأوصياء عليهم • وقد رفض أن يحضر ممثل صاحب البريد مجلس قضائه مالم يكن ذلك بأمر الخليفة •

ولما كتب أبو اسحاق ، وكان المأمون قد عينه على ولاية مصر ، الى خليفته كيدر بأمر المحنة ، استجاب القاضي هارون ووافقه على ذلك عامة الشهود وأكثر الفقهاء(٤) •

وعندما تولى أبو اسحاق المعتصم بـــالله الخلافة ورد كتابه الى كيدر يقره على امارته ، ويخبره ببيعتـــه ، ويأمره باسقاط من في الديوان من العرب وقطع اعطياتهم • ويبدو انه إتخذ هذا الاجراء تأديبا للقواد والجند العرب الذين ايـــدوا المناداة بالعباس خليفة غداة موت أبيه المأمون ، وتنفيذا لسياسته في تتريك جيش الدولة ، ففعل كيدر ذلك • وكان من نتائج قطع الاعطيات عن العرب خروج

---

(١) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٠ ، والخطط المقريزية ٣١١/١ •

(٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٢ •

(٣) فتوح مصر/٢٤٦-٢٤٧ •

(٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٤٥ •

يحى بن الوزير الجروي في جمع من لخم وجذام[٥] • وقد استنكروا قطع أعطياتهم واعتبروا ذلك انتزاعا لحقوقهم •

ولما ورد كتاب المعتصم بالله بالتشدد بالمحنة استعفى القاضي هارون من ذمك • فكلف قاضي القضاة أحمد بن أبي داود محمدا بن ابي الليث ، وكان من رؤوس القائلين بخلق القرآن ، ان يتولى القضاء • فقال هارون اللهم لك الحمد على معافاتي مما بلوت به غيري[٦] • فرفع ذلك الى ابن أبي دواد فأمـــر هارون بالتوقف عن الحكم ، ثم ما لبث ان عزله وعين ابن أبي الليث قاضيا على مصر بدلا عنه • كان ابن أبي الليث وراقا يقيم بمصر ، وهو فقيه على مذهب الكوفيين • فوضع يده على جميع الامـــوال المحبوسة • وحاول أن يسيء الى سلفه هارون الزهري ، فحاسبه على بعض أحكامه ، فكان يحضره الى مجلس القضاء ويوقفه مع الخصوم ويحاول ان يهينه وكاد أن يحبسه • وقد بقي ابن ابي الليث على قضـــاء مصر طيلة أيام الخليفة المعتصم بالله •

مات كيدر قبل أن يتمكن من القضاء على تمرد الجروي ، فتولى ابنه المظفر ولاية مصر باستخلاف أبيـــه واقرار الخليفة • وقد استطاع ان يقضي على الجروي واتباعه بعد قتالهم في وقائع عديدة • وكان المعتصم بالله أنعم على القائد التركي اشناس بولاية مصر ، فصرف أشناس بن كيدر عن ولايتها وعـــين موسى بن ابي العباس واليا على الصلاة[٧] • فوصل في مستهل رمضان سنة ٢١٩هـ ونزل بالعسكر • وكان موضع العسكر يعرف في صدر الاسلام بالحمراء القصوى ، وهو خطة نزل بها بعض القبائل العربية عند فتح مصر ،

---

(٥) نفس المصدر/١٩٤ ، والخطط المقريزية ١/٣١١ •

(٦) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٤٤٨ •

(٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٥ والنجوم الزاهرة ٢/٢٣٢ ، وجاء فيه : وجمع له الخراج في بعض الاحيان •

ثم دثر حتى صار صحراء . ونزلت عساكر العباسيين التي تعقبت مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين ، في هذا الموضع عند جبل يشكر واخذوا يبنون فيه . ولما ولى مصر موسى بن عيسى الهاشمي ـ وقد تولاها ثلاث مرات في عهد الخليفة هارون الرشيد آخرها في سنة ١٧٩هـ ـ ابتنى فيه دارا انـــزل فيها أهله وعبيده ، ثم اذن للناس فابتنوا فيه ، واتصل بناؤه ببناء الفسطاط . ثم بنيت فيه دار للامارة ، ومسجد جامع عرف بجامـــع العسكر ، فسمى ذلك الموضع منذ ذلك الوقت بالعسكر ، وصار أمراء مصر ينزلون به(٨) .

وقد طالت أيام موسى بن أبي العباس ، وكانت أياما حسنة ، اذ استطاع القضـــاء على الفتن الداخلية ، وامتحن فقهـــاء مصر وعلماءها فاجاب أكثرهم(٩) . الا انه عزل وعين مالك بن كيدر بدلا عنه ، فقدم الى مصر في أواخر ربيع الآخـــر سنة ٢٢٤هـ وسكن العسكر . وكانت له ولاية الصلاة فقط . أما الولاية على الخراج فكانت للخليفة يولي عليها من يشاء(١٠) . وكان مالك اداريا حازما الا انه صرف عن عمله بعد سنتين . ووليها القائد علي بن يحيى الارمني وقد ولاه أشناس على الصلاة فقط . فقدم اليها في أوائل ربيع الآخر سنة ٢٢٦هـ ، واستمر في ولايتـــه حتى وفاة المعتصم بالله . فأقره الواثق بالله على ولايتـــه . وكان أبو الحسن قد سكن العسكر على عادة الولاة الذين ســـبقوه ، وجدَّ في اصلاح أحوال البلاد وقمع الفتن والفساد . واقام واليا عليها حتى ورد الأمر عليه بعزله عن غير سخط عليه ، في أوائـــل ذي الحجة سنة ٢٢٨(١١) . فتوجه الى العراق وقدم على الواثق بالله بسامرا فاكرمه(١٢) .

---

(٨) الخطط المقريزية ٣٠٤/١ .
(٩) النجوم الزاهرة ٢٣٢/٢ .
(١٠) نفس المصدر ٢٣٩/٢ .
(١١) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٥ـ١٩٦ ، والنجوم الزاهرة ٢٤٥/٢ .
(١٢) النجوم الزاهرة ٢٤٥/٢ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٦ ، ويقول الكندي ان عيسى بن منصور سجن علي بن يحيى وضيق عليه ، ثم اطلقه .

وولي بعده عيسى بن منصور للمرة الثانيـــة • وكان القائد أشناس قد توفي فعهد الخليفة بولاية مصر الى القائد ايتاخ ، فأقر ايتاخ عيسى بن منصور على امارته ، فاستمر فيها حتى وفاة الواثق بالله ، فصرف عنها في أول خلافـــة المتوكل على الله • وقد استطاع عيسى في خلال ولايته الثانية ان يمهد الامور ويقضي على الفتن • ولما ورد أمر الواثق بالله في سنة ٢٣١هـ بامتحان العلماء والفقهاء والناس بخلق القرآن والتشدد في ذلـــك ، وقف الوالي الى جانب القاضي المتزمت محمـــد بن أبي الليث في ارهاق النـــاس في أمر المحنة • وقد استمرت سياسة ارغام الناس في مصر على القول بخلق القرآن الى ان استخلف المتوكل على الله وابطل المحنة •

لقد اكتسب عيسى بن منصور خبرة في الادارة والسياسة بحيث كانت أيام ولايته الثانية في مصر هادئة ، عدا ما تعرض له الناس من أمر المحنة • وقد استمر في ولايتـــه هذه أربع سنوات وثلاثة أشهر • ولم تطل أيامه بعد عزله غير فتـــرة يسيرة اذ مرض ولزم الفراش حتى مات في منتصف ربيع الآخر سنة ٢٣٣[١٣] •

وعندما صرف عيسى عين ايتاخ هرثمة بن النضر الجبلي ، من أهل الجبل ، واليا على الصلاة فقط ، وفي عهده ورد كتاب المتوكل على الله بترك الجدل في القرآن والرجوع الى اراء أهل السنة في الامور الشرعية[١٤] • ولما توفي هرثمة في أواخر رجب سنة ٢٣٤هـ أعاد ايتاخ علي بن يحيى الى الولاية على مصر ، الا انه ما لبث ان صرفه بعد بضعة أشهر ، واستصفيت أموالـــه[١٥] • ولما قتل ايتاخ جعل المتوكل على الله ولاية مصر لأبنه محمد المنتصر ، فولى هذا اسحاق بن

---

(١٣) النجوم الزاهرة ٢/٢٥٠ •

(١٤) الخطط المقريزية ١/٣١٢ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٧ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٧٤ ، وجاء لقبه فيه : الجيلي •

(١٥) الخطط المقريزية ١/٣١٢ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٧ •

يحيى بن معاذ على الصلاة والخراج[١٦] • فورد اليه كتاب الخليفة باخراج الطالبيين من مصر الى العراق ، ففرض لهم الأموال ليستعينوا بها على السفر ، فاعطى الرجل منهم ثلاثين دينارا والمرأة خمسة عشر دينارا ، وفرق فيهم الثياب • فخرجوا من الفسطاط الى العراق ، ومنها أمروا بالخروج الى المدينة والاقامة بها[١٧] • ويقال ان اسحاق عزم على أن يثور بمصر الا انه عزل ، ولم يلبث يسيرا حتى مات[١٨] • وكان اسحاق من خيرة الولاة ، عادلا واداريا قديرا، وشجاعا ممدوحا قصده بعض الشعراء ومدحوه ، وقد رفق بالناس أيام ولايته[١٩] •

وعين المنتصر في سنة ٢٣٨هـ عنبسة بن اسحاق الضبي على ولاية الصلاة وجعله شريكا لأحمد بن خالد صاحب الخراج • فحاسب عنبسة العمال وأقامهم للناس وانتصف منهم ، واظهر من العدل ما ارتاح الناس اليه[٢٠] • وفي أول ولايته نزل الروم في دمياط في يوم عرفة ، فلم يتمكن أهلها من مقاومتهم ، فدخلوا المدينة وقتلوا كثيرا من رجالها وسبوا النساء والاطفال • فخرج اليهم عنبسة يوم النحر في جيشه وكثير من المتطوعين فلم يدركهم ، اذ هربوا الى تنيس • وكان عنبسة قد أمر الجند من حامية دمياط ان يحضروا الى مصر فساروا اليها • فلما نزلها الروم لم يكن فيها من يدافع عنها ، فنهبوا وسبوا واحرقوا جامع المدينة ، وأوقروا سفنهم بما اخذوه من سلاح ومتاع ، ثم ساروا الى تنيس شرقي دمياط وكان عليها سور له بابان حديديان بنى في أيام المعتصم بالله ، فنهبوا ما فيها واخذوا البابين ورجعوا[٢١] •

---

(١٦) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٨ ، والنجوم الزاهرة ٢/٢٨٣ •
(١٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/١٩٨ •
(١٨) نفس المصدر/١٩٩ •
(١٩) النجوم الزاهرة ٢/٢٨٣ •
(٢٠) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠٠ •
(٢١) الطبري ٩/١٩٣ـ١٩٥ ، والكامل ٧/٦٨ـ٦٩ •

وعندما بلغ الخبر الخليفة المتوكـــل على الله أمر ببناء حصن دمياط فابتدىء في بنائه في أوائل رمضان سنة ٢٣٩هـ[٢٢] ، كما أمر عنبسة ان يبني حصن تنيس أيضا ، وحصنا لمدينة الفرما[٢٣] • وصرف عنبسة عن ولاية مصر في رجب سنة ٢٤٢هـ ، وكانت ولايته أربع سنوات ونصف سنة تقريبا •

وخلف عنبسة على ولاية مصر أبو خالـــد يزيد بن عبدالله بن دينار وقد ولاه المنتصر فقدم الى البلاد في أواخر رجب من السنة المذكورة • وقام ببعض الاصلاحات الاجتماعيـــة ، فأمر باخراج المؤنثين من مصر بعـــد أن ضربوا وطيف بهم ، ومنـــع من النداء والصراخ خلف الجنائز ، وعـــين المختارين في الكور ليمثلوا فيها السلطة ، والغي سباق الخيل وباع الخيل التي كانت للوالي لغرض السباق[٢٤] •

ومن الاعمال المهمة التي انجزت في أيامه بناء المقياس الهاشمي لنهر النيل بجزيرة الروضة ، في ســـنة ٢٤٧هـ بأمر من الخليفة المتوكل على الله ، وهو المقياس الكبير المعروف بالمقياس الجديد • وقد بناه المهندس محمد بن كثير الفرغاني الذي بعث به الخليفة من سامرا ، وبطل بعمارته كل مقياس آخـــر كان بني قبله في الوجه البحري أو الوجه القبلي[٢٥] • وولي أبـــا الرداد الفقيه عبدالله ابن عبدالسلام الاشراف على المقياس ويقال انه من أهل البصرة قدم الى مصر وحدث بها ، وبقي مقياس النيل بأيدي أولاده وأحفاده مدة طويلة[٢٦] •

---

(٢٢) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٤٢ ، والخطط المقريزية ١/٢١٤ •
(٢٣) الخطط المقريزية ١/٢١١ •
(٢٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠٣ ، والنجوم الزاهرة ٢/٣٠٨ •
(٢٥) النجوم الزاهرة ٢/٣١٠ـ٣١١ •
(٢٦) نفس المصدر ٢/٣١١ ، ووفيات الاعيان ٢/٢٩٦ •

بقي يزيد واليا على مصر طيلة أيام المنتصر بالله والمستعين بالله، وكذلك أقره المعتز بالله لما بويع له بالخلافة • الا ان ثورة قامت في الاسكندرية وامتدت الى الجيزة والفيوم ، في ربيع الاخر سنة ٢٥٢هـ في خلال فترة اضطراب الخلافة ، وقد تزعمها جابر بن الوليد المدلجي وانضم اليه كثير من الناس وخاصة الانتهازيون منهم • ويظهر ان يزيد عجز عن القضاء على ثورة جابر وعبث اتباعه ، فاستنجد بالخليفة المعتز بالله فبعث اليه القائد مزاحم بن خاقان معينا له ، فقدم مزاحم الى مصر بجيش كبير • الا ان الاضطراب استمر في البلاد مما دل على عجز يزيد ، فصرفه المعتز بالله عن الولاية وعين القائد المذكور بدلا عنه ، بعد ان دامت ولايته عشر سنوات ونصف السنة •

فصرف مزاحم جهوده في اخماد الثورة واعادة الأمن والاستقرار الى البلاد ، وقد استطاع بعد معارك عديدة أن يقضي على اتباع جابر ، واضطره الى طلب الأمان ، فأمنه مزاحم مع نفر من أصحابه ، وبعث بهم الى حاضرة الخلافة(٢٧) •

وكان مزاحم بن خاقان قد عين على شرطة مصر ارخوز بن طرخان التركي ، فحاول هذا ان يحتذي بيزيد بن عبدالله ، فمنع النساء من الخروج الى الحمامات والمقابر ، ومنع الحصر والمساند التي كانت تتخذ للمجالس في الجوامع ، ونهى عن أن يشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة ، وسجن النوائح ، واشتد في هذه الامور(٢٨) •

---

(٢٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠٥–٢١٠ •

(٢٨) النجوم الزاهرة ٢/٣٣٧ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٠٨ ويسميه ازجور والخطط المقريزية ١/٣١٣ وجاء اسمه فيه ارجوز ، وفضلنا ما جاء في النجوم الزاهرة لانه يتفق مع ما جاء في الطبري ٩/٥٤٤ •

وبقي مزاحم على ولاية مصر حتى توفي في أوائل المحرم سنة ٢٥٤هـ فوليها ابنه أحمد باستخلاف ابيه ، الا انه لم يلبث سوى شهرين فتوفي ، فخلفه في الولاية ارخـــوز صاحب الشرطة لبضعة أشهر ، ثم صرف عنها بتعيين القائد التركي أحمد بن طولون الذي وصل مصر في شهر رمضان سنة ٢٥٤ فبدأ بوصوله عهد جديد فيها ٠

٢ ـ أحمد بن طولون وتاسيس الامارة :

ولد احمد بن طولون في سنة ٢٢٠هـ وأمه جارية تدعى قاسم ابو هاشم[٢٩] ٠ وكان أبوه طولون مملوكا تركيا أهداه نوح بن أسد عامل بخارى الى الخليفة المأمون سنة ٢٠٠هـ في جملة ما كان موظفا عليه من المال والرقيق وغير ذلك[٣٠] ٠ وقد تقدمت الحال به فصار من قواد الجيش العربي ، وتولى رئاسة حرس المأمون ٠ وقيل ان احمد لم يكن ابنه وانما تبناه ، وهو ابن شخص آخر يدعى يلبخ ، ويروي أبو المحاسن قصة لطولون مع أحمد وهو صبي صغير فحظي عنده وتبناه[٣١] ٠ الا ان من يقول انه ابن طولون انما يستدل على ذلك بأن الموفق لمـــا اختلف معه وأمر بلعنه على المنابر نســـبه الى طولون[٣٢] ٠

نشأ أحمد بن طولون بسامرا نشأ جميلا ، وربي تربية دينية فحفظ القرآن وسمع الحـــديث ، وكان حسن الترتيل ، وعرف بالصلاح ، ووصف بعلو الهمة ٠ وقد تميـــز على أبناء جلدته من الأتراك ، وصار ممن يوثق به ويؤتمن على الأموال والاسرار ٠ ولما توفي طولون في سنة ٢٤٠هـ فوض الخليفة المتوكل على الله الى أحمد

---

(٢٩) الخطط المقريزية ٣١٣/١ ، والنجوم الزاهرة ١/٣ ٠
(٣٠) وفيات الاعيان ١٥٦/١ ، والخطط المقريزية ٣١٣/١ ٠
(٣١) وفيات الاعيان ١٥٦/١ ، والنجوم الزاهرة ٢/٣ ٠
(٣٢) النجوم الزاهرة ٣/٣ ٠

ما كان لأبيه من الأعمال[٣٣] • وتزوج أحمد ابنة أماجور أحد كبار القواد الاتراك ، وولدت له ابنه العباس[٣٤] •

كان أحمد يستاء من تصرفات الجند الاتراك ، فطلب الى الوزير عبيدالله بن يحيى أن يكتب رزقه في الثغور ، فكتب له بذلك وخرج الى طرسوس وأقام بهامدة ، ثم ما لبث ان عاد الى سامرا بناء على الحاح أمه بأن يكون الى جانبها[٣٥] • وقد استفاد أحمد من اقامته بطرسوس اذ التقى بها بعدد من المحدثين ، وجالس بعض العلماء فيها ، فاكتسب من علمهم وتأثر بهم • وعند عودته من طرسوس مع القافلة المتوجهة الى العراق انقذ القافلة من قطاع الطريق الذين تعرضوا لها ، وكان في القافلة خادم للخليفة المستعين بالله ومعه ثياب وأمتعة ثمينة جلبها من بلاد الروم وكانت قد صنعت للخليفة ، فلما وصل الخادم الى الخليفة بالثياب والامتعة أعجب بها ، فاخبره الخادم بانه لولا شجاعة ابن طولون وشهامته لما سلمت القافلة من قطاع الطريق الذين اعترضوها ، فاستحسن الخليفة فعل ابن طولون وبعث له مع الخادم ألف دينار ، وواصل هباته اليه ، فوهبه جارية اسمها مياس فولدت له ابنه خمارويه في سنة ٢٥٠[٣٦] •

ولما تنكر القواد الاتراك للمستعين بالله واحدروه الى واسط اختار أحمد بن طولون لأن يكون بصحبته ، فأحسن أحمد معاملته وعشرته ، ولما طلبوا اليه ان يقتله رفض وقال : لا رآني الله قتلت خليفة بايعت له • أبدا[٣٧] •

---

(٣٣) نفس المصدر ٣/٤ •

(٣٤) الخطط المقريزية ١/٣١٤ ، والنجوم الزاهرة ٣/٤ وفيه انه تزوج بابنة عمه •

(٣٥) النجوم الزاهرة ٣/٥ ، والخطط المقريزية ١/٣١٤ •

(٣٦) نفس المصدرين السابقين •

(٣٧) الخطط المقريزية ١/٣١٤ ، والنجوم الزاهرة ٣/٦ وفيه ان المستعين بالله هو الذي اختار ابن طولون ليصحبه •

ولما آلت ولاية مصر في سنة ٢٥٤هـ في عهد المعتز بالله الى القائد بايكيال عهد هذا الى أحمد بن طولـون بولاية مصر خليفة عنه • فدخلها في أواخر شهر رمضان من السنة المذكورة[٣٨] • وعندما قتل بايكيال في أيـام المهتدى بالله انتقل ما كان اليـه من الأعمال الى القائد أماجور ، وهو حمو ابن طولون ، فكتب اليه يقره على ولاية مصر ويزيده ولاية الاسكندرية[٣٩] • وعهد الخليفة المهتدى بالله في سنة ٢٥٥هـ الى أحمـد بن طولون اخضاع عيسى بن شـيخ عامل فلسطين المتمرد[٤٠] • فاغتنم ابن طولون هذه الفرصة لانشاء جيش مستقل أخذه بنظام صارم رغبة منه في شد عناصره المتباينة[٤١] • ويقول القلقشندي ان ابن طولون أول من جلب المماليك الترك الى الديار المصرية واستخدمهم في عساكرها[٤٢] •

أقر المعتمد على الله عند توليـه الخلافة أحمد بن طولون على امارة مصر وكتب اليه يستحثه على حمـل الأموال • فأجاب انه لا يطيق ذلك والخراج بيد غيره ، فانفذ المعتمد على الله نفيسا الخادم الى ابن طولـون بتقليده خـراج مصر والولايـة على الثغور الشامية[٤٣] وبذلك تسنى للأمير أحمد بن طولون أن يقيم في مصر امارة مستقلة بشؤنها استقلالا يكاد يكون تاما عن الخلافة • وقد تولى امارتها بعده أبناؤه وأحفاده ، الا ان مدتهم لم تدم طويلا كما سنرى •

---

(٣٨) الطبري ٩/٣٨١ ، والكامل ٧/١٨٧ •
(٣٩) الخطط المقريزية ١/٣١٤-٣١٥ ، وتاريـخ اليعقوبي ٢/٥٠٦ وفيه ان المعتمد على الله صير اعمال مصر بعد بايكيان الى يارجوخ وكتب هذا الى ابن طولون باقراره على ولايته •
(٤٠) تاريخ اليعقـوبي ٢/٥٠٥ ، والخطط المقريزية ١/٣١٥ وفيـه ان المعتمد على الله كتب الى ابن طولون ان يتأهب لحرب ابن شيخ •
(٤١) تاريخ الشعوب الاسلامية ٢/٦٣ •
(٤٢) صبح الاعشى ٣/٤٢٤ •
(٤٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٧ ، والخطط المقريزية ١/١٠٣-١٠٤ •

القضاء على الاضطرابات والفتن الداخلية :

صرف ابن طولون جهودا بالغة في اخضاع الفتن والعمل على تهدئة الأوضاع الداخلية وتوفير الأمن والاستقرار في ربوع البلاد. واستطاع ان يقضي بحزم على ما قام منها في بداية امارته . وكان أهمها فتنتان اثارهما العلويون الذين كانوا ينقمون على الولاة الاتراك لما يلقونه على أيديهم من التعسف والقسوة . وقد تزعم الاولى احمد بن محمد بن عبدالله بن طباطبا العلوي المعروف ببغا الأصغر ، وقد خرج غربي مصر في سنة ٢٥٥هـ في منطقة الكنائس بين الاسكندرية وبرقة ، ثم سار الى صعيد مصر . فوجه ابن طولون حملة عسكرية لمحاربته وقد استطاعت تشتيت اتباعه ، وقتـل العلوي ، وجيء برأس العلوي الى الفسطاط ، فقضى على فتنته(٤٤) . أما الفتنة الثانية فقد تزعمها ابن الصوفي العلوي وهو ابراهيم بن يحيى بن عبدالله ، وقد خرج في الصعيد أيضا ودخل مدينة أسنا في سنة ٢٥٦هـ فنهبها وقتل كثيرا من أهلها . واستطاع أن يهـزم الحملة التي وجهها اليه ابن طولون ، وظفر بقائدها فصلبه بعد أن قطع يديه ورجليه . الا ان الحملة الثانية التي وجهت اليه تمكنت منه فاضطر على الهرب الى الواحات . ثم ضعف أمـره عندما اصطدم في سنة ٢٥٩هـ بخارج اخر على السلطة هو أبـو عبدالله العمري وهزم أمامه . ولما وجه ابن طولون اليه جيشا آخر لم يصمد أمامه ففر هاربا ، فعبر البحر الاحمر الى مكة فأقام بهـا . فعلم به واليها فقبض عليه وحمله الى ابن طولون فسجنه مدة ، ثم اطلقه فخرج الى المدينة فمات فيها(٤٥) .

وأعلن أهل برقة التمرد في سـنة ٢٦١هـ وطردوا عامل ابن طولون فبعث اليهم غلامه لؤلـؤا فقضى على تمردهم . وقبض لؤلؤ

---

(٤٤) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٢ ، والخطط المقريزية ٢/٢٣٩ .
(٤٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٣-٢١٤ ، والكامل ٧/٢٣٨-٢٣٩ .

على جماعة من رؤسائهم وضربهم بالسياط ، واستصحب بعضهم معه الى مصر ، فطيف بهم في المدينة . فخلع ابن طولون على لؤلؤ خلعة وطوقه بطوقين(٤٦) .

كما قامت فتنة أخرى في أعلى الصعيد وقد تزعمها أبو عبدالله العمري وهو عبدالله بن عبدالحميد بن عبدالله من نسل عمر بن الخطاب(٤٧) وكان العمري قد خرج غضبا لله وللمسلمين ، اذ آلمه ما ارتكبه أبناء قبيلة البجة الذين كانوا يهاجمون صعيد مصر ويقتلون وينهبون ثم يعودون سالمين . فكمن لهم مع عدد من اصحابه فلما عادوا خرج اليهم وقتل قائدهم فولوا منهزمين فتبعهم الى بلادهم فنهبها وقتل منهم كثيرا ، ولم يسلموا منه حتى أدوا له الجزية . واشتدت شوكة العمري وكثر اتباعه ، فسير اليه ابن طولون جيشا فحاول العمري أن يقنع قائد الحملة بأنه ليس خارجا على السلطة وانما خرج للجهاد ضد البجة وان الامير ابن طولون اذا عرف ذلك فسوف يتركه وشأنه . الا ان القائد لم يجبه الى ذلك فقاتله فانهزم جيش ابن طولون . فلما اخبروه بحال العمري لامهم لأنهم لم يعلموه بأمره وانه نصر عليهم لبغيهم عليه . الا ان اثنين من غلمان العمري وثبا به وقتلاه وحملا رأسه الى أحمد بن طولون تقربا اليه . الا انه اسف على مقتله وقتلهما به . وأمر برأس العمري فغسل وكفن ودفن(٤٨) .

وكان خروج العباس بن أحمد بن طولون في سنة ٢٦٤هـ اخطر ما واجه أحمد . اذ كان قد خرج في السنة المذكورة الى بلاد الشام واستخلف ابنه العباس ، وهو أكبر أبنائه ، على مصر ، وابقى معه كاتبه أحمد بن محمد الواسطي ليعاونه في ادارة شؤون الامارة .

---

(٤٦) الكامل ٧/٢٨٣ .
(٤٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٤ ، والكامل ٧/٢٦٤ وفيه : هو ابو عبدالرحمن العمري واسمه عبدالحميد بن عبدالعزيز بن عبدالله .
(٤٨) الكامل ٧/٢٦٤-٢٦٥ .

فزين للعباس بعض قواده التغلب على مصر والقبض على الواسطي . وقد بلغ الواسطي ما عزم عليه العباس واتباعه فكتب الى الأمير أحمد يخبره بالأمر ويستعجله العودة الى مصر ، فزاد ذلك في وحشة العباس من أبيه وخوفه منه . فاشار عليه أصحابه ان يبتعد عن أبيه فيخرج من مصر . فقبض على الواسطي وقيده ، وخرج الى الاسكندرية على رأس جيش كبير فيه ثمانمائة فارس وعشرة آلاف راجل من سودان أبيه . وحمل معه مالا كثيرا . ثم توجه منها الى برقة ، وقد راودته فكرة تأسيس دولة في أفريقية لكي يستطيع مهاجمة أبيه . فكاتب بعض زعماء القبائل فيها فاجابه قسم منهم ، فأقدم على مغامرة عسكرية . اذ كتب الى أمير بني الأغلب ابراهيم الثاني بان الخليفة قد قلده أمر أفريقية وأعمالها وانه متوجه اليها . وقيل حمل معه من بيت مال مصر (٨٠٠) حمل من الدنانير الذهبية ، ومبلغها ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار(٤٩) . فلما دخل بجيشه مدينة لبدة اساء الى أهلها ، واضطر عاملها على الالتجاء الى اطرابلس التي استنجد أهلها بأبي منصور الاباضي المتغلب على مدينة تنوسة ، فزحف هذا لنجدتهم . وكان الأمير ابراهيم قد بعث جيشا الى اطرابلس لحرب ابن طولون ، وقد اشرنا الى ذلك عند الكلام عن الامير الأغلبي ابراهيم الثاني . وقد هزم العباس أقبح هزيمة وكاد ان يقع في الأسر ، مما اضطره على العودة فقبض عليه أبوه وسجنه وقتل عددا من اتباعه ممن زينوا له الخروج على أبيه(٥٠) .

ان قضاء أحمد بن طولون على الاضطرابات والفتن المذكورة ، وعلى تمرد ابنه ساعد على استتباب الأمن الداخلي مما اتاح له فرصة للبناء والتعمير والعمل على تحسين أحوال البلاد . فاهتم بشؤون الري والزراعة مما أدى الى زيادة الانتاج الزراعي في مصر فبلغ خراجها أربعة آلاف ألف وثلاثمائة ألف دينار ، بعد أن كان قبله ثمانمائة ألف دينار(٥١) . وقد ساعده زيادة خراج البلاد على

ان يستغني عن بعض الرسـوم التي كانت مفروضـــة على بعض المرافق • فقد كان احمد بن المدبر لما ولي خراج مصر ، وكان من دهاة الكتاب ، ابتدع بدعا صارت سنة من بعده • فاحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس ، وقرر على الكلأ الذي ترعاه الماشية رسما سماه «المراعي» وقرر مثله على ما يصاد من البحر وسماه «المصايد» وعرفت هذه الرسوم بـ «المرافق والمعاون» فقرر احمد بن طولون الغاءها وكانت عائداتها السنوية تبلغ مائة ألف دينار(٥٢) •

الخلافة بين الموفق وابن طولون :

نشأ خلاف حاد بين الموفق المهيمن على شؤون الخلافة في سامرا وامير مصر أحمد بن طولون • وسبب الخلاف الرئيس كما يقول المقريزي ان الحرب الطويلة مع صاحب الزنج دعت الموفق ان يكتب الى أحمد من حمل ما يستطيع من المال الى حاضرة الخلافة للاستعانة به في الحرب المذكورة • فبعث اليه ابن طولون ألف ألف ومائتي ألف دينار(٥٣) ، الا ان الموفق استقل المبلـــغ ، وغضب على ابن طولون وكتب اليه بذلك • فاجاب ابن طولون جوابا فيه كثير من التحدي مما لم يرتح له الأمير الموفق ، فعزم على ان يبعث واليا الى مصر بدلا من أحمد بن طولون ، فالتمس شخصا ذا كفاية ودراية يبعث به ، فلم يرشح له أحـد لأن هدايا ابن طولون لقواد الدولـــة وارباب

---

(٤٩) البيان المغرب ١/١١٨ •
(٥٠) الطبري ٩/٥٤٥ ، والكامل ٧/٣٢٤-٣٢٥ والبيان المغرب ١/١١٨-١١٩ ، والخطط المقريزية ١/٣٢٠ •
(٥١) الخطط المقريزية ١/٩٩ •
(٥٢) الخطط المقريزية ١/١٠٣-١٠٤ •
(٥٣) الخطط المقريزية ٢/١٧٩ ، وتاريـــخ اليعقوبي ٢/٥٠٨ وفيه ان حمل الى الخليفة الفي الف درهم •

المناصب العليا في سامرا كانت متصلة(٥٤) . فطلب الموفق الى كبير القواد موسى بن بغا ان يصرف ابن طولون عن ولاية مصر ويقلدها اماجور والي دمشق . الا ان اماجور احجم عن مقاتلة ابن طولون للقربى التي بينهما ولقوة جيش ابن طولون . ولذلك اضطر موسى ان يخرج بنفسه على رأس جيش كثيف . فنزل الرقة واقام بها عدة أشهر لم تتوفر له خلالها الأموال اللازمة للجيش ليسير الى حرب بن طولون . فاضطرب عليه اصحابه وملوا الاقامة وطالبوا بأرزاقهم . على ان موسى مرض واشتدت عليه علته فمات(٥٥) .

ولما علم ابن طولون بمسير موسى بن بغـــا بجيش يريد حربه واقصاءه عن ولاية مصر استعد لملاقاتـــه . فأخذ على الجند وسائر الناس البيعة لنفســـه على أن يعادوا من عاداه ويوالـــوا من والاه ويحاربوا من حاربه من الناس جميعا(٥٦) . وهـــذا ما معناه انهم بايعوه على ان يحاربوا الى جانبه ولو كان يحاربه جيش الخليفة . ويمكن الاستنتاج من هـــذا ان ابن طولون كانت تســـاوره فكرة الانفصال التام عن الدولة العربية . فشرع بتحصين المدينة ، فبنى حصنا في الجزيرة ، وهي جزيرة الروضة بين الفسطاط والجيزة ، ليكون معقلا لماله وحرمه وذخائره ، واجتهد في بناء المراكب الحربية واحاطتها بالجزيرة زيادة في تحصينها(٥٧) .

وحينما بلغ ابن طولون نبأ موت أماجور في دمشق ، وكان قد استخلف ابنه في الولاية بعده ، اغتنم الفرصة لضم بلاد الشام اليه . فخرج بجيش كبير واستطاع ان يستولى دون حـــرب على الرملة ودمشق وحمص ، ثم اضطر على محاصرة انطاكية ، لأن واليها سيما

---

(٥٤) الخطط المقريزية ٢/١٧٩ ، والكامل ٧/٣٠٥ .

(٥٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٨ ، والكامل ٧/٣٠٥ وفيه ان موسى اضطر الى العودة الى سامرا .

(٥٦) تاريخ اليعقوبي ٢/٥١٠ .

(٥٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢١٨ ، والخطط المقريزية ٢/١٨٠ وجاء فيه انه احاطها بمائة مركب .

الطويل امتنع عليه • فحاربه ابن طولون واستولى على المدينة عنوة ، فقتل سيما واستباح أمواله • ثم سار الى طرسوس فنزلها بجنوده ، فضاقت بهم وغلت الاسعار فيها ، مما سبب نقمة اهلها فطلبوا اليه الخروج منها • فأمر ابن طولون جنـــده ان يتظاهرا بالهزيمة من المدينة ليوهم الروم بقوة حاميتها وانها استعصت عليه رغم قوة جيشه وكثافته(٥٨) • فعاد منها الى دمشـــق فبلغة خبر خروج ابنه العباس عليه فعاد مسرعا الى مصر لمعالجة الامر •

خرج أهل طرسوس على عامـــل ابن طولون خلف الفرغاني وطردوه وولوا عليهم القائد يازمان الخادم • مما اضطر ابن طولون ان يخرج ثانية الى دمشق لمحاربة أهل طرسوس • وكان الخليفة المعتمد على الله حينذاك قد ضاق ذرعا باستبداد أخيه الموفق بأمور الدولة دونه فاتصل بأبن طولون بدمشق يستنصره على أخيه ، وبعث اليه يعلمه بانه خارج اليه • وقد رحب ابن طولون بالتجاء الخليفة اليه لأن ذلك سيجعل مصر حاضرة الخلافة(٥٩) • مما يدعم مركزه تجاه الامير الموفق ويزيد في استقلال امارته ، وانه لمكسب عظيم لمصر ولأميرها • الا ان محاولة المعتمد في الهرب الى دمشق فشلت • اذ استطاع عامل الموصل اسحاق بن كنداج الخزري ، بايعاز من الموفق ، ان يحتال على الخليفة وحاشيته فمنعهم من السفر وردهم الى سامرا حيث أصبح المعتمد على الله محجوزا عليه •

ولما بلغ ابن طولون ما فعله الموفق بالخليفة ، أمر بكتاب وجهه الى مصر خلع فيه الموفق من ولاية العهـــد لمخالفته الخليفة وحجزه اياه ، جاء فيه ان أبا أحمد الموفق خلع الطاعـــة وبريء من الذمة فوجب جهاده على الأمة(٦٠) • واشهد على ذلك الحاضرين من القواد

---

(٥٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٢٠ •
(٥٩) نفس المصدر/٥١٢ •
(٦٠) الخطط المقريزية ١/٣٢٠-٣٢١ •

والقضاة ، فامتنع عن الشهادة قاضي مصر بكار بن قتيبة ، مما سبب غضب ابن طولون عليه فأمر بسجنه ٠

وكان بكار بن قتيبة قد ولاه المتوكل على الله قضاء مصر في سنة ٢٤٦هـ وأجرى عليه مائة وثمانية وستين دينارا في الشهر ٠ وكان عفيفا عن أموال الناس ، محمودا في ولايته ، عارفا بالفقه ، يكثر وعظ الخصوم ونصحهم وبخاصة عنــــد اليمين ، ويحاسب أمناءه ويتحرى عن الشهود ٠ وكان ابن طولون يعظمه ويحترمه ، وكثيرا ما كان يتردد على مجلســــه في الحديث ليستمع اليــــه ٠ ومن مظاهر احترامه له أن كان من عادته اذا حضر جنازة لا يصلي عليها غيره الا اذا كان بكار حاضرا فيقدمه للصلاة ٠ الا انه لما امتنع بكار عن لعن الموفق حبسه ونقم عليه ٠ ويقال ان بكــــارا قال : ألا لعنة الله على القوم الظالمين ٠ فقيل لابن طولون انه انما قصدك بهذا القول ٠ مما زاد في غضبه عليه ٠ وكان من عادة ابن طولون ان يبعث الى بكار في كل سنة بألف دينار ، فلما غضب عليه أرسل اليه يستردها منه ٠ فاحضرها بكار من منزله بخواتيمها ٠ وقد طال حبس بكار فطلب أصحاب الحديث الى ابن طولون أن يأذن لهم في السماع منه فأذن لهم ، فكان يحدثهم من طاقة في السجن ٠ وعندما مرض ابن طولون حاول أن يسترضي بكارا ، الا انه رفض ذلك ٠ وقد توفي بكار في أواخر ذي الحجة سنة ٢٧٠هـ ، بعد وفاة أحمد بن طولون بأربعين يوما ، وكان قد تولى القضاء أربعا وعشرين سنة(٦١) ٠

لقد قطع ابن طولون الخطبة للموفق واسقط اسمه من الطراز ، فلما بلغ الموفق ما عمله ابن طولون طلب الى الخليفة أن يأمر بلعنه ، ففعل المعتمد على الله ذلك مكرها ، لان هواه كان مع ابن طولون(٦٢) ٠ وكتب الموفق الى عمال الولايات يأمرهــــم بلعن ابن طولون على

---

(٦١) لمزيد من التفصيلات راجع : كتاب الولاة وكتاب القضاة/٥٠٧ـ٥١٢ ٠
(٦٢) الكامل ٣٩٧/٧ ٠

المنابر ، وكانت صيغة اللعنة هي اللهم العنه لعنا يفل حده ، ويتعس جده ، واجعله مثلا للغابرين ، انك لا تصلح عمل المفسدين(٦٣) •

وتوجه ابن طولـــون الى أهل طرسوس ليحـــاول استمالتهم بالحسنى ، فوجد يازمان الخادم قد تحصن بالمدينة ، مما اضطره على محاصرتها • الا ان اشتداد البرد وكثرة الامطار والثلوج اضطرته على الرحيل عنها فعاد الى مصر مريضا •

تاسيس مدينة القطائع :

عندما جاء ابن طولون الى مصر سكن دار الامارة في العسكر ، الا ان مماليكه ورجاله ازداد عددهم كثيرا بحيث ضاق بهم العسكر• فقرر ان يختط مدينة في سفح الجبل ، فأمر بحرث قبور اليهود والنصارى وبنى في موضعها القصر والميـــدان • وتقدم الى قواده وغلمانه بان يختطوا لأنفسهم حول القصر ، فاختطوا وبنوا حتى وصل البنـــاء الى الفسطاط • وقد تم البناء بشكل قطائـــع ، أي حارات ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها • فكان للجنود النوبيين قطيعة منفردة سميت بهم ، وللروم قطيعة عرفت بهم أيضا ، كما كان لكل صنف من غلمانه قطيعة خاصة • وبنى القواد في مواضع متفرقة • فعمرت القطائع وتفرقت فيها السكك والأزقة • وبنيت فيها المساجد والاسواق والطواحين والحمامات والأفران • وسميت الاسواق بحسب حرف شاغليها ومهنهم ، كسوق العطارين وسوق البزازين وسوق الصيارفة ••

وهكذا صارت القطائع مدينة كبيرة عامرة ، وبنى الأمير أحمد قصره وجعل له ميدانا كبيرا يستعرض فيـــه الجيش ويلعب كرة الصولجان • وسمي القصر كله الميدان ، وقد عملت له عدة أبواب لكل منها اسم خاص ، أهمها باب الميدان ومنه يدخل ويخرج معظم

---

(٦٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٢٩ ، والخطط المقريزية ١/٣٢١ •

الجيش ، وباب الخاصة لا يدخل منه الا خاصة ابن طولون ، وباب الصلاة ومنه يذهب الأمير الى الجامع الكبير الذي شيده ، وعرف هذا الباب بباب السباع لأنه كان عليه صورة سبعين من الجبس ، وباب خاص بمرور الحريم . وكان الطريق الذي يمر فيه ابن طولون واسعا قطع بحائط فيه ثلاثة أبواب كبيرة . وكانت هذه الابواب تفتح كلها في أيـام الأعياد ، أو في يوم عـــرض الجيش ، أو يوم الصدقة ، وما عدا هذه الايام لا تفتح الا بترتيب في أوقات معينة .

واتخذ ابن طولون للقصر مجلس يشرف منه يوم العرض ويوم الصدقة . كما كان على باب السباع مجلس آخر كان يجلس فيه ليلة العيد ليشرف على القطائع ويطلع على أحوال غلمانه فيرى حركاتهم وتصرفهم في حوائجهم ، فاذا رأى في حالة أحدهم نقصا أو خللا أمر له بما يتسع به ، وكان هذا المجلس يشرف على البحر أيضا(٦٤) .

وهكذا كانت القطائع مدينة خاصة لغلمان الأمير ابن طولون وجنده ، والقصر والميدان خاص به(٦٥) .

جامع ابن طولون :

شكا أهـــل مصر الى الأمير أحمد بن طولون ضـــيق المسجد الجامع يوم الجمعة من كثرة جنوده وسودانه ، فأمر بعمارة الجامع الذي عرف باسمه . وقد شيده على جبـــل يشكر ، ويشكر هو اسم قبيلة عربية اختطت عند الفتح بهذا الجبل فعرف بها(٦٦) . وهناك من يقول ان يشكر هو اسم رجل صـــالح كان يسكن بيتا عند هذا الجبل فسمي باسمه ، وقد ادخل هذا البيت في بناية الجامع(٦٧) .

---

(٦٤) راجع عن مدينة القطائع : الخطط المقريزية ٢/٣١٥-٣١٦ .
(٦٥) الانتصار/١٢٢ .
(٦٦) الخطط المقريزية ١/١٢٥ .
(٦٧) الانتصار/١٢٣ .

وحينما قرر بناء الجامع طلب ان يبني مقاوما للغرق والحريق فقيل له يبني بالجير والرماد والآجـــر الأحمر القوي الناري الى السقف ولا يجعل فيه اساطين الرخام فانها لا صبر لها على النار ، فبناه هذا البناء(٦٨) • ويظهر مما ذكره المقريزي انه قدر لسقف الجامع ثلاثمائة عمود من الرخام فقيل له لا يتوفر هذا العدد من الاعمدة الا اذا جمعت من الكنائس المهجورة في الأرياف والضياع ، فانكر ذلك ولم يوافق عليه • وشغل باله فيكيفية توفير هذه الأعمدة الضرورية لقيام سقف الجامع • فتقدم اليه مهندس نصراني كان يعمل عنده ، وقـــد سبق أن غضب عليه وأمر بسجنـــه(٦٩) ، بانه يستطيع بناء الجامع دون أعمدة سوى عمودي القبلة • ولكي يقنع الأمير ابن طولون باقتراحه صور الجامـــــع على قطع من الجلود ، فاعجب ابن طولون بذلك واستحسنه ، فاطلقه من سجنه وخلع عليه ووضـــع تحت تصرفـــه مائـــــة ألف دينـــــار وقال لـــــه أن ينفق على تشييد الجامع وفق اقتراحه ، واذا ما احتاج الى زيادة في المال زاده له • فبوشر في بنائه في سنة ٢٦٤هـ وتم في سنة ٢٦٦هـ وصلي فيه أحمد أول جمعة ، فطالبه المهندس النصراني بالأمان والجائزة، فقال له : لقد أمنك الله ولك الجائزة • وأمر له بعشرة آلاف دينار وأجرى عليه الرزق الواسع الى أن مات(٧٠) •

ويرى الآثاري «فيولية» ان هذه القصـــــة أقرب الى أن تكون مختلقة لتظهر ان استخدام الأعمدة في بناء الجامع ابتكار مصري ، بينما كان قد بني جامعان كبيران باستخدام الاعمدة قبل سنوات قليلة في سامرا التي قدم منها ابن طولـــــون ، وكان ولا شك اطلع عليهما وتعرف على طريقة بنائهما(٧١) •

---

(٦٨) نفس المصدر ، والخطط المقريزية ٢/٢٦٦ •
(٦٩) بين المقريزي سبب غضبه عليه وسجنه ـ الخطط المقريزية ٢/٤٥٧ •
(٧٠) راجع عن تفصيلات أخرى عن بناء الجـــامع ـ الخطط المقريزية ٢/٢٦٥ـ ٢٦٦ •
(٧١) Creswell, E. M. A. P 303 .

وتتميز منارة هذا الجامع بان مراقيها من ظاهرها ويطلع اليها بدرج ظاهرة عريضة تسع جملـين يصعدان اليها • وقد اقيمت خارج الجامع فوق قاعدة مربعة ، وبمصعد داخلي يتمشى حلزونيا ، اضافة الى الدرج الخارجي(٧٣) • ويقال ان سبب عمارتها على هذه الصورة ان احمد بن طولون أخذ يوما وهـو في مجلسه درج ورق وعبث به باصابعه فخرج بعضه وبقي بعضه • فاستغرب الحاضرون منه ، فقال لهم : اني أريد أن أبني منارة مسجدي الجامع كذلك ، وأمر المهندسين أن يبنوها على ذلك الشكل(٧٤) • ولعله كان بمبثه بدرج الورق يحاول آن يصف لهم منـارة سامرا الملوية التي كان يعرفها جيدا • ويقول المقريزي انه بنـاه على غرار جامع سامرا وكذلك المنـارة(٧٥) • ويؤيـد ذلك الاسـتاذ مـارتن بريكز Martin. S. Briggs في الفصل الذي كتبه عن «فن العمارة» في كتاب تراث الاسلام ، عند كلامه عن جامـع ابن طولون بقوله «ان أهميته في تاريخ العمارة الاسلامية قد نقصت بعض النقص لأننا نلاحظ ان بعض الظواهر المعمارية فيـه موجودة في بعض أبنية عراقية أقدم عهدا منه • وجامع ابن طولون مسجد جامع كبير يكاد يكون مربع الشكل ، وفيه صحن تحيط بـه أروقة ذات بوائك • ورواق القبلة أكبر بكثير من الأروقة الاخرى • وبين جدران الجامع وسوره الخارجي أروقة خارجية مكشوفة ••• والسور الخارجي ضخم جدا ، وعليه شرفات زخرفية ••• وفي أسفل شرفات السور صف من طاقات على شكل أقواس مدببة ، وعلى هذه الطاقات ركبت شبابيك من الجص مخرمة ، وتفصل كل طاقة منها عن التي تليها حنيات مدببة ورؤوسها ذات فصوص عديـدة ، أو فيها زخارف بارزة ••• ويمكننا ان نقول في ثقة واطمئنان ان الجامع الطولوني

---

(٧٢) الانتصار/١٢٤ ، وذكر الجملين هنا لتصوير سعة الدرج •
(٧٣) الفن الاسلامي/٣٤ •
(٧٤) الانتصار/١٢٤ ، وصبح الاعشى ٣/٢٤٠ •
(٧٥) الخطط المقريزية ٢/٢٦٦ •

عراقي الطراز من كل الوجوه وانه مأخوذ عن نمـاذج في سامرا وبغداد كانت مألوفة لابن طولون في شبابه • وهناك فوق الظواهر المعمارية التي مر ذكرها عناصر أخرى جديدة منها كتابات بالخط الكوفي محفورة بالخشب يتجلي فيها الحـذق والمهارة في استخدام حروف الكتابة في أغراض زخرفية • ومن هذه العنـاصر أيضا الزخارف الملونة ونكات نراها فوق كل السطوح الظاهرة ، وهي أكثر ما تكون مصنوعة من الجص الابيض ، ولكننا نراها فوق ألواح من الخشب في السقف»(٧٦) •

كما ان مـؤلف كتـاب «الفن الاسـلامي» ارنست كـولن Ernst Kuhnel يؤيد ان هذا الجامع قد شيد على طراز جامع سامرا(٧٧) • كما اثبت الاثاريـان المعماريان فيوليه وباتريكولو بالبرهان القاطع ان منارة جامع ابن طولون قد بنيت أول الأمر على شاكلة ملوية سامرا ، وان القاعدة المربعة الشكل التي تؤلف الطابق الأول من المنارة قد اضيفت فيما بعد ، وذلك بعد أن أصاب الخراب الجامع في أواخر القرن السابع وقام الأمير المملوكي لاجين الملقب بحسام الدين المنصوري بتجديده في سنة ٦٩٦(٧٨) •

وكانت قد بنيت في مؤخرة الجامع ميضأة وخزانة فيها جميع الشربات والأدوية ، وعليها خدم وفيها طبيب يجلس يوم الجمعة لما قد يحدث للحاضرين للصلاة(٧٩) • كما انشأ ابن طولون الى جوار الجامع تجاه القصر والميدان دارا لها باب من جدار الجامع يخرج منه الى المقصورة بجوار المحراب والمنبر ، واثثت هذه الدار بما يحتاج اليه من الفرش والستائر وكان يجلس بها اذا ذهب الى صلاة

---

(٧٦) تراث الاسلام (لجنة الجامعيين لنشر العلم) ٢/١٣٥–١٣٧ •

(٧٧) الفن الاسلامي/٣٤ •

(٧٨) Creswell, E. M. A. P : 315 - 316 .

(٧٩) الانتصار/١٢٣ ، والخطط المقريزية ٢/٢٦٦ و ٤٠٥ •

الجمعة فيجدد وضوءه ويغير ثيابه ، وكان يقال لها دار الامارة[80] ٠

وبلغت النفقة على الجامع مائة وعشرون ألف دينار[81] ٠ وقد طالت الايام بجامع ابن طولون حتى أصابه الخراب في أواخر القرن السابع ٠ فأمر بتجديد عمارته حسام الدين المنصوري ٠ وأوقف املاكا خصص ريعها لنفقات الجامع ، ومن طريف ما جاء في باب النفقات ما يختص بالديكة التي تكون بسطح الجامع في مكان مخصص لها لتعيين المؤذنين على الأوقات ، وضمن ذلك كتاب الوقف[82] ٠

المارستان :

يقول ابن دقماق لم يكن بمصر قبل أحمد بن طولون مارستان لمعالجة المرضى ، فأمر أحمد ببناء المارستان الذي عرف باسمه ، ثم سمي فيما بعد بالمارستان العتيق أو الاعلى[83] ٠ وقد بني في سنة ٢٥٩هـ ويقال في سنة ٢٦١هـ ، ولعله كمل بناؤه في السنة الأخيرة ٠ وقد بني فيه اضافة الى القاعات والغرف حمامان أحدهما للرجال والآخر للنساء ٠ ولما فرغ من بنائه حبس عليه ايرادات بعض الاملاك كالقيسارية وسوق الرقيق ٠ وبلغ مجموع ما انفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار ٠ وكان ابن طولون اشترط ان لا يعالج فيه جندي ولا مملوك ، اي أنه خصص لعامة الناس ٠ وكان اذا جيء بالعليل تنزع ثيابه ويؤخذ ما عنده من المال ويحفظ ذلك عند امين المارستان ، ثم يلبس ثيابا ويفرش له ، ويغدى عليه ويراح بالادوية والاغذية والأطباء حتى يشفي فيأمر بالانصراف بعد أن يعطى ماله وثيابه ٠ وكان الأمير أحمد يتفقد أحوال

---

(٨٠) الخطط المقريزية ٢/٢٦٩ ٠

(٨١) نفس المصدر ٢/٢٦٦ ، والانتصار/١٢٢ ، والنجوم الزاهرة ٣/٨ ٠

(٨٢) الانتصار/١٢٤ ٠

(٨٣) نفس المصدر/٩٩ ٠

المارستان فيركب اليه في كل يوم جمعة ويطلع على خزائن المارستان وما فيهـــا ، وعلى أحوال الأطبـــاء ، وينظـــر ســـائر المرضى والمحبوسين فيه من المجانين • ويذكر المقريزي حادثة وقعت للأمير مع مجنون من نزلاء المارستان ، ترك ابن طولون بعدها زيارته(٨٤)•

وفاة أحمد بن طولون :

مرض أحمد بن طولون حينما خرج الى طرسوس وسار منها الى أذنة والمصيصة وكان البرد شديدا • ويقال انه اقام في انطاكية لبضعة أيام أكثر فيها من شرب لبن الجاموس ، فأصيب بالاسهال • وقد فشـــل طبيبه الخاص سعيد بن توفيل الذي كان يصـــحبه في سفره ، في معالجته لأنه لم يكن يلتزم بالحمية التي فرضها عليه • ولما اشتدت عليه علته اراد العـــودة الى مصر ، فثقل عليه ركوب الدواب ، فعملت له عجلة كانت تجـــر بالرجال وطئت له • فلما وصل الى الفرما ركب الماء الى الفسطاط(٨٥) • ويقول ابن الأثير ان ابن طولون اصابته هيضة من أكل لبن الجاموس ، واتصلت حتى صار منها ذرب ، وكان الأطباء يعالجونه وهو يأكل سرا ، فلم ينجع الدواء(٨٦) •

ولما وصل ابن طولون مصر اشتدت عليـــه علته فأمر الناس بالدعاء له ، فغدا الناس بالدعاء بما فيهم النساء والأطفال ، وحضر اليهود والنصارى كذلك للدعاء له(٧٨) • وما لبث ان مات ليلة الأحد

---

(٨٤) للاطلاع على مزيد من التفصيلات عن المارستان الطولوني ، راجع : الخطط المقريزية ٢/٤٠٥-٤٠٦ ، والانتصار/٩٩ •

(٨٥) عيون الانباء/٥٤٢ ، والنجوم الزاهـــرة ٣/١٧-١٨ وجاء فيه انه نقل في محفة يحملها الرجال •

(٨٦) الكامل ٧/٤٠٩ •

(٨٧) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٣١ ، وشذرات الذهب ٢/١٥٧ •

لعشر خلون من ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ[٨٨] • ولما بلغ نبأ وفاته الخليفة المعتمد على الله جزع وحزن عليه •

كان أحمد بن طولون ، كما تصفه المصادر ، شجاعا جوادا متواضعا ، حسن السيرة ، يتفقد أحوال رعاياه ، صادق الفراسة ، ذا حدس ثاقب • يباشر الامور بنفسه ، ويحب رجال الدين والعلم • وكان اذا جرت منه اساءة استغفر وتضرع بالدعاء • الا انه مع ذلك كان قاسيا طائش السيف • ويقال انه احصي من قتلهم صبرا ومن ماتوا في حبسه فكان عددهم ثمانية عشر ألفا • وكان كثير الصدقات ورإتبه لذلك ألفا دينار في كل شهر • كما كانت مطابخه مفتوحة لعامة الناس يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف الطعام للناس في القدور والقصاع • ويقال ان المشرف على صدقاته قال له انه قد تمتد اليه الكف الناعمة فيها الخاتم والمعصم فيه السوار ، فقال له: هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، فاحذر ان ترد يدا امتدت اليك واعط كل من يطلب منك[٨٩] •

وخلف أحمد بن طولون من الأولاد ثلاثة وثلاثين ، منهم سبعة عشر من الذكور اشتهر منهم العباس ، وخمارويه ، ومضر ، وشيبان ، وأبو العشائر[٩٠] • وخلف في خزائنه من الذهب عشرة آلاف ألف دينار . ومن المماليك سبعة آلاف مملوك ، ومن الغلمان أربعة وعشرون ألف غلام ، ومن الخيل سبعة آلاف فرس ، ومن مراكبه الجياد مائة ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس[٩١] •

---

(٨٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة /٢٣١ ، والخطط المقريزية ١/٣٢١ • والطبري ٩/٦٦٦ وجاء فيه انه توفي يوم الاثنين لثمان عشرة خلت من ذي القعدة •

(٨٩) للمزيد من التفصيلات راجع : الخطط المقريزية ١/٣١٦ ، والنجوم الزاهرة ٣/١ـ٢١ •

(٩٠) النجوم الزاهرة ٣/٢٠ ، وشذرات الذهب ٢/١٥٧ •

(٩١) النجوم الزاهرة ٣/٢١ •

٣ ـ خمارويه بن أحمد بن طولون والنزاع مع الخلافة :

عندما توفي الأمير أحمد بن طولون بايع الجند ابنه خمارويه بالولاية على مصر خلفا له • وقد امتنع أخوه العباس ، وهو أكبر أخوته ـ عن مبايعته فأمر بحجزه ، وكان ذلك آخر العهد به ، ويقال انه أمر بقتله(٩٢) • وقد ولي خمارويه الفقيه محمد بن عبدة بن حرب البصري القضاء ، وكانت مصر قد بقيت بعد موت بكار بن قتيبة بغير قاض زهاء سبع سنوات • نظر خلالها ابن عبدة في المظالم ، وكان سخيا مهيبا ، يرهبه الشهود ، ويجله الامير خمارويه ويعظمه ويجرى عليه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وقد فوض اليه مع القضاء النظر في المظالم والمواريث والاوقاف والحسبة • وامتاز ابن عبدة بالجرأة وقوة الحجة بحيث لما اختلف الامير خمارويه مع بعض كبار قواده توسط بينهم وأصلح الحال ، فشكر له الأمير سعيه • وكان لابن عبدة مجلسان أحدهما للفقه يحضره الفقهاء ، والآخر للحديث يحضره الحفاظ • ولم يزل ينظر في القضاء وغيره مما فوض اليه الى ان قتل أبو الجيش خمارويه • فلما تولى ابنه جيش امارة مصر أقره على عمله ، فاستمر حتى خلع الأمير ، فرجع الى داره واستتر خوفا من الفتنة • وعندما تولى محمد بن سليمان الكاتب امرة مصر من قبل الخليفة المكتفي بالله اعاد ابن عبدة الى منصب القضاء • فلبث فيه يسيرا ثم سار الى العراق صحبة محمد بن سليمان واقام فيه الى ان مات في سنة ٣١٣هـ(٩٣) •

أما علاقة خمارويه بالخلافة فقد استمرت القطيعة التي حدثت في أيام أبيه مع الموفق بسامرا • فاستغل والي الموصل اسحاق بن كنداج ووالي أرمينية ابن ابي الساج الفرصة وكاتبا الموفق يستمدانه على محاربة خمارويه ، فامرهما بمحاربته ووعدهما

---

(٩٢) نفس المصدر ٣/٤٩ ، وكتاب الولاة وكتاب القضاة /٢٣٣ •
(٩٣) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٥١٦ـ٥١٨ •

بالمساعدة وانفاذ الجيوش اليهما[٩٤] . فقصـــدا ما يجاورهما من البلاد فاستوليا عليها . واعانهما والي ابن طولون في دمشق فاعلن عصيانه على خمارويه ، مما سهل لهما الاستيلاء على حلب وحمص وانطاكية . فبلغ الخبر خمارويه فسير جيشا الى بلاد الشام فدخل دمشق ثم سار لمقابلة جيش ابن كنداج وابن ابي الساج في شيزر . فطاوله اسحاق حتى وصله المدد من العراق بقيادة ابي العباس أحمد بن الموفق ، فاشتبك الطرفان وتغلب الجيش العراقي ، وجلا جيش ابن طولون عن دمشق الى الرملة .

ان هزيمة جيش خمارويه اضطرته على ان يخرج بنفسه على رأس جيش كبير . فالتقى بجيش أبي العباس عند الماء الذي عليه الطواحين قرب الرملة ، فدارت معركة عرفت بمعركة الطواحين ، هزم بها خمارويه وعاد هاربـــا الى الفسطاط . الا ان قسما من جيشه بقيادة سعد الأيسر ثبت في القتـــال واستطاع ان يهزم أبا العباس ويطارده حتى استرجع دمشق منه . ويظهر ان سعدا لما رأى خمارويه يهرب من ميدان المعركة استخف به فعصى بدمشق ، مما اضطر خمارويه على العودة ثانية اليهـــا فدخلها وقبض على سعد وقتله[٩٥] .

ويقول ابن الاثير ان خمارويه عامل اسرى جيش ابي العباس معاملة لم يسبقه الى مثلها أحد من القواد قبله . فقال لاصحابه ان هؤلاء أضيافكم فأكرموهم ، وقال للاسرى من اختار المقام عندي فله الاكرام والمواساة ومن اراد الرجوع جهزناه وسيرناه ، فمنهم من أقام ومنهم من سار مكرما[٩٦] .

---

(٩٤) الكامل ٧/٤١٠ .
(٩٥) كتاب الولاة وكتاب القضاة /٢٣٥-٢٣٦ ، والطبري ٨/١٠ ويسميه - بد الاعسر ، والكامل ٧/٤١٥ ويسميه سعيد الايسر .
(٩٦) الكامل ٧/٤١٥ .

وكان اسحاق بن كنداج قد سار بجيشه ثانيـــة نحو الشام لاسترجاعها من الطولونيين ، فعاد خمارويه على رأس جيشه ، فالتقى بجيش اسحاق فهزمه حتى عبر الفرات ، كما استطاع التغلب على جيش ابن ابي الساج الذي كان يسير نحو دمشق فهزمه حتى عبر نهر الفرات كذلك(٩٧) ٠

واستطاع خمارويه ان يستميل اليه يازمان الخادم المتغلب على طرسوس ، فعاد الى طاعته ودعا له بعــد ان كان خرج على أبيه ، فانفذ اليه ثلاثين ألف دينار وخمسمائة مطرف وسلاحا(٩٨) ٠ ويبدو ان تغلب خمارويه على القائدين ابن كنداج وابن ابي الساج كان له تأثيره على يازمان وقــدر انه لن يقوى على الصمود أمـــام جيش خمارويه اذا ما هاجم طرسوس ، فاثر الصلح على الهزيمة ٠

ويظهر ان معركة الطواحين والمعارك التي تلتها اقنعت كلا من أبي العباس أحمد بن الموفق وخمارويه بن أحمد بن طولون بأن استمرار النزاع بينهما غير مجد ، فمال كل منهما نحو المصالحة ٠ فكتب خمارويه الى ابي أحمد الموفق يسأله الصلح على مال يبذله عن ما في يده من البلاد ٠ فاجابه أبو احمد الى ذلك ، وكتب اليه كتابا قدم به فائق الخادم الى الفسطاط في رجب سنة ٢٧٣هـ يذكر فيه ان الخليفة المعتمد على الله وأبا أحمد الموفق وابنه أبا العباس كتبوه بايديهم ، بولايـــة خمارويه وولده مدة ثلاثين ســـنة على مصر والشامات ٠ فأمر خمـــارويه بالدعاء لأبي أحمد وتـــرك الدعاء عليه(٩٩) ٠

وعند وفاة الموفق في سنة ٢٧٨هـ تولى ابنه أبو العباس أحمد ما كان يتولاه أبوه ، واستحوذ على عمه الخليفـــة المعتمد على الله ،

---

(٩٧) نفس المصدر ٤٢٧/٧ـ٤٢٨ ٠

(٩٨) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٣٩ ، والطبري ١٨/١٠ ، والكامل ٤٣٩/٧ ٠

(٩٩) كتاب الولاة وكتاب القضاة /٢٣٧ـ٢٣٨ ، والنجوم الزاهرة ٥١/٣ـ٥٢ ٠

وأصبح وليا للعهد . وتوفي الخليفة في السنة التالية فبويع لأبي العباس بالخلافة ولقب بالمعتضد بـــالله . فبعث اليه خمارويه بن أحمد بن طولون بهدايا وتحف ، اذ قدم الحسين بن عبدالله المعروف بابن الجصاص من مصر «ومعه هدايا من العين عشرون حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقان فيهما طراز وعشرون رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بحلية فضة كثيرة ، ومعهم حراب فضة، وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبععشرة دابة ، بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة ، وسبع وثلاثون دابة بجلال مشهرة ، وخمسة بغل بسروج ولجم ، وزرافة ، يوم الاثنين لثلاث خلون من شوال ، فوصل الى المعتضد ، فخلع عليه وعلى سبعة نفر معه . وسفر ابن الجصاص في تزويج ابنـــة خمارويه من علي بن المعتضد ، فقال المعتضد : أنا أتزوجها، فتزوجها»(١٠٠) . ولما تصاهر خمارويه مع المعتضد بالله زالت الوحشة التي كانت بينهما ، فولده خمارويه مع المعتضد بالله زالت الوحشة التي كانت بينهما ، فولاه المعتضد بالله من الفرات الى برقة وجعل اليه الصلاة والخراج وجميع الاعمال على ان يحمل خمارويه الى المعتضد بالله في كل عام مائتي ألف دينار عما مضى وثلاثمائة ألف دينار عن كل عام للمستقبل ، ثم قدم رسول الخليفة الى خمارويه بالخلع وكانت اثنتي عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا(١٠١) .

اهتمام خمارويه بالبناء والتعمير :

بعد ان انهى خمارويه مشاكله مع الخلافة واستقر حكمه على مصر وبلاد الشام والثغور انصرف الى البناء والتعمير ، ويظهر انه

---

(١٠٠) الطبري ١٠/٣٠ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٢ـ٥٣ .

(١٠١) كتاب الولاة وكتاب القضاة/٢٤٠ ، والنجوم الزاهرة٣/٥٣ ، والطبري ١٠/٤٢ وجاء فيه ان المعتضد بلغه نبا وفاة خمارويه فامر الرسول بالرجوع اليه .

كان شغوفا بذلــك ، وقد ساعده ما وجده في بيت المــال من ذهب وأموال طائلة على ان ينفق ببذخ واسراف على ما انشأه من القصور والحدائق والمتنزهات • وقـــد اسهب المقريزي في تعداد ووصف منشآته وما انفقه عليها من الاموال مما يدل على ميله للبذخ وحبه الترف • فزاد في قصر أبيه ووسعه كثيرا بما اضافه اليه ، فعمل فيه مجلسا برواق سماه «بيت الذهب» طلى حيطانه كلها بالذهب المزين باللازورد بأحسن النقوش ، وجعـــل فيه صورا بارزة من الخشب تمثله مع الحظايا والمغنيـسات وعلى رؤوسهن الأكاليل من الذهب مرصعة باصناف الجواهـــر ، ولونت أجسامها بما يشبه الثياب بالاصباغ العجيبة(١٠٢) •

وجعل بين يدي بيت الذهب فسقية ملأها زئبقا لأنه شكا الى طبيبه الأرق فأشار عليه بعمل بركة من الزئبق • فعمل بركة مربعة طول ضلعها خمسون ذراعا وملأها بالزئبق ، وجعل في اركان البركة سككا من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنع في حلق من الفضة وعمل فراشا من الجلد يحشى بالهواء حتى ينتفخ فيحكم شده ويلقى على تلك البركـــة ويشد بزنانير الحرير التي في حلق الفضة ليثبت في مكانه ، فينـــام على هذا الفراش ، ولايزال الفراش يرتج ويهتز بحركة الزئبق مادام عليه • وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به ، فكان يرى لها في الليالي المقمرة منظر عجيب اذا تألق نور القمر بنور الزئبق • وانفق على ذلك مالا طائلا • وقد أقـــام الناس بعد خراب القصر مـــدة يحفرون لجمع الزئبق من شقوق البركة(١٠٣) •

أما الميدان الذي انشأه أبوه فقد جعله بستانا زرع فيه أصناف الاشجار وأنواع النخيل ، وحمل اليه من مختلف البلدان أصنافا من

---

(١٠٢) الخطط المقريزية ١/٣١٦-٣١٧ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٤ ، وفيه انه بنى دار الذهب في البستان •

(١٠٣) الخطط المقريزية ١/٣١٧ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٥ ، والانتصار/١٢٢ •

الشجر المطعم ، وغرس فيه أنواع الورود ، وزرع الريحان على شكل نقوش وكتابات يتعهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة • وزيادة في البذخ كسا جذوع النخيل نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل أنابيب الرصاص يجري فيها الماء ليخرج من تضاعيف جذع النخل فينحدر الى فساقي يفيض منها الماء الى مجاري تسقي البستان • وبنى في البستان برجا واسعا من خشب الساج المنقوش بالنقر ، ليقوم مقام الأقفاص ، وبلط أرضه وزوقه بأصناف الأصباغ • وسرح فيه أصناف القماري والطيور الجميلة • وجعل فيه أوكارا مثبتة في جوف الحيطان لتفرخ فيها • وسرح في البستان الطواويس ودجاج الحبش ونحوه(١٠٤) •

وشيد في القصر فيه شاهقة الارتفاع سماها «الدكة» كانت من أجمل مباني القصر بزخارفها ونقوشها وألوانها ، وجعل على نوافذها الستائر التي تقي الحر والبرد ، فتسبل اذا شاء ، وترفع اذا أحب • وفرش أرضها بالفرش النادر الثمين ، وعمل لكل فصل من فصول السنة فرشا يليق به • وكان خمارويه كثيرا ما يجلس في هذه الدكة ليفرج منها على جميع ما في داره من البستان وغيره ، ويشرف على الصحراء والنيل والجبل وجميع المدينة(١٠٥) •

وبنى للوحوش التي كانت عنده دورا مفردة لكل صنف من الحيوان كالنمور والفهود والسباع والفيلة والزرافات • وكان يحب الاسود كثيرا فبنى لها دارا خاصة في قصره ، فيها قاعات تسع كل منها أسد ولبوته • ولتلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها ومنفذ صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت • وفي كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء • وأمام هذه

---

(١٠٤) الخطط المقريزية ٣١٦/١ ، والنجوم الزاهرة ٥٣/٣-٥٤ •
(١٠٥) الخطط المقريزية ٣١٧/١ ، والنجوم الزاهرة ٥٦/٣ •

البيوت قاعة فسيحة فرش فيها الرمل ، فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته أو وضع اللحم المعين لغذائه رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخـــرج الى القاعة المذكورة ، فيرد السائس الباب وينزل الى البيت من المنفذ الصغير فيبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ، ويضـــع اللحم في مكانه المعين ، ويغســـل الحوض ويملؤه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه • وقد عرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه السبع • وهناك أوقات معينة تنتح فيها سائر البيوت فتخرج السباع الى القاعة الفسيحة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضا ، وتقيم على ذلك حتى يصيح بها السواس فيدخل كـــل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره(١٠٦) •

وكان عند خمارويه سبع أزرق العينين سماه «زريق» قد أنس بسيده وصار مطلقا في الدار لا يـــؤذي أحدا • فاذا نصبت المائدة أقبل زريق معها وربض بين يـــدي خمارويه فيرمي اليه الدجاجة والنضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه بها • وكان زريق يحرس خمارويه اذا نام . فاذا كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه مادام نائما ، وان كان نائما على الأرض بقي قريبا منه ، وانتبه لمن يدخل ويقصد خمارويه ولا يغفل عن ذلك لحظة • وقد ألف ذلك ودرب عليه . وكان في عنقه طوق من الذهب(١٠٧) •

وفاة خمارويه :

دام حكم خمارويه اثنتي عشرة سنة ، وكانت نهايته انه قتل في دمشق في منتصف ذي الحجة سنة ٢٨٢هـ على أيدي بعض خدمه ،

---

(١٠٦) الخطط المقريزية ٣١٧/١ ، والنجوم الزاهرة ٥٦/٣ـ٥٧ •
(١٠٧) الخطط المقريزية ٣١٧/١ ، والنجوم الزاهرة ٥٧/٣ •

وهناك عدة روايات عن سبب وكيفية قتله(١٠٨) • فحمل في تابوت من دمشق الى مصر • كان خمارويه جـــوادا الى حد الاسراف ، متلافا للمال ، انفق أموالا طائلـــة في تزيين قصوره ومجالســه • شغوفا بالصيد وسباق الخيل ، وقد بنى ميدانـــا للسباق أكبر من ميدان أبيه ، وكانت حلبة السباق في أيامه تقوم مقام الأعياد لكثرة مايتخذ فيها من الزينة ، وركوب سائر الغلمـــان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة ، فيخرج الناس للتفرج عليهم • وكان عرض الخيل هذا يعتبر من عجائب الاسلام الأربع التي منها هذا العرض ورمضان بمكة والعيد بطرسوس والجمعة ببغداد(١٠٩) •

وكان خمارويه شديد الاهتمام بجيشـــه فلا يؤخر أرزاقهم ، وقد بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار في السنة . وقد سار على نهج أبيه في فتح مطبخه للناس وسماه بمطبخ العامة وبلغت نفقته على عهده ثلاثة وعشرين ألف دينار في كل شهر(١١٠) •

وصف خمارويه بأنه كان طويل القامة مهيبا ذا سطوة ، اذا سار في موكبه لا يسمع من أحـــد كلمة ، ولا عطسة ولا سعلة ولا نحنحة البتة ، كان الناس على رؤوسهم الطير ، لما وقع في أذهانهم انه متى اشار اليه أحد بيده أو قرب منه لحقه مكروه عظيم ، وقد اتخذ لنفسه حرسا خاصا من أبناء الحوف المعروفين بالشجاعة والبأس وضخامة الجسم ، وادر عليهم الارزاق والعطاء ، وألبسهم الأقبية وجواشن الديباج ، وصاغ لهم المناطق العراض الثقال . وقلدهم السيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم ، اضافة الى ألف من السودان لهم درق الحديد وعليهم أقبية وعمائم سود فيخال الناظر اليهم بحرا

---

(١٠٨) كتاب الولاة وكتاب القضـــاة/٢٤١ ، والخطط المقريزية ١/٣٢١-٣٢٢ والكامل ٧/٤٧٤-٤٧٥ •
(١٠٩) الخطط المقريزية ١/٣١٨ •
(١١٠) الخطط المقريزية ١/٣١٨ ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٩ •

أسود يسير لسواد لونهم وثيابهم ، ويصير لبرق درقهم وسيوفهم والبيض تلمع على رؤوسهم تحت العمائم ، منظر بهيج(١١١) ٠

٤ ـ نهاية امارة بني طولون :

لم تدم امارة بني طولون بعد وفاة خمارويه الا يسيرا ٠ فقد تولى الامارة بعده ابنه أبو العساكر جيش الذي خلعه أخوه هارون وتولى الامارة مكانه ٠ وفي عهد هارون عاث القرامطة في بلاد الشام وحاصروا عامل الطولونيين عليها وهزموا جيشه مما اضطر الخليفة المكتفي بالله أن يرسل في سنة ٢٩٠هـ جيشا من العراق بقيادة محمد بن سليمان الكاتب لحرب القرامطة فهزمهم وشتت شملهم(١١٢) ٠ وحينئذ رأى الخليفة ان لا مبرر لبقاء الأمير الطولوني الضعيف . فبعث القائد المذكور واليا على مصر وأمره بازالة آل طولون من مصر والشام ٠ فدخل محمد بن سليمان مصر في أواخر ذي الحجة سنة ٢٩١هـ فبرز هارون لقتاله وحاربه أياما الا انه استسلم اخيرا فقبض ابن سليمان على بني طولون وهم بضعة عشر رجلا وحبسهم واستصفى أموالهم ، ثم اشخصهم الى بغداد(١١٣) ٠ وبذلك انتهى عهد الامارة التي اسسها أحمد بن طولون في مصر ٠

ولعل أهم أسباب ضعف امارة بني طولون بعد مؤسسها ، وسقوطها بهذه السرعة ان أمراءها كانوا غرباء عن مصر ، وقد اتخذوا لحراستهم أقواما ماجورين وأغلبهم من الأجانب ٠ كما ان

---

(١١١) نفس المصدر ، والنجوم الزاهرة ٣/٥٩ـ٦٠ ٠

(١١٢) الطبري ١٠/١٠٧ ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٧٤٧ـ٧٤٨ ٠

(١١٣) الطبري ١٠/١١٥ـ١١٦ و ١١٨/١١٩ ، وتاريخ ابن خلدون ٣/٧٤٨ ٠

جيشهم كان في أغلبيته وبخاصة قواده من الأتراك · ومن الطبيعي انمثل هذاالحكم لايستقيم الاا اذاكان على رأسه رجل ذوشخصيةقوية وكفاية عالية كأحمد بن طولون مؤسس الامارة ، والا فسرعان ما يدب الضعف فيه وينهار · ومما سرع في نهاية هذه الامارة النزاعات التي قامت بين أفراد الاسرة منذ أيام خمارويه وبعده للاستحواذ على السلطة ، ثم انصراف الأمراء الى اللهو وحياة البذخ والترف ·

الفصل الرابع

امارة الصفارين

١ ـ تاسيس الامارة :

نشأت هذه الامارة في ولايـــة سجستان في القسم الشرقي من الدولة العربية · أسسها يعقوب بن الليث الذي كان أول أمره يعمل في صنع الصفر ، ولهذا عرفت بامـــارة الصفارين · ويظهر ان يعقوب كان شجاعا طموحا ذا حيلة ودهاء · فقد عمل هو وآخوته مع المتطوعين في مقاومة الخوارج الذين استفحل أمرهم في تلك الولاية · واستطاع بتدبيره وحسن سياسته أن يتولى رئاسة هؤلاء المتطوعين ، وقد اكسب عمله صفة الشرعية باعتبار ان المتطوعين يعملون لنصرة الخلافة في مقاومة المارقين · وجد في محاربة الخوارج حتى اقتاهم ، فاشتدت شوكته واطاعه أصحابـــه ، ورأى انه يستطيع توجيههم لامتلاك سجستان · فاستغل ضعف الطاهريين الذين انهمكوا في حياة الترف وركنوا الى الراحة ، وكانت سجستان احدى الولايات التابعة لهم · فثار يعقوب مع اتباعه يعاملهم عليها في سنة ٢٥٣هـ ، وانتزع الولاية منه ، وانفرد بحكمها متظاهرا بطاعة الخليفة ومدعيا بانه هو الذي أمره بقتال الخوارج(١) ·

---

(١) الكامل ٧/١٨٤ـ١٨٥ ·

يقول اليعقوبي ان الشراة كادوا ان يتغلبوا على سجستان ، فسأل يعقوب ابن الليث الصفار محمد بن عبدالله بن طاهر أمير خراسان ، وكانت سجستان تابعة له ، بأن يأذن له في جمع المتطوعين والخروج اليهم ، فاذن له بذلك • فقاتل يعقوب الشراة حتى أبادهم في سجستان وكرمان فعظم شأنه • فكتب الخليفة المستعين بالله الى محمد بن عبدالله ان يوليه كرمان(٢) • ويرجح ان اليعقوبي وأهم فيما يتعلق بكرمان لأن يعقوب دخلها في سنة ٢٥٥هـ(٣) وكان قد استولى على فارس في نفس السنة ودخل شيراز(٤) • ولما عاد الى سجستان بادر الخليفة المعتز بالله بارسال عماله الى أعمال فارس ، مما يدل على عدم رضائه عن اعمال يعقوب ، رغم انه كتب اليه بطاعته ووجه اليه بدواب وبزاة ومسك هدية ، كما سنشير اليه فيما بعد •

على ان طموح يعقوب الصفار لم يقف عند حدود سجستان ، بل اخذ يعمل على توسيع رقعة سلطانه • وحاول ان يظهر بمظهر من يجاهد في سبيل الاسلام تحت راية الخليفة • فهاجم ممالك الترك المتاخمة لحدود سجستان وحارب ملوكها وقتل بعضهم فهابه الآخرون واذعنوا له • فأمن بذلك الحدود الشرقية لولايته ، واخذ يتطلع الى الولايات المحيطة به ، وكانت ضمن سلطان الطاهريين الذين طمع يعقوب باملاكهم • ان الأمعان في تتبع خطوات يعقوب الصفار في توسيع سلطانه يظهر انه كان قد اتخذ طريقة جديدة للقضاء على الدولة العربية ، وذلك باقتطاع أجزائها من ولاتها بحجة الانتصار للخلافة • وبدلا من أن يعلن الخروج على الدولة يسيطر عليها بأن يجعل الخليفة تحت حمايته • وقد استطاع ان يحقق ذلك الى حد بعيد مستفيدا من ضعف الطاهريين من جهة ،

---

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٤٩٥ •
(٣) الطبري ٩/٣٨٢ ، والكامل ٧/١٩١ •
(٤) الطبري ٩/٣٨٦ ، والكامل ٧/١٩٤ •

وانشغال جيوش الدولة بحرب الزنج من جهة أخرى • وتنفيذا لسياسته هاجم يعقوب في سنة ٢٥٣هـ هراة من خراسان ، فخرج اليه محمد بن أوس الانباري عامل الطاهريين عليها لرد هجومه ، الا انه هزم ، واستولى يعقوب على مدينتي هراة وبوشيخ(٥) •

٢ ـ توسع الامارة :

الاستيلاء على فارس وكرمان :

بعث يعقوب الصفار الى الخليفة المعتز بالله هدية سنية من جملتها مسجد من الفضة يتسع لخمسة عشر شخصا ، وسأله الولاية على فارس • وقبل أن يصل اليه جواب الخليفة شخص بجيشه نحو كرمان(٦) • وكان عامل الطاهريين على فارس علي بن الحسين بن سبل قد كتب الى الخليفة يطلب الولاية على كرمان • فكتب اليه الخليفة بولاية كرمان ، وكتب بنفس الوقت الى يعقوب الصفار بولايتها ايضا • وكان يهدف الى اغراء كل منهما بالآخر ليتخلص من أحدهما ، لعلمه بان طاعتهما للخلافة ظاهرية وانهما يريدان التوسع على حسابها • فارسل علي بن الحسين الى كرمان جيشا على رأسه طوق ابن المغلس ، فسار اليها واستولى عليها • فاقبل يعقوب على رأس جيشه وأقام قريبا من المدينة ، فلم يخرج طوق الى محاربته • فعمد يعقوب الى الخداع فأظهر الارتحال عن المدينة ، وعاد بجيشه مرحلتين عنها • فظن طوق انه عاد ادراجه عاجزا عنه ، فركن الى الراحة واللهو • فكر يعقوب راجعا بسرعة وطوى المسافة في يوم واحد ، وأحاط بطوق وأصحابه الذين بادروا الى الهرب ، فأسر طوقا واستولى على المدينة • ويقال ان يعقوب لما نزع خفه من رجله تناثرت منه كسر خبز يابسة ، فقال : يا طوق هذا خفي لم

---

(٥) الكامل ١٨٥/٧ ، ووفيات الاعيان ٤٤٦/٥ •

(٦) وفيات الاعيان ٤٤٧/٥ •

أنزعه منذ شهرين ، وخبزي في خفي منه آكل ، ولا أطأ فراشا ، وانت جالس في الشرب والملاهي ، بهذا التدبير أردت حربي وقتالي(٧) ؟

ولما بلغ علي بن الحسين ما فعله يعقوب بطوق ايقن بانه سيهاجم شيراز للاستيلاء عليها ، فجمع جيشه واستعد لملاقاته ، وتحرك نحو مضيق واقام على رأسه ، وهو ضيق لا يمكن اجتيازه طالما كان الجيش عليه • فعبر يعقوب النهر باصحابه وصار خلف جيش علي وقطع عليه طريق الرجعة ، وبذلك أسر عليا وهزم جيشه • فقيده يعقوب واحتوى على جميع ما في عسكره ، ودخل شيراز فنهب جيشه دور علي وأصحابه ، واستولى هو على ما في بيت المال ، وجبى الخراج ثم عاد الى سجستان ظافرا(٨) • ويقال ان يعقوب لما عبر النهر اشتبك بحرب شديدة مع جيش علي وهزمه ودخل مدينة شيراز وكان يظن ان أهلها سيقاومونه فيستحل دماءهم وأموالهم • الا انهم ركنوا الى المسالمة وأقاموا في بيوتهم ، مما اضطره على أن ينادي بالأمان • فاطمأن الناس وخرجوا الى أعمالهم • وأخذ يعقوب من أموال علي ألف بدرة ويقال اربعمائة ، ومن السلاح والخيول وغير ذلك مما لا يعد(٩) • وعذب علي بن الحسين بأنواع العذاب فاستخرج منه أربعة آلاف ألف درهم • وكان يعقوب وعد اصحابه بان يسمح لهم بنهب مدينة شيراز ، فعوضهم عن نهبها بثلاثمائة درهم لكل رجل(١٠) •

كتب الصفار الى الخليفة يعلمه بانتصاره ويتقدم اليه بالطاعة، وبعث مع رسالته هدية من البزاة والمسك وطرائف أخرى ، ثم عاد الى سجستان ومعه أسيره علي بن الحسين وطوق بن المغلس ، ولما

---

(٧) الطبري ٩/٣٨٤ ، والكامل ٧/١٩٢ •
(٨) الطبري ٩/٣٨٥-٣٨٦ . والكامل ٧/١٩٣ •
(٩) الكامل ٧/١٩٤ •
(١٠) وفيات الاعيان ٥/٤٥٢ •

فارق يعقوب فارس أرسل الخليفة عمالها عليها[11] . ثم تحرك يعقوب في سنة ٢٥٧هـ للاستيلاء على فارس مجددا . فارسل اليه الخليفة المعتمد على الله ينكر عليه عمله . الا ان الموفق أخا الخليفة والمهيمن على شؤون الدولة رأى ان يهادن ابن الليث حتى يستطيع ان يتفرغ لحرب صاحب الزنج ، فكتب اليه بالولاية على طخارستان وسجستان والسند وبلخ ، فسار يعقوب الى بلخ ثم الى كابل . ولما عزم على العودة رأى أحد قواده قد حمل بعض أثقاله ، فغضب وقال : أترحلون قبلي ؟ وأقام وجيشه سنة كاملة في مدينة بست ، عاد بعدها الى سجستان[12] .

الاستيلاء على خراسان :

كان يعقوب الصفار ، كما ذكرنا ، يطمع بالاستيلاء على خراسان ، وهو يعرف ان محمد بن عبدالله أعجز من ان يستطيع رده عنها . الا انه لم يكن هناك ما يسوغ له مهاجمتها . وقد سنحت له هذه الفرصة حينما هرب عبدالله السجزي الذي كان ينازعه على سجستان والتجأ الى محمد بن عبدالله في نيسابور . فارسل يعقوب الى الطاهري يطلب اليه ان يسلمه السجزي . ولما رفض محمد طلب يعقوب سار هذا نحوه بجيشه في سنة ٢٥٩هـ . ولما رأى الأمير محمد ان جيش الصفار صار على مقربة منه وانه لا قبل له به حاول ان يسترضيه ، فوجه اليه يستأذنه في تلقيه ، فلم يأذن يعقوب له ، فبعث محمد بعمومته ورجال من أهل بيته فتلقوه . فدخل يعقوب نيسابور في شوال ، فزاره محمد في مضربه الا انه اساء مقابلته ووبخه على تفريطه في عمله ، ثم حبسه واهل بيته[13] . ويقال انه القي القبض عليه وقيده وقبض على نحو مائة وستين رجلا من أهل

---

(١١) الطبري ٩/٣٨٦ ، والكامل ٧/١٩٤-١٩٥ .
(١٢) الكامل ٧/٢٤٧ .
(١٣) الطبري ٩/٥٠٧ ، والكامل ٧/٢٦١-٢٦٣ .

بيته وحملهم الى سجستان(١٤) • ويـــرى ابن الاثير ان سبب عدم استعداد الأمير محمد لمقابلة جيش يعقـــوب ان بعض أهل محمد وحاشيته لما رأوا ضعفه واديباره مالوا الى يعقوب وكاتبوه بدعوته من جهة ، وهونوا أمره على محمد وأقنعوه بان لا خوف على ولايته منه من جهة أخرى ، فركن محمد الى أقوالهم ولم يتحرز ويستعد لمقابلته(١٥) •

وهكذا استولى يعقوب الصفار على خراسان دون قتال • فرتب نوابه في أعمالها ، وكتب الى الخليفة يذم محمد بن عبدالله بن طاهر ويصفه بالتقصير في عمله ، وان العلويين تغلبوا في طبرستان لضعفه عن مقاومتهم • وادعى بأن أهل خراسان خرجوا اليه يسألونه المسير اليهم • الا ان الخليفة المعتمد علىالله لم يقر تصرف يعقوب • اذ اجتمع جعفر بن المعتمد علىالله والموفق في ديوان الجوسق وحضر القواد ، فذكر رسل يعقـــوب ان الشراة والمخالفين قد غلبوا على خراسان وضعف محمد عنهـــم ، وذكروا مكاتبة أهـــل خراسان ومساءلتهم يعقوب ان يقـــدم عليهم ، وانه لما صـــار الى نيسابور أهلها وادخلوه المدينة • فتكلم أبو أحمد الموفق والوزير عبيدالله بن يحى وقالا للرسل ان أمير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعله وانه يأمره بالانصراف الى العمـــل الذي ولاه اياه ، وانه لم يكن له ان يفعل ذلك بغير أمره ، فان رجع كان من الأولياء ، والا لم يكن له الا ما للمخالفين(١٦) •

الاستيلاء على طبرستان وفارس :

عندما دخل يعقوب الصفار نيسابور هرب عبدالله السجزي الى الحسن بن زيد في طبرستان ، فسار يعقوب في أثره • فلما صار قرب

---

(١٤) الكامل ٧/٢٦٣ ، وكتاب البلدان وفيـــه ان يعقوب حملهم في الاصفاد الى قلعة بم بكرمان •

(١٥) الكامل ٧/٢٦٢ •

(١٦) الطبري ٩/٥٠٧ •

مدينة سارية كتب الى الحسن يسأله ان يبعث اليه بعبدالله السجزي فينصرف عنه وانه جاء الى طبرستان من أجله وليس للحرب ، فابى الحسن تسليمه • فقامت الحرب بين الطرفين قرب سارية وهزم جيش الحسن ، فدخلها يعقوب كما دخل مدينة آمل ، وجبى خراجهما لسنة • واخذ جيشه يعقب الحسن في جبال طبرستان • الا ان كثرة الأمطار اعاقته عن الاستمرار في ملاحقته ، لاسيما وان الحسن افلت ودخل أرض الديلم • وكتب يعقوب الى الخليفة بما فعله بالحسن بن زيد من الهزيمة(١٧) • ثم سار الى الري التي التجأ اليها السجزي ، وكان الصلابي عاملا عليها فسارع الى القبض على السجزي وتسليمه ، فتسلمه يعقوب وقتله وعاد راجعا عن الري(١٨) •

وكان ابن واصل قد تغلب على فارس وقتل عاملها الحارث بن سيما ، فاضاف الخليفة فارس الى القائد موسى بن بغا مع الأهواز والبصرة والبحرين واليمامة مع ما كان اليه • فوجه موسى قائده عبدالرحمن بن مفلح واليا على فارس والأهواز • فلم علم ابن واصل بذلك زحف للقائه ، فالتقيا برامهرمز واقتتلا فانهزم جيش عبدالرحمن ووقع هو اسيرا بيد ابن واصل الذي غنم ما في عسكره من العدد والاموال ، ثم قتله ، رغم ان الخليفة ارسل اليه يأمره باطلاق سراحه(١٩) •

ولما اتصل بيعقوب الصفار خبر انتصار ابن واصل على عبدالرحمن بن مفلح تجدد طموحه في الاستيلاء على فارس وان يغنم ما أخذه ابن واصل من أموال وسلاح • فقصدها في سنة ٢٦١هـ بجيش كبير وكتب الى ابن واصل يطلب اليه الدخول في طاعته • فحبس ابن واصل رسل الصفار ، وتوجه في يوم شديد الحر لملاقاة

---

(١٧) الطبري ٩/٥٠٨ـ٥٠٩ ، والكامل ٧/٢٦٨ •
(١٨) الطبري ٩/٥١٠ ، والكامل ٧/٢٦٦ وفيه جاء اسم الصلابي : الصلاتي •
(١٩) الطبري ٩/٥١٢ـ٥١٣ ، والكامل ٧/٢٧٥ •

جيشه ، وكان قد عزم على مباغتته • الا ان يعقوب علم بخروج ابن واصل بجيشه نحوه فقصده • وكان التعب والعطش قد ارهقا جنود ابن واصل بحيث لم يستطيعوا مقابلة هجوم يعقوب فانهزموا أمامه من غير قتال • فتبعهم عسكر الصفار واستحوذوا على جميع ما كانوا غنموه من ابن مفلح • ومضى ابن واصل منهزما ، واستولى يعقوب على قلعته واحتوى على ما فيها من الأموال ، وكانت اربعين الف الف درهم[20] •

٣ ـ حرب الصفار مع الخليفة وهزيمته :

أقام يعقوب الصفار بعد انتصاره على ابن واصل ، بجرجان يعسف أهلها بالخراج ويأخذ أموال الناس • فاتى جماعة من أهلها الى حاضرة الخلافة فسئلوا عن سياسته فيهم فاشتكوا من جبروته وتعسفه واخذه أموالهم بالباطل • وكان الخليفة قد ادرك خطر يعقوب لمطامحه الواسعة وجشعه ، فأمر أمير بغداد عبيدالله بن عبدالله أن يجمع من كان ببغداد من حجاج خراسان والري وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتابه بانه لم يول يعقوب الصفار خراسان ولم يكن دخوله اليها وأسره محمد بن عبدالله بامره ويأمرهم بالبراءة منه[21] • فلما نمي الخبر الى يعقوب وانكشف له رأى الخليفة فيه خرج على رأس جيشه في المحرم سنة ٢٦٢هـ الى الأهواز ، ولما وصل عسكر مكرم بعث كتابا الى الخليفة يساله ان يوليه خراسان وفارس وطبرستان وجرجان والري وأمر الشرطة في سامرا وبغداد • أي أن يعترف الخليفة بتجاوز الصفار واستيلائه

---

(٢٠) الطبري ٩/٥١٤ ، والكامل ٧/٢٧٧ •

(٢١) الطبري ٩/٥١٢ ، ووفيات الاعيان ٥/٤٥٤ـ٤٥٥ وجاء فيه ان عبيدالله عمل ثلاثين نسخة من الكتاب ودفع الى اهل كل بلد نسخة منه ليذيعوا ما جاء فيه •

على هذه الولايات وان ذلك كان يأمر منه • فحاول الموفق ان يكسب بعض الوقت ليستعد لحربه فأجابه الى ما طلب ، وامر باطلاق من كان في الحبوس من اصحاب يعقوب ، وأحضر جماعة من التجار ، ويظهر انهم كانوا من تجار الولايات المذكورة ، ممن كانوا حينذاك بسامرا وبغداد ، وأعلمهم ان أمير المؤمنين الخليفة أمر بتولية يعقوب خراسان وطبرستان وجرجان وفارس والري والشرطة بمدينة السلام • وبعث الخليفة رسولا بذلك الى يعقوب • فعاد الرسول يقول ان يعقوب لا يرضيه الا ان يسير الى باب المعتمد على الله ، وانه سيتابع سيره عازما على دخول حاضرة الخلافة(٢٢) •

يظهر مما تقدم ان يعقوب الصفار عازم على اجتياح عاصمة الدولة العربية ووضع الخليفة تحت حمايته . لأنه اعتبر موافقته على طلباته دليلا على ضعف الدولة من ان ترده ، لاسيما وان جيوشها تحارب صاحب الزنج في جنوبي البلاد ، واراد أن لا تفوته الفرصة من تحقيق احلامه بالاستيلاء على مقر الخلافة والاطاحة بالدولة العربية •

وكان القواد الاتراك وقد ادركوا خطر يعقوب الصفار عليهم ارتابوا بموقف الخليفة واخيه من مخالفة يعقوب ، واتهموها بالتواطؤ معه . وانه قدم الى عاصمة الخلافة بأمرهما(٢٣) • فغضب الخليفة من ذلك ومن عناد يعقوب ومكابرته واصراره على المخالفة ، وادرك انه غدا خطرا يهدد كيان الدولة والخلافة . فخرج على رأس جيشه من سامرا ، اذ كان الموفق قد سحب قسما كبيرا من جيوشه الموجهة الى حرب الزنج ، فهيأها لمقابلة الصفار • وكان يعقوب قد دخل مدينة واسط ثم سار منها الى دير العاقول • فتحرك الجيش

---

(٢٢) الطبري ٥١٦/٩ ، والكامل ٢٩٠/٧ ، ووفيات الاعيان ٤٥٥/٥ •
(٢٣) وفيات الاعيان ٤٥٥/٥ •
(٢٤) الطبري ٥١٧/٩ ، والكامل ٢٩١/٧ ، ومروج الذهب ٢٠٠/٤ •
(٢٥) مروج الذهب ٢٠٠/٤ ، ووفيات الاعيان ٤٥٩/٥ •

العربي الى سيب كوما والتقى بجيش الصفار في الموضع المعروف باضطريد بين السيب ودير العاقول • وفي يوم الاحد لتسع خلون من رجب سنة ٢٦٢هـ اشتبك الجيشان بقتال عنيف في معركة فاصلة • اذ وقف الخليفة في الميدان والى جانبه كبار القواد ، وكشف الموفق رأسه وحمل أمام جيشه • وسرعان ما هزم يعقوب وجيشه • وكان بعض اتباعه لما علموا بأن الخليفة على رأس جيشه وان ادعاءات صاحبهم كاذبة انضموا الى جيش الخليفة • وغنم الموفق ما في معسكر العدو من الدواب أكثر من عشرة آلاف رأس ، ومن الأموال ما يكل عن حمله ، ومن الدنانير والدراهم مبالغ طائلة • كما انقذ محمد بن عبدالله من أسر يعقوب ، وكان مثقلا بالحديد ، ففكت قيوده وخلع عليه وولي شرطة مدينة السلام(٢٤) •

وكان من جملة أسباب هزيمة يعقوب وجيشه اضافة الى ما ذكر ، إن الموفق أمر ببثق النهر المعروف بالسيب ، وارسلوا الماء على جيشه ، مما اربكه واعاق حركته ، وان أحد قواد الموفق وافى مؤخرة جيش يعقوب وطرح النار في مرابط الأبل والخيل فشردت وتفرقت في العسكر ، فاضطرب أصحاب يعقوب وظنوا انهم اخذوا من المؤخرة ، فكانت الهزيمة(٢٥) •

وقد برر يعقوب هزيمته بأنه لم يكن في تقديره ان بأمكان الخليفة محاربته وجيشه مشغول بحرب الزنج ، وان الرسل ستتردد بينهما للمفاوضة على ما يتم عليه الاتفاق ، اما وقد واجهه الموفق بجيشه فانه لم ير بدا من الاشتباك معه دون تنظيم واعداد • ولكن ما غنمه الموفق من أموال وعدد ودواب يدل على انه جاء مستعدا للحرب •

ويظهر ان كلا من الطرفين كان يحاول خداع الطرف الآخر • فان الخليفة لما توجه الى حربه كانت كتبه لم تزل ترد الى يعقوب يأمره بالانصراف ويحذره من سوء عاقبة فعله • وكانت أجوبة يعقوب تنطوي على التظاهر بالطاعة وانه قدم ليكون في خدمة أمير

المؤمنين والتشرف بالمثول بين يديه ، وان يموت في ركابه • الا ان المعتمد على الله أعتبر ذلك من مخاريق الصغار ، وقال : اعلموه انه ماله عندي الا السيف[٢٦] •

وجاء في الطبري انه قرئ على الناس كتاب بعد هزيمة يعقوب الصفار وانتصار الجيش العربي عليه جاء فيه : «ولم يزل الملعون المارق يعقوب بن الليث الصفار ينتحل الطاعة ، حتى أحدث الأحداث المنكرة من مصيره الى صاحب خراسان وغلبته اياه عليها •• ومصيره الى فارس مرة بعد مرة واستيلائه على أموالها ، واقباله الى باب أمير المؤمنين مظهرا المسألة في أمور اجابة أمير المؤمنين منها مالم يكن يستحقه استصلاحا له ، ودفعا بالتي هي أحسن ، فولاه خراسان •• فما زاده ذلك الا طغيانا وبغيا • فأمره بالرجوع فابى ، فنهض أمير المؤمنين لدفع الملعون حين توسط الطريق بين مدينة السلام وواسط • واظهر يعقوب اعلاما على بعضها الصلبان • فقدم أمير المؤمنين أخاه أبا أحمد الموفق بالله ولي عهد المسلمين بالقلب •• فترع واشباعه في المحاربة فحاربه حتى اثخن بالجراح •• وولوا منهزمين •• وسلم الملعون كل ما حواه ملكه»[٢٧] • ويظهر ان ما ذكره الطبري انما هو جزء من كتاب أوسع ، لأن ابن خلكان ذكر فقرات عديدة أخرى اضافة الى ما ذكره الطبري[٢٨] • فقد ذكر ابن خلكان ان الصفار التمس أشياء أخرى ان رد عنها قصد أبواب الخليفة لاثارة الفتنة وابتغاء الغلبة • أي انه قدم للقتال وليس كما جاء في تبريره هزيمته • وهذا الكتاب بمثابة بيان حربي اذيع في الناس يبرر سبب محاربة الصفار ، ويزف البشرى بهزيمته والانتصار عليه ، ورجوعه مدحورا •

---

(٢٦) وفيات الاعيان ٥/٤٥٩ •
(٢٧) كامل الكتاب في الطبري ٩/٥١٨–٥١٩ •
(٢٨) وفيات الاعيان ٥/٤٥٩–٤٦٠ •

ومن الواضح ان قيادة الموفق وحسن بلائه في هذه الحرب واشتراك كبار القواد الاتراك فيهـــا ، كانت أهم أسباب انتصار جيش الخلافة وقد امتدح عدد من الشعراء الموفق على ما أبداه من شجاعة لنصرة الخلافة • فقال محمد بن علي بن فيد الطائي في ذلك قصيدة منها قوله(٢٩) :

ولقد اتى الصـــغار في عدد لهـــا
حســـن فوافتهن نكبـــة نـــاكب

جلب القضـــاء اليه حتفا عاجـــلا
سقيا ورعيـا للقضـــاء الجـــالب

اغـــواه ابليس اللعـــين بكيـــده
واغتـــره منـــه بوعـــد كاذب

الى أن يقول :

وولى عهـد المسلمـــين مـــوفق
بـــالله أمضى من شـــهاب ثـــاقب

وكأنـــه في الناس بـــدر طالـــع
متهلـــل بالنور بـــين كـــواكب

قل الجمـــوع بحـــزم رأى ثاقب
منـــه وافرد صـــاحبا عن صاحب

لله در موفـــق ذي بهجـــــــة
ثبت المقـــام لدى الهيـــاج مواثب

يا فارس العـــرب الذي ما مثلـــه
في النـــاس يعـــرف آخر للنوائب

---

(٢٩) القصيدة في الطبري ٩/٥١٩ـ٥٢٠ •

من فادح الزمن العضوض ومن لقا
جيش لدى غدر خئون غاصب

ومضى يعقوب بعد هزيمته الى واسط يتخطف أصحابه أهل القرى فيأخذون سلاحهم وأسلابهم . وكان الموفق سار الى واسط وقد ازمع على تتبع الجيش المنهزم، الا انه مرض فعاد الى سامرا[30] . ويقول ابن خلكان ان جيش الخليفة لم يتبع الصفار مخافة رجعته عليهم ، ولانشغالهم بالكسب والنهب[31] . فسار يعقوب الى خوزستان ونزل جنديسابور . وارسل أحد قواده الى الاهواز فطرد منها عامل صاحب الزنج . ثم سار الى فارس فانتزعها من ابن واصل الذي أقره الخليفة واليا عليها ، وكان قد دخلها عندما شغل يعقوب بالحرب مع الموفق . ويظهر ان يعقوب كان يزمع الثأر لهزيمته في معركة اضطربد. لأنه لما انفذ اليه الخليفة رسولا يستميله، ويقلده اعمال فارس ، جلس للرسول وجعل عنده سيفا ورغيفا من الخبز ومعه بصل ، واحضر الرسول وقال له : قل للخليفة انني عليل فان مت فقد استرحت منك واسترحت مني ، وان عوفيت فليس بيني وبينك الا هذا السيف حتى آخذ بثاري أو تكسرني وتعقرني وأعود الى هذا الخبز والبصل ، واعاد الرسول[32] .

ولم يلبث يعقوب الصفار ان مات كمدا في التاسع من شوال سنة ٢٦٥هـ وهو بجنديسابور فدفن فيها ، وخلف في بيت ماله خمسين ألف ألف درهم وثمانمائة ألف دينار . وهناك من يقول انه مات في الاهواز وحمل تابوته الى جنديسابور فدفن فيها[33] .

---

(٣٠) الكامل ٧/٢٩٢ .
(٣١) وفيات الاعيان ٥/٤٦١ .
(٣٢) الكامل ٧/٣٢٥-٣٢٦ .
(٣٣) الطبري ٩/٥٤٤ ، ووفيات الاعيان ٥/٤٦١-٤٦٣ والكامل ٧/٣٢٥ ، ومروج الذهب ٤/٢٠٢ ، وفيه انه توفي لسبع بقين من شوال .

كان يعقوب رجلا عصاميا جديا حازما ، ومغامرا طموحا ، ذا تدبير وكفاية في الحروب • الا انه لم يكن رجل دولة بانيا بل هو الى التخريب والنهب أقرب •• لو تتبعنا فتوحاته وانتصاراته فيها لرأيناها انها كانت آنية موقتة • اذ بعد أن يستولى على بلد سرعان ما يخرج منه عائدا الى مقره في سجستان حاملا ما جباه من الخراج وما استولى عليه من أموال الناس وما احتواه من الجيش المهزوم أمامه ، وكأنه حارب لهذا الغرض • أما التنظيم والبناء ، ورعاية مصالح الناس ، والاهتمام بالقضاء وشؤون الزراعة ، فلم يذكر عنه شيء من ذلـــك • فانه عندما هاجم ممالك التـــرك المتاخمة لسجستان اكتفى بالنهب والعودة • ولما دخل شيراز حمل منها أربعة آلاف ألف درهم • وقد استولى على فارس عدة مرات ، وفي كل مرة يجبي أهلها قبل مغادرتها • ولما دخل جرجان ونيسابور أساء الى أهالي المدينتين يأخذ أموالهم تعسفا • فـــكان بهذا سفاكا للدماء طماعا بجمع الأموال •

كما كان يتصف بالحذر الزائد فلـــم يكن يطمئن الى أحد ، وبالزهد والبساطة في حياته ، فكان بعيدا عن اللهو والترف • وقد عرف عنه رعايته لجنوده وتفقده لشؤونهم بحيث كانوا ينقادون لأمره • وقد أفـــاض المسعودي في ذكر جوانب حياتـــه(٣٤) • ان التفصيلات التي يذكرها عنه تعطينا صورة عن شيخ قبيلة أقرب ما يكون الى البداوة ، يعيش على الغزو ، ولا يجلس الا ليتهيأ للحركة والانتقال وما يتطلب ذلك من تخفيف المتاع والأثاث بحيث لا تعوق سرعة حركته وتنقله • وهي صفات أبعد ما تكون عن صفات أمير متحضر يحكم عدة ولايات وعليه واجبات العناية بشؤون الناس فيها ، ومسؤولية عمرانها ورفاهها •

---

(٣٤) مروج الذهب ٤/٢٠٢ـ٢٠٦ •

٤ ـ عمرو بن الليث الصفار :

كان عمرو قد انضم الى أخيه يعقوب وظـــل يعمل بمعيته ، فلمس منــه العسكر حسن السياسة والتدبير ، فلمـــا مات يعقوب اجتمعت كلمتهم على تولية عمرو مكانه • فكتب عمرو الى الموفق بالسمع والطاعـــة ، وطلب ان يتــولى ما كان يتولاه أخـــوه من الولايات • فأجابه الموفق الى طلبه وولاه خراسان وفارس واصبهان وسجستان وكرمان والسند ، وسير اليه الخلع مع كتاب توليته(٣٥) • فولى عمرو احمـــد بن عبدالعزيز بن ابي دلف على اصـــبهان وولى عبيدالله بن عبدالله خلافته على الشرطة ببغداد وسامرا وخلع عليه وبعث اليه بعمود من ذهب(٣٦) •

ولما أرسل أحمد بن عبدالعزيز في سنة ٢٦٨هـ الى عمرو بن الليث الاموال المترتبة عليه ، وجه عمرو الى الموفق منها ثلاثمائة ألف دينار ، وخمسين منا من المسك ، ومثلها من العنبر ، ومائتي من من العود ، وثلاثمائة ثوب وشي وغيره ، وآنية من ذهب وفضة ، وغلمانا ودواب بقيمة مائتي ألف دينار(٣٧) • مما يدل على حسن علاقة عمرو بن الليث بالخلافة •

وقد اضطر عمرو بن الليث ان يسير في نفس السنة الى فارس لحرب عامله عليها محمد بن الليث الذي أظهر المخالفة ، فهزمه واستباح عسكره • وظفر بمحمد بن الليث وأسره ، ثم صار عمرو الى شيراز فأقام بها(٣٨) •

ان علاقـــة عمرو بالخلافة ساءت في ســـنة ٢٧١هـ اذ ادخل الخليفة المعتمد علىالله اليه حجاج خراسان واعلمهم انه عزل عمرو

---

(٣٥) الطبري ٩/٥٤٥ ، والكامل ٧/٣٢٦ ويضيف والشرطة ببغداد •
(٣٦) الطبري ٩/٥٤٩ ، والكامل ٧/٣٣٣ •
(٣٧) الطبري ٩/٦٠٦ ، والكامل ٧/٣٧١ •
(٣٨) الطبري ٩/٦٠١ ، والكامل ٧/٣٧٠ •

بن الليث عما كان قلده من الولايات ، ولعنه بحضرتهم وأمر بلعنه على المنابر ، واشخص الموفق القائد صاعد بن مخلد الى فارس لحربه(٣٩) . وازدادت علاقة عمرو بالخلافة سوءا بحيث نشبت الحرب بينه وبين جيش الخليفة بقيادة أحمد بن عبدالعزيز بن أبي دلف في سنة ٢٧٣هـ فانهزم جيش عمرو ، وكان قوامه خمسة عشر ألفا بين فارس وراجل ، واسر منهم ثلاثة آلاف واستأمن ألف . وغنم ابن دلف من معسكر عمرو من الدواب والبقر ثلاثين ألف رأس ، وما سوى ذلك كثير(٤٠) .

وفي السنة التالية سار الموفق بنفسه لمحاربة ابن الليث . فسير عمرو احد قواده العباس بن اسحاق في جمع كبير من العسكر الى سيراف ، وانفذ ابنه الى ارجان ، وجعل ابا طلحة شركب صاحب جيشه على مقدمته . فاستسلم أبو طلحة الى الموفق مستأمنا . فلما سمع عمرو بذلك توقف عن المسير الى حرب الموفق . الا ان أبا طلحة عزم على العودة الى جانب ابن الليث ، فقبض عليه الموفق بقرب شيراز وجعل أمواله لابنه أبي العباس . ثم سار الموفق بجيشه نحو عمرو الذي عاد الى كرمان ومنها الى سجستان . ويظهر ان الموفق لم يكن مستعدا لملاحقته ، فكر راجعا(٤١) .

وقد واجه عمرو بن الليث في أواخر حكمه خطر السامانيين الذين انشأوا امارتهم في ما وراء النهر ، وكانت نهايته على أيديهم اذ نازعوه السلطة . ولما سار بجيوشه الى ما وراء النهر لمحاربة أحمد بن اسماعيل الساماني هزم جيشه وتمكن أحمد من أسره . وقد خيره بالمقام عنده أو توجيهه الى الخليفة ، فاختار عمرو توجيهه الى الخليفة ، فوجهه أحمد مقيدا . وقضى بقية أيامه في

---

(٣٩) الطبري ٧/١٠ ، والكامل ٤١٤/٧ ، والمنتظم ٨/٥ .
(٤٠) الطبري ١٢/١٠ ، والكامل ٤١٦/٧ وفيه ان هذه الحرب كانت في سنة ٢٧١ .
(٤١) الطبري ١٣/١٠ ، والكامل ٤٢٦/٧ .

سجن المعتضد بالله[٤٢] • وظل سجينا حتى قتل في سنة ٢٨٩هـ ودفن بالقرب من القصر الحسني بمدينة السلام[٤٣] •

٥ ـ نهاية امارة بني الصفار :

أستمرت امارة الصفارين قائمـــة حتى أيام الخليفة المقتدر بالله • وكانت نهايتها على أيـــدي السامانيين • وذلك عندما دخل أحمد بن اسماعيل الساماني سجستان في سنة ٢٩٩هـ واخرج من كان بها من أصحاب بني الصفار • وقد استأمن اليه آخر أمرائهم المعدل بن علي بن الليث الصفار ومن معه من اتباعه • فوجه بهم الساماني الى هراة[٤٤] • وبذلك طويت صفحة امارة الصفارين بعد أن عاشت زهاء ست وأربعين سنة •

---

(٤٢) الطبري ١٠/٨٣ و ٨٨ ، والكامل ٧/٥٠٠ـ٥٠٢ •
(٤٣) الطبري ١٠/٨٨ ، والكامل ٧/٥٠٢ ، ووفيات لاعيان ٥/٤٧٣ •
(٤٤) الطبري ١٠/١٤٥ ، ووفيات الاعيان ٥/٤٧٦ وفيه : المعذل بن علي •



الباب العاشر

مجالس خلفاء سامرا

١ ـ مجالس المعتصم بالله .

٢ ـ مجالس الواثق بالله .

٣ ـ مجالس المتوكل على الله .

٤ ـ مجالس خلفاء سامرا الآخرين .



الباب العاشر

مجالس خلفاء سامرا

الفصل الاول

مجالس المعتصم بالله

١ ـ المعتصم بالله والندماء :

كان الخليفة المعتصم بالله يغتنم بعض الفرص أحيانا لينفرد بأحد المقربين اليه ، ليتعرف منه على أحوال الناس . فقد كان يبحث عن أحوالهم غاية البحث ، ويتلطف في الاطلاع على أمورهم[1] . او ليفضي اليه بما يشغل باله ، أو ليستشيره في أمر من الامور . وكان هؤلاء عادة من رجال دولته أو ممن اعتـــادوا مجالسته ومنادمته . وقد أوردت بعض كتب التاريخ والأدب حكايات واخبارا عن المعتصم بالله وحاشيته وقدمائه . وسنورد بعض هذه الاخبار التي تكشف لنا بعض الصور عن حياته الاعتيادية ، وما كان يشغل باله أحيانا من المهام والمشاكل .

يذكر اسحاق بن ابراهيم المصعبي ان المعتصم بالله اختلى به ذات يوم وقال له : يا اسحاق في قلبي أمر أنـــا مفكر فيه منذ مدة

---

(١) اثار الاول /٨٦ .

طويلة ، وانما بسطلتك في هذا الوقت لافشيه اليك • فقلت : قل يا سيدي • قال : نظرت الى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة انجبوا ، وانا اصطنعت أربعة لم يفلح منهم أحد • قلت : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبدالله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم ير مثله ، وانت ، فانت والله الذي لا يعتاض السلطان عنك أبدا ، وأخوك محمد بن ابراهيم ، واين مثل محمد ؟ وأنا اصطنعت الأفشين فقد رأيت ما صار أمره ، واشناس فشل ، وايتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه • فقلت : يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، أجيب علي أمان من غضبك ؟ قال : قل • قلت : يا أمير المؤمنين أعـــزك الله ، نظر اخوك الى الأصول فاستعملها فنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب اذ لا أصول لها • قال : يا اسحاق ، لمقاسات ما تربي في طول هذه المدة اسهل علي من هذا الجواب[٢] •

يفهم من اشارة المعتصم بالله الى ما صار اليه أمر الأفشين ، ان هذا الحديث جرى ، ان كان قد جرى حقيقة ، بعد محاكمته وقتله • ولا يستبعد ان المعتصم بالله كان متألما من غدر الأفشين ومحاولته الانتقاض عليه ، بعد أن قربه كثيرا واعتمد عليه وأوكل اليه مهام الامور ، مما ترك في نفسه حزنا فاض على لسانه فتشكى منه ومن بقية قواده الى اسحاق المذكور • كما يحتمل انه كان قد ضاق ذرعا بهؤلاء القادة الأتـــراك ، فأراد أن يعبر بشكواه عن ندمـــه لانه اصطنعهم وقدمهم •

وللمقارنة بين رجال المأمون ورجال المعتصم بالله ، الذين ورد ذكرهم ، ترى ان في رجال المعتصم بالله من هو من أولاد الملوك وهو الافشين حيدر بن كاوس ملك أشروسنة • ولم يكن الافشين فاشلا في حياته العامة ، وقد صار قائدا عامـــا لجيوش الخليفة • وكذلك

(٢) كامل الخبر في الطبري ٩/١٢١ـ١٢٢ ، والكامل ٦/٥٢٦ـ٥٢٧ •

أشناس فهو من كبار القادة أيضا ، شديد الولاء للخليفة ، وكان له دور مهم في كشف مؤامرة العباس بن المأمون والقضاء عليها • وقد سبق للمعتصم بالله ان تعرضت حياتـــه للخطر عندما انتد به عمه ابراهيم بن المهدي ، أيام خلافته ببغداد ، لحرب ابن علوان الخارجي. فحامي عنه أشناس • وعندما قرر تشـــييد سامرا اعتمد عليه في تشييد قسم منها • وخير دليل على تقدير المعتصم بالله له انه توجه والبسه الوشاح تكريما له وتقديرا لخدماته • أما ايتاخ فقد كان موضع سر المعتصم بالله واعتماده ، فمن اراد قتله أو حبسه فانما يتم ذلك على يد ايتاخ • كما انـــه كان من مقدمي قواده • وكان وصيف حاجب المعتصم بالله وأحد كبار قواده • وان جميع هؤلاء قد سمت بهم قابلياتهم الى أرفع المراتب في الدولة • ولذا فلا مجال لاعتبارهم فاشلين بحيث يندم المعتصم بالله على اصطناعهم والاعتماد عليهم •

أما الذين امتدحوا على لسان المعتصـــم بالله فانهم لم يكونوا كلهم بدرجة قواده الذين اشرنا اليهم همة وكفاية • فان طاهر بن الحسين كان كبير قواد المأمون ، وقد قـــاد جيشه في حربه مع أخيه الأمين ، وتولى ابنه عبدالله امارة خراسان بعـــده بسلطات واسعة يسرت له حكمها بنجاح • هذا مع العلم بان المعتصم بالله وان أقر عبدالله بن طاهر على امارة خراسان التي كان المأمون عينه لها ، فانه كان سيء الرأي فيه(٣) • وهذا ما لا ينسجم ومدحه اياه • كما ان أباه طاهرا لم يكن خالص الولاء للمأمـــون ، فانه حينما ولاه خراسان كان يخامره الشك في ولائه ويخشى غدره وخلعه الطاعة ، وبالفعل فانه لم يلبث الا يسيرا حتى قطـــع الخطبة للمأمون الذي بادر الى التخلص منه(٤) • أمـــا اسحاق بن ابراهيم ، وهو صاحب الشرطة ، فلم يكن غير أداة بيد السلطة ينفذ ما يؤمر به • ولم يعرف عن أخيه محمد من الاعمال ما يميزه ولم يكن سوى قائد اعتيادي في الجيش • الا ان ما يجمع هؤلاء الاربعة انهم من عائلة واحدة

فارسية الاصل · كما يجمع القواد الاربعة الذين تشكى منهم المعتصم بالله انهم من الاتراك · وهذا ما يدفع الى الاستنتاج بأن القصة وضعت بهذا الشكل لتقليل من أهمية الاتراك الذين اصبحت لهم السلطة والغلبة في عهد المعتصم بالله ، والانتقاص من شأنهم برفع شأن آخرين من العنصر الفارسي ومن أسرة لها أنصارها واتباعها ، ولاعلاء مقامهم على مقام القواد الاتراك الذين ورد ذكرهم والذين كان لكل منهم اتباع وانصار كذلك ، وكانت منزلتهم في الدولة عالية جدا ·

وهناك قصة يرويها القاضي التنوخي عن محمد بن عبدالملك الزيات ، خلاصتها(٥) : ان المعتصم بالله مر في أحد الايام ، بعد أن تولى الخلافة ، برحبة الجسر ببغداد ، ومعه وزيره محمد بن عبدالملك الزيات ، وكبير قضاته أحمد بن أبي دواد ، فتوقف قليلا وأمر أحد أفراد حاشيته أن يستفسر عن منجم كان يجلس هناك على قارعة الطريق · فعاد اليه واخبره انه قد مات منذ عهد قريب · ولما ساله ابن أبي دواد عن قصته معه ، ادعى المعتصم بالله بانه كان قصد ذلك المنجم في أيام غلبة ابراهيم بن المهدي على الامور ، وساله ان يخبره عن طالعه · فتنبأ له المنجم بانه سيتولى الخلافة ويفتح الآفاق ويبني البلدان ، وان أكابر دولته سيكونون من أصول دنية سافلة ، والتمس اليه أن يتذكره عندما يتولى الامر ويحسن اليه فوعده المعتصم بالله بذلك · قال : ولما بلغت الرحبة وقعت عيني على مكانه الذي اعتاد أن يجلس فيه ، فتذكرته وذكرت كلماته ، وتأملتكما حولي وانتما أكبر أهل مملكتي واحدكما ابن زيات والآخر ابن قيار ، وهكذا صح جميع ما قال · وقد اسف المعتصم بالله لوفاة المنجم لأنه فاته الاحسان اليه ·

ان نظرة بسيطة الى هذه القصة تكشف عن انها موضوعة لغرض معين · ورغم شيوع الالتجاء الى المنجمين في ذلك العهد للكشف عما يخبئه المستقبل ، وان المعتصم بالله كان يتطلع الى الخلافة في

فترة خلافة عمه ابراهيم بن المهدي ، وهي فترة اضطراب وقلاقل ، باعتباره أقرب الناس الى الخليفة المقتول والخليفة المتغلب ، وهما أخواه ، وقد قصد المنجم المذكور ليكشف له عما يخبئه له القدر ٠ وبعد ان عرف المنجم هوية السائل أجابه بما يطمن تساؤله ٠ فاضيف الى ذلك ما جاء عن كبار دولته بما يوحي بضآلة اصولها ٠ والغرض من ذلك واضح اذا علمنا ان وزير المعتصم بالله وكبير قضاته عربيان ، لا يروق للفرس ان يتبوءا مثل هذه المناصب في الدولة ٠

ويروي الشابشتي ان المعتصم بالله سأل جلساءه يوما عن معنى تسمية طاهر بن الحسين بذي اليمينين ٠ فقال محمد بن عبدالملك الزيات : معناه ذو الاستحقاقين ، استحقاق بجده ودنوه في الدولة وكان أحد النقباء ، واستحقاق بما له في دولة المأمون ، وقد قال الله تعالى «لأخذنا منه باليمين»(٦) ، وقال الشاعر(٧) :

اذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

ويورد الثعالبي ما يشبه هذا ، الا انه يضيف ، وقال غيره : انما سمي ذا اليمينين لأن المأمون كتب اليه لما فرغ من أمر المخلوع : يا أبا الطيب يمينك يمين أمير المؤمنين ، وشمالك يمين ، فبايع بيمينك يمين أمير المؤمنين ، ففعل فلزمه هذا الاسم(٨) ٠

---

(٣) الديارات/١٣٩ ٠
(٤) الفخري/٢٠٥ ٠
(٥) نشوار المحاضرة ٧/٢١٢ـ٢١٥ ٠
(٦) سورة الحاقة ، الاية : ٤٥ ٠
(٧) الشعر للشماخ بن ضرار الغطفاني ، وعرابة رجل من الانصار ٠ وكامل القصة في كتاب الديارات /١٤٢ ٠
(٨) ثمار القلوب/٢٩١ ٠

ومن مشاهير الأعلام الذين كانوا يحضرون مجلس المعتصم بالله الفيلسوف العربي الكبير يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي • وكان عظيم المنزلة عند الخليفة مقربا اليه ، وقد اوكل اليه تأديب ابنه أحمد • نشأ الكندي ببغداد وكان أبوه أميرا على الكوفة أيام المهدي والرشيد • وقد عاصر المأمون والمعتصم بالله وابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله . وكان مقربا اليهم وله عندهم منزلة سامية • وقال عنه ابن النديم انه فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة ، وهو فيلسوف العرب ، وكتبه في علوم مختلفة ، وعدد له ٢٣١هـ كتابا[9] • وقد برع الكندي في الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والفلك ، وله في أكثر هذه العلوم تواليف مشهورة من المصنفات الطوال ومن الرسائل القصار[10] • ولم يكن في الاسلام فيلسوف غيره احتذى في تواليفه حذو ارسطاطاليس ، وترجم من كتب الفلسفة الكثير ، واوضح منها المشكل ، ولخص المستعصي[11] • ومن كتبه «كتاب الفلسفة الاولى فيما بعد الطبيعيات والتوحيد» وقد صنفه للخليفة المعتصم بالله • وبحث فيه عن الفلسفة وغايتها ، وما يجب أن يكون عليه الفيلسوف الكامل الفلسفة وعن غايته منها • وهو يفتتح الكتاب بأهدائه الى المعتصم بالله بقوله[12] : «اطال الله بقاءك يا ابن ذرى السادات وعرى السعادات الذين من استمسك بهم سعد في دار الدنيا ودار الأبد ، وزينك بجميع ملابس الفضيلة . وطهرك من جميع طبع الرذيلة ••» •

وكان ممن يحضر مجالس المعتصم بالله عدد من الادباء منهم كبير ادباء عصره أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، عندما يكون في سامرا • قال الجاحظ في أول رسالته (في صناعات القواد) :

---

(٩) الفهرست/٣٧١ •
(١٠) تاريخ الحكماء/٣٦٧ •
(١١) عيون الانباء/٧٣ •
(١٢) رسائل الكندي/٩٧ •

دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بـــالله فقلت له : يا أمير المؤمنين في اللسان عشر خصـــال : اداة يظهر بها البيان ، وشاهـــد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل في الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الاشياء ، وواعظ ينهى عن القبيح ، ومعز يرد به الاحزان ، وخاصة يزهى بالضيعة ، وملة يونق الاسماع • وسمع عمـــر بن عبدالعزيز رجلا يتكلم فابلغ في حاجته ، فقال عمر : هذا والله السحر الحلال • وقال الشاعر :

وكائن ترى من صامت لك معجب
زيادتـــه أو نقصـــه في التكلـــم

لسان الفتى نصف ونصف فـــؤاده
فلـــم يبق الا صورة اللحـــم والدم

فخذ يا أمير المؤمنين أولادك بان يتعلموا من كل فنون الأدب ، فانك ان افردتهم بشيء واحد ثـــم سئلوا عن غيره لم يحسنوه • وضرب له أمثلة عن قواده وحرسه ، دلل بها عن ضحالتهم لأنهم لم يحسنوا سوى عملهم • فضحك المعتصم بالله حتى استلقى ، ثم دعا مؤدب ولده فأمره ان يأخذهم بتعليم جميع العلوم[١٣] •

٢ ــ المعتصم بالله والشعراء :

كان المعتصم بالله يحاول أن يقول الشعر أحيانا ، ويظهر انه لم يكن يحسن قوله •

على انه كان يستحسن الشعر الجيد ويحب سماعه ، وخاصة اذا كان في مدحه والاشادة بكرمه وفتوحاته • وكان الشعراء يجتمعون ببابه ، فبعث اليهم مرة يسألهم ان كان بينهم من يحسن ان يقول

(١٣) رسائل الجاحظ ١/٣٧٩ـ٣٩٣ ، وفي تاريخ بغداد ، ٢١٨/١٢ مع بعض التغيير •

فيه كما قال منصور التمري في أبيـــه هارون الرشيد ، وكان قد استحسن ذلك الشعر وهو :

خليفـــة الله ان الجـــود اوديـــة
أحلـــك الله منهـــا حيث تجتمـــع

من لـــم يكن بأمـــين الله معتصما
فليس بالصلـــوات الخمس ينتفـــع

ان اخلف القطـــر لم تخلف مخايله
أو ضـــاق أمـــر ذكرنـــاه فيتسع

فليدخل ، والا فلينصرف • وكان بين الشعراء محمد بن وهيب الحميري ، وهو شاعر بصري ، ولـــه شعر كثير يذكر فيه البصرة ويتشوق اليها ، وكان يستمنح بشـــعره ويتكسب بالمديح ، فقام وقال : فينا من يقول مثله ، ثم اندفع ينشد :

ثلاثـة تشرق الدنيـــا ببهجتهـــم
شمس الضحى وأبو اســحاق والقمر

تحكي أفاعيلـــه في كـــل نائبـــة
الليث والغيث والصمصامة الذكـــر

فأمر المعتصم بالله بادخاله ، واحسن جائزته(١٤) •

وقد امتدحه أبو تمام الطائي بعـــدد من القصائد في مناسبات مختلفة • ولعـــل أروع ما مدحه به شعره الذي قالـــه فيه مسجلا انتصاره في غزو الروم وفتح عمورية التي ذكرنا بعض أبياتها • وقد مدحه بقصيدة مطلعها(١٥) :

---

(١٤) الاغاني ١٩/٧٤_٧٥ •
(١٥) كامل القصيدة في ديوان ابي تمام ٢/١٩١_١٩٧ •

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر
وغدا الثرى في حليه يتكسر[16]

ويقول فيها واصفا الربيع :

أربيعنا في تسع عشرة حجة
حقا لهنك للربيع الأزهر

ما كانت الايام تسلب بهجة
لو ان حسن الروض كان يعمر

أو لا ترى الأشياء ان هي غيرت
سمجت وحسن الأرض حين تغير

ثم ينتقل الى مدح الخليفة ، فيقول :

في الأرض من عدل الامام وجوده
ومن النبات الغض سرج تزهر

تنسى الرياض وما يروض فعله
أبدا على مر الليالي يذكر

ان الخليفة حين يظلم حادث
عين الهدى وله الخلافة تحجر

ومدحه بقصيدة طويلة اشاد فيها بعدله وكرمه منها[17] :

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة
اضاء لـه من كوكب الحق آفله

ولاذت بحقويه الخلافة والتقت
على خدرها ارماحه ومناصله

---

(16) تمرمر : تموج وتضطرب لينا ورقة .
(17) كامل القصيدة في ديوان ابي‌تمام ٣/٢١-٣٠ .

أتته ممـــــدا قد اتاها كأنهــــا
ولاشــك كانت قبـــل ذاك تراسله

بمعتصم بـالله قـــد عصمت بـــه
عرا الدين والتفت عليهـــا وسائله

رعى الله فيـــه للرعيـــة رأفـــة
تزايله الدنيـــا وليست تزايلـــه

فاضحوا وقد فاضت اليـــه قلوبهم
ورحمته فيهـــم تفيض ونائلـــه

وقام فقـــام العـــدل في كل بلـــدة
خطيبا وأضحى الملك قد شق بازله

وجـــرد سيف الحـق حتى كأنـــه
من السل مود عمـــده وحمائلـــه

رضينا على رغـم الليالي بحكمـــه
وهل دافع أمرا وذو العرش قائله

ومدحه بقصائد أخرى ذكرنا بعضها في الفصل الخاص بشعراء سامرا ٠

وكان اسحاق بن ابراهيم الموصلي قد اتصل بالمعتصم بالله الذي كان يأنس به فاتخذه نديما يسامره وينشده الشعر ويغنيه الألحان. ولعل أول قصيدة مدحه فيها هي التي انشدها مهنئا بتوليه الخلافة. ويروي عن اسحاق انه قال : لما ولي المعتصم بالله الخلافة دخلت اليه في جملة الجلساء والشعراء . فهنأه القوم نظما ونثرا ، وهو ينظر الي مستنطقا ، فانشدته(١٨) :

---

(١٨) الاغاني ٥/٢٠٢ـ٢٠٣ .

لاح بالمفرق منك القتير
وذوى غصن الشباب النضير

هزئت أسماء مني وقالت
أنت يا ابن الموصلي كبير

ورأت شيبا برأسي فصدت
وابن ستين بشيب جدير

لا يرد عنك شيبي فاني
مع هذا الشيب حلو مزير

قد يفل السيف وهو جراز
ويصول الليث وهو عقير(١٩)

يا بني العباس انتم شفاء
وضياء للقلوب ونور

أنتم أهل الخلافة فينا
ولكم منبرها والسرير

لايزال الملك فيكم مدى الدهر
مقيما ما أقام ثبير

وأبو اسحاق خير امام
ماله في العالمين نظير

واضح الغرة للخير فيه
حين يبدو شاهد وبشير

زانه هدي تقى وجلال
وعفاف ووقار وخير

---

(١٩) الجراز : السيف القاطع ، والعقير : المجروح .

لو تبارى جـــوده الريح يومـــا
نزعت وهي طليــــــح حســـير

وعندما تولى المعتصم بـالله الخلافة كان الشــاعر الحسين بن الضحاك يقيم في البصرة منذ أيام الخليفة المأمون الذي جفاه وابعده عن بلاطه لميله الى أخيه محمد الأمين • فاستقدمه المعتصم بالله الى حاضرة الخلافة واتخذه نديما يرافقه في نزهاته ورحلاته ، ولايغيب عن مجالسه • ولما دخل عليه أول مرة استأذنه في الانشاد ، فأذن له ، فقال[٢٠] :

هلا ســـألت تلــدد المشـــتاق
ومتننت قبـــل فراقـــه بتــــبلاق

حتى انتهى الى قوله في مدحه :

خـــير الوفـــود مبشر بخلافـــة
خصت ببهجتهـــا أبـــا اســـحاق

وافتـــه في الشهر الحـــرام سليمة
من كـــل مشــكلة وكل شـــقاق

أعطته صفقتها الضمائر طاعـــة
قبـــل الاكف بـــأوكد الميثـــاق

سكن الانـــام الى امـــام ســـلامة
عف الضـــمير مهـــذب الأخـــلاق

فحمى رعيتـــه ودافـــع دونهـــا
وأجـــار مملقهـــا من الامـــلاق

فلما اتمها قال المعتصم بالله : اذن مني ، فدنا منه ، فملأ فمه جوهرا من جوهر كان بين يديه • ثم أمره بان يخرجه من فيه ، وأمر

---

(٢٠) الاغاني ٧/١٥٢-١٥٣ ، ومعجم الادباء ٤/٣١-٣٣ ، وفيهما : تلذذ المشتاق، والتلود : الحيرة والدهشة ، وهو اقرب الى المعنى •

أن ينظم ويدفع اليه ، ويخرج الى الناس وهو في يده ، ليعلموا موقعه من الخليفة ويعرفوا فعله ٠

ومدح الشاعر علي بن الجهم المعتصم بالله بقصيدة أشاد فيها بمآثره ، واقترح عليه ان يولي ابنه هارون العهد من بعده ، يقول فيها(٢١) :

وانت خليفـــــة الله المعــــلى
على الخلفـــاء بالنعـــم العظـــام

وليت فلـــم تـــدع للدين ثـــأرا
ســـيوفك والمثقفـــــة الدوامي

نصبت المازيـــــار على ســـــحوق
وبابــك والنصـــارى في نظـــام

مناظر لايـــــزال الدين منهـــــا
عزيـــز النصر ممنـــوع المـــرام

وقـــد كادت تزيـــغ قلوب قـــوم
فأبـــرأت القلـــوب من الســـقام

وعموريــــــة ابتــــدرت اليهـــا
بـــوادر من عزيـــز ذي انتقـــام

فقعقعت السرايــــا جانبيهـــــا
والحفت الفـــوارس بالســـهام

رأت علـــم الخلافـــة في دارهـــا
فخرت بـــين أصـــــداء وهـــام

وقد هجا الشاعر دعبل الخزاعي المعتصم بالله الذي كان يبغضه لطول لسانه ٠ ولما بلغ دعبلا ان الخليفة يتهدده هرب الى الجبل ،

---

(٢١) ديوان علي بن الجهم/٣-١٢ ٠

وقال يهجوه وينكر عليه ان يكون الثامن من خلفاء بني العباس ، وذلك بقوله(٢٢) :

بكى لشـــتات القلب مكتئب صب
وفاض بفرط الدمع من عينه غرب(٢٣)

وقام أمـــام لم يـكن ذا هدايـــة
فليس لـــه ديـن وليس لـــه لب

وما كانت الأبنـــاء تأتي بمثلـــه
يملـــك يوما أو تدين لـــه العرب

ولكن كما قـــال الذين تتابعـــوا
من السلف الماضي الذي ضمه الترب

ملوك بني العباس في الكتب سـبعة
ولم تأتنـــا عن ثـامن لهـــم كتب

كذلك أهـــل الكهف في الكهف سبعة
خيـــار اذا عدوا وثامنهـــم كلب

وقد سئل دعبل عن هذه الأبيات فأنكر أن يكون قد قالها . ولما سئل عمن قالها ، قال : من حشاالله قبره نارا ابراهيم بن المهدي ، كافأني بذلك عن هجائي اياه ليشيط بدمي(٢٤) - الا ان ابا الفرج يقول ان دعبلا اعترف بعد ذلك بأنه قائلها(٢٥) .

---

(٢٢) ديوان دعبل الخزاعي/٥١-٥٣ .

ليتكيء عليها اكراما له(٢٦) .

(٢٣) غرب : سيل لا ينقطع من الدموع .

(٢٤) الاغاني ١٠/١٣٠ .

(٢٥) نفس المصدر ٢٠/١٥٥ .

ولما مات المعتصم بالله ورثاه وزيره محمد بن عبدالملك الزيات بأبيات من الشعر ، قال دعبل يعارضه بالأبيات التالية(٢٦) :

لقـــد قلت اذ غيبـــوه وانصرفوا
في شر قبـــــر لشر مدفـــــون

اذهب الى النـــار والعذاب فمــا
خلتـــك الا من الشـــياطين

مـا زلت حتى عقـــدت بيعـــة من
أضر بالمســلمين وبـــالدين

٣ ـ المعتصم بالله ومجالس الغناء :

كان المعتصم بالله يحب الطرب وسماع الغناء ٠ فقد سافر مرة الى مصر قبل توليه الخلافة فذكر جارية له كانت غلبت عليه بجمالها ودلالها ، ولم يكن استصحبها معه ٠ فدعا مغنيا وذكر له اشتياقه الى جاريته وطلب اليه ان يغنيه صوتا يشبه ما ذكره له ٠ فاطرق المغني مليا ، ثم اندفع يغني :

وددت من الشـــوق المبـــرح انني
أعـــار جناحي طائـــر فاطـــير

فما لنعيـــم لست فيـــه بشاشـــة
ومـــا لسرور لست فيـــه سرور

وان امرءا في بلـدة نصف قلبـــه
ونصف باخـــرى غيرها لصـــبور

---

(٢٦) ديوان دعبل الخزاعي ٩٩ـ١٠٠ ٠

فقال المعتصم بالله : والله ما عدت ما في نفسي ، وأمر له بجائزة سنية[٢٧] .

واعتاد المعتصم بالله أن يعقد للغناء والطرب مجالس خاصة ، ويبر المغنين وغيرهم من المطربين ويصلهم بالاعطيات والهدايا . وكان بعض المغنين يتبارون ويتناظرون في حضرته . روي عن محمد بن احمد المكي المغني عن ابيه انه قال : ناظر أبي بعض المغنين ذات ليلة بين يدي الخليفة المعتصم بالله ، وطال تلاحيهم في الغناء . فقال ابي للخليفة يا أمير المؤمنين ، من شاء منهم فليغن عشرة أصوات لا أعرف منها ثلاثة ، وأنا أغني عشرة أصوات وعشرة وعشرة لايعرف أحد منهم صوتا منها . فقال اسحاق الموصلي: صدق يا امير المؤمنين، وأيده علوية ، فأمر له المعتصم بالله بعشرين ألف درهم[٢٨] .

اسحاق الموصلي والمعتصم بالله :

كان اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، وهو كبير المغنين في عصره ، مختصا بالمعتصم بالله الذي كان يحترمه كثيرا ويقدر فيه موهبته الغنائية ومعرفته الواسعة في الألحان . ولم يعقد مجلس غناء للخليفة دون ان يحضره الا نادرا . وجاء في نهاية الأرب ان أول يوم جلس فيه اسحاق يغني للمعتصم بالله دفع اليه الخليفة مخدة ليتكيء عليها اكراما له[٢٩] .

وذكر عن اسحاق انه قال : اتيت امير المؤمنين المعتصم بالله يوما وعنده قينة كان معجبا بها وهي تغنيه . فلما سلمت عليه واخذت مجلسي ، قال لها : خذي فيما كنت فيه ، فغنت . فقال لي : كيف تراها يا اسحاق ؟ قلت : يا أمير المؤمنين أراها تقهره بحذق وتختله

---

(٢٧) العقد الفريد ٦/٦٢ ، وثمرات الاوراق للحموي ٢/١٥٩ مع تغيير طفيف .
(٢٨) الاغاني ١٦/٣١١ .
(٢٩) نهاية الارب ٥/٨ .

برفق ولا تخرج من شيء الا الى أحسن منه ، وفي صوتها قطع شذر أحسن من نظم الدر على النحور ، فقـــال : يا اسحاق لصفتك لها أحسن منها ومن غنائها[٣٠] •

وقال اسحاق : دخلت يوما على المعتصم على الله بسر من رأى وابنه هارون بين يديه ، وعنده علويـــة ومخارق • فغناه مخارق صوتا فلم ينشط له ، ثم غناه علوية فاطربـــه • فلما رأيت طربه لغناء علوية دون غناء مخارق اندفعت فغنيت لحني :

تجنبت ليلى أن يلــج بـــك الهوى
وهيهات كان الحب قبـــل التجنب

فأمر لي بألف دينار ، ولعلوية بخمسمائـــة دينار ، ولم يأمر لمخارق بشيء[٣١] •

وقال محمد بن يزيد المبرد : دخل اسحاق الموصلي على المعتصم بالله يوما فرآه تعس النفس ، فقال له : أما ترى يا أمير المؤمنين طيب هذا اليوم وحسنه ؟ فقال الخليفة : ما يدعوني حسنة الى شيء مما تريد ولا انشط له • فقال : يا أمير المؤمنين ، انه يوم أكل وشرب ، فاشرب حتى انشطك • قال : أو تفعل ؟ قال : نعم • قال : يا غلمان قدموا الطعام والشراب ، ومدوا الســـتارة ، واحضروا الندماء والمغنين • فأتي بالطعام والشراب ، وحضر الندماء والمغنون ، فغنى اسحاق :

سقيت الغيث يـــا قصر الســـلام
فنعـــم محلـــة الملك الهمـــام

لقد نشر الالـــه عليـــك نـــورا
وخصك بالسلامـــة والســـلام

---

(٣٠) الطبري ٩/١٢٢ •
(٣١) الاغاني ٥/٣٩٩ •
(٣٢) نفس المصدر ٥/٣٢٩ •

فطرب المعتصم بالله وشرب كثيرا ٠ ولم يبق أحد بحضرته الا وصله وخلع عليه وحمله ، وفضل اسحاق على جميع الحاضرين في ذلك(٣٢) ٠

ويروي أبو الفرج عن القائد عجيف بن عنبسة أنه حضر يوما مجلسا لأمير المؤمنين المعتصم بالله وعنده جماعة من المغنين بينهم عمه ابراهيم بن المهدي واسحاق الموصلي ومغنون آخرون ، فغناه اسحاق :

قـــل لمـــن صـــد عاتبـــا
ونـــأى عنـــك جانبـــا

فاستحسنه الخليفة وأمره باعادته ثـــلاث مرات ٠ ولما رأى ابراهيم بن المهدي شدة طرب المعتصم بالله على هذا الصوت سأله ان يأمر المغنين الحاضرين بأن ياخذوه ٠ فأمر الخليفة اسحاق ان يلقيه عليهم ليتعلموه ٠ فاعاده عليهم أكثر من خمسين مرة فلم يستطع واحدا منهم اداءه على وجه الصواب ٠ فقال محمد بن الحارث ، وهو أحد المغنين الذين عجزوا عن تعلم الصوت : ومن يقدر ان يأخذ من ذلك الشيطان شيئا(٣٣) ٠ وذلك ولاريب دليل على براعة اسحاق ومهارته في الغناء وتفوقه على غيره من المغنين ٠

المغنون الآخرون :

من كبار المغنين الذين غنوا للمعتصم بـــالله أبو المهنا مخارق الذي يعتبر من أجـــود المغنين في أيامه ٠ حدث مـــوسى بن هارون الهاشمي قال : كنت واقفا بين يدي المعتصم بالله وهو جالس على حير الوحش ، والخيل تعرض عليه ، وهو يشرب ، وبين يديه علوية

---

(٣٣) الاغاني ٥/٣١٥-٣١٦ ٠

ومخارق يغنيان • فعرض عليه فرس كميت أحمر ، فتغامز علوية ومخارق ، فغناه مخارق :

واذا مـــا شربوهـــا وانتشـــوا
وهبـــوا كل جـــواد وطمـــر

فتغافل الخليفة عنه ، فانبرى مخارق فغنى :

يهب البيض كالظبـــاء وجـــردا
تحت اجلالهـــا وعيس الـــركاب

فضك المعتصم بالله وقال : اسكتـــا يا ابني الزانيتين ، فليس يملكه والله واحد منكما • ثم دارا لدور فغنى علوية :

واذا مـــا شربوها وانتشـــوا
وهبـــوا كـــل بغال وحمـــر

نضحك المعتصم بالله وقال : أما هـــذا فنعم • وأمر لأحدهما ببغل وللآخر بحمار(٣٤) •

وعرض علوية على الخليفة المعتصم بـــالله رقعة في أمر رزقه واقطاعه ، وهو يشرب ، ودفعها اليه من يده ، فلما أخذها اندفع علوية يغني :

اني استحيتك ان أفـــوه بحاجتي
فاذا قـــرأت صحيفتي فتفهـــم

وعليـــك عهـــدالله ان خبرتـــه
أحـــدا ولا أظهرتـــه بتكلـــم

فقرأ الخليفة الرقعة وهو يضحك ، ثم وقع له بما أراد(٣٥) •

---

(٣٤) نفس المصدر ٥/٢٥٢_٢٥٣ •
(٣٥) نفس المصدر ١١/٣٥١ •

ومن المغنين الذين غنوا للمعتصم بـــالله عبدالله بن العباس الربيعي ، وهو حفيد الفضل بن الربيع وزير الخليفة محمد الأمين ، وكان مغنيا مجيدا • وقد حلف الا يغني الا لخليفة أو ولي عهد • واذا ما اراد أحد أولاد الخلفاء ان يعرف من الخليفة بعد أبيه ، هو والا عرف انه غيره •

أم غيره ، دعا عبدالله بن العباس وأمره بالغناء ، فيعرفه بيمينه ، فيستأذن الخليفة في ذلك • فان أذن له بالغناء علم انه ولي عهده ، والا عرف انه غيره •

قال عبدالله الربيعي : دعاني الواثق أيام المعتصم بالله ، وسأل اياه ان يأذن لي بالغناء ، فأذن لي • الا ان الخليفة دعاني من الغد ، فقال لي : لا يبلغني انك امتنعت من الغنـــاء عند احد ، فوالله لو امتنعت لأضربن عنقك ، فاعتق من كنت تملكه يوم حلفت وطلق من كان عندك يومئذ • وارحنا يمينك هذه المشؤومة • فقمت وانا لا أعقل جزعا منه • فاعتقت جميع ما كان بقي عندي من مماليكي الذين حلفت يومئـــذ وهم في ملكي ، ثم تصدقت بجملة مـــال ، واستفتيت في يميني أبا يوسف القـــاضي حتى خرجت منها(٣٦) • وغنيت بعد ذلك لاخواني جميعا حتى اشتهر أمري ، وبلغ المعتصم بالله أمري(٣٧) •

وغنى للمعتصم بالله كذلـــك المغني الطنبوري محمد بن أمية المعروف بأبي حشيشة ، وهو من المغنين الطنبوريين المجيدين ، وقد تقدم بصنعته على كل طنبوري آخـــر(٣٨) • وقد غنى أبو حشيشة لخلفاء سامرا جميعا ، وكان كل منهم معجبا بلحن معين من الحانه يغنيه اياه اذا حضر مجلس غنائه • وله كتاب الفه في اخبار مراتبه

---

(٣٦) المعروف ان ابـا يوسف قد توفي سنة ١٨٢ ، وذلك ممـــا يرجح ان هذه الفقرة مضافة على الخبر •

(٣٧) الاغاني ١٩/٢٢٤ •

(٣٨) نهاية الارب ٥/٣٥ •

الطنبوريين والطنبوريات • وقال أبو حشيشة : كان المعتصم بالله يحب ان اغنيه هذا الصوت[39] :

أسرفت في ســـــوء الصـــــنيع
وفتـكت بي فتـــك الخليــــسع

وولعت بي متمرســــــــــا
والعـذر في طـــرق الولـــوع

صـــيرت حبــــك شـــافعا
فـــأتيت من قبـــل الشـــفيع

وحدث عمرو بن بانة المغني قال : خرجنا مع المعتصم بالله الى الشام فمررنا بدير مران ، وهو على قلعة مشرفة عالية تحتها مروج ومياه حسنة ، فنزل فيه الخليفة ، فأكل ونشط للشرب ودعا بنا • فلما شربنا أقداحا قال لحسين بن الضحاك : أين هذا المكان من ظهر بغداد ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين والله لبعض الغياض واجام هناك أحسن من هنا • قال : صدقت والله ، فقل أبياتا يغني بها عمرو • فقال : اما أن أقول شيئا في وصف هــذه الناحية بخير فلا احسب لساني ينطق به ، ولكن أقول متشوقا الى بغداد ، فضحك الخليفة وقال له : قل ما شئت ، فقال[40] :

يا دير مريـــان لا عريت من سكن
هيجت قلبي سقما يا دير مريانا[41]

هل عندك قســـك من علم فيخبرنا
أم كيف يسعف وجه الصبر من بانا

---

(39) الاغاني ٢٣/٧٩ •
(40) الاغاني ٧/١٩٣ـ١٩٤ •
(41) دير مريان بالقرب من بغداد على نهر كرخايا ـ الديارات/٣٣ •

حث المدام فـــان الكأس مترعـــة
مما يهيـــج دواعي الشـــوق أحيانا

سقيا ورعيـــا لكرخايا وســـــاكنها
وللجنينـــة بالروحـــــاء من كانـــــا

فاستحسنها المعتصم بالله وأمـــــرني ومخارقا فغنينا فيها · وشرب على ذلك . وأمر للجماعة بجوائز ·

وتعتبر متيم الهشامية من المغنيات المجيدات في أيامها . وهي من مولدات البصرة وبها نشأت وتأدبت ، وكانت من أحسن الناس وجها وأدبا وغناء · أخذت الغنـــــاء عن اسحاق الموصلي ، وادركت اياه واخذت عنه بعض الأصوات · وغنت للمعتصم بالله · قالت : بعث الي المعتصم بالله بعـــد قدومه بغداد ـ أي في أول خلافتـــــه ـ فذهبت اليه ، فأمرني بالغناء ، فغنيت هذا الصوت :

هـــــل مســـــــعد لبـــــكائي
بعبـــــــــــرة أو دمـــــــــاء

وذا لفقـــــــــد خليــــــــل
لســــــــــادة نجبـــــــــاء

فقال لي : أعدلي عن هذا الصوت الى غيره · فغنيت غيره من معناه ، فدمعت عيناه ، وقال : غني غير هذا · فغنيت :

أولئك قـــــومي بعد عز ومنعـــة
تفانوا والا تـــذرف العين أكمـــــد

فبكى وقال : ويحك لا تغنيني في هذا المعنى شيئا البتة · فغنيت في لحني :

لا تأمن الموت في حـــــل وفي حـــــرم
ان المنايـــــا تغشى كـــــل انســـــان

واسلك طريقك هونا غــير مكترث
فسوف يأتيك مـــا يمني لك الماني

فقال : والله لولا اني أعلــم انك انما غنيت بمـــا في قلبك لصاحبك ـ وهو علي بن هشام الذي قتله المأمون وانك لم تريديني لمثلت بك ٠ ـ ولكن خذوا بايديهـــا فاخرجوها ٠ فاخذوا بيدي وأخرجت(٤٢) ٠

ولما انتقل المعتصم بالله الى سامرا أرسل الى متيم يستدعيها ٠ فجاءت وانزلها في الجوسق في دار كانت تسمى الدمشقي ٠ وكانت بين حين وآخر تستأذنه في الذهـــاب الى بغداد لزيارة أولادها ثم تعود(٤٣) ٠

وكانت متيم الهشامية أول من عقد من النساء في الازار زنارا وخيط أبريسم ثم تجعله في رأسها ، فيثبت الازار ولا يتحرك أو يزول(٤٤) ٠

وغنت متيم يوما بين يدي المعتصم بالله ، وعنده عمه ابراهيم بن المهدي ، اللحن الآتي :

لزينب طيف تعتـريني طوارقــه
هدوا اذا ما النجـــم لاحت لواحقه

فاشار اليها ابراهيم ان تعيـــده ٠ فقالت للمعتصم بالله : يا سيدي ان ابراهيم يستعيدني الصوت لأنه يريد أن يأخذه ٠ فقال لها الخليفة : لا تعيديه(٤٥) ٠

ان المعتصم بالله تنكر للمغنية عريب ، التي كانت أديبة شاعرة ومغنية من اعلام العارفات بالغناء والضرب على العود ٠ أعجب بها

---

(٤٢) الاغاني ٧/٣٠٣ـ٣٠٤ ٠
(٤٣) الاغاني ٧/٢٩٤ ٠
(٤٤) نفس المصدر ٧/٣٠٢ ٠
(٤٥) نفس المصدر ٧/٢٩٥ ٠

المأمون فاشتراها وذهبت به كل مذهب ، ميلا اليها ومحبة لها ، حتى انها نسبت اليه فعرفت بعريب المأمونية . وكان المعتصم بالله قد اشتراها لما بيعت في ميراث المأمون واعتقها(٤٦) . الا انه غضب عليها . ويرى النويري ان سبب غضبه انه وجد كتابا وجهته الى العباس بن المأمون ، عندما كان المعتصم بالله يحارب في بلاد الروم ، تقول فيه : اقتل أنت العلج حتى أقتل أنا الأعور الليلي ها هنا(٤٧) . وتعني بالأعور الليلي هارون بن المعتصم بالله ، وكان أبوه قد استخلفه لما خرج في حملته على البيزنطيين . ويضيف النويري ان هذا من الامور التي لا تحتمل ، ولو لم يكن لها عندهم من المكانة العظمى والمحل الكبير لما ابقوها بعد الاطلاع من باطن حالها على هذه الطوية(٤٨) .

ومن المطربين الذين اشتهروا على عهد المعتصم بالله زنام الزامر ، وهو يعتبر أول من اشتهر من العرب باستعمال الناي ، ويقال انه أول من أحدثه ، وكان يضرب بزمره المثل . وذكر زنام ان المعتصم بالله وجد في علته التي توفي فيها افاقة فطلب ان يهيؤا له مركبه الزلال ليركب فيه ، فركبت معه وطلب الي أن أزمر له هذا الصوت :

يا منزلا لم تبل اطلاله

حاشا لأطلالك ان تبلى

لم ابك أطلالك ، لكنني

بكيت عيشي فيك اذ ولى

---

(٤٦) نفس المصدر ٢١/٦٧ ، ونهاية الارب ٥/١٠١ .

(٤٧) نهاية الارب ٥/١٠٦ .

(٤٨) نفس المصدر .

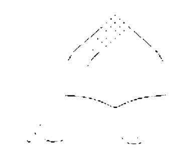
والعيش أولى مـــا بـــكاه الفتى

لابـــد للمحـــزون ان يســـلى

فما زلت أزمر الصوت المذكور ، حتى دعا برطلية فشرب منها قدحا • وجعلت أزمره وأكرره • وقـــد تناول منديلا بين يديه ، ومازال يبكي ويمسح دموعه فيه وينتحب ، حتى رجع الى منزله ، وهو لم يستتم شرب الرطلية(٤٩) •

---

(٤٩) الطبري ٩/١١٨-١١٩ ، والفخري/٢١٢ ، وجاء صدر البيت الاخير فيه : والعيش أحلى ما بكاه الفتى •



الفصل الثاني

مجالس الواثق بالله

مقدمـــة :

كان الواثق بالله محبا للنظر مكرما لأهله ، مبغضا للتقليد ، محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهـــم ، ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغـــيرهم[1] • والى جانب مجالس اللهو التي اعتـــاد ان يعقدها لسماع الغناء والموسيقى ومناقشة الالحان ، فقد كان يعقد مجالس خاصة يحضرها رجال الادب والعلـــم والفلسفة والطب ، لبحث ما يثار من القضايا الادبية واللغوية والتأريخية والمواضيع العلمية والفلسفية المختلفة ، ولســـماع الشعر والاخبار ، وتفهم فحوى ومعاني ما يعرض من ذلك • فاذا ما ورد لفظ غريب مثلا تحرى الواثق بالله مع جلسائه عن معناه والشواهد الدالة عليه من شعر وغيره • وكذلك مناقشة آراء وقضايا علمية قد تعرض على المجتمعين • ومن المعتاد ان يشترك الخليفة في المناقشات التي تدور بين الحاضرين ، أو انه يوجه سؤالا معينا يطلب الى أحد الحاضرين الأجابة عليه ، ويدعو الاخرين الى مناقشة تلك الاجابة • أو أن أحد الجلساء يسأل سؤالا معينا فيجيب عليـــه أحد الحاضرين • والواثق بالله يستمع الى ما يورده السائل والمجيب ، وما يدور حول

---

(١) مروج الذهب ٤/٧٧ •

ذلك من جدل ومناقشة • ويتـــرك للجميع الحرية التامة في ابداء آرائهم وملاحظاتهم •

وكثيرا ما كان الواثق بالله يجيز من يحضر هذه المجالس من الادباء والمتطببين وغيرهم جوائز سنية تشجيعا لهم • ولا ينكر ان قيام الخليفة بعقد مثل هــذه المجالس وحضوره فيها وتشجيعه من يحضرها ، ومناقشة مــا يدور فيها ، يعتبر حافزا مهمـــا للعلماء والادباء على الســعي لتقديم خير ما يتوصلون اليـــه من معلومات وآراء • وان المناظرات التي كانت تقوم حول تلك الآراء والأفكار التي تعرض في أي موضوع من مواضيع الشريعة أو العلم أو اللغة أو الأدب مما يغني المعرفة الانسانية في هذه الحقول •

وكان الواثق بالله يطلب أحيانا ممن يجيب على اسئلة معينة أن يضيف أجوبته في كتاب • ولا ينكر ان شخصية الواثق بالله وشغفه بالعلم والأدب ، واعتناقه آراء المعتزلة ، وايمانه بحرية الرأي ، كان لها تأثير مهم في تنشيط الحركة العلمية والادبية على عهده •

٤ ـ من مجالسه العلمية :

اعتاد الواثق بالله ، كما أشرنا ، ان يتساءل في هذه المجالس عن قضايا ومواضيع علمية تتناول الطب وشؤون الصحة ، ومواضيع فلكية وفلسفية وغيرها • وكان في بعض الاحيان يخص باسئلته كبار الحاضرين من الفلاسفة والأطباء • وقد احتفظ لنا المؤرخ المسعودي بنماذج لما كان يدور من المناقشات في هذه المجالس[٢] • فقد سأل الواثق بالله يوما جلساءه من المتطببين والفلاسفة عن كيفية ادراك الطب ، وهل ان أصوله من الحس أم من القيـــاس ، أم انه يدرك بالعقل أو السمع • فأجاب الحاضرون اجابات مختلفة[٣] • ومن

---

(٢) مروج الذهب ٤/٧٧ـ٨٣ •
(٣) نفس المصدر/٧٧ـ٨٠ •

الأسئلة التي وجهها في أحد مجالسه ان يخبـــر كل واحد منهم عما حضره من الزهد في هذا العالم الذي هو عالم الدثور والفناء . فذكر كل واحد منهم مـــا سنح له من الاخبـــار عن زهد الفلاســـفة من اليونانيين والحكماء المتقدمين مثل ســـقراط وديوجانس . فقال الواثق بالله : قد اكثرتم فيما وصنتم وقد احسنتم الحكاية فيما ذكرتم . فليخبرني كل واحد عن أحسن ما سمع من نطق الحكماء الذين حضروا وفاة الاسكندر . فقال بعضهم : كل ما ذكروه حسن ، واحسن مـــا نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكمـــاء ما قاله ديوجانس ان الاسكندر أمس انطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس ، وقد قيل انه لبعض حكماء الهند(٤) .

ويظهر مما رواه المسعودي ان حنين بن اسحاق العيادي كان ابرز من يحضر مجالس الواثق بالله من علماء الأطباء ، وكان حنين أمام وقته في الطب(٥) . وهو يتقن أربع لغات : العربية والسريانية والفارسية واليونانية ، مما ساعده على أن يكون حاذقا في الترجمة . وقد ترجم عددا من نفائس الكتب اليونانية الى اللغة العربية واللغة السريانية . كمـــا وضع عددا من الكتب الطبية التي نـــالت شهرة واسعة . وكان الخليفة المأمون قـــد اعجب به فعينه رئيسا لبيت الحكمة ، وشجعه على ترجمة الكتب اليونانية . وقد تقدمت منزلته عند الخليفة الواثق بالله ، الذي يخدم العلماء ويجالسهم .

سأل الواثق بالله في أحد مجالسه حنين بن اسحاق عن أول آلات الغذاء ، فقال حنين : أول آلات الغذاء في الانسان الفم وفيه الاسنان، والاسنان اثنتان وثلاثون سنا ، منهـــا في اللحى الاعلى ستة عشر سنا . وفي اللحى الاسفل كذلك . ومن ذلك أربعة في كل واحد من اللحيين عراض محدودة الأطـــراف تسميها الأطباء من اليونانيين

---

(٤) نفس المصدر/٨٣ .
(٥) وفيات الاعيان ١/٤٥٥ .

القواطع ، وذلك ان بها يقطع ما يحتاج الى قطعة من الاطعمة اللينة، كما يقطع هذا النوع من المأكول بالسكين ، وهي الثنايا والرباعيات • وعن جنبي هذه الاربعة في كل واحد من اللحيين سنان رؤوسهما حادة وأصولها عريضة ، وهي الأنياب وبها يكسر كل ما يحتاج الى تكسيره من الاشياء الصلبة مما يؤكل • وعن جنبي النابين في كل واحد من اللحيين خمس اسنان أخر عوارض خشن ، وهي الأضراس • ويسميها اليونانيون الطواحن لانها تطحن ما يحتاج الى طحنه مما يؤكل • وكل واحد من الثنايا والرباعيات والانياب له أصل واحد ، أما الاضراس فما كان منها في اللحى الاعلى فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الاقصيين ، فانه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة • وما كان من الاضراس في اللحى الاسفل فلكل واحد منها أصلان خلا الضرسين الاقصيين فانه ربما كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة • وانما احتيج الى كثرة أصول الاضراس دون سائر الاسنان لشدة قوة العمل بها • وخصت العليا منها بالزيادة في الاصول لتعلقها بأعلى الفم •

فاستحسن الواثق بالله ما ذكره حنين بن اسحاق وطلب اليه أن يصنف له كتابا يذكر فيه جميع ما يحتاج الى معرفته من ذلك • فصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد(٦) •

وكان من جملة ما سأل الواثق بالله حنين بن اسحاق واجاب عنها ، انه سأله عن الاشياء المغيرة للهواء • قال حنين : خمس ، وهي أوقات السنة ، وطلوع الكواكب وغروبها ، والرياح ، والبلدان ، والبحار • قال السائل : فكم هي أوقات السنة ؟ قال حنين : أربعة :

---

(٦) مروج الذهب ٤/٨٠ـ٨١ • ويلاحظ انه لم يرد بين كتب حنين كتاب بهذا الاسم • بل هناك كتاب بعنوان «كتاب الاغذية ثلاث مقالات» وقد يكون هو نفس الكتاب ـ تاريخ الحكماء/١٧٣ •

الربيع والصيف والخريف والشتاء • فمزاج الربيع معتدل الحرارة والرطوبة ، ومزاج الصيف حـــار يابس ، ومزاج الخريف بارد يابس • ومزاج الشتاء بارد رطب •

قال السائل : أخبرني عن كيفية تغيير الكواكب للهواء • قال حنين : ان الشمس متى قربت منها أو قربت هي من الشمس الهواء أزيد سخونة ، وخاصة كلما كانت اعظم • ومتى بعدت الشمس أو بعدت هي عن الشمس ، كان الهواء أزيد برودا •

قال : اخبرني عن كيفية اعداد الرياح ، قال حنين : اربع ، الشمال والجنوب والصبا والديور • أما قوة الشمال فباردة يابسة ، فان الجنوب فحارة رطبة ، وأما الصبا والدبور فمعتدلتان •

قال : فاخبرني عن أحوال البلدان في ذلك • قال حنين : هي أربع ، الأول الارتفاع ، والثاني الانخفاض ، والثالث مجاورة الجبال والبحار . والرابع طبيعة تربـــة الارض • والنواحي هي اربع : الجنوب والشمال والمشرق والمغرب فناحية الجنوب اسخن وناحية الشمال أبرد، وأما ناحيتا المشرق والمغرب فمعتدلتان • واختلاف البلدان بارتفاعها وانخفاضـــــها ، لان ارتفاعها يجعلها ابرد ، وانخفاضها يجعلها اسخن • والبلدان تختلف بحسب مجاورة الجبال لها • لأن الجبل متى كان من البلد في ناحية الجنوب جعل ذلك البلد أزيد بردا لأنه يستره من الرياح الجنوبية ، وانما تهب فيها الرياح الشمالية فقط • ومتى ما كان الجبل من البلد في ناحية الشمال جعل ذلك البلد اسخن •

قال : فاخبرني عن اختلاف البلدان عند مجاورتها البحار ، كيف اختلفت ؟ قال حنين : ان كان البحر من البلد من ناحية الجنوب فان ذلك البلد يسخن ويرطب ، وان كان من ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد •

قال السائل : فاخبرني عن البلد كيف اختلفت بحسب طبيعة تربتها ؟ قال حنين : ان كانت أرضها حجرية جعلت ذلك البلد أبرد وأخف • وان كانت تربة البلـــد حصيائية جعلت ذلك البلد أخف وأسخن ، وان كانت طينا جعلته أبرد وأرطب •

قال : فلم اختلف الهواء من قبل البحار ؟ قال حنين : اذا جاورت نقائع الماء أو جيفا أو بقولا عفنة ، أو غير ذلك مما يتعفن ، تغير هواؤها •

فلما كثر الكلام من الســـائل والمجيب ضجر الواثق ، فقطع المحاورة ، واجاز كل واحد ممن حضر المجلس(٧) •

ويتضح مما ذكره المسعودي عن مجلس الواثق بالله ان حنين بن اسحاق كان قد أجاب على عديد من أسئلة الخليفة في علم الطب . فصنف ذلك في كتاب أسماه «المسائل الطبيـــة» ذكر فيه أنواعا من العلوم(٨) • ويقول ابن أبي أصيبعة ان كتاب المسائل هذا هو المدخل الى صناعة الطب ، لانه جمع فيه جملا وجوامع تجري مجرى المباديء والأوائل لهذا العلم ، وليس جميـــع الكتاب لحنين بل ان تلميذه حبيش الاعسم تممه ، ولذلك يعنون هذا الكتاب بكتاب المسائل لحنين بزيادات حبيش الاعسم ، وقيل ان حنين بن اسحاق شرع في تأليف هذا الكتاب في أيام الخليفة المتوكل على الله(٩) •

ويغلب على الظن ان حنين بن اسحاق جمع أجوبته في مجالس الواثق بالله ، وجعلها كتابا واحدا في عهد المتوكل على الله ، وان ابن أخته حبيش ساعده في جمعه واضاف اليه بعض المواضيع • على انه

---

(٧) وقيل ان الواثق بالله كلف أحد الحاضرين في المجلس ان يسال حنين بن اسحاق بحضرته وهو يسمع ما يدور من المناقشة • مروج الذهب ٤/٨١ـ ٨٣ •

(٨) مروج الذهب ٤/٨١ ، وجاء فيه اسم الكتاب «المسائل الطبيعية» •

(٩) عيون الانباء/٢٧١ •

مما تجدر ملاحظته ان اجوبة حنين بن اسحاق فيما يتعلق بالاسنان من حيث أنواعها ووظائفها ، أو فيما يتعلق بالعوامل المؤثرة في جو بلد ما ومناخه ، لا تكاد تختلف عما نعرفه اليوم • وذلك من الدلائل الواضحة على تقدم العلم والمعرفة حينذاك •

٢ ـ من مجالسه الأدبية :

غنت احدى المغنيات في مجلس الواثق بالله يوما من شعر العرجي قوله :

أظلوم ان مصابكم رجلا
اهدى السلام اليكم ظلم

فاختلف من في المجلس من رجال اللغة في اعراب «رجل» فمنهم من نصبه باعتباره اسم ان ، ومنهم من رفعه على انه خبرها • والجارية المغنية مصرة على ان شيخها أبا عثمان المازني لقنها اياه بالنصب • فأمر الواثق بالله باشخاص المازني الى سر من رأى • قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه ، قال : ممن الرجل ؟ قلت من مازن • قال : أي الموازن ؟ قلت : مازن ربيعة • فكلمني بكلام قومي وقال باسمك ؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميما ، فكرهت أن أجيبه على لغة قومي لئلا أواجهه بالمكر ، فقلت : بكر يا أمير المؤمنين • ففطن لما قصدته وأعجب به ، ثم قال : ما تقول في قول الشاعر : أظلوم ان مصابكم رجلا ، أترفع رجلا أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب • قال : ولم ذاك ؟ قلت : ان مصابكم مصدر بمعنى اصابتكم • فعارضني اليزيدي • فقلت : هو بمنزلة قوله ان ضربك زيدا ظلم • فالرجل مفعول مصابكم منصوب به والدليل عليه ان الكلام معلق الى ان تقول ظلم فيتم • فاستحسن الواثق بالله ذلك •

ثم سأل الواثق بالله أبا عثمان ، هل لك من ولد ؟ قال : نعم ، بنية يا أمير المؤمنين ، وقد انشدت عند مسيري اليك قول الأعشى :

اذا غبت عنـــا وخلفتنـــا

فانا ســـواء ومن قـــد يتم

أيا أبتـــا لا ترم من عندنـــا

فانا بخـــير اذا لـــم تـــرم

أرانـــا اذا اضمرتك البـــلا

د نجفى ويقطـــع منـــا الرحم

قال : فما قلت لها ؟ قلت : قول جرير :

ثقي بـــالله ليس له شريـــك

ومن عند الخليفـــة بالنجـاح

قال الواثق بالله : انت على النجاح انشاءالله ، ثم أمر لي بألف دينار ، وردني مكرما[10] ٠

وحضر أبو عثمان المازني مجلس الواثـــق بالله ، وكان ابن السكيت أبو يوسف يعقوب بن اسحاق حاضرا ٠ فقال الواثق لأبي عثمان : سله عن مسألة ٠ فقال المازني : ما وزن نكتل من الفعل ؟ فقال ابن السكيت : نفعل ٠ فقال الواثق بالله : غلطت ، ثم طلب الى المازني أن يفسره ٠ فقال : نكتل تقديره نفتعل واصله نكتيل ، فانقلبت الياء ألفا لفتحة ما قبلها فصـــار لفظها نكتال ، فاسكنت اللام للجزم لانه جواب الأمر ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ٠ فقال الواثق بالله : هذا هو الجواب ، لا جوابك يا يعقوب[11] ٠

وحضر المازني يوما مجلس الواثق بالله وعنده نحاة الكوفة ، فقال له الخليفة : يا مازني هات مسألة ٠ فقال : ما تقولون في قوله تعالى «وما كانت أمك بغيا» لم لم يقل بغية ، وهي صفة لمؤنث ؟

---

(١٠) درة الغـــواص / ٧٢ ـ ٧٤ والعقـــد الفريـــد ٢ / ١٠١ ، وعيون الاخبار ٣/٣٢ـ٣٣ ، واخبار النحويين البصريين /٥٧ـ٥٨ ووردت فيه الابيات ببعض التغيير ، وان الواثق بالله امر له بثلاثين ألف درهم ٠ وجاء في وفيات الاعيان ٥/٤٤٠ـ٤٤١ ، وفي البصائر والذخائر ٣/٥٧٢ ان المناظرة جرت في مجلس المتوكل على الله ٠

(١١) معجم الادباء ٥/٤٤٠ـ٤٤١ ٠

فاجابوا باجابات غير مرضية • فقال الواثق بالله : هات ما عندك • قال : لو كانت بغي على تقدير فعيل بمعنى فاعلة لحقتها الهاء ، مثل كريمة وظريفة ، وانما تحذف الهاء اذا كانت مفعولة ، نحو المرأة قتيل ، وكف خضيب • وبغي هنا ليس بفعيل وانما هو فعول ، وفعول لا تلحقه الهاء في وصف التأنيث ، نحــــو امرأة شكور بئر شطون ـ أي بعيدة الرشا ـ وتقدير بغي بغوي قلبت الواو ياء ، ثم ادغمت في الياء فصارت ياء ثقيلة نحو سيد وميت فاستحسن الخليفة الجواب(١٢) •

وغنى أحد المغنين مرة في مجلس الواثق بالله بشعر الأخطل :

وشارب مربح بالكأس نادمني
لا بالحصور ولا فيهــــا بسوار

فسأل الواثق بالله جلساءه : أســــوار او سئار ؟ فاختلفوا في الاجابة • فوجه الى ابن الاعرابي محمد بن زياد اللغوي وهو يومئذ بسر من رأى ، يسأله في ذلك • فقال : سوار ، وثاب ، يقول لا يثبت على ندمائه • وسئار مفضل في القدح سؤرا ، وقد رويا جميعا • فأمر له الواثق بالله بعشرة آلاف درهم(١٣) •

ودخل ابن الاعرابي يوما على الواثق بالله وهو في أحد مجالسه الأدبية ، وكان الحسين بن الضحاك الشاعر موجودا • فقرأ الفتح بن خاقان شعرا لطرفة ، فقال :

أشجاك الربــــع أم قدمــــه
أم رمــــاد دارس حممــــه

كسطــــور الرق رقشــــه
بالضــحى مــــرقش يشـــمه

---

(١٢) نفس المصدر ٢/٣٨٥ـ٣٨٦ •
(١٣) نفس المصدر/٧/٧ •

تذكـــرون اذ نقاتلكـــم
اذ لا يضر معدمـــا عدمـــه

فقال ابن الاعرابي : زد الفا في أول البيت واجعله أتذكرون • فقال له الحسين بن الضحاك : قد خزم مرة بقوله : اذ لا يضر معدما، فهل يخزم بالت أخرى في أوله؟ أجاب ابن الاعرابي: ان العرب تخزم أول الشعر اذا احتاجت ان تصله بمـــا قبله ، تخزمه بالحرف أو الحرفين ، وقد خزمه طرفة في اذ أواسطه وفي الألف الاولى ، وانشد قول امرىء القيس :

فلعمرك ما سـعد بخلة آثـم
ولا تأتأ يوم الحفاظ ولا حصر

فخزم بالفاء ، وانشد قول قد بن مالك الوالبي :

تعالـوا نجمع الأمـــوال حتى
نجحدل من قبيلتنـا المئينـا

والا فتعالوا نجتلـد بمهندات
نشق بهـا الحواجب والشؤونا

فخزم بقوله والا ، ولم يقل تعالـــوا نجتلد ، وخزم بالفاء في تعالوا ، فخزم مرتين ، فاعجب الواثق بالله بذلك • وشهد الحاضرون ان ابن الاعرابي أعلم الجميع • فأمـــر له الخليفة بعشرة آلاف درهم(١٤) •

ويقال ان الواثق بالله رأى في منامه كأنه يسأل الله الجنة ، وان قائلا يقول له : لا يهلك على الله الا من قلبه مرت • فسأل في اليوم الثاني جلساءه عن المرت ، فلم يعرفوا معناه • فوجه الى أبي محلم فحضر وسأله عن الرؤيا والمرت • فقـــال أبو محلم : المرت القفر الذي لا ينبت شيئا ، والمعنى على هذا لا يهلك على الله الا من قلبه

---

(١٤) اشمار الخليج/١٢٩ـ١٣٠ •

خاليا من الايمان خلو المرت من النبات • فطالبه الواثق بالله بشاهد من الشعر ، فبادر أحد الحاضرين فانشد :

مرت مرتاوة يحار بهـا القطا
ويصبح ذو علم بها وهو جاهل

فقال أبو محلم : والله لا ابرح حتى انشده مائة قافية معروفة لمائة شاعر معروف في كل بيت ذكر المرت • فأمر له الواثق بالله بمائة آلف دينار(١٥) • ويلاحظ ان الخبر ممعن في المبالغة من قدرة أبي محلم على انشاد مائة بيت لمائة شاعر وفي كل منها ذكر المرت ، وفي المبلغ الذي منحه الواثق اياه ، ويرجح انه بالدراهم لا بالدنانير اذا سلمنا بصحة مقداره •

وتلاحى الحسين بن الضحاك الشاعر ومخارق المغني في مجلس الواثق بالله في أبي نواس وأبي العتاهية ، ايهما أشعر من الاخر • فقال الواثق بالله : اجعلا بينكما خطرا يكون للغالب منكما ، فجعلوا بينهما مائتي دينار • فسأل الواثق بالله من ها هنا من العلماء • فقيل أبو ملحم ، فاحضروه فسئل عن ذلـــك • فقال : أبو نواس اشعر واذهب في فنون العرب ، واكثر افتنانا من افانين الشعر • فأمر الواثق بالله بدفع الخطر الى الحسين بن الضحاك(١٦) •

٣ ـ عناية الواثق بالله باخبار الأولين :

أصحاب الرقيم (أصحاب الكهف) :

كان الواثق بالله كثير العناية بتتبع اخبار الأولين ، ومن ذلك ما يرويه ابن خرداذبة من ان الواثق بالله وجه محمد بن موسى المنجم الى بلاد الروم ليتحرى عن أصحاب الرقيم الذين يقال انهم يرقدون

---

(١٥) تاريخ الخلفاء/٣٤٣ •
(١٦) الاغاني ٧/١٧٦ •

في أحد الكهوف هنـــاك • وكتب الى ملك الروم ميخائيـــل الثالث ليساعده في مهمته • ويقول ابن خرداذبة ان ابن المنجم حدثه بان عظيم الروم وجه معه من صار بـــه الى الموضع الذي فيه أصحاب الرقيم ، وهو يقع بين عمورية ونيقية(١٧) • ويقول ياقوت الحموي ان بين الموضع وبين طرسوس عشرة أيام أو أحد عشر يوما(١٨) • ويلاحظ ان المسافة بين عمورية ونيقية القريبة من القسطنطينية بعيدة ، وكذلك هي بين نيقيـــة وطرسوس الواقعة جنوبي شرقي آسيا الصغرى • والمعروف ان الكهف المذكور يقع في مدينة افسوس على بحر ايجة جنوبي مدينة ازمير • ويغلب على الظن ان ابن خرداذبة والحموي اتخذا المـــدن المذكورة دليلا على موقـــع الكهف لشهرتها ومعرفتهما بها ، أو لأن الطريق بين هذه المدن هي التي كانت مألوفة للسير حينذاك •

يصف محمد بن موسى الطريق التي سلكوها حينما وصلوا الى جبل صغير فصعدوا الى ذروته ، ثم نزلوا الى سرب ينفذ الى الموضع الذي يرقد فيه اصحاب الرقيم • فمشـــوا مقدار ثلاثمائة خطوة فصاروا الى موضع فيه رواق على اساطـــين منقورة ، وفيه غرفة مرتفعة عليها باب حجري يرقد فيهاالموتى ، وعلى الغرفة رجل مكلف بحنظهم • ويقول ابن المنجم : ان الرجل كان يحيد عن ان نراهم أو نفتشهم ، ويزعم انه لا يأمن أن يصيبنا من ذلك آفة ، يريد التمويه ليدوم كسبة بهم • ثم يذكر كيف انه غامر بالصعود الى الغرفة وما قاساه من تعب ومشقة حتى وصلها ، فرأى الموتى في مسوح بالية تفرك باليد ، وان اجسادهم مطلية بالصبر والمرد والكافور لحفظها ، وجلودهم لاصقة بعظامهم • ولما لمس صدر أحدهم وجد خشونة في

---

(١٧) المسالك والممالك/١٠٦ـ١٠٧ •

(١٨) معجم البلدان ٣/٦١ ، والآثار الباقية/٢٩٠ ، وفيه ان اصحاب الكهف في مدينة افسيس وان المعتصم بالله وجه موسى بن شاكر الى ملك الروم ، وان علي بن المنجم زار الكهف في احد غزواته •

شعره • وقدم الموكل بحفظ الموتى الى محمد بن موسى وغلامه طعاما انكرا طعمه • ويقول ابن موسى انما أراد أن يقتلنا أو بعضنا ، فيصح ما يدعيه عند ملك الروم من انهم اصحاب الرقيم • فقلنا له: انما ظننا انك ترينا موتى يشبهون الأحياء وليس هؤلاء كذلك[19] •

من الواضح مما بينه ابن المنجم ، ان هؤلاء الموتى ليسو هم الفتية الذين آووا الى الكهف ، وانما هم أموات آخرون جاء بهم الموكل المدعي ليوهم من يراهم ، ويتكسب بذلك •

على أن ابن خرداذبة يشير في مكان اخر من كتابه الى ما يعرف بهوتة الرقيم[20] • وهي أشبه ما تكـــون بكهف أصحاب الرقيم • فيقول : «وبعد لؤلؤة تسلك الى قلعة ثم تأتي هوتة الرقيم ، وهي خسف في الارض بطول مائتي ذراع وعرض مائة ذراع ، في وسطها بحيرة حولها أشجار ، وحول الاشجار في أصل الجبل بيوت ومساكن •• ولها باب في الجبل تحت الارض يخرجك الى الوادي •• وقال الساكنون هناك : نحن ضعفي الروم لا نقاتل ، انما نخدم هؤلاء القوم الذين جعلهم الله ها هنا ، وهم في مغارة يصعد اليها من أرض الهوتة بسلم لعله أن يكون ثمانيـــة أذرع أو نحو ذلك • فاذا هم ثلاثة عشر رجلا وفيهم غلام امـــرد ، عليهم جباب صوف واكسية صوف ، وعليهم خفاف ونعال ، وقد تناولت شعرات في جبهة أحدهم فمددتها فما تبعني منها شيء»[21] •

ويذكر المقدسي ان في مدينة طرسوس تلا عليه مسجد يقال انه مقام على الكهف ، ثم يذكر الهوية ـ الهوتة ـ ويقول «هي جوف جبل ، فذكر لنا ان بها أمواتا لا يدرى ما هم ، وعليهم حراس •• فانطلق بنا الى كهف مما يلي الجنوب من الهوتة طوله نحو عشرين

---

(19) المسالك والممالك/107 •
(20) الهوتة : الارض المنخفضة او الطريق المنحدر الى الماء •
(21) المسالك والممالك/110ـ111 •

ذراعا ، واذا فيه ثلاثة عشر رجلا رقودا على اقفيتهم ‥ فسألناهم عن أمرهم فزعموا انهم لا علم لهم بشيء من أمرهم ‥ ويظن انهم أصحاب الكهف»(٢٢) ・

ويقول القزويني عند كلامـــه عن مدينة افسوس «ان مدينة افسوس مشهورة بأرض الروم ، وهي مدينة دقيانوس الجبار الذي هرب منه أصحاب الكهف ، وبين الكهف والمدينة فرسخان ・ والكهف مستقبل بنات نعش لا تدخله الشمس ، فيه رجال موتى لم يتغيروا ، وعددهم سبعة ، ستة منهم نيام على ظهورهم ، وواحد في آخر الكهف مضطجع على يمينه وظهره الى جدار الكهف ، وعند ارجلهم كلب لم يســـقط من أعضائـــه شيء ‥ وعلى الكهف مســـجد يقصـــده الناس»(٢٣) ・

لقد وردت قصة اصحاب الكهف في القـــرآن الكريم في الآيات (٨ــ٢٦) من سورة الكهف ・ وقد ذهب المفسرون الى ان المدينة التي كان الكهف قريبا منها هي طرسوس ، وقد لخص الزمخشري قصتهم في تفسيره(٢٤) ・ وجاء في التفسير المذكور ان معاوية بن أبي سفيان غزا الروم فمر بالكهف ، فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم ・ فقال له ابن عباس : ليس لك ذلك ، فقد منع الله تعالى من هو خير منك ، فقـــال «لو اطلعت عليهم لوليت منهم فـــرارا»(٢٥) ・ فقال معاوية : لا انتهي حتى أعلم علمهم ، فبعث اناسا وقال لهم : اذهبوا فانظروا ・ ففعلـــوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهـــم ريحا فاحرقتهم(٢٦) ・

---

(٢٢) أحسن التقاسيم/١٥٣ــ١٥٤ ・
(٢٣) اثار البلاد/٤٩٨
(٢٤) تفسير الكشاف ٢/٧١١ــ٧١٢ ・
(٢٥) سورة الكهف ، الاية : ١٨ ・
(٢٦) تفسير الكشاف ٢/٧٠٩ ・

سد ياجوج وماجوج ورحلة سلام الترجمان :

يذكر ابن خرداذبة عند اشارته الى ردم ياجوج وماجوج وصنعة السد الذي بناه ذو القرنين ، ان الخليفة الواثق بالله رأى في منامه كان السد قد انفتح ، فطلب رجلا يخرجه الى موضع السد ليكشف خبره • فاشار عليه كبير قواده اشناس بان يبعث لهذا الغرض سلام الترجمان لأنه يتكلم عدة لغات • فألف الخليفة بعثة تضم خمسين من أشداء الرجال يرأسهم سلام ، وقال له : أريد أن تخرج الى السد فتماينه وتجيئني بخبره • وجهزت البعثة بلوازم سفرها من اللبابيد والفرو وبمائتي بغل لحمل الزاد والماء • واعطى ابن سلام عشرة آلاف درهم ، كما اعطى أفراد البعثة ألف درهم ورزق سنة لكل منهم • وزودهم الخليفة بكتاب توصية الى اسحاق بن اسماعيل صاحب ارمينية وهو بتفليس يوصيه في انفاذهم الى ما بعثوا من أجله فكتب لهم اسحاق كتاب توصية الى صاحب بلاد السرير •

وهكذا اخذ صاحب كل ولاية يمرون به يزدهم بكتاب توصية الى صاحب البلد الذي يليه لانفاذهم وتزويدهم بما يحتاجون اليه من زاد وغيره • حتى وصلت البعثة الى بلاد الخزر ، فاستقبلهم ملكها ووجه معهم خمسة أدلاء ، فساروا بهم ستة وعشرين يوما فدخلوا أرضا نتنة الرائحة • وكانوا قد تزودوا بخل يشمونه للتخلص من تلك الرائحة الكريهة • وساروا في تلك الأرض عشرة أيام فوصلوا أرضا خربة ساروا فيها عشرين يوما • وهي الأرض التي كان ياجوج وماجوج خربوها • فوصلوا الى الحصون القريبة من الجبل الذي فيه السد •

ويقول سلام انهم وجدوا في تلك الحصون أقواما يتكلمون العربية وهم مسلمون ، وفيها مساجد • ولما علموا انهم جاءوا من سر من رأى موفدين من أمير المؤمنين الخليفة الواثق بالله ، تعجبوا

وقالوا انهم لم يسمعوا بذلك • وكانت المسافة بين كل حصن وآخر فرسخا الى فرسخين • ثم وصلوا مدينة ايكة وهي مسورة ولها أبواب حديدية وفيها مزارع وارحاء • وهي المدينة التي نزلها ذو القرنين بعسكره ، وبينها وبين السد مسيرة ثلاثة أيام • وفي الطريق حصون وقرى عديدة •

وموضع السد كما وصفه سلام جبل مستدير ذكروا ان ياجوج وماجوج فيه وهما صنفان وان ياجوج أطول قامة من ماجوج ، وطول أحدهم ما بين ذراع الى ذراع ونصف • والسد الذي بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع • وهو الطريق الذي يخرجون منه فيتفرقون في الارض • فحفر ذو القرنين هناك أساسا بعمق ثلاثين ذراعا وبناه بالحديد والنحاس حتى بلغ وجه الارض • ويسهب سلام في وصف تفصيلات السد وضخامة بابه • ووصف الحصنين اللذين عند الباب • ويقول انه رأى في أحدهما الآلات التي استخدمت في بناء السد من القدور والمغارف الحديدية الضخمة وبقايا اللبن الحديد قد التصقت ببعضها بفعل الصدأ • ويقوم على الحصنين رئيس يتولى عمله بالوراثة ، ووظيفته أن يتفقد في كل يوم اثنين وخميس باب السد ويتأكد من أن ياجوج وماجوج لم يحدثوا فيه حدثا ، ثم يقرع الباب عدة مرات ليسمع من وراءه من ياجوج وماجوج ويعلموا ان عليه حفظة •

ويقول سلام انه تحرى عما اذا قد حصل بالباب شق أو غيره ، فلم يجد سوى شق دقيق كالخيط لا تأثير له بالنسبة لسمك الباب ، وانه حك موضع الشق فجمع مقدار نصف درهم وشده في منديل ليريه الخليفة • كما يقول انه سأل من هناك ما اذا كانوا قد رأوا من ياجوج وماجوج أحدا ، فذكروا له انهم رأوا مرة عددا منهم فوق الجبل فهبت ريح القتهم الى جانبهم ، وكان طول الواحد منهم شبرا ونصف الشبر في رأي العين •

وبعد ان اتمت البعثة تحريها عادت راجعة الى عاصمة الخلافة • وقد اتبـــع الادلاء في العودة بهم طريق خراسان • فوصـــلوا الى نيسابور حيث استقبلهم أمير خراسان عبدالله بن طاهر وأكرمهم • وقد مات أكثر أفراد البعثة ولم يبق منهم سوى أربعة عشر رجلا وثلاثة وعشرين بغلا • فلما وصلت البعثة الى سر من رأى قدم سلام الترجمان تقريرا مفصلا الى الخليفة الواثق بالله ، فسر وحمدالله ، وأمر بصدقة ، ومنح رجال البعثة ألف دينار لكل رجل •

ويقول ابن خرداذبة ، حدثني سلام الترجمان بجملـــة هذا الخبر ، ثم أملاه علي من كتاب كان كتبه للواثق بالله(٢٧) •

لقد استغرقت البعثة في ذهابها ستة عشر شهراوفي ايابها اثني عشر شهرا وبضعة أيام • الا ان القزويني وياقوت الحموي يقولان ان الرحلة استغرقت ثمانيةعشر شهرا(٢٨) • ويلاحظ ان الطريق الذي سلكته البعثة في ذهابها الى موقع السد بدأ من تفليس قاعدة ارمينية ، ومنها الى بلاد السرير ، ثم بلاد اللان ، فبلاد الخزر التي بعث ملكها معهم ادلاء اجتازوا بهم أرضا منتنة حتى وصلوا الى مدينة ايكة ويرجح انها باكة التي تدعى اليوم باكو • وهي منطقة نفطية وان الروائح الكريهة كانت رائحة الغاز المنبعث من تلك الارض •

ويلاحظ كذلك ان وصف طريق العودة بمرور البعثة بخراسان فيه شيء من الاضطراب في ذكر المدن التي مرت بها ، حيث يقول سلام انهم وردوا سمرقند ثم ساروا الى اسبيشاب (اسبيجاب) ومنها عبروا نهر بلخ (جيحون) فصاروا الى اشروســـنة ومنها الى بخارى وترمذ ثم نيسابور فالري ومنها الى سامرا • فمن المستغرب ان تصل البعثة من اقليم اذربيجان وهو غربي بحر الخزر الى سمرقند وهي من مدن ماوراء النهر ، ثم تعود البعثة شمالا الى مدينة اسبيجاب التي

---

(٢٧) المسالك والممالك/١٧٠ ، وكامل الرواية في الصفحات ١٦٢ـ١٧٠ • وتجد خلاصة وافية لها في معجم البلدان ٣/١٩٩ـ٢٠٠ •

(٢٨) اثار البلاد/٥٩٦ـ٥٩٧ ، ومعجم البلدان ٣/٢٠٠ •

تقع على أعالي نهر سيحون وتنحدر ثانية جنوبا الى اشروسنة بعد ان تعبر نهر بلخ • بينما تقع كل من اسبيشاب واشروسنة غربي نهر سيحون وهمـــا بعيدتان عن نهر بلخ • كذلـــك من المستغرب ان يستغرق طريـــق العودة كما ذكر سلام مدة أقصر من المـــدة التي استغرقتها رحلة الذهاب • لان طريق خراسان المشار اليه أطول كثيرا • ويظهر ان سلاما لم يحالفه الحظ في وصف طريق العودة ، وانه خلط كثيرا في المدن التي قال ان البعثـــة مرت بها ، وانه لم يسجل مشاهداته في حينها ، وانما اعتمد على ذاكرته التي تشوشت فيها صور الرحلة الطويلة المتعبة واحداثها ، فكان هذا الاضطراب الذي ذكرناه •

على ان هذا الاضطراب قد شكك في صحة رواية ابن سلام عن رحلة بعثته • فقد شك بصحتها أبو الريحان البيروني اذ يقول ما خلاصته : ان الكتب المشتملة على ذكر البلاد والمدن ، وكتب المسالك والممالك تبين ان ياجوج وماجوج هم صنف من الاتراك يسكنون في مباديء الاقليمين الخامس والسادس ، وان في القصة ما يزيل الثقة بها من صفة أهل تلك البلاد من التدين بالاسلام والتكلم بالعربية مع انقطاعهم عن العمـــران وانهم لم يكونوا يعرفون الخليفـــة ولا الخلافة • وهو ينكر وجود أمة مسلمة منقطعة عن بلاد الاسلام ، لان البلغار الذين هم بالقرب من منقطع العمران ونهاية الاقليم السابع لا يجهلون الخلافة ، وانهم لا يعرفون من أمر هذا السد شيئا ، حتى يقول : واذا كانت شواهد هذا الخبر على هذه الهيئة لم يطمع منها في تعرف الحقيقة(٢٩) •

وكذلك طعن ابن رستة في صحة رواية سلام اذ يقول : وكتبناه نحن لنقف على ما فيه من التخليط والتزييد ، لان مثل هذا لا تقبل صحته(٣٠) •

---

(٢٩) الاثار الباقية/٤٢ •

(٣٠) الاعلاق النفيسة/١٤٩ •

أما المقدسي البشاري فانه ينقل ما جاء في كتاب ابن خرداذبة عن قصة سد ياجوج وماجوج دون ان يعلـــق عليها سوى انه يتخذ منها دليلا على رد من زعم ان السد في بلاد الاندلس(٣١) ·

كما شك بها ياقوت الحموي الذي لخص في معجمه رحلة سلام الترجمان ، وقال في آخرها : قد كتبت من خبر السد ما وجدته في الكتب ، ولست أقطع بصحة ما اوردته لاختلاف الروايات فيه ، والله اعلم بصحته(٣٢) ·

لا يستطيع القارىء ان يقرر مــــا اذا كان الارتباك في رواية سلام الترجمان يعود الى عدم دقته في تقريره الذي رفعه الى الخليفة وقد تشوشت في ذهنه أحداث الرحلة ، أم أن ابن خرداذبة لم يكن دقيقا أمينا في نقل الرواية · فقد قال أبو الفرج الاصبهاني فيه : وهو ممن لا يحصل قوله ولا يعتمد عليه(٣٣) ·

لقد ورد في آخر سورة الكهف من القــــرآن الكريم ، في الايات (٨٤ـ٩٩) خبر ذي القرنين وبنائه السد ، دون ان يذكر اسم ذي القرنين والمكان الذي بني فيه السد · وقد بقي ذلك موضع تساؤل المفسرين والمؤرخين المسلمين وذهابهم الى ان ذا القرنين هو الاسكندر المكدوني ، باعتبار انه كان صالحا وقد ملـــك قرني الدنيا ، أي جانبيها شرقا وغربا · وقد فسرت تســـميته بذي القرنين بعدة تفسيرات ذكرها الزمخشري في تفسيره(٣٤) · ولخص قدامة بن جعفر رأي قدامى المؤرخين المسلمين في ذي القرنين والسد الذي بناه · وذلك ان الاسكندر وصل في فتوحاته الى الصين فهادته ملكها · ثم سار لاخضاع القبائل التركية ، فبلغـــه عن قوم كثيري العدد من

---

(٣١) أحسن التقاسيم/٣٦٥ ·
(٣٢) معجم البلدان ٣/٢٠٠ ·
(٣٣) الاغاني ١١/٣٣٣ ·
(٣٤) تفسير الزمخشري ٢/٧٤٣ ·

هؤلاء الاتراك مفسدين في الارض • فاستشار ملك الصين في أمرهم، فاخبره انهم رعاة يحيط بارضهم من الشمال البحر الاخضر الذي لا مجاز فيه ، ومن الغرب والجنوب جبال شاهقة لا مسلك فيها ولا منفذ لهؤلاء الاتراك الا من درب واحد ضيق ، وانهم في زاوية من الارض، لو سد عليهم هذا المنفذ لبقوا فيه ، وكفى الناس شرهم وفسادهم • فعلم الاسكندر وجه الصواب فيما اشار به ملك الصين • فبنى سدا على ذلك الوادي ، وهو السد الذي وصفه القرآن الكريم(٣٥) •

ويقول البيروني ان صاحب اذربيجان أيام فتحها وجه انسانا الى السد من ناحية الخزر ، فشاهده ووصفه بانه بناء باسق سام أسود وراء خندق وثيق منيع(٣٦) •

وجاء في كتاب مختصر كتاب البلدان انه لما انتهى ذو القرنين الى موضع السد وبينه وبين الخزر شهران ، اجتمع اليه خلق كثير وقالوا ان خلف هذا الجبل أمما لا يحصيهم الا الله عزوجل ، وقد اخربوا علينا بلادنا وزروعنا • وان ياجوج وماجوج كانو يخرجون أيام الربيع الى أراضيهم فلا يدعون شيئا أخضر الا أكلوه ، ولا شيئا يابسا الا حملوه • وان ذا القرنين طلب اليهم ان يمينوه على أن يجعل لهم دونهم سدا • ثم أمر بالحديد فضرب منه لبنا عظاما ، واذاب النحاس ثم جعل ملاط اللبن النحاس ، وبنى به الفج وسواه مع قلتي الجبل • فلما فرغ منه أمر بالنحاس فأذيب وأفرغ عليه من فوقه فصار شبيها بالمصمت(٣٧) •

ومن الابحاث الحديثة عن سد ذي القرنين الدراسة التي قام بها العالم الهندي مولانا أبو الكلام آزاد ، وخلاصتها ان ذا القرنين هو الملك الفارسي كورش الذي حكم في منتصف القرن السادس قبل

---

(٣٥) الخراج وصناعة الكتابة/١٩٩ •
(٣٦) الآثار الباقية/٤١ •
(٣٧) مختصر كتاب البلدان/٢٩٨-٢٩٩ •

الميلاد ، وليس الاسكندر المكدوني • فقد توسع كورش في فتوحاته شرقا وغربا • وان اسارى اليهود الذي جاء بهم الملك العراقي بختنصر الى بابل بعد أن أزاله دويلتهم ، كانت تراودهم فكرة ظهور منقذ يخلصهم من الأسر ويعيدهم الى أورشليم ويساعدهم في اعادة بناء هيكل سليمان • وقد وصفوه على طريق الرمز بصورة كبش له قرنان ، أو عقاب له جناحان ، وكلا الوصفين يتضمنان معنى القوة والبأس • واعتبرت التوراة كورش بانه مسيح الله ، وقد اضفت عليه كثيرا من المدح والثناء • ومما برهن على ان كورش هو المدعو بذي القرنين العثور على تمثال لـه بحجم الانسان الطبيعي وعلى جانبيه جناحان كجناحي العقاب وعلى رأسه قرنان يحملان التاج • وهذا التمثال سواء قد تم صنعه في عهد كورش نفسه أو انه صنع في عهد خلفائه يدل على ان تصور ذي القرنين الذي أوجده اليهود للملك الذي سينقذهم قد رسخ في ذهن كورش • ولهذا فقد حقق لهم آمالهم في اعادتهم الى أورشليم بعد ان استولى على مدينة بابل وساعدهم على اعادة بناء هيكل سليمان •

أما ياجوج وماجوج فهم من القبائل المنغولية الرحالة • وكان موطنها الاصلي سهول منغوليا في شمالي شرقي قارة آسيا • وقد انتشرت في خلال القرن السادس قبل الميلاد على سواحل البحر الاسود في المناطق الممتدة بين بحر الخزر والبحر الاسود شمالي سلاسل جبال القوقاز التي تكاد تفصل بين الشمال والجنوب الا في ممر ضيق ، كانت هذه القبائل تنحدر منه لتغير على المناطق الواقعة جنوبي تلك البلاد • فلما وصل كورش في فتوحاته شرقي البحر الاسود اشتكى اليه السكان من هجمات قبائل ياجوج وماجوج عليهم ، وتوسلوا اليه ان يجعل بينهم وبين تلك القبائل سدا يحول دون انحدارهم اليهم • فاستعان بهم وبنى السد الحديدي الذي

---

(٣٨) مجلة العربي العدد (١٨٤) الصادر في صفر ١٣٩٤ ـ اذار ١٢٨/١٩٧٤ ـ ١٣٦ »

عرف باسمه ، في الممر المذكور ، وانقذهم من هجمات تلك القبائل البربرية ٠

أما الاسكندر المكدوني فقد ظهر بعد كورش بمائتي سنة ، وكانت فتوحاته قد امتدت شرقا حتى حدود الصين ، وشملت جميع ارجاء أمبراطورية فارس ، الا ان جيوشه لم تصل جبال القوقاز(٣٨) ٠

وثمة دراسة أخرى عن سد ذي القرنين جاءت في «ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة الانكليزية» قام بها الاستاذ عبدالله علي من العلماء المسلمين في الهند وعميد الكلية الاسلامية بمدينة لاهور ، وذلك في معرض تفسيره سورة الكهف ٠ وهو لا يقر القول بان ذا القرنين هو الملك الفارسي كورش ، وان السد يقع في جبال القوقاز بين البحر الاسود وبحر الخزر ، كما توصل اليه مولانا أبو الكلام آزاد ٠ ويستند عبدالله علي في دحضه هذا الرأي على أن الوصف القرآني يشير الى ان السد قد اقيم بين جبلين ، بينما هو يقع حسب الرأي المذكور بين جبل وبحر ٠ وان الاسكندر كان تلميذا لارسطو الباحث عن الحقيقة ، وانه كان فاضلا ذا اخلاق عالية مما يضفي عليه صفة الصلاح التي وردت في الوصف القرآني عن ذي القرنين ٠ ويقول ان في القصص الاثيوبية التراثية مـا يفيد بان الاسكندر يعتبر من أعاظم الانبياء ٠ وعلى هذا فهو يرى ان السد موضوع البحث يقع في أواسط آسيا قرب موضع اسمه (دربند) على بعد ١٥٠ ميلا جنوبي شرقي بخارى ، حيث يوجـد ممر ضيق على الطريق الرئيسي بين تركستان والهند ، على خط العرض ٣٨ شمالا وخط الطول ٦٧ شرقا ، ويسمى الآن بالتركية بيت الماعز ٠ وكان يعرف سابقا بباب الحديد باللغات العربية والصينية والفارسية ٠ علما ان البوابة المذكورة لا وجود لها اليوم الا انهـا كانت موجودة في القرن السابع للميلاد وقد شاهدها الرحالة الصيني «هيون سيانك» في طريقه الى الهند ، حيث رأى بوابتـين مغلفتين بالحديد وعليها أجراس - وكانت بجوارهما بحيرة تسمى «اسكندر كول» ٠ وان ما

تعرفه تاريخيا ان الاسكندر بعد ان غزا بلاد فارس وقبل ان يتوجه الى الهند مر ببخارى وسمرقند • وان البعثة التي أوفدها الواثق بالله من سامرا كانت قد ذهبت الى اواسط آسيا ووجدت هذا المضيق البالغ عرضه ١٥٠ ياردة ، وعليه ضلفتين مصنوعتين من طابوق من الحديد الملحوم بالرصاص ، وانهما مغلقتان دائما ، فاطمأنت الى سلامته وعادت لتخبر الخليفة بذلك(٣٩) •

وعلى هذا يرى الاستاذ عبدالله علي ان المقصود بذي القرنين هو الاسكندر المكدوني ، وان السد الذي بناه يقع في تركستان في أواسط آسيا ، وذلك استنادا الى ان الوصف القرآني أكثر انطباقا على الاسكندر وعلى المضيق المذكور • ويلاحظ ان هذا يطابق ما ذهب اليه المفسرون والمؤرخون المسلمون مما اشرنا اليه آنفا من ان ذا القرنين هو الاسكندر • بل لقد ذهب بعضهم الى القول بان ذا القرنين عربي من اليمن ، اذ يقول المقريزي ان اسمه الصعب بن ذي مراثد وانه من ملوك حمير ، وقد غلط من ظن ان الاسكندر بن فليبس هو ذو القرنين الذي بنى السد ، فان لفظة «ذو» عربية ، وذو القرنين من القاب العرب ملوك اليمن(٤٠) •

ان الذي يستنتج من رحلة سلام الترجمان ، مع ما اكتنفها من الخلط والاشتباه وما اعتورها من الشك ، ومهما تضمنت من مبالغة في وصف السد وبنائه وآثاره ، ان البعثة كانت قد وصلت الى المنطقة التي يقع فيها السد ، سواء كانت نفس المنطقة التي توصل اليها أبو الكلام آزاد في تحقيقه أو التي توصل اليها بحث عبدالله علي • وهذا ما يوضح ان مكان السد كان معروفا في أيام الواثق بالله • ويلاحظ التشابه في وصف المنطقة في تحقيق أبي الكلام آزاد وبحث عبدالله علي وفي تقرير بعثة سلام ، حيث يؤكد التقرير على وجود الفجوة أو الممر في الجبل الذي شيد فيه السد ، وهي الممر

---

(٣٩) ترجمة معاني القران الكريم الى اللغة الانكليزية /٧٥٣-٧٥٧ •
(٤٠) الخطط المقريزية ١/١٥٣ •

الذي كان يهبط منه المغيرون من الشـــمال الى الجنوب • وفي هذا المكان بنى ذو القرنين سده بحجـــارة الحديد ، وبارتفاع وسمك يعجز المغيرون عن اجتيازه أو اجتياحه ، وبذلك آمن أهل الجنوب من غارات القبائل الشمالية عليهم •

٤ ـ الواثق بالله والشعر والشعراء :

الواثق بالله والشعر :

كان الواثق بالله أديبا فصيحا وسمي المأمون الأصغر لسعة علمه وغزارة أدبه • كما كان شاعرا ويروي الشعر والاخبار بحيث لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر منه ، وله شعر جيد • ومما نسب اليه قوله[٤١] :

تنح عن القبيـــح ولا تـــرده
ومن اوليتـــه حسنا فـــزده

ستلقى من عـــدوك كل كيد
اذا كاد العـــدو ولم تكـــده

وقوله[٤٢] :

دع المقادير تجـــري في أعنتها
واصبر فليس لها صبر على حال

تريك يوما وضيع القدر مرتفعا
الى السماء ويوما تخفض العالي

وهي أبيات عادية في لغتها وبسيطة في معانيها المألوفة • الا انه له أشعارا أخرى تمتاز بعذوبة ألفاظها ورقة معانيها ، تلك التي

---

(٤١) خلاصة الذهب المسبوك/٢٢٤ •

(٤٢) نفس المصدر •

قالها في التغزل بالخدم والجواري لمن كان يتعشقهم • فقد قال يصف أحد الخدم وقد ناوله وردا ونرجسا(٤٣) :

حياك بالنرجس والورد
معتدل القامة والقد

فالهبت عيناه نار الهوى
وزاد في اللوعة والوجد

أملت بالملك له قربه
فصار ملكي سبب البعد

ورنحته سكرات الهوى
فمال بالوصل الى الصد

ان مثل البذل ثني عطفه
واسبل الدمع على الخد

غر يما تجنيه الحاظه
لا يعرف الانجاز للوعد

مولى تشكي الظلم من عبده
فانصفوا المولى من العبد

وقد اجمعوا ان ليس لأحد من الخلفاء مثل هذه الابيات •
وقال في خادم كان يهواه(٤٤) :

سأمنع قلبي من مودة غادر
تعبدني خيشا بمكر مكاشر

خطبت اليه الوصل خطبة راغب
فلاحظني زهوا بطرف مهاجر

---

(٤٣) تاريخ الخلفاء/٣٤٥ •
(٤٤) الاغاني ٩/٢٩٨ •

وروى انــه كان يحب جارية حملت اليه من مصر هديــة ، فغضبت يوما فجلست مع صاحبات لها وقالت لهن : لقد هجرته ، ومنذ أمس وهو يروم ان أكلمه فلم أفعل ، فخرج الواثق بالله على غفلة فسمع قولها فأنشأ يقول(٤٥) :

يا ذا الذي بعذابي ظل مفتخرا
ما انت ا لامليك جار اذ قدرا

لولا الهــوى لتجارينا على قدر
وان أفق منه يوما فسوف ترى

وللواثق بالله أبيات من الشعر قالها وصنع فيها الحانا غنائية - وقد اورد أبوالفرج في كتابه بعضا منها - فقد قال(٤٦) :

ألا أيها النفس التي كادهــا الهوى
أفــانت ان رمت الســـلو غريمي

أفيقي فقد أفنيت صبري أو اصبري
لمــا قــد لقيتيـــه علي ودومي

ومن ذلك قوله(٤٧) :

أيا عبرة العينين قد ظمىء الخـــد
فما لكمــا من ان تلمــا به بـــد

ويا مقلة قد صار يبغضها الكــرى
كان لــم يكن من قبل بينهمــا ود

لئن كان طول العهد أحــدث سلوة
فموعد بين العين والعبــرة الوجد

---

(٤٥) شذرات الذهب ٢/٧٧ ، وتاريخ الخلفاء/٣٤٢ وفيه انه قال هذا الشعر في خادم له اهدي اليه من مصر ، وليست جارية ٠
(٤٦) الاغاني ٩/٢٩٣ ٠
(٤٧) نفس المصدر ٩/٢٩٦ ٠

وما أنـــا الا كالذين تخـــمــوا
على ان قلبي من قلوبهـــم فـــرد

وكان الواثق بالله الى جانب روايته الشعر يضرب الأمثال بما يحفظه منه ، في بعض المناسبات ، ويحسن اختياره ليطابق المناسبة • قال ابن حمدون : كان بين الواثق بالله وبعض جواريه شر فخرج كسلان ، فلم ازل انا والفتح بن خاقـــان نحتال لنشاطه • فرآني أضاحك الفتح ، فقال : قاتل الله ابن الاحنف حيث يقول[48] :

عدل من الله ابكاني واضحكها
فالحمد لله عـدل كل ما صنعا

اليوم أبـكي على قلبي وأندبه
قلب الح عليه الحب فانصدعا

فقال الفتح : انت والله يا أمير المؤمنين في وضع التمثل موضعه أشعر منه وأعلم وأظرف •

وقالت جارية للواثق بالله ، وكان يهواها ، وقد جرى بينهما عتاب : ان كنت تستطيل علينا بعز الخلافة ، فانا ادل بعز الحب ، أتراك لم تسمع بخليفة عشق قبلك قط فاستوفى معشوقة حبه ، ولكني لا أرى لي نظيرا في طاعتك • فقـــال الواثق : لله در ابن الأحنف اذ يقول[49] :

أما تحسبيني أرى العاشـــقين
بـلى ، لست أرى لي نظـــيرا

لعل الذي بيديـــه الأمـــور
سيجعل في الكره خـــيرا كثيرا

---

(48) الاغاني ٣٥٧/٨ـ٣٥٨ ، وتاريخ بغداد ١٨/١٤ـ١٩ مع زيادة بيت ثالث . واضحكهم بدلا من اضحكها في صدر البيت الاول •
(49) الاغاني ٣٥٨/٨ •

الواثق بالله والشعر :

أما الشعراء الذين عاصروا الواثق بالله فقد اتصل به اشهرهم ، فقد مدحه أبو تمام الطائي بعـــدد من القصائد قالها في مناسبات مختلفة . ومن أولى قصائده في ذلك هي التي قالها يمدحه ويرثى المعتصم بالله ، ومنها(٥٠) :

ما للدموع تروم كـــل مرام
والجفن تاكل هجعـــة ومنام
يا حضرة المعصوم تربك مودع
مـــاء الحياة وقاتل الاعـــدام

ان الصفائح منك قد نضرت على
ملقى عظام لـــو علمت عظام

فتق المدامع ان لحـــــدك حلة
سكن الزمان وممســـك الأيام

الى ان يقول في مدح الواثق بالله :

مادام هارون الخليفـــة فالهدى
في غبطة موصـــولة بـــدوام

انا رحلنـــا واثقين بواثـــق
بالله شمس ضحى وبـــدر تمام

لله أي حيــــاة انبعثت لنـــا
يوم الخميس وبعـــد أي حمام

اودى بخير أمام اضطربت له
شعب الرجال وقام خـــير امام

---

(٥٠) ديوان ابي تمام ٣/٢٠٣-٢٠٩ .

ولما استخلف الواثق بالله صارت علاقة اسحاق الموصلي به مثل علاقته بأبيه · فقد اتخذه الواثق بالله نديما ومجالسا ومغنيا · وكان يقدر فيه علمه بالشعر واللغة والفقه والموسيقى · ولم يكن مجلسه يخلو منه · قال اسحاق : قدمت على الواثق بالله في بعض قدماتي ، فقال لي : أما اشتقت الي ؟ فقلت : بلى والله يا امير المؤمنين ، وانشدته(٥١) :

أشكو الى الله بعدي عن خليفته
وما أعالج من سقم ومن كبر

لا استطيع رحيلا اذ هممت به
يوما ولا أقوى على السفر

أنوي الرحيل اليه ثم يمنعني
ما أحدث الدهر والايام في بصري

ثم استأذنته في انشاد قصيدة مدحته بها ، فاذن لي ، فانشدته(٥٢) :

ضفت سعاد غداة البين بالزاد
واخلفتك فما توفي بميعاد

ما أنس لا انس منها اذ تودعنا
والحزن منها وان لم تبده باد

لما أمرت باشخاصي اليك هفا
قلبي حنينا الى أهلي وأولادي

ثم اعتزمت ولم احفل ببينهم
وطابت النفس عن فضل وحماد

---

(٥١) الاغاني ٥/٣٧١ـ٣٧٢ ·

(٥٢) نفس المصدر ٥/٣٧٢ ، وكررها في ٩/٢٨٤ مع تغيير طفيف ببعض الكلمات·

كم نعمة لأبيـــك الخير افـــردني
بها وعـــم باخرى بعـــد افـــراد

فلو شكرت أياديـــكم وأنعمـــكم
لما احـــاط بها وصـــفي وتعدادي

لأشكرنك مـــا ناح الحمام ومـــا
حدا على الصبح في اثر الدجى حادي

وحظي الشاعر الحسين بن الضحاك عند الخليفة الواثق بالله ، اذ اتخذه نديما لا يكاد يفارقه ، واول قصيدة للحسين في الواثق بالله قالها يهنؤه بالخلافة ويرثي المعتصم بالله ، منها قوله[٥٣] :

ألم يرع الاســـلام موت نصـــيره
بلى حق أن يرتـــاع من مات ناصره

سيسلبك عما فات دولـــة مفضـــل
أوائلـــه محمـــودة وأواخـــره

ثنى الله عطفيـــه وألف شـــخصه
على البر مـــذ شدت عليـــه مآزره

يصب ببذل المـــال حتى كأنمـــا
يرى بذلـــه للمـــال نهيا يبـــادره

وما قـــدم الرحمن الا مقدمـــا
موارده محمـــودة ومصـــادره

جرى لك من هارون بالسعد طائره
أمام اعتـــزام لا تخاف بـــوادره
هو الملك المجبول نفســـا على التقى
مسلمة من كـــل سوء عســـاكره

(٥٣) نفس المصدر ٧/١٥٦ــ١٥٧ .

لتغمد سيوف الحرب فالله وحـــده
ولي أمـــير المؤمنـــين ونـــاصره

فقال الواثق بالله : ان الحسين لينطق عن حسن طوية ، ويمدح بخلوص نية ، ثم أمر بأن يعطى لكل بيت قاله من هذه القصيدة ألف درهم •

وممن مدح الواثق بالله من الشعراء علي بن الجهم ، فقد دخل اليه بعد أن بويع بالخلافة ، وانشده[54] :

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين
بدولة الواثـــق هـــارون

افاض من عـدل ومن نائـــل
ما أحســن الدنيا مـــع الدين

قد عـم بالاحسان من فعلـــه
فالنــاس في خفض وفي لــــين

ما أكثـر الداعي له بالبقـــا
واكثــــر التـالي بآمـــين

٥ ـ الواثق بالله والغناء والموسيقى :

ولع الواثق بالله بالغناء :

كان الخليفة الواثق بالله حاذقا بالغناء والموسيقى والضرب على العود ، الى جانب اطلاعه الواسع وأدبه الوافر وروايته الشعر • وعندما يبحث أبو الفرج الاصبهاني في غناء الخلفاء وأولادهم في كتابه ، يفرد فصلا طويلا لغناء الواثق بالله[55] • يشير فيه الى أهم

(٥٤) ديوان علي بن الجهم/١٨٨ •
(٥٥) الاغاني ٩/٢٧٦/٣٠٠ •

الالحان التي صنعها من اشعاره التي نظمها ولحنها بنفسه ، وعددها خمسة عشر صوتا • ويقول انه كان أعلم الخلفاء بالغناء ، وبلغت صنعته مائة صوت ، كما كان أحـــذق من غني بضرب العود[٥٦] •
وكانت عريب اشهر واحذق مغنيات عصرها تكايده في ألحانه ، ومع ذلك قالت : صـــنع الواثق بالله مائـــة صوت ما فيهـــا صوت ساقط[٥٧] •

وقد اعتاد الواثق بالله ان يستطلع رأي نديمه اسحاق الموصلي في الالحان التي يصنعها ، بعد ان ينسبها الى غيره ، وذلك قبل ان يظهرها • وكان اسحاق يأخذ نفسه في ذلك بقول الحق أشد أخذ[٥٨] • فاذا رأى اللحن جيدا امتدحه واوصى باظهاره ، وان كان فاسدا أو متوسطا ذكر ما فيه من مآخذ • فاذا كان للواثق بالله رغبة بذلك اللحن عمل على تقويمه واصلاح فساده ، والا تركه حسبما يوصي اسحاق بشأنه • كمـــا اعتاد الواثق بالله ان يقلـــد بعض أصوات اسحاق • وقد سئل اسحاق أي اللحنين أجود في «خليلي عوجا» لحنه أم لحن الواثق بالله ، فقال : لحني أجود قسمة وأكثر عملا ، ولحن الواثق بالله أطرب لانه جعل ردته من نفس قسمته وليس يقدر على أدائه الا متمكن من نفسه[٥٩] •

وكثيرا ما كان الواثق بالله يجمـــع بعض غلمانه ممن يتوسم فيهم جمال الصوت وحسن الاداء ، ويدربهم على انشاد الاصوات التي يصنعها • قال احد غلمانه : دعـــا بنا الواثق بالله مع صلاة الغداة فقال : هذا صوت خذوه ، ونحن عشرون غلاما كلنا يغني ويضرب ، ثم ألقي علينا :

---

(٥٦) نفس المصدر ٩/٢٩٣ •
(٥٧) نفس المصدر ٩/٢٧٧ •
(٥٨) نفس المصدر ٩/٢٨٧ •
(٥٩) نفس المصدر ٥/٣٦٤ •

أشكو الى الله ما القي من الكمد
حسبي بربي فلا أشكو الى أحد

ومازال يردده علينا حتى أخذناه(٦٠) •

وقال مخارق المغني : صنع الواثق لحنـــين ، فأمرني وعلوية وعريبا ان نعارض صنعته فيهما ، ففعلنا واجتهدنا ، ثم غنيناه ، فضحك واطمأن الى اننا لم نبلغ شأوه في التلحين(٦١) •

وروى يزيد المهلبي انه دخل على الواثق بالله يوما وهو خليفة، فرأى صبية اسمها رباب جالسة في حجره وهو يلقي عليها قوله :

ضيعت عهد فتى لعهدك حافظ
في حفظـــه عجب وفي تضييعك

وهي تغنيه ويردده عليها ، ومازال يردده حتى حفظته(٦٢) •

وللواثق بالله رأي طريف يبرر فيه عدم تحرجه من الغناء وضرب العود • فهو يرى ان الغناء «انما هو فضلة أدب وعلم مدحه الاوائل واشتهاه أصحاب رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم ورحمهم والتابعون بعدهم ، وكثر في حرم الله ومهاجر رسوله»(٦٣) • وقد ألف محمد بن عمران بن موسى المرزباني ، وهو الراوية الاخباري ، كتابا عن الواثق بالله في وصف أحوال الغناء ونعوته وضروبه وطرقه، واخبار المغنين والمغنيات الأحرار والأماء والعبيد(٦٤) •

ومن مظاهر اهتمام الواثق بالله بالغناء والموسيقى انه لما علم بأن جده هارون الرشيد قد أمـــر ابراهيم الموصلي واسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ، ان يؤلفوا كتابا في الأغاني ويضمنوه

---

(٦٠) نفس المصدر ٩/٢٩٩ •
(٦١) الاغاني ٧/٢٩٩ـ٣٠٠ •
(٦٢) نفس المصدر ٢٠/٨٣ـ٨٤ •
(٦٣) نفس المصدر ٩/٢٧٦ •
(٦٤) الفهرست/١٩٨ ، ومعجم الادباء ٧/٥٢ •

المائة صوت المختارة ، اطلع على هذا الكتاب وامر اسحاق بن ابراهيم الموصلي بتهذيبه وتوسيمه(٦٥) .

وقد سبق ان اشرنا في البحث السابق الى بعض الاشعار التي قالها الواثق بالله وصنع فيها الحانا .

مجالسه الغنائية :

الواثق بالله والمغنون :

ولحب الواثق بالله فن الغناء والموسيقى فقد كان يكرم اسحاق الموصلي غاية الاكرام ، مقدرا فيه موهبته في التلحين وقدرته على الغناء . وكان يميزه على غيره من المغنين والموسيقيين . وقد قال مرة «ما غناني اسحاق الا ظننت انه قد زيد في ملكي ، ولا سمعته يغني غنـــاء ابن سريج الا ضننت ان ابن سريج قـــد نشر ، وانه ليحضرني غيره ، اذا لم يكن حاضرا ، فيتقدمه عندي وفي نفسي يطيب الصوت ، حتى اذا اجتمعا عندي رأيت اسحاق يعلو ورأيت من ظننته يتقدمه ينتقص . وان اسحاق لنعمة من نعم الملك ، لم يحظ أحد بمثلها ، ولو ان العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكي»(٦٦) . اذ كان اسحاق كثير الشكوى من شيخوخته وتقدم عمره .

وكان اسحاق يحضر مجالس الواثق بالله منذ ان كان أميرا في عهد أبيه المعتصم بالله . ولما خرج المعتصم بالله في حملته على بلاد الروم استخلف ابنه هارون بسر من رأى . فعـــزم هارون على أن يقضي نهارا كاملا بين المغنين . فوجه الى جلسائه وندمائه ومغنيه أن يبكروا في يوم حدده لهم فحضر الجميع . فلم يأخذ مكانه على سريره ، بل جلس على الارض . وطلب اليهـــم ان يجلسوا حلقة

---

(٦٥) التاج/٢٣ .

(٦٦) الاغاني ٥/٢٨٥-٢٨٦ .

حوله ، والى جانب كل واحد منهم مغن ، ليكون أكثر اختلاطا بهم ٠ وبدأ هر نفسه فتناول عودا وغني فشربوا ٠ ثم غني من بعده حتى وصل الدور الى اسحاق الموصلي فلم يغن ٠ فغنوا دورا اخر ولم يغن اسحاق ، وكذلك فعل في الدور الثـــالث ٠ فغضب هارون ونهض فجلس على السرير ، فقام الجميع وقوفا بين يديه ٠ فدعا باسحاق وشتمه ، وقال له : أتنزل لك واغني وترتفع عني ، وأمر بضربه ثلاثين مقرعة ٠ وحلف الا يغني بقية اليوم غير اسحاق ٠ فاعتذر اسحاق واعتذر الجلساء ، فعـــاد هارون الى مجلسه بينهم ، وأخذ اسحاق العود ومازال يغني حتى انقضى ذلك اليوم(٦٧) ٠

كان الواثق بالله يغدق على اسحاق الموصلي الأموال ٠ وقد قال اسحاق : ما وصلني أحد من الخلفاء بمثل مـــا وصلني به الواثق بالله ، وما كان أحد منهم يكرمني اكرامه(٦٨) ٠ وكان اسحاق يحضر مجالس الخلفاء اذا جلسوا للشرب واللهو في جملة المغنين وعوده معه ، الى ايام الواثق بالله فانه كان اذا قدم عليه يحضر مع الجلساء بغير عود ، ولا يغني حتى يطلب اليه الواثق بالله ٠ واذا طلب منه أن يغني جاؤه بعـــود فغنى به ، واذا فرغ رفع العـــود من بين يديه(٦٩) ٠ وذلك اكراما له واعلاء لشأنه ٠

وطلب الواثق بالله في بعض العشايا الا يبرح أحد من المغنين المجلس لانه عزم على الصبوح في اليوم التالي ٠ فامسك الجميع عن معارضته الا اسحاق فانه اعتذر عن المبيت ، فرجاه الواثق بالله ان يبكر في الحضور غدا ٠ وعندما التأم المجلس في اليوم التالي حضر اسحاق فجلس مع الندماء ٠ وكان اذا امره الواثق ان يغني خرج عن صفهم قليلا وغنى الصوت الذي يأمره به ، فاذا فرغ من القدح

---

(٦٧) نفس المصدر ٩/٢٩٨ ٠
(٦٨) نفس المصدر ٩/٢٨٣ ٠
(٦٩) نفس المصدر ٩/٢٨٦ ٠

قطع الصوت ولم يتمه ورجع الى صف الجلساء(٧٠) ۰ وهذا لا شك أيضا من مظاهر تكريم اسحاق وتقدير فنه وعبقريته ۰

قال اسحاق الموصلي : انشدتني أم محمد الأعرابية لنفسها هذين البيتين وأنا حاج فاستحسنتهمـــا وصنعت فيهما لحنا غنيته الواثق بالله فاستحسنه واستعاده مني حتى تعلمه ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم ، والبيتين هما(٧١) :

عسى الله باظمياء ان يعكس الهوى
فتلقين مـــا قد كنت منـــك لقيت

ثـــراء فتحتـــاجي الي فتعلـــمي
بأني بـــه أجزيـــك حـــين غنيت

وقال اسحاق : دخلت على الواثق بالله يوما فرأيته خاثر النفس كسلان ، فاخذت عودا ووقفت بين يديه فغنيته :

من الظباء ظبـــاء همهـــا السخب

ترعى القلوب وفي قلبي لهـــا عشب

لا يفتـــربن ولا يســـكن باديـــة

وليس يعرفن مـــا حر ومـــا حلب

يا حسن ما سرقت عيني وما انتهبت

والعـــين تسرق أحيانـــا وتنتهب

اذا يـــد سرقت فالقطع يلزمهـــا

والقطع في سرق العينـــين لا يجب

---

(٧٠) الاغاني ٩/٢٩٥ـ٢٩٦ ۰

(٧١) نفس المصدر ٥/٣٥٣ ۰

فهش الواثق لي ونشط ، ودعا بطعام خفيف فاكلنا ، واصطبح، وأمر لي بمائة ألف درهم(٧٢) ٠

وغنى اسحاق الواثق بالله يوما في شعر كان قاله وهو عنده بسامرا ، وقد طال مقامه واشتاق الى أهله ، وهو :

يا حبذا ريـــح الجنوب اذا بـــدت
في الصـــبح وهي ضعيفة الأنفاس

قـد حملت برد النـــدى وتحملت
عبقـــا من الجثجـــاث والبسباس

فشرب الواثق بالله عليه واستحسنه ، وقال له : يا أبا محمد لو قلت مكان «يا حبذا ريح الجنوب» يا حبذا ريح الشمال ، ألم يكن أرق وأعذى وأصح للأجساد وأقل وخامـــة وأطيب للانفس ؟ قال اسحاق : ما ذهب علي ما قاله أمير المؤمنين ، ولكن التفسير فيما بعد . فقال : قل ، فقلت :

ماذا تهيج من الصبابـــة والهوى
للصب بعـــد ذهولـــه واليـــاس

فقال الواثق بالله : انما استطبت ما تجيء به الجنوب من نسيم أهل بغداد ، لا الجنوب ، واليهم اشتقت لا اليها ٠ فقال : أجل يا أمير المؤمنين ٠ فضحك وقال : قد اذنت لك بعد ثلاثة أيام فامض راشدا ، وأمر له بمائة ألف درهم(٧٣) ٠

---

(٧٢) نفس المصدر ٥/٣٨٩ـ٣٩٠ ٠ وقد ذكر الخبر نفسه في ص : ٣٥٥ من الجزء نفسه ٠ وخاثر النفس : ثقيلها ٠ والسخب جمع السخاب وهي القلادة من قرنفل ونحوه ، أو القلادة بصورة عامة ٠ والصر : شـــد ضرع الناقة لئلا ترضع ولدها ٠

(٧٣) الاغاني ٥/٤٠٦ـ٤٠٧ ٠ والجثجاث : شجر اصفر طيب الرائحة ، ومثله البسباس ٠

واصطبح الواثق بـــالله في يوم مطير ومعه اســـحاق الموصلي ومغنون اخرون ٠ واتصل شربهم وقـــد اسرفوا فيه حتى سقطوا صرعى فرقدوا في أماكنهم ٠ وأمر الخليفة خدمه بأن لا يحركوا أحدا من موضعه ٠ وعندما افاق أمر بانباههم فقاموا واصلحوا من شأنهم ٠ فجاء اسحاق الى الواثق بالله وهو جالس وفي يده كأس وهو يروم شربها والخمار يمنعه ، فقال له : يا اسحاق انشدني في هذا المعنى شيئا ٠ فانشده اسحاق قول الاشجع السلمى :

وقد طمنت الليل في اعجـــازه
بالكأس بـــين غطارف كالأنجم

يتمايلون على النعيـــم كأنهم
قضب من الهنـــدي لـــم تتثلم

وسعى بها الظبى الغرير يزيدها
طيبا ويغشمها اذا لـــم تغشم

والليل منتقب بفضـــل ردائه
قد كان يحسر عن أغـــر أرثم

واذا ادارتها الأكف رأيتهـــا
تثنى الفصيح الى لسان الأعجم

فطرب ، وقال : أحسن والله أشجع ، واحسنت أنت يا أبا محمد، أعد بحياتي ٠ فاعدتها وشرب كأسه ، وأمر لي بالف دينار(٧٤) ٠

وتناظر المغنون يوما في مجلس الواثق بالله ، فذكروا الضراب على العود وخدقهم ، وقدم اسحاق زلزلا على ملاحظ الذي كانت له الرياسة على جميعهم ٠ فقال له الواثق بالله : هذا حيف وتعد منك ٠

---

(٧٤) نفس المصدر ١٨/٢٢١-٢٢٢ ٠ يغشمها : يغتصبها ٠ والفرس الارثم : الذي في طرف أنفه بياض ٠

فقال اسحاق : يا أمير المؤمنين نجمع بينهما ونمتحنهما ، وسينكشف الامر ، فاحظرا • فاستأذن اسحاق في ان يمتحنهما ، فوافق الواثق بالله • فسمى اسحاق ثلاثة أصوات كان أولها :

علــق قلبي ظبيـــة السيب
جهلا فقــد أغـــري بتعذيبي

فتقدم زلزل وقصر عنه مـــلاحظ • فعجب الواثق من مهارة اسحاق وسرعته في كشفهما • فطلب مـــلاحظ ان يضرب اسحاق الصوت ليروا مهارته • فقبل اسحاق التحدي ، وطلب الى ملاحظ ان يشوش عوده ، ففعل ذلك • وقال اسحاق : ان ملاحظا قد خلط الأوتار تخليط متعنت بحيث افسدها • ثم أخذ العود منه وجسه حتى عرف مواقعه ، وطلب الى ملاحظ ان يغني أي صوت يشاء • فغنى ملاحظ صوتا غريبا ، وضرب عليه اسحاق بذلك العود الفاسد التسوية ، ولم يخرج عن لحنه في موضع واحد حتى استوفاه • فقال له الواثق بالله : لا والله ما رأيت مثلك ولا سمعت به ، وطلب اليه ان يطرح ذلك على الجواري • فقال : هيهات يا أمير المؤمنين ، ان هذا لا تعرفه الجواري ولا يصلح لهن • قال له الواثق بالله : صدقت، ولئن مت لتموتن هـــذه الصناعة معك ، وأمر لـــه بثلاثين ألف درهم(٧٥) •

ودخل اسحاق مرة على الواثق بـــالله يستأذنه في الانحدار الى بغداد ، فوجده مصطبحا فطلب اليه الواثق بالله أن يغنيه :

ألا ان أهل الدار ودعـــوا الدارا
وان كان أهل الدار في الحي اجوارا

وقد تركـــوا قلبي حزينا متيمـــا
بذكرهم لو يســتطيع لقد طـــارا

---

(٧٥) الاغاني ٥/٢٨٠-٢٨٢ •

فتطير اسحاق من اقتراحه ، الا انـــه غناه اياه ، فشرب عليه مرارا ، وأمر له بثلاثين ألف درهم ، واذن له بالانصراف ، وكان آخر عهده به[76] • فقد توفي الواثق بالله بعد ذلك بقليل •

وذكر أبو الحسن الصابي هذا الخبر على الشكل الآتي : ذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : دخلت يوما على الواثق بالله وهو مصطبح ، فقال : غن يا اسحاق صـــوتا غريبا لم اسمعه منك حتى أكون عليه بقية يومي مسرورا • فكأن الله انساني الغناء كله الا هذا الصوت :

يا دار ان كان البلى قد محـــاك
فانـــه يعجـــبني ان أراك

أبكي الذي قـــد كان لي تالفا
فيك فآتي الدار من أجل ذاك

قال : فتبينت الكراهية في وجهه ، وندمت على ما فرط مني ، وتجلدت • وشرب رطـلا كان في يده ، وعدلت عن الصـــوت الى غيره • فكان والله ذلك اليوم آخر جلوسي معه[77] •

وكان الشـــاعر الحسين بن الضحاك يلازم الواثق بـــالله في مجالسه الغنائية وينادمه في شرابه • قال الحسين : شهدت الواثق بالله بعد موت المعتصم بالله بأيـــام في أول مجلس يجلسه • فغنته شارية جارية ابراهيم بن المهدي :

ما درى الحاملون يوم استقلوا
نعشـــه للثـــواء أم للبقـــاء

فبكى وبكينا معه ، حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه • ثم تغنى بعض الحاضرين فقال :

---

(٧٦) نفس المصدر ٥/٤١٦ •

(٧٧) الهفوات النادرة/٣٢ •

ودع هريرة ان الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا أيها الرحل

فازداد الواثق بالله بكاء ، وقال : مــــا سمعت كاليوم تعزية بأب . ثم تفرق المجلس(٧٨) .

وحضر الحسين مجلسا للواثق بـــالله ، فشربوا الى أن انقضى أكثر الليل . فأمر الواثق بالله جلساءه بأن يبيتوا في مكانهم . فلما أصبح خرج اليهم وهم مقيمون ، فقال للحسين : هل وصفت ليلتنا الماضية وطيبها ؟ فقال : لم يمض شيء وأنا أقول الساعة ، وفكر قليلا ثم قال :

حثت صبوحي فكاهـــة اللاهي
وطاب يومي بقـــرب اشباهي

فاستثر اللهـــو من مكامنـــه
من قبـل يوم منغص نـــاهي

بابنة الكـــرم من كف منتطق
مـــؤزر بالمجـــون تيـــاه

يسقيك من طرفه ومن يـــده
ســـقي لطيف مجـــرب داهي

كاســـا فكأسا كان شـــاربها
حيران بـــين الذكور والساهي

فأمر الواثق بالله بـــرد المجلس كهيئته ، واصـــطبح يومه ذاك معهم ، وقال : نحقق قولك ياحسين ونقضي لك كل أرب وحاجة(٧٩) .

وحدث الحسين بن الضحاك قال : دخلت ذات يوم على الواثق بالله ، وفي السماء لطخ غيم . فقـــال لي : ما الرأي عندك في هذا

---

(٧٨) الكامل ٧/٣١-٣٢ .
(٧٩) الاغاني ٧/١٦٠ .

اليوم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ما حكم به واشار اليه قبلي أحمد بن يوسف ، فانه اشار بصواب لا يرد وجعله في شعر لا يعارض • قال : وما قال ؟ فقلت لقد قال :

أرى غيمـــا تؤلفه جنـــوب
واحســــبه سياتينا بهطـــل

فعين الرأى ان تـــدعو برطل
فتشربه وتدعـــو لي برطـــل

فقال الواثق بالله : أصبتما • ودعا بالطعام والشراب والمغنين والجلساء ، واصطبحنا[80] •

وطلب الواثق بالله يوما الى الحسين بن الضحاك ان يرتجل ابياتا من الشعر • فساله في أي معنى يريد هذه الابيات • فقال : امدد طرفك وقل فيما شئت مما ترى بين يديك وصفه • وكان حولهما بساط من الخضرة محفوف بازهـــار تفتحت أنوارها • فارتج على الحسين ساعة ، وضاق ذرعا وخجل من موقفه • فتداركه الواثق بالله قائلا : ويحك مالك ، ألست ترى نور الصباح ونور أقاح ؟ فكان ذلك مما فتح القول على الحسين فاندفع يقول[81] :

ألست ترى الصبح قـد اسفرا
ومبتكر الغيث قـد أمطـــرا

واسفرت الأرض عن حلـــة
تضاحك بالأحمـر الأصـــفرا

ووافـــاك نيســـان في ورده
وحثك في الشراب كي تسـكرا

---

(٨٠) نفس المصدر ٧/١٥٩ــ١٦٠ •
(٨١) الاغاني ٧/١٩٦ــ١٩٧ •

وتعمـل كاسـين في فتيـة
تطارد بالأصـفر الأكبـرا

يحث كؤوسـهم مخطف
تجـاذب اردافـه المئـزرا

فلمـا تمازج ما شـذرت
مقـاريض أطرافـه شـذرا

فكـل ينـافس في بـره
ليفعـل في ذاته المنكـرا

فضحك الواثق بالله وقال : سنستعمل كل ما قلت يا حسين الا الفسق الذي ذكرته · ثم أمر باحضار الطعام فأكلوا جميعا · ثم قال : قوموا بنا الى حانة الشط ، فقاموا اليها · فشرب وطرب ، وما ترك يومئذ أحدا من الجلساء والمغنين والخدم الا أمر له بصلة · قال الحسين : فلما كان الغد غـدوت الى الواثق بالله ، فطلب الي أن أنشده شيئا ان كنت قلته في اليـوم السابق الذي كان من الأيام المعدودة ، فانشدته :

يا حانة الشط قـد اكرمت مثوانا
عودي بيـوم سرور كالذي كانا

لا تفقدينا دعـايات الامـام ولا
طيب البطالـة اسرارا واعلانـا

ولا تخالعنـا في غـير فاحشـة
اذا يطربنـا الطنبـور أحيانـا
وهاج زمرزنام بـين ذاك لنـا
شجدا فاهدى لنا روحـا وريحانا
حفت رياضـك جنات مجـاورة
في كـل مخترق نهـرا وبستانا

لازلت آهلة الأوطـــان عامـــرة
باكرم الناس اعراقـــا واغصانـــا

وكان الواثق بالله يميل الى الفتح بن خاقان ويأنس به · وقد اعتل يوما علة شديدة ، ثم افاق وتعافي · فقال للحسين : يا حسين اكتب عني الى الفتح تدعوه الى الصبوح معي ، وكان قد عزم على أن يصطبح · فكتب الحسين الى الفتح يقول(٨٢) :

لما اصطبحت وعين اللهـــو ترمقني
قـــد لاح لي باكرا في ثـــوب بذلته

ناديت فتحـــا وبشرت المـــدام به
لمـــا تخلص من مكـــروه علتـــه

ذب الفتى عن حريم الراح مكرمـــة
اذا رآه امـــرؤ ضـــدا لنحلتـــه

فاعجل الينا وعجل بالسرور لنـــا
وخالس الدهر في أوقـــات غفلته

فلما قرأها الفتح بادر الى الحضور ، فاصطبح مع الواثق بالله وحاشيته ·

الواثق بالله والمغنون الآخرون :

مخـــارق :

اعجب الخليفة الواثق بالله بغناء مخارق كثيرا · وقال وزيره محمد بن عبدالملك الزيات : ان الواثق بـــالله قال له : ما غناني مخارق قط الا قدرت انه من قلبي خلق(٨٣) · ويبدو انه كان شديد

---

(٨٢) نفس المصدر ٧/٢١٥–٢١٦ ·
(٨٣) الاغاني ١١/٣٣٤ و ١٨/٣٤٥ ·

الشغف بغنائه ، حتى انه خصص له حجرة في قصره ليكون قريبا منه دائما • ولا يسمح له بالذهاب الى منزله الا يوما واحدا في الاسبوع • وكانت جواري الواثق بالله اذا اختلفن في لحن ما ، أمرهن ان يعرضنه على مخارق ليقرر اللحن الصحيح • ويروي هارون ابن مخارق ان اباه انصرف مرة في نوبتـــه الى منزله فصلى الغداة مع الفجر في صحن الدار في يوم صائف • فدخل خدم الواثق بالله ، وكان بعث بهم اليه ليصحح لهم صوتا كان قد طرحـه عليهم فاختلفوا في ادائه • فاندفع مخارق يردد الصوت عليهم • ويبدو ان غناءه كان شجيا بحيث تجمع حوله جواري الدار وغلمانه ، كما بكي ابنه من فرط تأثره • فلما قطع مخارق الصوت حين استوفاه انفض الجمع من حوله(٨٤) •

وغنى مخارق يوما بحضرة الواثق بالله :

حتى اذا الليل خبا ضـــوءه
وغابت الجـــوزاء والمـــرزم
خـرجت والوطء خفي كمـــا
ينســـاب من مكمنه الأرقـــم

فاستملح الواثق بالله الشعر واللحن فصنع على نحوه(٨٥) •

قالت اذا الليل دجا فأتنـــــا
فجئتها حـــين دجـــا الليـــل
خفي وطء الرجل من حـارس
ولـــو درى حـــل بي الويـــل

وكان مخارق يلهي بغنائه أحيانا غلمـــان الخليفة عن اداء واجباتهم • فقد روى ابن حمدون انـــه كان مع عدد من الندماء

---

(٨٤) نفس المصدر ١٨/٣٥٢-٣٥٣ •
(٨٥) نفس المصدر ٩/٢٨٩-٢٩٠ •

والمغنين في مجلس الواثق بـــالله ، وكانت أمه عليلة ، فدخل اليها وامرهم ان لا يبرحـــوا مجالسهم ، فأبطأ عليهـــم • وكانت الليلة مقمرة ، فاندفع مخارق يغني • فاجتمع حولـــه غلمان القصر • وعندما خرج الواثق بالله نادى على غلام فلم يجبه أحد ، فتوسط الدار واخذ ينادي الغلمان بصوت عال • فبادر اليه ابن حمدون واخبره ان مخارقا يغني وان الغلمـــان تجمعوا يستمعون اليه ، وليس فيهم فضل ليسمعوا غير ما يسمعون من الغناء • فقال الواثق بالله : عذر والله لهم يا ابن حمدون ، وأي عـــذر • ثم شاركهم في الاستماع الى غناء مخارق(٨٦) •

ان تجمع عدد كبير من المغنين والموسيقيين في مجالس لهو الواثق بالله كان يثير في بعض الاحيان شيئا من التنافس بينهم • وقد يصل الى درجة الحقد يدفع بعضهم الى أن يكيد لدى الخليفة على البعض الآخر • فقد ذكر ان الواثق بالله كان يستشير اسحاق الموصلي فيما يصنعه من الأصـــوات • فحاول مخـــارق ان يكيد لاســـحاق عند الخليفة ، فقال له يوما : ان اسحاق يعرف ان الصوت الذي تعرضه من صنعتك فيقول لك ما يوافق هواك ، فاذا خرج عنك قال لنا ضد ذلك • فاراد الواثق بالله أن يتأكد من ذلـــك • فتبرع مخارق بأن يغني صـــوتا للواثق بالله بحضور اسحاق • وتعمد ان يغـــير فيه بمواضع تخفى على الواثق بالله • فلما سأل الواثق بالله اسحاق عن رأيه في الصوت • قال اسحاق انه فاسد غير مرضي • فغضب الخليفة وتحقق له قول مخارق • فأمر فسحب اسحاق من المجلس حتى اخرج منه مطرودا ، وأمر بنفيه الى بغداد • ثم جرى ذكره يوما ، فقالت فريدة جارية الواثق بالله : يا أمير المؤمنين ان اسحاق كما تعلم يأخذ نفسه بقول الحق ، وان مخارقا قد كاده عندك اذ أفسد الصوت من حيث أوهمك انه زاد فيه نغما وجوده ، فاحضر اسحاق واغنيه اياه على صحته واسمع ما يقول • فأمر الواثق بالله باحضاره الى سامرا

---

(٨٦) الاغاني ١٨/٣٤٢ ، ونهاية الارب ٤/٢١٦ •

واظهر الرضا عنه • فغنته فريدة الصوت كما صنعه الواثق بالله ، فلما سمعه قال : هذا صـــوت صحيح الصنعة ، ولم اسمعه هكذا في المرة الاولى ، وابـــان المواضع الفاسدة ، واخبر بافســـاد مخارق اياها • فســكن غضب الواثق بالله عنه ، وتنكـــر لمخارق مدة لما فعله(٨٧) •

علويـــة :

هو علي بن عبدالله بن سيف واصـــله من الصغد • كان مغنيا مبدعا ، وصانع ألحان متفننا ، وضارب عود متقدما • وقد تخرج على ابراهيم الموصلي المغني القدير الذي عني بـــه جيداو فبرع في صنعته • وغنى للخليفة محمد الأمين ولعدد من الخلفاء بعده ، وعاش الى أيام المتوكل على الله •

وكان اسحاق الموصلي يتعصب في أكثـــر الأحيان لعلوية على مخارق المغني ، ويقول عنه : ان علوية أعرف بما يخرج من رأسه واعلم بما يغنيه ويؤديه لأنه محـــكم الغناء والصنعة(٨٨) • الا ان ياقوتا الحموي يقول عنه : رغم ان علويـــة كان واحد الناس في الغناء رواية وحكاية ودراية وصنعة وجودة ضرب ، وحسن خلق ، الا انه اذا رأى مخارقا ذاب كما يذوب الرصاص على النار(٨٩) •

غنى علوية يوما بحضرة الواثق بالله هذا الصوت(٩٠) :

من صاحب الدهر لـــم يحمد تصرفه
عناد الدهـــر احـــلاء وامــــــراء

---

(٨٧) نفس المصدر ٥/٣٦٠ـ٣٦١ و ٩/٢٨١ـ٢٨٢ •
(٨٨) الاغاني ١١/٣٣٣ •
(٨٩) معجم الادباء ٧/٢٦٢ ، والاغاني ١٨/٣٧ •
(٩٠) الاغاني ١١/٣٤٥ •

فاستحسنه وطرب عليه • فقال علوية : والله لو شئت لجعلت الغناء في أيدي الناس أكثر من الجــوز ، وكان اسحاق الموصلي حاضرا في المجلس فتضاحك ، وقال لــــه : يا أبا الحسن اذا تكون قيمته مثل قيمة الجوز ، ليتك اذ قللته صنعت شيـــئا ، فكيف اذا كثرته ؟ فخجل علوية •

وغنى يوما بين يدي الواثق بالله ، واسحاق الموصلي حاضر :

خليل لي ساهجـــــره
لذنب لست اذكـــــــره

ولـــــكني ســـــارعاه
واكتمــــه واســــــتره

واظهــــــر انني راض
واســـــكت لا أخبــــره

لكي لا يعلـــــم الواشي
بمـــــا عنـــدي فأكسره

فطرب الواثق بالله طربا شديدا واستحسن اللحن واستجاده ، وأمر لعلوية بألف دينار • ثم سأله بما اذا كان هذا اللحن له ، قال : لا يا أمير المؤمنين ، هو لهذا الهزبر ، يعني اسحاقا • فضحك الواثق بالله ، وقال : قد ظلمناه اذن ، وأمر لاسحاق بثلاثين ألف درهم[٩١] •

اعجب الواثق بالله بغناء علوية وقال عنه : علوية أصح الناس صنعة بعد اسحاق ، وأطيب صوتا بعد مخارق ، وأضرب الناس بعد زبرب ، وهو مصلي كل سابق قادر ، وثاني كل أول واصل متقدم ، وكان يصف غناءه انه مثل نقر الطست يبقى ساعة في السمع بعد سكوته[٩٢] • ومما يشبه هذا انه تساءل في أحد مجالسه من أحذق

---

(٩١) الاغاني ٥/٤٠ •
(٩٢) نفس المصدر ١١/٣٣٧ ، والمصلي في السباق هو التالي •

الناس بالصنعة ؟ قالوا : اسحاق ، قال : ثم من ؟ قالوا : علوية • قال : فمن أطيب الناس صوتا ؟ قالوا : مخارق ، قال : ثم من ؟ قالوا : علوية • قال : أعرفتم بانه مصلي كل سابق ، وقد جمع الفضائل كلها ، وهي متفرقة فيهم(٩٣) •

وأراد الواثق بـالله يوم كان أميرا أن يضرب بين اسحاق ومخارق وعلوية ، ففعل ذلك في أحد مجالسه حتى تهاتروا فيما بينهم • ثم سأل اسحاقا كيف يرى مخارقا وعلوية ، فقال : أما مخارق فمناد طيب الصوت ، وأما علوية فهو خير حماري العبادي وهو شيء — يريد تصغيره — فوثب علوية مغضبا ، وطلب الى الواثق بالله أن يستحلف اسحاقا بان يصدق فما سيسأله عنه ، فحلف اسحاق، فقال علوية : من أحسن الناس اليوم صنعة بعدك ؟ قال : انت ، قال : فمن اضرب الناس بعد ثقيف ؟ قال : انت ، قال : فمن أطيب الناس صوتا بعد مخارق ؟ قال : انت(٩٤) •

وكانت هناك منافسة شديدة بين علويـة ومخارق الذي كان أعلى منه شأنا • فقد غنى علوية يوما بين يدي اسحاق الموصلي هذا الصوت :

هجرتك اشفاقا عليـك من الأذى
وخوف لأعـادي واتقاء النمـائم

فقال لـه اسحاق : أحسنت يا أبا الحسـن أحسنت • فقال علوية : أين أنا الآن من صاحبي — يعني مخارقا — مع قولك هذا لي ؟ قال : اذا غنيتما ملكا اختاره عليك واعطاه الجائزة دونك • فضجر علوية وقال : أف من رضاك وغضبك(٩٥) •

---

(٩٣) الاغاني ١١/٣٥٥ •

(٩٤) نفس المصدر ٥/٣٥١ـ٣٥٢ : و «هو خير حماري العبادي» مثل يضرب في خلتين احداهما شر من الاخرى •

(٩٥) الاغاني ١٨/٣٦٩ •

وكان علوية أعسر ، ولذا كان عـــوده مقلوب الاوتار : البم اسفل الاوتار كلها ، ثم المثلث فوق المثنى ، ثم الزير • وكان اذا ضرب اخذه بيده اليمني وضرب باليسرى ، فيكون مستويا في يده مقلوبا في يد غيره(٩٦) •

عبدالله بن العباس الربيعي :

من المغنين الذين كانوا مقربين الى الواثق بالله ، الشاعر المغني عبدالله بن العباس ، حفيد الفضـل بن الربيع • حضر يوما مجلس الواثق بالله ، وكان الجو ملبدا بالغيوم ، فـلاح برق واستطار • فقال الخليفة لجلسائه : قولوا في هــذا شيئا • فبادر عبدالله فقال هذين البيتين :

أعني على لامــع بــارق
خـفي كلمحـك بالحـاجب

كان تألقــه في الســماء
يــدا كاتب أو يــدا حاسب

وصنع فيهما لحنا غناه • فشرب الواثق بالله بقية يومه عليه ، واستحسن شعره معنى وصنعة ووصله بصلة سنية(٩٧) • وغني في حضرة الواثق بالله في يوم نوروز صـوتا صنعه في بيتين من الشعر للمعلى الطائي هما :

باكر صبوحك صبحة النوروز
واشرب بكاس متـرع وبكوز

ضحك الربيع اليك عن نـواره
آس ونسرين ومرما حــوز

---

(٩٦) نفس المصدر ١٨/٣٣٨ •
(٩٧) الاغاني ١٩/٢٣٣ •

فاستعاده الواثق بـالله وطرب كثيرا ، وأمر له بثلاثين ألف درهم(٩٨) .

وقال عبدالله بن العباس : دعانا الواثق بالله في يوم نوروز ، فلما دخلت عليه غنيته بشعر مدحته فيه ، وصنعت فيه لحنا ، وهو :

هيّئ للنيروز جاما
ومداما ونداما

يحمدون الله والوا
ثق هارون الأماما

ما رأى كسرى انوشر
وان مثل العام عاما

نرجسا غضا ووردا
وبهارا وخزامى

فطرب الخليفة واستحسن الغناء وشرب عليه حتى سكر ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم(٩٩) .

كان عبدالله يتخذ سيبا لمعرفة أولياء العهد برأي الخلفاء فيهم . وسبق أن أشرنا الى غنائه للواثق بالله عندما كان أميرا ، لكي يعرف ما اذا كان أبوه المعتصم بالله سيوليه العهد بعده . فلما تيقن من ذلك أمر ابراهيم بن رباح فاقترض له ثلاثمائة ألف درهم ، ففرقها على الجلساء من الندماء والمغنين والموسيقيين . ولما علم الواثق بالله بغضب أبيه على عبدالله واطراحه اياه ، اطرحه هو أيضا . وعندما ولى الخلافة كان لايزال على جفائه ، فقال عبدالله :

---

(٩٨) نفس المصدر ١٩/٢٣٠ .
(٩٩) نفس المصدر ١٩/٢٤٢ .

مالي جنيت وكنت لا أجـفى
أيـــام ارهب ســـطوة السيف

ادعـو الهي ان أراك خليفـة
بـين المقام ومســـجد الخيف

ودس من غناه الواثق بالله ، فلما سمعه سأل عنه ، فعرف قائلة فتندمم ودعا عبدالله فبسطه واكرمه ونادمه الى ان مات[١٠٠] ٠

وجمع الواثق بالله المغنين يوما ، وفيهم عبدالله ، ليصطبح ، فقال له : بحيـــاتي الا صنعت هزجا حتى أدخل واخـــرج اليكم الساعة ٠ فدخل الى جواريه ٠ فقـــال عبدالله هذه الابيات وصنع فيها هزجا قبل ان يخرج عليهم الخليفة :

بـأبي زور أتـــاني بالغلس
قمت اجـلالا لـــه حتى جلس

فتعانقنـــا جميعا ســـاعة
كادت الأرواح فيـــه تختلس

فقلت : يا سؤلي ويا بدر الدجى
في ظلام الليل مـا خفت العسس

قال : قد خفت ولكن الهـوى
آخـــذ بالروح مني والنفس

زارني يخطـــــر في مشيته
حوله من نور خديــــه قبس

فلما خرج الواثق بـالله من دار الحرم ، قال : يـــا عبدالله ما صنعت ؟ فاندفع عبدالله يغنيه الهـــزج الذي صنعه ٠ فشرب حتى

---

(١٠٠) نفس المصدر ١٩/٢٤٧ـ٢٤٨ ٠

سكر ، وأمر لـــه بخمسة آلاف درهـــم ، وأمره ان يطرحـــه على الجواري(١٠١) ٠

وقال عبدالله : جمعنا الواثق بالله يوما بعقب علة غليظة المته به وعوفي منها وصح جسمه ٠ فدخلت اليـــه مع المغنين وعودي في يدي ٠ فلما وقعت عيني عليه من بعيد وصرت بحيث يسمع صوتي ، ضربت وغنيت في شعر قلته في طريقي اليه وصنعت فيه لحنا ، وهو :

اسلم وعمـــرك الاله لأمـــة
بك اصبحت قهرت ذوي الالحاد

لو تستطيع وقتك كل اذيـــة
بالنفس والأمـــــوال والأولاد

فضحك وسر وقال : احسنت يا عبـدالله وسررتني ، وتيمنت بابتدائك ، ادن مني ، فدنوت منه حتى كنت أقرب المغنين اليه ٠ ثم استمادني الصوت فاعدته ثلاث مرات ٠ وشرب عليه ثلاثة أقداح ، وأمر لي بعشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه(١٠٢) ٠

محمد بن الحارث :

كان أبـــوه الحارث رفيع القدر ومن وجود قـــواد الهادي والرشيد ٠ وكان محمـــد من أصحاب ابراهيم بن المهـــدي ومن المتعصبين له على اسحاق الموصلي ٠ وقـــد أخذ الغناء عن ابراهيم وجرى فيه على نهجه ٠ ويعتبر محمد بن الحارث من أحسن المغنين اداء وأسرعهم أخذا للغناء ٠ فقال اســـحاق بن ابراهيم المصعبي للخليفة الواثق بالله ان اسحاق الموصلي قال لي : ما قدر احد قط

---

(١٠١) الاغاني ١٩/٢٥٠ ٠
(١٠٢) نفس المصدر ١٩/٢٥٤ ٠

أن يأخذ مني صوتا مستويا الا محمد بن الحارث ، فانه أخذ مني عدة أصوات كما اغنيها • فاستفسر الواثق بـــالله من محمد عن ذلك فقال : قد قال لي اسحاق الموصلي ذات مرة • فسأله عن احسن لحن اخذه من صنعته ، قال محمد : يزعم اسحاق انه لم يأخذ منه أحد قط هذا الصوت كما اخذته منه :

اذا المرء قاسى الدهر وابيض رأسه
وثلم تثليـــم الأنـــاء جوانبـــه

فليس في العيش خـــير وان بـــكى
على العيش أو رجى الذي هو كاذبه

فامره الواثق بـالله ان يغنيه ، فغناه اياه واحسن واجـــاد • فاستحسنه الواثق بالله وأمره ان يردده ، فردده مرارا كثيرة حتى أخذه الواثق بالله عنه ، واخذته جواريه كذلك[١٠٣] •

وغنى اسحاق الموصلي يوما بحضرة الواثق بالله لحنه الآتي :

ذكرتـــك اذ مرت بنا أم شـــادن
أمـــام المطايـــا تشرئب وتســـنح

من المؤلفات الرمـــل ادماء حـــرة
شـــعاع الضحى في متنهـــا يتوضح

فامره الواثق بالله ان يعيده على الجواري ، واحلفه بحياته ان ينصح فيه • فقال اسحاق : لا تستطيع الجواري أن يأخذنه مني ، ولكن يحضر محمد بن الحارث فيأخـــذه ، وتأخذه الجواري منه • فاحضر محمد والقاه اسحاق عليه فاخذه منه ، واخذته الجواري عن محمد[١٠٤] •

---

(١٠٣) الاغاني ١٢/٤٨ـ٤٩ •
(١٠٤) نفس المصدر ١٢/٥٠ـ٥١ •

وغنى محمد بن الحارث الواثق بالله ببيت من الشعر مدحه به ، وقد نظمه ولحنه وهو :

أمنت بـــاذن الله من كـــل حادث
بقربك من خير الورى يا ابن حارث

فاستحسنه الواثق بالله ، وامر بالفي دينار(١٠٥) ٠

أبو حشيشة :

محمد بن أمية ، وابـــو حشيشة لقب غلب عليـــه ، كان من المتصلين بابراهيـم بن المهدي ، ويعتبر من المغنـــين الطنبوريين المجيدين ٠ وقد قال : كنت أغني للواثق بـــالله ، وكان يختار من غنائي هذا الصوت(١٠٦) :

يا تاركي متلـــدد العــــواد
جـــــذلان العـــــــداة

انظـــــر الي بعـــــين را
ض نظـــرة قبل المـــات

خليتني بـــــين الوعيـــــ
ـد وبـــين ألسنـــة الوشـــاة

مـــاذا يـــرجى بالعيـــا
ة منغص روح الحيـــــاة

عمرو بن بانة :

وهو أحد المغنين المشهورين في أيـــام الواثق بالله ، وسنتعرف عليه عند الكلام على مجالس المتوكل على الله الغنائيـــة ٠ وقد غني

---

(١٠٥) نفس المصدر ١٧٧/٢٣ ٠

(١٠٦) نفس المصدر ٧٩/٢٣ ، ونهاية الارب ٣٧/٥ وجاء البيت الاول فيه :
يا تاركي متلذذ العذال جذلان العداة ٠

يوما بين يدي الواثق بالله بحضور اسحاق الموصلي بلحن أبيه ابراهيم الموصلي :

بلوت أمور الناس طرا فأصبحت
مذقمة عندي براء من الحمد

وأصبح عندي من وثقت يغيبه
بغيض الايادي كل احسانه نكد

فغناه على ما أخذه من ابراهيم بن المهدي وقد غيره · فقال الواثق بالله لاسحاق : أتعرف هذا اللحن ؟ قال : نعم هذا لحن أبي ولكن ابراهيم بن المهدي زعم انه اصلحه فافسده · فطلب اليه الخليفة ان يغنيه · فغناه اسحاق واداه على حقيقته ، فاستحسنه الواثق بالله جدا · فغم ذلك عمرو بن بانة فقال لاسحاق : أفأنت مثل ابراهيم بن المهدي حتى تقول هذا فيه ؟ قال : لا والله ما أنا مثله ، واما الغناء فما دخولك انت بيننا فيه ، ما احسنت قط ان تأخذ فضلا من ان تغني ، ولا قمت باداء غناء ، فضلا عن ان تميز بين المحسنين ، والا فغن أي صوت شئت مما أخذته عنه وعن غيره ، فان لم أوضح لك ولمن حضر انه لا يسلم لك صوت من نقصان أجزاء وفساد صنعة ، فرمي به رهن · فاساء عمرو الجواب واغلظ في القول ، فأمضه الواثق بالله وطرده من مجلسه(١٠٧) ·

الواثق بالله والمغنيات :

قلم الصالحية(١٠٨) :

احدى الجواري البصريات المولدات ، صفراء ، حسنة الغناء ، حاذقة بالضرب على العود · اخذت الغناء عن ابراهيم الموصلي وابنه

---

(١٠٧) الاغاني ٥/٣٩٤ـ٣٩٥ ·

(١٠٨) هكذا ورد اسمها في الطبري ٩/١٥٣ ، وفي الاغاني ١٣/٢٤٧ ، الا انه جاء في الكامل ٧/٣٢ : علم الصالحية ·

اسحاق ، وعن يحى المكي ، وهم رؤساء هـــذا الفن في عصرهم • برعت في الغناء وفي صنع الألحان ولها نحو عشرين صوتا • وكانت جارية لصالح بن عبدالوهاب واشتراها الواثق بالله منه • ولشرائها قصة أوردها ابن الاثير مختصرة • فقد كان أحمد بن عبدالوهاب قال في الواثق بالله(١٠٩) :

أبت دار الاحبـــة ان تبينــــا
أجدك مـــا رأيت لهـــا معينا

تقطـــع حسرة من حب ليـــلى
نفوس ما آثـــبن ولا جزينا(١١٠)

فصنعت فيه قلم لحنا غناه زرزر الكبير للواثق بالله فاعجبه ، ولما علم انه لقلم الصالحيـــة احضر مولاها وطلب منه شراءها ، فاهداها اليه ، فقبلها وعوضه خمسة آلاف دينار • فماطله الوزير ابن الزيات في دفع المبلغ • فاعادت قلم الصوت على الواثق بالله ، فقال لها : بارك الله عليك وعلى من رباك • فقالت : وما ينفع من رباني ، أمرت له بشيء فلم يصل اليه • فكتب الى ابن الزيات يأمره بايصال المال الى صالح وان يضعفه له ، فدفع اليـــه عشرة آلاف دينار(١١١) • ويقول أبو الفرج ان الواثق بالله لما اشتراها سماها احتياطا(١١٢) •

وكان الشاعر علي بن الجهم انشـــد الواثق بالله عندما تولى الخلافة قوله :

---

(١٠٩) الكامل ٧/٣٢ •
(١١٠) ورد هذا البيت في الاغاني ١٣/٣٤٨ كما يلي
تقطع نفســـه من حب ليلى ونفوسا ما اثين ولا جزينـــا
(١١١) مفصل الخبر في الاغاني ١٣/٣٤٧ـ٣٤٩ ، وفي نهاية الارب ٥/٧١ـ٧٢ •
(١١٢) الاغاني ١٣/٣٤٨ •

قد فاز ذو الدنيـا وذو الدين

بدولـة الواثـــق هـــارون

وانشده أيضا قوله يمدحه :

وثقت بالملك الواثق بـالله النفوس

فلحنت قلم الصالحية هـــذين الشعرين وتغنت بهما ، وكان الواثق بالله يستحسن هذين الصوتين وغناءها[113] .

فريـــدة :

كانت فريدة جارية لعمرو بن بانة أحد كبار المغنين في عهده ، وقد تولى تثقيفها وتدريبها على الغناء[114] . واهداها الى الواثق بالله ، فكانت أثيرة عنده ، حظية لديه ، لمـــا امتازت به من جمال الوجه وحسن الغناء ، الى جانب حدة الذكاء وسرعة الفهم . وكانت تغني الأصوات التي يصنعها الواثق بالله ، فتجيد اداءها .

وقد كلف الواثق بالله المغنية شارية جارية ابراهيم بن المهدي ومن احسن مغنيات أيامها ان تتم تعليم فريدة فنون الغناء والضرب على العـــود . فتولت تعليمها لفترة قصيرة ثم تركتها لخـــلاف قام بينهما[115] .

لقد استطاعت ان تتقن جميع الاصوات التي أخذتها عن كبار المغنين . قال محمد بن عبدالملك الزيات : سمعت فريدة تغني هذا الصوت[116] :

---

(١١٣) نفس المصدر ١٣/٢٥٠ .
(١١٤) نفس المصدر ٤/١١٤ .
(١١٥) نفس المصدر ١٦/١٢-١٣ .
(١١٦) نفس المصدر ٤/١١٨ .

أخلاي بي شجو وليس بكم شجو
وكل امرئ مما بصاحبه خلو

اذاب الهوى لحمي وجسمي ومفصلي
فلم يبق الا الروح والجسد النضو

فما سمعت قبله ولا بعده غناء احسن منه ٠

وغنى عمرو بن بانة الخليفة الواثق بالله يوما :

قلت حلا فاقبلي معذرتي
ما كذا يجزي محب من أحب

فامره ان يتقدم الى الستارة وان يلقي هذا الصوت على جاريته فريدة ٠ فلما ألقاه عليها تساءلت : هل حل أو خل ؟ فعلم عمرو انها تسأله عن صاحبتها «خل» في خفاء من الواثق بالله(١١٧) ٠ وكانت خل جارية ربيت مع فريدة عند عمرو بن بانة ٠

وغضب الواثق يوما على فريدة لكلام اخفته عنه ، فجلس في يومه للصبوح ٠ فغناه عبدالله بن العباس الربيعي :

لا تأمني الصرم مني ان ترى كلفي
وان مضى لصفاء الود اعصار

ما سمي القلب الا من تقلبه
والرأى يعرف والاهواء اطوار

كم من ذوي مقة قبلي وقبلكم
خانوا فاضحوا الى الهجران قد صاروا

فاستعاده الواثق بالله مرارا ، وشرب عليه ، واعجب به ، وامر لعبدالله بألف دينار وخلع عليه(١١٨) ٠

---

(١١٧) الاغاني ٤/١١٥ ٠
(١١٨) نفس المصدر ١٩/٢٥١ ٠

ويروي محمد بن الحارث قصة عن غيرة الواثق بالله من أخيه جعفر لما كان بينهما من نفـــرة وتباغض • اذ غضب ذات ليلة على جاريته فريدة وهي تغنيه وقد سحرته بجمالها ودلالها ، فتبادر الى ذهنه انها ستؤول بعد موته الى أخيه جعفر فآلمه ذلك مما دفعه الى ضربها وطردها من حجرته ، ثم مالبث ان صالحها(١١٩) •

شـــارية :

أما شـــارية جارية ابراهيـم بن المهدي الذي دربهـــا على الغناء ، فقد اصبحت في أيام الواثق بـــالله احسن واشهر مغنية ، بحيث اخذت تنافس المغنية الشهيرة عريب المأمونية ، وغدا الناس بسر من رأى متحازبين ، قوم مع شارية وقوم مع عريب(١٢٠) •

وكان الواثق بالله يقدر فنها ويحترمها ويسميها «ستي» وقد أوكل اليها تعليم جاريته فريدة ، فلم تأل جهدا في تعليمها أصول الغناء والضرب على العود حتى وقع بينهما خـــلاف ، فحلفت أن لا تطرح عليها بعد ذلك صوتا الا نقصت من نغمته(١٢١) •

عـريب :

لم تكن عريب مقربة من الواثق بالله ، رغم براعتها في الغناء • لانها كانت من مؤيدي العباس بن المأمون ضد المعتصم بالله • وقد سبق ان كشفت علاقتها بذلك أيام كان المعتصم بالله يحارب في بلاد الروم • وكانت تعرض بالواثق بـــالله منذ ان كان أميرا وتسميه الأعور الليلي(١٢٢) ، لانه كان كثير السهر • كما كانت تكايده فيما

---

(١١٩) مفصل الخبر في الاغاني ٤/١١٥ـ١١٨ •
(١٢٠) الاغاني ١٦/١٤ ، ونهاية الارب ٥/٨٧ •
(١٢١) الاغاني ١٦/١٢ـ١٣ •
(١٢٢) نفس المصدر ٢١/٧٧ •

يصوغه من الالحان ، فتصوغ في نفس الشعر لحنا وتسعى ان يكون أجود من لحنه(١٢٣) . فقد لحن الواثق بالله البيت الاتي(١٢٤) :

لم آت عامدة ذنبـا اليك بلى
أقر بالذنب فـاعف عن زللي

فصنعت فيه لحنا فكان أجود من لحنه ، وصنع الواثق بالله لحنا في البيت الآتي :

أشكو الى الله مـا ألقي من الكمد
حسبي بربي ولا أشـكو الى أحـد

فصنعت فيه لحنا على غرار لحن الواثق بالله ، الا ان لحنها جاء أجود من لحنه كذلك(١٢٥) .

---

(١٢٣) نفس المصدر ٢١/٧٦ ، ونهاية الارب ٥/١٠٦ .
(١٢٤) نفس المصدر ٢١/٧٦ .



الفصل الثالث

مجالس المتوكل على الله

١ ـ المتوكل على الله والندماء :

أكثر المتوكل على الله من اصطناع الندماء ، فقرب اليه الادباء والشعراء والرواة • وكانت مجالسه لا تخلو من المناظرات الادبية التي كان يثيرها بين جلسائه ومنادميه • وكان نديمه الاول الذي لا يكاد يغيب عن ناظره ولا يصبر على فراقه هو الفتح بن خاقان أحد كبار القواد الاتراك وممن اوقف نفسه لخدمة الخلافة • وقد كان فطنا ذكيا ، غاية في الجود ، زكي النفس ، حسن العشرة متوددا محببا الى كل من يكلمه(١) • ويقول المسعودي انه صار أغلب الناس على المتوكل على الله وأقربهم منه(٢) • فكان يحضر جميع مجالس المتوكل على الله سواء للشرب والسماع ، أو للمناظرات الادبية أو للفكاهة والتندر ، حتى انه قتل معه في مجلس انسه • وقد اتخذه المتوكل أخا لما لمس فيه من مودة واخلاص ، وكان يقدمه على سائر ولده وأهله(٣) • ولما سافر الى دمشق كان الفتح معادلا له على

---

(١) معجم الادباء ٦/١١٩ •
(٢) مروج الذهب ٤/٨٦ـ٨٧ •
(٣) الفهرست/١٧٥ •

جمازة[٤] • ومدحه البحتري بعديد من القصائد ، سماه فيها «أمين بني العباس» و «حسام أمير المؤمنـين» و «طود الخلافة»[٥] لما كان يرى فيه من ولاء صادق للخليفة والخلافة •

كان الفتح بن خاقان أديبا كثير المطالعة ، حتى قيل ثلاثة لم ير أكثر منهم محبة للكتب والعلوم ، ومنهم الفتح ، فكان يحضر لمجالسة الخليفة ، فاذا خرج الخليفة لحاجة ما ، اخرج الفتح كتابا من كمه أو خفه واخذ يطالع فيه الى حين عودته[٦] • وكانت له خزانة كتب أشرنا اليها في البحث الخاص بدور الكتب • كما كانت له تصانيف حسنة منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الروضة والزهر ، وكتاب البستان الذي يقول ابن النديم ان الذي ألفه هو محمد بن عبد ربة الملقب برأس البغل ونسبه الى الفتح[٧] • وكان الادباء والعلماء يتقربون اليه ويهدونه مؤلفاتهم • فقد قدم اليه الجاحظ كتاب التاج ، وقدم اليه العالم اللغوي محمد بن حبيب كتاب القبائل الكبيرة والايام[٨] • وذلـــك اعترافا برعايته لهم وعنايته بهم •

وللفتح شعر رقيق منه قوله يصف الورد[٩] :

أما ترى الورد يدعو الشاربين الى
حمراء صـــافية في لونهـــا حبب

مـــــراهن من يـــواقيت مركبـــة
على الزمـــرد في أجفانهـــــا ذهب

---

(٤) فوات الوفيات ٢/٢٤٦ •

(٥) راجع ديوان البحتري ـ طبعة صادر : ١/١٠٣ـ١٠٦ و ١/١١١ـ١١٣ و ١/١٩٠ـ١٩٣ •

(٦) الفهرست/١٧٥ ، ومعجم الادباء ٦/٥٦ •

(٧) الفهرست/١٧٥ـ١٧٦ •

(٨) كتاب التاج/٤ ، ومعجم الادباء ٦/٤٧٦ •

خاف الملال اذا طالت اقامته
فصار يظهر أحيانا ويحتجب

وحدث المبرد قال : انشدني الفتح بن خاقان لنفسه[10] :

واني واياها لكالخمر والفتى
متى يستطع منها الزيادة يزدد
اذا ازددت منها أزددت وجدا بقربها
فكيف احتراس من هوى متجدد

وقال ابن حمدون : لما قال الفتح هذه الابيات انشدتها المتوكل على الله فسألني عن قائلها ، فعرفته انه الفتح ، فاستحسنها[11] .

وحدث علي بن الجهم قال : اني لعند المتوكل على الله ، والفتح بن خاقان حاضر ، اذ ادخل عليه نخاس ومعه جارية ، فقال له أمير المؤمنين : ما صناعة هذه الوصيفة ؟ قال : تقرأ بالألحان . فقال الفتح : اقرأي لنا خمس آيات . فاندفعت تقول[12] :

قد جاء نصر الله والفتح
وشق عنا الظلمة الصبح
خدين ملك ورجا دولة
وهمه الاشفاق والنصح
الليث الا انه ماجد
والغيث الا انه سمح
وكل باب للندى مغلق
فانما مفتاحه الفتح

---

(9) معجم الادباء ٦/١١٨-١١٩ .
(10) نفس المصدر ٦/١٢٢ .
(11) نفس المصدر .
(12) نفس المصدر ٦/١٢٣-١٢٤ .

قال : فوالله دخل على المتوكل على الله من السرور ما قام الى الفتح فوقع عليه يقبلـــه • ووثب الفتح فقبل رجله • فأمــــر الخليفة بشرائها ، وبعث بها الى الفتح •

وقال الفتح : دخلت يومـــا الى المتوكل على الله فرأيته مطرقا متفكرا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا الفكر ؟ فوالله ما على ظهر الأرض أطيب منك عيشا ولا انعم منك بالا • فقال : يا فتح ، أطيب عيشا مني رجل له دار واسعة وزوجة صالحة ومعيشة حاضرة ، لا يعرفنا فنؤذيه ، ولا يحتاج الينا فنزدريه(١٣) •

قال البحتري : قال لي المتوكل على الله : قل في شعرا وفي الفتح ، فاني أحب أن يحيا معي ولا افتقده فيـــذهب عيشي ولا يفتقدني فيذل • فقلت(١٤) :

سـيدي انت كيف اخلفت وعـــدي
وتثــــاقلت عن وفاء بعهــــدي

لا ارتني الأيام فقدك يا فـــــــــ
ـتح ولا عرفتك مـــا عشت فقـدي

اعظــــم الرزء ان تقـــــدم قبلي
ومن الرزء ان تؤخـــــر بعـــدي

حسدا أن تكــون الفا لغـــيري
اذ تفـــردت بالهـــوى قبل وحدي

وقال البحتري : قد كنت عملت هذه الابيات في غلام كنت اكلف به ، فلما أمرني المتوكل بما أمر تنحيت فقلت الابيات واريته انني

---

(١٣) تاريخ الخلفاء/٣٥٣ •

(١٤) معجم الادباء ٦/١٢٠ ، وفوات الوفيات ٢/٢٤٧ ، وجاء في عجز البيت الاخير (نيل) بدلا من (قيل) •

عملتها في وقتي ، وما غيرت فيها الا لفظة واحدة ، فانني قد قلت : لا ارتني الايام فقدك ما عشت ، فجعلتها يا فتح ٠

وبلغ من وفاء الفتح بن خاقان للمتوكل على الله انه رمى بنفسه عليه لما أغتالوه ليحميه من ضربات السيوف فقتل معه(١٥) ٠

وكان من خاصة المتوكل على الله علي بن يحى بن أبي منصور المنجم ، وكان أديبا راوية للاشمار والاخبار ، وشاعرا محسنا ، اخذ الأدب وصنعة الفناء عن اسـحاق الموصلي(١٦) ٠ وكان قد اتصل بالفتح بن خاقان وعاونه في تأسيس خزانة كتبه ٠ كما كانت لعلي نفسه خزانة كتب عامة ذكرنا عنها في موضوع دور الكتب ٠ وله عدد من التصانيف ، منها كتاب الشـعراء القدماء والاسلاميين ، وكتاب اخبار اسحاق بن ابراهيم ، وكتاب فن الطبيخ(١٧) ٠ وقد قرب المتوكل على الله عليا اليه ، وكان قد قدمه اليه الفتح بن خاقان، فاغدق عليه الهبات واجزل له الارزاق . حتى قال علي : احصيت ما وصل الي من أمير المؤمنين المتوكل على الله من رزق وصلة ، فكان مبلغه ثلاثمائة ألف دينار(١٨) ٠

وممن نادم المتوكل على الله أبو عبدالله أحمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن حمدون ، وكان اديبا شاعرا ومن شيوخ اللغة وقد درس عليه العالم اللغوي ثعلب ٠ غضب عليه المتوكل على الله مرة فنفاه الى تكريت ، ثم بعث من قطع اذنه(١٩) ، ولكنه ما لبث ان اعاده الى مجلسه ٠ ولما رضي عنه وهبه جارية يقال لها صاحب ، وكانت حسنة كاملة الأدب ، الا ان احد الخدم صدع ثنيتها فاسودت فشانها

---

(١٥) الطبري ٩/٢٢٧ ، ومروج الذهب ٤/١٢١ ٠
(١٦) الفهرست/٢١١ ، وتاريخ بغداد ٢/١٢١ــ١٢٢ ٠
(١٧) الفهرست/٢١١ ٠
(١٨) معجم الادباء ٥/٤٦٥ ٠
(١٩) الديارات ٦ــ٧ ٠

ذلك عند المتوكل على الله ، فارسلها اليه وحمل معها كل ما كان لها ، وكان شيئا كثيرا(٢٠) ٠

ونادم المتوكل على الله كذلك الأديب الاخباري أبو العيناء محمد بن القاسم خلاد ٠ وكان قد نشـــأ بالبصرة فطلب الحديث ودرس الادب على علمائهـــا ٠ وكان من احفظ النـــاس وافصحهم لسانا واسرعهم جوابا واحضرهم نـادرة ، وكف بصره وقد بلغ اربعين سنة(٢١) ٠ وكان يحضر مجلس الخليفة وقلما غاب عنه ، وقد روي عنه انه قال : قال لي المتوكل على الله قد اردتك لمجالستي ٠ فقلت : لا أطيق ذلك ، وما أقول هذا جهلا بما لي في هذا المجلس من الشرف، ولكني رجل محجوب ، والمحجوب تختلف اشارته ويخفى عليه ايماؤه، ويجوز علي ان اتكلم بكلام غضبان ووجهك راض ، وبكلام راض ووجهك غضبان ، ومتى لم أميز هذين هلكت ٠ فقال : صدقت ولكن تلزمنا ٠ فقلت : لزوم الفـــرض الواجب ، فوصلني بعشرة آلاف درهم(٢٢) ٠

وعرضت جارية على المتوكل على الله ، فقال لأبي العيناء : هذه عرضت علي انها شاعرة ، فقل شيئا لتجيزه ٠ فقال أبو العيناء : أحمدالله كثيرا ٠ فقالت الجارية : حين انشاك ضريرا ٠ قال : يا أمير المؤمنين قد احسنت في اساءتها(٢٣) ٠

وقال المتوكل على الله لأبي العيناء وقد دخل اليه : يا محمد ما بقي في المجلس أحد الا اغتابك غيري ٠ فاجاب قائلا(٢٤) :

اذا رضيت عني كرام عشيرتي
فلازال غضبانا علي لئامهـــا

---

(٢٠) الديارات/٩ ٠
(٢١) تاريخ بغداد ٣/١٧٠ ٠
(٢٢) نفس المصدر ٣/١٧٤ ٠
(٢٣) البصائر والزخائر ٢/٢٦٥ ٠
(٢٤) الديارات/٩١ ٠

وقال له مرة : يا محمد الى كم تمدح الناس وتذمهم ؟ قال : ما اساءوا واحسنوا[٢٥] •

وكان ممن يحضر مجلس المتوكل على الله أيضا حسن بن موسى النصبي البغدادي الأديب المتوفى سنة ٢٥٠هـ ، وقد صنف عددا من كتب الغناء والمغنين ، منها «كتاب الاغاني في أسماء المغنين والمغنيات» وقد الفه للخليفة المتوكل على الله ، وكتاب الاغاني على حروف المعجم ، وكتاب مجردات المغنيات[٢٦] •

ذكرنا جانبا من ندماء المتوكل على الله ممن كانوا يحضرون مجالسه الادبية ، أو للشعر والسماع • على انه كان له الى جانب ذلك ندماء يحيا معهم حياة لهو ومجون وعبث ، وعندما يكون معهم يطلق لنفسه العنان • وقد اشتهر من هؤلاء أبو العبر ، وهو أبو العباس محمد بن احمد العباسي ، كان أديبا شاعرا يحضر مجالس الخلفاء منذ أيام الخليفة محمد الأمين ، فمال في أيام المتوكل على الله الى العبث والمجون لأنه رأى ان شعره لا ينفق بوجود البحتري وأمثاله ، ورأى الحماقة انفق ، وانفع له فاخذ في الحمق والمجون في الشعر والكلام[٢٧] • وكسب بالحمق والمجون اضعاف ما كسبه كل شاعر كان في أيامه بالجد ، وحصل من المتوكل على الله على أموال جليلة[٢٨] • وكان المتوكل على الله يرمي بأبي العبر في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير ، فاذا علا في الهواء صاح : الطريق ، الطريق ، ثم يقع في الماء ، فيخرجه السباحون • أو يجلسه على زلاقة فينحدر فيها

---

(٢٥) نفس المصدر/٨١ •

(٢٦) الفهرست/٢١٤ ، وهدية العارفين ١/٢٦٣ ومعجم الادباء ٣/٥ ، وجاء اسمه فيهما حبيش بن موسى الضبي •

(٢٧) تاريخ بغداد ٥/٤٠ ، وطبقات الشعراء/٢٤٢-٢٤٣ •

(٢٨) الاغاني ٢٣/١٩٧ •

حتى يقع في البركة ثم يطرح الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك ·
وفي ذلك يقول أبو العبر في بعض حماقاته(٢٩) :

ويأمـــــر بي الملـــــك
فيطـــــرحني في البـــــرك

ويصطـــــادني بالشـــــبك
كأني من الســـــــمك

وقد نحا نحو أبي العبر نديـــم آخر للمتوكل على الله هو أبو العجل الذي كان من آدب الناس واحكمهم واكملهـــم عقلا ، عالما بالنحو والشعر ، عارفـــا بايام الناس واخبارهم ، وكان مـــع هذا مقترا عليه · فلما رأى ذلك تحامق وتجاهل ، وهو الذي يقول(٣٠) :

أيا عاذلي في الحمق دعني من العذل
فاني رخي البـــال من كثرة الشغل

فاصبحت في الحمقى أميرا مؤمـــرا
وما أحـــد في الناس يمكنه عـــزلي

وصـــير لي حمقي بغالا وغلمـــة
وكنت زمـــان العقل ممتطيـــا رجلي

ولما صار المتوكل على الله الى دمشق تلقاه أبو العجل راكبا على قصبة وفي احدى رجليه خف وفي الاخرى نعل ، وعليه دراعة وعلى رأسه قلنسوة · فنظر اليه المتوكل على الله فتبسم وقال : ويحك جننت بعدنا · فانشأ يقول(٣١) :

شهشـــه على العقلـــل
مـــا هو من شـــكللي

---

(٢٩) نفس المصدر ٢٣/٢٠١ ·
(٣٠) طبقات الشعراء/٣٤١ ·
(٣١) نفس المصدر/٤٥٣ ·

صـــــاحبه مفلـــــولس
قليـــــل ذى الحيلــــــل

قـــــد اســــترحت من
اللـــــوام والعذلــــــل

فما ابـــــالي مـــــا الذي
قلت ومــــــا قيـــــل لي

وحمقي قد صير ذا العـــــا
لــــم خـــــــولا للي

آمـــــل ان يحمــــــلني
حمــــــقي على بغـــــل

من عنـــــد ذا الســـــيد
والمنعـــــم المفضـــــل

أمـــــير دين المـــــؤ
منين المتـــــــوكل للي

فاستفرغ المتوكل على الله ضحكا وامر له بخلعة وحمله ، ووصلة بعشرة آلاف درهم ٠

وثمة نديم آخر للمتوكل على الله غلب عليـــه خبث اللسان والهزل هو محمد بن اسحاق الصميري الملقب بأبي العنبس ، وقد هاجى أكثر شعراء زمانه(٣٢) ٠ كان قاضيا في الصميرة فنسب اليها ٠ وكان مع استعماله الهزل عارفا باحكام النجوم وله فيه كتاب يمدحه المنجمون ٠ وعدد لـــه ابن النديم عددا من الكتب في مواضـــيع مختلفة(٣٣) ٠ وللصميري مع البحتري خـــبر طريف ماجن بين يدي المتوكل على الله ٠ اذ كان البحتري يوما ينشد المتوكل على الله قوله :

---

(٣٢) تاريخ بغداد ٢٣٨/١ ٠

عن أي ثغـــر تبتســـم

وبـــأي طرف تحتكـــم

وكان من عادة البحتري اذا انشد تشدن وتزاور في مشيه مرة جائيا ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، ومنكبه اخرى ، ويشير بكمه ويقول احسنت والله لا يحسن احـــد ان يقول مثله • فضجر الخليفة من ذلك وقال للصميري ، اهجه على نفس الروي ، فقال أبو العنبس ارتجالا :

في أي ســـلح ترتـــطم

وبـــأي كف تلتقـــم

ادخلت رأسك في الحـــرم

وعلمت انـــك تنهـــزم

فغضب البحتري وخرج • الا ان المتوكل على الله ضحك كثيرا وأمر لأبي العنبس بعشرة آلاف درهم(٣٤) •

ويظهر من رواية أبي الفرج ان البحتري عزم اثر هذه الحادثة على الخروج الى منبج بغير اذن الخليفة ، اذ رأى ان العلم ضاع وان الأدب هلك • فنصحه أحد أخوانه الا يفعل من هذا شيئا لأن الملوك تمزح باعظم مما جرى ، واخذه الى الفتح بن خاقان ، فشكا البحتري اليه ، فقال له نحوا من ذلك وخلع عليه فسكن الى ذلك(٣٥) •

وكان المتـــوكل على الله أظهر في مجالســـه اللعب والمضاحك والهزل • فاحضر أصـــحاب الســـماجة ـ الممثلون الهزليـــون ـ واستأنس بحركاتهم • ويقول المسعودي لم يكن احد ممن سبقه من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل ، فانه

---

(٣٣) الفهرست/٢٢٢ـ٢٢٣ •

(٣٤) معجم الادباء ٦/٤٠٤ـ٤٠٦ •

(٣٥) الاغاني ٢١/٥٣ •

السابق الى ذلك ، واتبعه وزراؤه والمتقدمون من كتابه وقواده في الطرب والمجون(٣٦) • دخل اسحاق بن ابراهيم صاحب الشرطة يوما على المتوكل على‌الله والسماجة بين يديه ، وقد قربوا منه للقط الدراهم التي ينثرها عليهم • فلما رأى اسحاق ذلك ولى مغضبا • ولما سأله المتوكل على‌الله عما اغضبه ، قال : عساك تتوهم ان هذا الملك ليس له من الأعداء مثل ما له من الأولياء ، تجلس في مجلس يبتذلك فيه مثل هؤلاء الكلاب يتجذبون ذيلك وكل واحد منهم متنكر بصورة منكرة ، فما يؤمن ان يكون فيهم من احتسب نفسه ديانة أو نية فاسدة وطوية ردية . فيثب بك • فقال له : لا تغضب . فوالله لا تراني على مثلها أبدا • وبني للخليفة بعد ذلك مجلس مشرف ينظر منه الى السماجة وحركاتهم(٣٧) •

٢ ـ من مجالسه الأدبية :

كان المتوكل على‌الله يجلس في بعض الأحيان الى ندمائه وجلسائه من أهل الأدب، ليستمع الى اخبار الاولين وبخاصة الخلفاء السابقين، والى بعض الطرف والمناظرات الأدبية أو اللغوية والنحوية • وقد ورد ذكر الخليفة المأمون في أحد المجالس ، اذ ذكر القاضي يحيى بن اكثم فضائله ووصف علمه ومعرفته ونباهته • فسأله المتوكل على الله : كيف كان يقول في القرآن ؟ قال يحيى : كان يقول ما مع القرآن حاجة الى علم فرض ، ولا مع سنة الرسول صلى‌الله عليه وسلم وحشة الى فعل أحد ، ولا مع البيان والأفهام حجة لتعليم ، ولا بعد الجحود للبرهان والحق الا السيف لظهور الحجة • فقال المتوكل على‌الله : لم ارد منك ما ذهبت اليه من هذا المعنى • قال يحيى : القول بالمحاسن في المغيب فريضة على ذى النعمة • قال لـــه : فما كان يقول خلال

---

(٣٦) مروج الذهب ٤/٨٦ •

(٣٧) الديارات/٣٩ـ٤٠ •

حديثه ؟ فان المعتصم بالله كان يقول وقد انسيته • فقال يحيى : كان يقول : اللهم اني أحمدك على النعـــم التي لا يحصيها أحد غيرك ، واستغفرك من الذنوب التي لا يحيط بها الا عفوك • قال : فماذا كان يقول اذا استحسن شيئا أو يشر بشيء ؟ قال يحيى : كان يقول : ان ذكر الاء الله ونشرها وتعداد نعمه والحديث بها فرض من الله على اهلها ، وطاعة لأمره فيها ، وشكر له عليها ، فالحمد لله العظيم الآلاء السابغ النعماء بما هو اهله • فقال المتوكل على الله : صدقت هذا هو الكلام بعينه ، وهذا كله حكم ذى حنكة وعلم(٣٨) •

وكان المتوكل على الله معجبا بالامام محمد بن ادريس الشافعي وكان يتمنى لو انه ادرك ايامه ليتعلم منه • وسمع عنه انه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنـــام وهو يقول : يا أيها الناس ان محمد بن ادريس المطلبي قد صار الى رحمة الله وخلف فيكم علما حسنا فاتبعوه تهدوا • ثم قال المتـــوكل على الله : اللهم ارحم محمد بن ادريس رحمة واسعة ، وسهل علي حفظ مذهبه وانفعني بذلك • ويقول السيوطي : استفدنا من هذا ان المتوكل كان متمذهبا مذهب الشافعي ، وهو أول من تمذهب من الخلفاء(٣٩) •

وذكر العالم النحوي أبو عثمان بكر بن محمد المازني للمتوكل على الله ، وكان أخوه الواثق بـــالله معجبا بعلمه وقد اكرمه كثيرا ، فأمر بأشخاصه من البصرة الى سامرا • يقول المازني : لما دخلت اليه رأيت من العدد والسلاح والاتراك ما راعني ، والفتح بن خاقان بين يديه • وخشيت ان سئلت عن مسألة الا أجيب فيها • فلما مثلت بين يديه وسلمت قلت : يا أمير المؤمنين أقول كما قال الاعرابي :

لا تقلواهـــا وادلواها دلـــوا
ان مع اليوم أخاه غدوا(٤٠)

---

(٣٨) الطبري ٩/٢٣٣ •
(٣٩) تاريخ الخلفاء/٣٥٢ •
(٤٠) القلو : السير العنيف ، والدلو السير الرفيق •

فلم يفهم عني ما اردت ، واستبردت فأخرجت • ثم دعاني بعد ذلك وطلب الي ان أنشده أحسن مرثية قالت العرب ، فانشدته قول ابي ذؤيب :

أمن المنون وريبها تتوجع ••

وقصيدة متمم بن نويرة : لعمري وما دهري بتأبين هالك ••

وقول كعب الغنوي : تقول سليمى ما بجسمك شاحبا ••

وقصيدة محمد بن مناذر : كل حي لاقى الحمام فمودى ••

وكلما انشدته قصيدة يقول ليست بشيء • ثم قال : من شاعركم اليوم بالبصرة ؟ قلت : عبدالصمد المعذل • قال : فانشدني له • فانشدته أبياتا قالها في القاضي ابن رباح ، وهي :

يا قاضية البصرة
قومي فارقصي قطرة

وقومي بروشنك
فماذا البرد والفترة

أراك قد تثيرين
عجاج القصف ياحسرة

بتحذيفك خديك
وتجعيدك للطرة

فاستحسنها واستطار لها ، وأمر لي بجائزة • فجعلت أحفظ أمثالها فانشده اذا وصلت اليه فيوصلني(٤١) •

قال المبرد : حين فارقت البصرة واصعدت الى سامرا وردتها في أيام المتوكل على الله - فاتصلت ببنـدار بن عبدالحميد الكرخي ،

---

(٤١) معجم الادباء ٢/٣٨٦-٣٨٧ •

وكان واحد زمانه في رواية شعر العرب ، واصح الناس معرفة باللغة • وله في كل أسبوع يوم يحضر فيه مجلس المتوكل على الله • فرفع امري الى الفتح بن خاقان فوصفني للمتوكل على الله فأمر باحضاري الى مجلسه • وكان المتوكل على الله تعجبه الاخبار ، ويروي صدرا منها يمتحن بها من يراه بما يقع فيها من غريب اللغة • فلما دنوت من طرف بساطه استدناني حتى صرت الى جانب بندار • فاقبل علينا وقال : يا بندار ويا ابن يزيد ما معنى هذه الاحرف التي جاءت في هذا الخبر «ركبت الدجوجي وامامي قبيلة فنزلت ثم شربت الصباح فمررت وليس أمامي الا نجيم فرقصت أمامي فمنحت النحوص الخ ••» ؟ فبقيت متحيرا • فقال بندار : يا أمير المؤمنين في هذا نظر وروية • قال : اجلتكما الى الغد فانصرفا وباكراني غدا • فخرجنا من عنده ، فقال بندار : ان ساعدك الجد ظفر بهذا الخبر فاطلب فاني طالبة • فانقلبت الى منزلي وقلبت الدفاتر ظهرا لبطن حتى وقفت على هذا الخبر في اثناء اخبار الاعراب فحفظته • وباكرت بندار فانهضته معي وذهبنا الى مجلس المتوكل على الله • فرويت الخبر ثم فسرت الفاظه • فالتفت الى بندار وقال : ابن يزيد فوق ما وصفتم ، وامر باحضار الخازن ، وامره بأن يقول للحاجب يسهل دخولي عليه(٤٢) •

واعتاد المتوكل على الله ان يتخير لتأديب ولده مشاهير رجال اللغة والادب • فقد اختار لتأديب ابنه طلحة الملقب بالموفق عالم الأنساب والاخبار الزبير بن بكار • ولما ارسل يطلبه أمر له بعشرة آلاف درهم ، وعشرة تخوت من الثياب ، وعشرة بغال يحمل عليها رحله الى سامراء(٤٣) •

وطلب مرة الى قائده ايتاخ ان يتخذ بعض المؤدبين لولده • فأمر ايتاخ كاتبه سليمان بن وهب ان يتولى ذلك • فبعث سليمان

(٤٢) نفس المصدر ٢/٣٩١_٣٩٢ •

(٤٣) نشوار المحاضرة ٤/٢٧٧_٢٧٨ •

الى عدد من أدباء العصر فاحضرهم مجلسه • فجاء أبو جعفر النحوي أحمد بن عبيدالله بن ناصح ويعرف بابي عصيـــدة ، وابن قادم والأحمر وغيرهم • فقعد ابو عصيدة في آخر الناس • فلما اجتمعوا قال لهم سليمان بن وهب : لو تذاكرتم وقفنا على موضعكم من العلم واخترنا • فالقوا بينهم بيت ابن عنقاء الفزارى :

ذريني انما خطـــاي وصوتي
علي وانمـــا انفقت مـــال(٤٤)

فقالوا : أترفع مال بانما اذا كانت بمعنى الذي ، ثم سكتوا • فقال احمد بن عبيد : هذا الاعراب ، فمـــا المعنى ؟ فاحجموا عن القول • فقيل له : فما المعنى عندك ؟ قال : اراد مالومك اياي انما انفقت مالا وليس عرضا والمال لا الام عليه • فجاءه خادم من صدر المجلس فاخذ بيـــده حتى تخطى به الى أعلاه ، وقـــال ليس هذا موضعك • فقال : لأن أكون في مجلس أرفع منه الى اعلاه أحب الي من ان أكون في مجلس أحط عنه • فاختير هو وابن قادم(٤٥) •

٣ ـ المتوكل علىالله والشعراء :

كان المتوكل علىالله يحب سماع الشعر كثيرا ولاسيما اذا كان في مدحه ومدح أولاده ، ويجزل العطاء لمن يمدحه من الشعراء • وقد اتصل به من الشعراء الذين كانوا على أيامه عدد من كبارهم وعلى رأسهم البحتري وعلي بن الجهم ومـــروان بن ابي الجنوب ، واخرون غيرهم • ويظهر انه كان يعجبه ان يقول الشعر في بعض المناسبات ولكنه لم يحسن ذلك • قال جعفر بن عبدالواحد الهاشمي :

---

(٤٤) جاء البيت في نزهة الالباء/١٢٧ :
ذريني انما خطاي وصوبي — علي وان ما انفقت مال
وانه لابي غلفاء •

(٤٥) معجم الادباء ١/٢٢١ـ٢٢٢ •

دخلت على المتوكل على الله لما توفيت امه ، فقال لي : يا جعفر ربما قلت البيت الواحد فاذا جاوزته خلطت ، وقد قلت(٤٦) :

تذكرت لما فرق الدهر بيننـــا
فعـــزيت نفسي بالنبي محمد

فاجازه بعض من حضر المجلس بقوله :

وقلت لها : ان المنايـــا سبيلنا
فمن لم يمت في يومه مات في غد

وكان أبو عبادة الوليد الطائي البحتري عند قدومه الى سامرا اتصل بالفتح بن خاقان ومدحه واهداه كتاب الحماسة الذي صنفه • وقدمه الفتح الى الخليفة المتوكل على الله فاعجب بشعره وجعله من ندمائه واغدق عليه • فكرس البحتـــري شعره له ولولده ورجال دولته ، بحيث أصبح شاعر بلاط سامرا • واقام في سامرا في رعاية المتوكل على الله ومن جاء بعده من الخلفاء • ومن أوائل القصائد التي مدح بها المتوكل على الله تلك التي قالها عندما الغى الخليفة القول بخلق القرآن ، منها قوله(٤٧) :

أمير المؤمنـــين لقد ســـكنا
الى أيامـــك الغر الحســـان

رددت الدين فذا بعد ما قـــد
اراه فرقتـــين تخاصـــمان

قصمت الظالمـين بكـــل ارض
فاضحى الظلم مجهـول المـكان

---

(٤٦) تاريخ الخلفاء/٣٥٢ ، وبدائع البدائه/٦ وجـاء فيه صدر البيت الثاني : وقلت لها : ان المنايا ••

(٤٧) القصيدة في ديوان البحتري ٤/ ٢٢٩٠-٢٢٩٢ •

وفي سـنة رمت متجبريهم
على قـدر بداهية عـوان

فمـا أبقت من « ابن دؤاد »
سوى جسد يخاطب بالمعـاني

ومدحه بقصيدة من غرر شعره وصف بها خروجه الى الصلاة يوم العيد ، ومطلعها[48] :

أخفي هوى لك في الضلوع واظهـر
وألام في كمد عليـك واعـذر

ويقول فيها :

الله مكن للخليفـة «جعفـر»
ملكا يحسنه الخليفة « جعفـر »

نعمى من الله اصطفـاه بفضلها
والله يـرزق من يشـاء ويقدر

فاسلم ، أمير المؤمنـين ، ولا تزل
تعطى الزيادة في البقاء وتشـكر

عمت فواضـلك البريـة فالتقى
فيها المقـل على الغنى والمكثـر

بالبـر صمت وانت افضـل صائم
وبسـنة الله الرضـية تفطر

فانعم بيوم الفطـر عينا ، انـه
يوم أغـر من الزمان مشـهر

أظهرت عز الملـك فيه بجحفـل
لجب يحـاط الدين فيـه وينصر

---

(48) القصيدة في ديوان البحتري ٢/١٠٧٠-١٠٧٣ .

وعندما قتل المتوكل على الله رثـــاه بقصيدة طويلة وصديقه الفتح بن خاقان ، جاء في آخرها قوله(٤٩) :

صريع تقاضاه السيوف حشاشـة
يجود بهـــا والموت حمر اظافـــره

أدافع عنه باليدين ، ولـــم يكن
ليثني الاعادي اعزل الليـــل حاسره

ولو كان سيفي ساعة القتـل في يدي
درى القاتل العجـلان كيف أساوره

حــــرام علي الراح بعــــد أو أرى
دما بدم يجـري على الارض مائره

وهل يـرتجى ان يطلب الدم واتر
يد الدهر ، والموتور بالـدم واتره

أكان ولي العهــد أضمر غــدرة
فمن عجب ان ولي العهـد غــادره

فلا ملي الباقي تـــراث الذي مضى
ولا حملت ذاك الدعـــاء منابـــره

أما الشاعر ابو الحسن علي بن الجهم بن بدر السامي فقد قربه المتوكل على الله واتخذه نديما • وقـــد مدحه ابن الجهم بعديد من القصائد ، منها تلـك التي استبشر بها بتوليه الخلافـــة ، وفيها يقول(٥٠) :

قالوا أتـــاك الأمل الأكبـــر
وفاز بالملـك الفتى الأزهـــر

---

(٤٩) القصيدة في ديوان البحتري ٢/١٠٤٥ـ١٠٤٩ •
(٥٠) القصيدة في ديوان علي بن الجهم/٢٦ـ٢٧ •

واكتست الدنيـــا جمالا به
فقلت قد قـــام اذا « جعفر »

ذاك الذي كانت الى ملكـــه
أبصارنا طافحـــة تنظـــر

الآن فليهن لذيـــذ الكـــرى
من كان تأميـــلا له يســـهر

يا دارت الارض الدنى أصبحت
اقطارها من نـــوره تزهـــر

قد كان مشتاقـــا الى خطبـــة
منك سرير الملـــك والمنبـــر

يا شهر ذى الحجة قـــد اصبحت
تشـــبهك الايـــام والأشـــهر

وعندما قتل المتوكل على الله رثاه متفجعا ، بقصيدة شنع فيها على مغتاليه ، وتعتبر من أطول القصائد التي قالها فيه ، وقد ختمها بقوله(٥١) :

عبيد أمـــير المؤمنين قتلتـــه
واعظم آفات الملـــوك عبيدها

أما والمنايا ما عمرن بمثله الـ
قبور وما ضمت عليه لحودها

أتتنا القوافي صارخات لفقده
مصلمة أرجازهـــا وقصيدها

(٥١) القصيدة في ديوان علي بن الجهم/٥٦ـ٦٤ .

ومن الشعراء الذين اشـــتهروا لتقربهم من الخليفة المتوكل على‌الله مروان بن ابي الجنوب وعندما تولى المتوكل على‌الله الخلافة كان مروان منفيا باليمامة من أيام الواثق بالله ، فبعث الى قاضي القضاة أحمد بن أبي داود بقصيدة مدحه فيها وهجا ابن الزيات ، وكان قد مات في حبس المتوكل على‌الله ، فلما ذكـــره ابن ابي دواد للخليفة أمر بأن يحمل الى سامرا • فقدم مروان على المتوكل على‌الله وانشده قوله(٥٢) :

رحل الشباب وليته لم يرحـل
والشيب حل وليته لـــم يحلل

فلما بلغ الى قوله :

كانت خلافة جعفــــر كنبوة
جاءت بــلا طلب ولا بتمحل

وهب الا له لك الخلافــة مثلما
وهب النبـــوة للنبي المرسل

أمر بخمسين ألف درهم :

ومما مدح به مروان المتوكل على الله قوله(٥٣) :

بدولة جعفر حمـد الزمـــان
لنا بك كـــل يوم مهـــرجان

جعلت هديتي لك فيــه وشيا
وخير الوشي مـا نسج اللسان

ومن الشعراء الآخرين الذين امتدحوا المتوكل على‌الله ابراهيم بن العباس الصولى ، الكاتب الشـــاعر ، وكان يتولى ديوان زمام

---

(٥٢) الاغاني ٢٣/٢١٠ •
(٥٣) العقد الفريد ٦/٢٨٦ •

النفقات في عهد المتوكل على الله(٥٤) • وكان الخليفة معجبا باسلوبه في الكتابة وبمعانيه في الشعر ، فشمله برعايته وجعله من ندمائه •
ومن بديع شعر ابراهيم الصولي في المتوكل على الله ما قاله يوم عقد الخليفة ولاية العهد لأوليائه الثلاثة ، وقد استأذنه في الانشاد فاذن له فقال(٥٥) :

أضحت عرى الاسلام وهي منوطة
بالنصر والاعزاز والتاييد

بخليفة من هاشم وثلاثة
كنفوا الخلافة من ولاة عهود

قمر توافت حوله اقماره
فحففن مطلع سعده بسعوده

رفعتهم الأيام وارتفعوا به
فسعوا باكرم انفس وجدود

فاستحسن المتوكل على الله ذلك منه وأمر له بمائة ألف درهم •
وكان من الشعراء البارزين في ايام المتوكل على الله الشاعر الخليع الحسين بن الضحاك بن ياسر • الا انه كان قد تقدم به العمر وضعف بصره • وكان المتوكل على الله معجبا بشعره ، وقال عنه مرة : هو عندي أشعر أهل زماننا واملحهم مذهبا واظرفهم نمطا(٥٦) • فطلب اليه ان يلازمه وينادمه ، فلم يستطع لكبر سنه • وقد بلغ الحسين ان أحد جلساء الخليفة قال عنه : هو يطيق الذهاب الى القرى والمواخير والسكر فيها ويعجز عن خدمة الخليفة • فرفع الى ابن حمدون نديم الخليفة بابيات وسأله ان يوصلها اليه • فلما أوصلها ابن حمدون قال للخليفة : ان لو أطاق خدمة امير المؤمنين

---

(٥٤) الطبري ٩/١٦٢ •
(٥٥) الاغاني ١٠/٦٤ـ٦٥ •
(٥٦) الاغاني ٧/١٧٠ •

لكان اسعد بها · فقال له الخليفة : صدقت · وامر لابن الضحاك بعشرين ألف درهـم حملها ابن حمدون اليـــه · وكانت الابيات هي[٥٧] :

أمـــا في ثمانـــين وفيتهـــا
عذير وان انـــا لم اعتـــذر

فكيف وقد جزتهـــا صـــاعدا
مع الصاعدين بتسع اخـــر

الى أن يقول :

قـــد بسط الله لي عـــذره
فمن ذا يلـــوم اذا ما عـــذر

واني لفي كنف مغـــــدق
وعـــز بنصر ابي المنـــتصر

يباري الرياح بفصـــل السـما
ح حـــتى تبلـــد او تنحسر

له اكـــد الرحى ميراثـــه
ومن ذا يخـــالف وحي السور

وما للحـــــود واشـــياعه
ومن كذب الحق الا العجـــر

وقال الحسين في رثاء المتوكل على الله[٥٨] :

---

(٥٧) نفس المصدر ٧/٢٢٥ـ٢٢٦ ·

(٥٨) اشعار الخليع/١١٣ ، ومروج الذهب ٤/١٢٤ ، وفيه البيتان الاخيران فقط ، والطبري ٩/٢٣٠ وفيه ان ابا الوارث قاضي نصيبين قال : رايت في النوم اتيا يقول : يا نائم العين الخ ·· مع تغيير في بعض الكلمات ·

يا نائم الليل في جثمان يقظان
ما بال عينك لا تبكي بتهتان

ان الليالي لـم تحسن الى أحد
الا اساءت اليه بعـد احسان

اما رأيت خطوب الدهر ما فعلت
بالهاشمي وبالفتـح بن خاقان

وكانت فضل جارية المتوكل على الله شاعرة ، وقد قالت بعض الشعر فيه • وهي من مولدات البصرة ، كانت حسنة الوجه والقوام، على جانب كبير من الفصاحة وسرعة البديهة ، وقد طبعت على قول الشعر • وقد أهداها الى الخليفة المتوكل على الله أحد أعيان الدولة محمد بن الفرج الرخجي • فلما أدخلت عليه قال لها : أشاعرة انت يا فضل ؟ قالت : كذا يزعم من باعني واشتراني • فضحك وقال : انشدينا شيئا من شعرك ، فقالت على البديهة(٥٩) :

استقبل الملـك أمام الهـدى
عـام ثـلاث وثلاثينـا

خلافـة افضت الى جعفـر
وهو ابن سبع بعـد عشرينا

انا لنرجـو يا امام الهـدى
أن تملـك الناس ثمانينـا

فقال الخليفة للشاعر علي بن الجهم ، وكان حاضرا مجلسه : قل بيتا من الشعر لتجيزه • وكان ذلك امتحانا لها • لأن القدرة على النظم في الحال ، والاجازة ، أي اكمال الشعر الناقص المعنى ، يدل

---

(٥٩) الأغاني ١٩/٣٠٢ ، والمنتظم ٥/٧ ، مع بعض التغيير •

على الموهبة الشعرية وقوة البديهة وسرعة الفهم والاحاطة بالمعنى ·
فقال ابن الجهم(٦٠) :

لاذ بهـا يشـتكي اليهـا
فلم يجـد عندهـا ملاذا

فاطرقت فضل هنيهة ، ثم قالت :

ولم يـزل ضارعـا اليهـا
تهطـل اجفانـه رذاذا

فعاتبـوه فـزاد عشـقا
فمـات وجـدا فكان مـاذا

فطرب المتوكل على الله وقال : احسنت وحياتي يا فضل ، وأمر لها بألفي دينار ·

وكانت فضل تساجل الشعراء والادباء · ومما قالته في المتوكل على الله(٦١) :

قد بـدا شبهك يا مـو
لاي يحـدو بالظـلام

قـم بنـا نقض لبانا
ت اعتنـاق والتثـام

قبـل أن تفضحنا عـو
دة أرواح النيـام

ومما قالته بعد مقتل المتوكل على الله ، وقد سألها أحدهم صبيحة اغتياله عما نزل بهم البارحة ، فقالت وهي تبكي(٦٢) :

---

(٦٠) المنتظم ٥/٧ ، والاغاني ١٩/٣١٢-٣١٣ وفيه ان الخليفة اجازها بمائتي دينار ·
(٦١) الاغاني ١٩/٣٠٧ ، وفوات الوفيات ٢/٢٥٤-٢٥٥ ، مع بعض التغيير ·
(٦٢) الاغاني ١٩/٣١٠ ، والزحل : الثار ·

ان الزمان بزحل كان يطلبنا
ما كان أغفلنا عنـــه واسهانا

مالي وللدهر قد اصبحت همته
مالي وللدهر ما للدهر لاكانا

٤ ـ المتوكل على الله ومجالسه الغنائية :

نهج المتوكل على الله مع المغنين نهج أبيه وأخيه ، فرعى أرباب الموسيقى والغناء واغدق عليهم ، وشجعهم على الارتقاء بهذا الفن الذي تهفو اليه الأرواح وتطيب له النفوس • وقد ألف له حسن بن موسى النصبي كتاب الاغاني ، ذكر فيـــه أشياء لم يذكرها اسحاق الموصلي وعمرو بن بانة في كتابيهما ، وضمنه كل طريف وغريب من الأغاني وأسماء المغنين والمغنيات قبل الاسلام وبعده(٦٣) • وكان جنان ضارب العود وزنام الزامر لا نظـــير لهما في فنهما ، واذا ما اجتمعا على الضرب والزمر احسنا وفتنا واعجبا ، وقد انقطعا الى المتوكل على الله لا يغيبان عن مجلس غنائه ، وكان لا يشرب الا على سماعهما ، وفيهما قال البحتري(٦٤) :

هل العيش الا ماء كـــــرم مصفق
يرقرقـــه في الكأس مـــاء غمـــام

وعود بنـــان حين ساعد شـــدوه
على نغـــم الالحان نـــاي زنام

وكان المتوكل على الله ، رغم سرعـة تبدل مزاجه ، محبا للغناء مشوقا الى ســماعه • ويظهر انه كان يود لو انه يحســـن التلحين والغناء مثل أخيه الواثق بالله ، الا انه لم تكن له تلك القابلية • قال

---

(٦٣) الفهرست/٢١٤ •
(٦٤) ثمار القلوب/١٥٥ •

علي بن الجهم انصرفت ليلة من عند المتوكل على الله ، فلما دخلت منزلي جاءني رسوله يطلبني فراعني ذلك • فرجعت اليه وجلا ، فادخلت عليه وهو في فراشه • فلما رآني ضحك ، فايقنت بالسلامة • فقال : يا علي أنا مذ فارقتك ساهر وقد خطر على قلبي هذا الشعر الذي كان يغني فيه أخي قول الشاعر : قلبي الى ماضرني داعي •• فحرصت أن أعمل مثل هذا فلا يجيئني ، أو أن أعمل مثل اللحن فما أمكنني ، فوجدت في نفسي نتصا • فقلت : يا سيدي كان أخوك خليفة يغني وانت خليفة لا تغني • فقال : قد والله أهديت الى عيني نوما ، اعطوه ألف دينار • فاخذتها وانصرفت(٦٥) •

ودخل المتوكل مرة الى احدى جواريه وهي تغني :

أمن قطر الندى نظمت
ثغرك أم من البرد
وريقك من سلاف الكر
م أم من صفوة الشهد
أيا من قد جرى مني
كمجرى الروح في الجسد
ضميرك شاهدي فيما
أقاسيه من الكمد

فقال لها : ويحك لمن هذا الصوت ؟ قالت : أخذته من مخارق • قال : فالقيه على الجواري جميعا ، ففعلت • فلما اخذته عنها أمر باخراجهن اليه ودعا بالنبيذ وأمر بالا يغنينه غيره ثلاثة أيام متوالية(٦٦) :

وكان اسحاق الموصلي كبير مغني عصره قد كف بصره في أواخر أيام الواثق بالله ، واعتزل في منزله ببغداد ، فطلب المتوكل على الله

---

(٦٥) الاغاني ٨/٣٦٣ •
(٦٦) الاغاني ٨/٣٤٩-٣٥٠ •

احضاره الى سامرا • فلما دخل عليه رحب به واجلسه أمام سريره على مخدة اكراما له وتقديرا لمنزلته • فغناه اسحاق بشعره(٦٧) :

ما علة الشيخ عينـــاه باربعة
تغر ورقان بدمـــع ثم ينسكب

فطرب المتوكل على‌الله وأمر له بمائة ألف درهم •

وخرج المتوكل على‌الله يوما الى رقـــة بوصرا من قرى بغداد ، وكان يستطيبها لكثرة طيورها المفردة ، وكان معه اسحاق الموصلي فغناه :

أأن هتفت ورقاء في رونق الضحى
على فنن غض الشـــباب من الرند

بكيت كما يبكي الحزين صـــبابة
وشـــوقا وتابعت الحنين الى نجـــد

فسر الخليفة وقال له : يا اسحاق هذه اخت فعلتك مع الواثق بالله لما غنيته :

طربت الى الاحيبيـــة الصغار
وذكرني الهوى قـــرب المزار

فكم اعطاك لما اذن لك بالانصراف الى أهلك ؟ قال : مائة ألف درهم • فأمر له بمثلها واذن له بالانصراف • وكان هذا آخر عهده به ، اذ توفي اسحاق بعد ذلك بشهرين • ولما بلغ المتوكل على‌الله خبر نعيه حزن عليه وقال : ذهب صـــدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته •

---

(٦٧) الاغاني ٥/٤١٤ ، ونهاية الارب ٥/٨-٩ وفيه ان الخليفة امر له بمائة ألف دينار •

وكان عبدالله بن العباس الربيعي الشاعر المغني من المقربين الى المتوكل على‌الله وقد بره ووصله كثيرا • قال عبدالله : سمع المتوكل على‌الله لحني في شعري الذي امتدحته فيه(٦٨) :

الا اصبحاني يوم السعانين
من قهوة عتقت بكركين

عند اناس قلبي بهم كلف
وان تولوا دينا غير ديني

قد زين الملك جعفر وحكى
جود ابيه وبأس هارون

وأمن الخائف البرى كما
أخاف أهل الالحاد في الدين

فدعاني ، فلما جلست في مجلس المنادمة طلب الي أن أغنيه هذا الصوت • فغنيته ، فقال لي : يا عبدالله أين غناؤك في الشعر في أيامي هذه من غنائك في :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها
وأدنت على الخدين بردا مهلهلا

ومن غنائك :
أقفر بعد خلة سرف
فالمنحنى فالعقيق فالجرف

ومن سائر صنعتك المتقدمة التي استفرغت محاسنك فيها • فقلت له : يا أمير المؤمنين اني كنت اتغنى في هذه الأصوات ولي شباب وطرب وعشق ، ولورد علي لغنيت مثل ذلك الغناء • فاستحسن قولي وأمر لي بجائزة(٦٩) •

---

(٦٨) الاغاني ١٩/٢٣٦ـ٢٣٧ •
(٦٩) الاغاني ١٩/٢٣٦ـ٢٣٧ •

وغاضبت قبيحة المتوكل على الله وهاجرته • فجلس مجلسا للغناء ، وحضر الجلساء والمغنون وفيهم عبدالله بن العباس الربيعي، وكان قد عرف الخبر فقال هذا الشعر وغنى فيه(٧٠) :

لست مني ولست منك فدعني
وامض عني مصاحبا بسلام

لم تجد علة تجني بها الذنب
فصارت تعتل بالاحلام

فاذا شكوت ما بي قالت
قد رأينا خلاف ذا في المنام

فطرب المتوكل على الله وأمر له بعشرين ألف درهم ، وقال له : ان في حياتك يا عبدالله لأنسا وجمالا وبقاء للمروءة والظرف • وفضله على بقية المغنين عندما غناه ذات يوم :

أحب الينا منك دلا وما يرى
له عند فعلي من ثواب ولا أجر

فطرب وقال له : أحسنت والله يا عبدالله ، أما والله لو رآك الناس كلهم كما أراك لما ذكروا مغنيا سواك أبدا(٧١) •

ودخل عبدالله الى المتوكل على الله في أواخر شعبان ، فانشده :

عللاني نعمتما بمدام
واسقياني من قبل شهر الصيام

حرم الله في الصيام التصابى
فتركناه طاعة للامام

---

(٧٠) نفس المصدر ١٩/٢٣٧-٢٣٨ •
(٧١) نفس المصدر ١٩/٢٥٢ •

أظهر العدل فاستنار بـــه الد
ين واحيــا شرائـــع الاســلام

فأمر المتوكل على الله بالطعام فاحضر ، وبالندماء والجلساء ، فاتى بهم • فاصطبح فغناه عبدالله في هذه الابيات • فأمر له بعشرة آلاف درهم(٧٢) •

وقال عبدالله الربيعي كنت مقيما بسر من رأى وقد ركبني دين ثقيل أكثره عينة وربا ، فقلت في المتوكل على الله :

اسقياني ســـحرا بالكبره
ما قضى الله ففيــه الخيره

أكرم الله الامام المرتضى
وأطــال الله فينا عمـــره

ان اكن أقعدت عنه هكذا
قــدرالله رضــــينا قدره

سره الله وأبقـــاه لنـــا
ألف عــام وكفانا الفجره

وبعثت بالأبيات اليـه ، وكنت مستترا من الغرمــــاء • فقال لعبيدالله بن يحيى : وقع له : من هؤلاء الفجرة الذين استكفيت الله شرهم ؟ فقلت : المعينون الذين قد ركبني لهم أكثر مما اخذت منهم من الدين بالربا • فأمر عبيدالله ان يقضي ديني ، وأن يحتسب لهم رؤوس أموالهم ويسقط الفضل ، وينادى بذلك في سر من رأى حتى لا يقضى أحد أحدا الا رأس ماله • وســـقط عني وعن الناس من الأرباح زهاء مائة ألف دينار ، كانت أبياتي هذه سببها(٧٣) •

---

(٧٢) نفس المصدر ١٩/٢٥٦ •
(٧٣) الاغاني ١٩/٢٥٧ •

ومن المغنـــين المحسنين الذين غنوا للمتـــوكل على‌الله المغني البغدادي الملقب بالمسدود ، لأنه كان مسدود أحد المنخرين ومفتوح الآخر • وقد وهب صوتا شجيا وقـــدرة فائقة على تلحين الأغاني ولاسيما الاهازيج • وكان كثير التباهي على ما وهب من قدرة على التلحين والغناء ، ويقول : لو كان منخـــري الآخر مفتوحا لأذهلت بغنائي أهل الحلوم وذوي الألباب ، وشغلت من سمعه عن أمر دينه ودنياه ومعاشه ومعاده(٧٤) • وكان بالاضافة الى ذلك حاضر النادرة، جريئا في الاجابة ، مما كان يوقعه ببعض المآزق • فقد غضب الواثق بالله عليه لكلمة قالها فيه فأمر بنفيه من سامرا الى عمان • ثم ما لبث أن عفا عنه(٧٥) • ومن أجوبته القاســية انه غنى بين يدي المتوكل على‌الله مرة ، فاسكته وقال لمغن آخر أن يغني ، فقال المسدود : أنا أحتاج الى مستمع • فلم يفطن الخليفة الى ما قال ، والا كان عاقبه على قوله(٧٦) •

وكان المسدود من جملة المغنين الذين غنوا في دعوة اعذار المعتز بن المتوكل على‌الله(٧٧) • ولما طال حبس ابراهيم بن المدبر ، وهو من رؤساء الدواوين في سامرا ، ولم يجد حيلة للخلاص ، عمل أبياتا من الشعر وانفذها الى المسدود وسأله أن يعمل فيهـــا لحنا ويغني بها المتوكل على‌الله ، واذا سأله عن قائلها عرفه انها له • ففعل المسدود ذلك • ولما سأله المتوكل على‌الله • قال : لعبدك ابراهيم بن المدبر ، فذكره المتوكل على‌الله واطلقه من سجنه ، والأبيات هي(٧٨) :

بأبي من بــات عنـــدي
طارقا من غـــير وعـــد

(٧٤) نفس المصدر ٢٠/٢٨٨ •
(٧٥) نفس المصدر ٢٠/٢٨٩ـ٢٩٠ •
(٧٦) نفس المصدر ٢٠/٢٩١ •
(٧٧) الديارات/١٥٤ •
(٧٨) الفرج بعد الشدة ١/١٢٣ •

بات يشكو شدة الشـــو
ق واشكو فـــرط وجدي

وتجني فبـكي فانهـــل
در فــــــوق ورد

فيـــد تحت يـد طـــو
را وخـــد فـــوق خـد

ومن المغنين المشهورين في أيام المتوكل على الله عمرو بن بانة بن سليمان • وبانة اسم أمه وكان ينسب اليها • وأبوه من رجال الدولة وأحد كتابها ، فنشأ هو على حب الشعر والغناء فصار مغنيا مجيدا • وقد وضع كتابــا فن الأغاني والمغنين(٧٩) • وكان منزلـــه ببغداد ويتردد على سامرا •

وقد برع ابن بانة في محاكاة من يأخذ عنهم وتقليدهم • الا انه كان يذهب مذهب ابراهيم بن المهدي في تغيير الاصول(٨٠) • ورغم انه أخذ الغناء عن اسحاق الموصلي فقـــد خالفه في الأداء وتعصب عليه • وقال له مرة في جدل جرى بينهما : ليس مثلي يقاس بمثلك لأنك تعلمت الغناء تكسبا ، وتعلمته انا تطربا ، وكنت أضرب لئلا أتعلمه ، وكنت تضرب حتى تتعلمه(٨١) •

واختص عمرو بن بانة بالمتوكل على الله الذي كان يأنس به في مجالسه الغنائيـــة ، وجعله من ندمائه • وطلب عمرو يومـــا من الخليفة أن يأمر لـــه بدار لضيق منزله • فامر الخليفة وزيـــره عبيدالله بن يحيى بان يبتاع له منزلا يختاره • وكان هذا في أواخر شعبان ، وقد شغل عبيدالله برمضـــان ، فلم يتم شراء المنزل • ولما

---

(٧٩) وفيات الاعيان ١٤٨/٣ •
(٨٠) الاغاني ٢٦٩/١٥ •
(٨١) نفس المصدر ٢٧٠/١٥ •

آهل شوال حضر ابن بانة مجلس المتــوكل على‌الله فغناه من شعره وتلحينه :

ملاك ربي الأعيــاد تخلقهــا
في طول عمر يـــا سيد الناس

دفعت عن منــزل أمرت بـــه
فانني عنــه مباعــد خــاس

فمــــر بتســـليمه الي على
رغم عـدوى بحرمـــة الكاس

أعوذ بـــالله والخليفـــة ان
يرجـــع ما قلتـــه عــن راس

فدعا الخليفة بعبيدالله وعاتبه لعدم ابتياع المنزل الذي أمره به • فاعتذر عبيدالله بدخول الصوم وتشعب الأعمال • فتقدم اليه ان لا يؤخر ابتياع ذلك اليه • فابتاع له دارا في سر من رأى ، وفيها توفى عمرو[٨٢] •

لقد سبقت الاشارة الى المغني أبي حشيشة الذي غنى لخلفاء سامرا • وكان المتـوكل على‌الله يستخفه ويحب غنـــاءه ، وكانت الأصوات التي يشتهيها عليه عديدة منها[٨٣] :

أطعت الهـوى وخلعت العذارا
وباكرت بعــد القراح العقارا

ونازعك الكــأس من هاشــم
كريـــم يحب عليهـــا الوقارا

فتى فـــرق الحمد أموالـــه
يجر القميص ويرخى الازارا

---

(٨٢) نفس المصدر ١٥/٢٧٤ـ٢٧٥•
(٨٣) الأغاني ٢٣/٧٩ـ٨٠ ، ونهاية الارب ٥/٣٧ •

رأى الله جعفـــر خير الأنـــام

فملكـــه ووقـــاه الحـــذارا

وكان عثعث المغني الاسود مملوكا لمحمد بن يحيى بن معاذ فظهر منه جودة طبع وحسن أخذ وأداء . فعلمـــه الغناء وأدبه ، فبرع في صناعته . وصار من المغنين الذين اختص بهم المتوكل على الله . اذ كان أثيرا عنده ، يأكل بين يديه ، ولا يغيب عن مجالسه الغنائية . وكان حاضرا في المجلس الذي قتل فيه المتوكل على الله ، وقد اصابته ضربة في رأسه ، وهو من جملة من يروى عنهم الطبري كيفية قتل المتوكل على الله(٨٤) .

قال عثعث : دخلت يوما على المتـــوكل على الله وهو مصطبح على البركة وابن المارقي يغنيه قوله :

أقاتلتي بالجيد والقـــد والخد

وباللون في وجه أرق من الورد

وقد طرب واستعاد الصوت مرارا وأقبل عليه . فصنعت هزجا في شعر البحتري في وصف البركة :

اذا النجوم تـــراءت في جوانبها

ليلا حسبت ســـماء ركبت فيها

وان علتها الصبا ابدت لها حبكا

مثل الجواشن مصقولا حواشيها

وزادها زينة من بعـــد زينتها

ان اسمه اليوم يدعى من أساميها

ولما سكت ابن المارقي اندفعت بالغنـــاء . فأقبل علي وقال لي : أحسنت وحياتي ، أعد . فاعدت فشرب قدحا . ولم أزل أغنيه

---

(٨٤) الطبري ٩/٢٢٤ـ٢٢٧ .

ويشرب حتى اتكأ ، ثم قال للفتح : بحياتي أدفع اليه الساعة ألف دينار ، وخلعة تامة ، وأحمله على شهري فاره بسرجه • فانصرفته بذلك جميعا(٨٥) •

٥ ـ المتوكل على الله وجواريه المغنيات :

عرف المتوكل على الله بكثرة جواريه ، الا انه اختص ببعضهن ممن امتزن بجمال فائق ، أو أدب بارع ، أو غناء جميل • وكانت محبوبة من جواريه المفضلات لديه • وهي من مولدات البصرة وكانت شاعرة مطبوعة سريعة الخاطر، وجميلة تغني غناء مقبولا • وقد أهداها عبدالله بن طاهر الى الخليفة المتوكل على الله في جملة من الجواري • فصارت أقرب جواريه الى نفسه فكان يجالسها أو يجلسها خلف الستارة اذا جلس مجلس شراب •

قال المتوكل على الله يوما لشاعره علي بن الجهم انه دخل على زوجته قبيحة فوجدها قد كتبت اسمه على خدها بغالية المسك ، وطلب اليه ان يصف ذلك شعرا ، وكانت محبوبة حاضرة • فدعا ابن الجهم بدواة واخذ يفكر فيما يقول • فانبرت تقول على البديهة :

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرا
بنفسي محط المسك من حيث أثرا

لئن كتبت في الخد سطرا بكفها
لقد اودعت قلبي من الحب اسطرا

فيا من لمملوك لملك يمينه
مطيع له فيما أسر وأظهرا

---

(٨٥) الاغاني ١٤/٢١٣ •

ويا من مناهـا في السريرة جعفـــر
سقى الله من سقيا ثنايـــاك جعفرا

فوجم علي بن الجهم لا ينطق بحرف · وأمر المتوكل على الله بان تبعث الابيات الى عريب المغنية لتلحنها حتى يغنى فيها(٨٦) ·

وقال علي بن الجهم : كنت عند المتوكل على الله وهو يشرب ، فدفع الى جاريته محبوبة تفاحة مغلفـــة فقبلتها ، وانصرفت من حضرته · ثم بعثت اليه مع جارية لها رقعة فيها شعر لها في التفاحة المذكورة ، هو :

يا طيب تفاحـــة خلوتُ بهـــا
تشعل نار الهـــوى على كبدي

أبكي اليهـــا واشـــتكي دنفي
ومـــا الاقي من شدة الكمـــد

لـــو ان تفاحـــة بكت لبكت
من رحمتي هـــذه التي بيدي

ان كنت لا ترحمين مـــا لقيت
نفسي من الجهد فارحمي جسدي

فاستظرفها الحاضرون ، وأمر المتوكل على الله أن يغنى في هذا الشعر صوت شرب عليه بقية يومه(٨٧) ·

وغضب المتوكل على الله مـــرة على جاريته محبوبة وهاجرها · فحاولت أن تترضاه فقالت الأبيـــات الاتية واخذت تغنيها وهي في حجرتها(٨٨) :

---

(٨٦) الاغاني ٢٢/٢٠٠_٢٠١ ·
(٨٧) نفس المصدر ٢٢/٢٠١ ·
(٨٨) نفس المصدر ٢٢/٢٠٢ ·

أدور في القصر لا أرى أحـــدا
أشـــكو اليـــه ولا يكلمـــني

حـــتى كأني ركبت معصـــية
ليست لهـــا توبـــة تخلصني

فهل لنـــا شـــافع الى ملـــك
قد زارني في الكرى فصالحني

حتى اذا ما الصباح لاح لنـــا
عـــاد الى هجره فصـــارمني

فلما سمعها المتوكل على الله صالحها ٠

ولما قتل المتوكل على الله حزنت عليه محبوبة حزنا شديدا وقالت فيه مرات عديدة ، منها قولها(٨٩) :

أي عيش يطـــــيب لي
لا أرى فيـــه جعفـــرا

ملكـــا قـــد رآتـــه عيني
قتيـــــلا معفـــــرا

كـــل من كان ذاهيـــا
م وحـــزن فقـــد بـــرا

غـــير محبوبـــــة التي
لو ترى المـــوت يشترى

لأشـــــترته بملكهـــا
كـــل هـــذا لتصبرا

ان مـــــــوت الكئيب
اصـــلح من أن يعمـــرا

---

(٨٩) الاغاني ٢٢/٢٠٢ ٠

ويقال انها غنت القائد وصيف هذا الشعر فاشتد ذلك عليه فامر بقتلها • الا ان القائد بغا استوهبها منه فوهبها له فاعتقها • فخرجت من سامرا الى بغداد ، ثم خمل ذكرها •

وكانت المغنية فريدة أثيرة عند الواثق بالله • فلما مات تزوجها المتوكل على الله • وكان يريدها ان تغنيه فتأبى وفاء للواثق بالله • فاقام يوما على رأسها خادما أمره بضربها أو تغني • فاضطرت على الغناء له ، واندفعت تغني :

مقيم بالمجـــازة من قنـــوني
واهلك بالا جيفـــــر فالثماد

فلا تبعد فكـــل فتى ســـيأتي
عليه الموت يطـــرق أو يغادى

ثم ضربت بالعود الأرض ، ومرت تعـــدو وهي تندب الواثق بالله(٩٠) •

وتجادلت عريب وخشف الواضحية في غناء علية بنت المهدي بحضرة المتوكل على الله • فقالت خشف : ان لها ثلاثة وسبعين صوتا • فقالت عريب : هي اثنان وسبعون صوتا • فقال المتوكل على الله : غنيا غناءها • فغنتاه ولم تزالا تغنيـــان غناءها حتى بلغتا اثنين وسبعين صوتا • وقد انسيت خشف الصـــوت الثالث والسبعين • فاسقط في يدها وتغلبت عريب • فلما كان الليل رأت خشف علية في نومها تقول لها ان الصواب معها وذكرتها بالصوت الذي كانت أنسيت ان تغنيه وهو(٩١) :

بني الحب على الجـــور فلو
انصف المعشوق فيه لسمج

---

(٩٠) نفس المصدر ٤/١١٨ ، والمجاز وقنوني والاجيفر والثماد مواضع في جزيرة العرب •

(٩١) نفس المصدر ١٠/١٧٤ـ١٧٥ •

ليس يستحسن في حــكم الهوى
عاشـــق يحسن تأليف الحجـج

لا تعيبن من محب ذلــــــة
ذلة العاشق مفتـــاح الفــرج

وقليل الحب صرفــا خالصـــا
لك خـــير من كثير قـــد مزج

فبكرت خشف الى المتوكل على الله وذكـرت له القصة ، فقال : رحم الله علية فما تركت طرفها حية وميتـــة • واجاز المغنية خشفا جائزة سنية •

وكان المتوكل على الله يقول : انا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، فكل منا أولى بصاحبه • وحرم الورد على جميع الناس واستبد به ، وقال انه لا يصلح للعامة ، فـــكان الورد لا يرى الا في مجلسه • وكان في أيام الورد يلبس الثياب الموردة ، ويفرش الفرش المورد ، ويورد جميع الآلات • واراد أن يشرب مرة على الورد الا انه لم يكن موسمه • فأمر بان تضرب لــه دراهم رقيقة وزن كل منها حبتان وصبغت بالحمرة والصفرة والسواد ، وترك قسم منها على حالها • وتقدم الى الخدم والحواشي ان يعد كل منهم قباء وقلنسوة على خلاف لون قباء الآخر وقلنسوتـــه ، ففعلوا • ثم عمد في يوم تحركت فيه الريح الى الجلوس فنصبت له قبة واسعة اصطبح فيها مع ندمائه • ولبس الخدم الكسوة التي اعدوها • فأمر المتوكل على الله بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، فنثرت بالتدريج ، فكانت الريح تحملها فتقف بين السماء والارض ، ويكون لها منظرا جميل مبهج • فكان ذلك اليوم من أحسن أيام أنسه وأظرفها •

---

(٩٢) الديارات / ١٦٠ ، والذخائر والتحف/١٢١ــ١٢٢ •



الفصل الرابع

مجالس خلفاء سامرا الآخرين

١ ـ المنتصر بالله والشعر والغناء :

المنتصر بالله والشعراء :

لم يكن المنتصر بالله يحسن قول الشعر ، وما قاله منه على قلته كان ركيكا في تركيبه ، سطحيا في معناه ، ومما ينسب اليه قوله[١] :

متى ترفع الأيام من قد وضعنه
ويـنقاد لي دهـــر علي جموح

أعلل نفسي بالرجـــاء وانني
لأغدو على مـا ساءني واروح

ويظهر من معنى هذين البيتين انه قالهما في أواخر أيام أبيه المتوكل على الله ، عندما أخذ يسيء معاملته ويهينه ويسمعه ما يكره، بحيث بات يتمنى الخلاص منه وان يصير الأمر اليه ٠

وكان يزيد المهلبي أقرب الشعراء الى الخليفة المنتصر بالله ، وهو شاعر مجيـد من بني المهلب بن ابي صفرة ٠ وقـــد صاحب

---

(١) خلاصة الذهب المسبوك/٢٢٧ ٠

المنتصر بالله منذ ان كان أميرا وكان منقطعا اليه • وصادف أن رآه المتوكل على الله عند ابنه وسمع كلامه وشعره فاعجب به واستحسنه وجعله من جلسائه • واراد المنتصر بالله من المهلبي ان يلازمه كما كان ، فلم يقدر على ذلك لملازمته مجلس الخليفة ، فعتب عليه • فلما افضت اليه الخلافة استأذنه المهلبي فحجبه أول الامر ، ثم ما لبث ان اذن له • فدخل عليه وسلم ، فامره بالجلوس • ثم التفت المنتصر بالله الى بنان بن عمرو المغني وكان حاضرا ، وقال له غن :

غدرت ولم أغدر وخنت ولـــم أخن
ورمت بديــــلا ولـــــم اتبـــــدل

وهو شعر من نظم المنتصر بـــــالله نفسه • فغناه بنان ، فعلم المهلبي انه اراده بذلك ، فقال : والله ما اخترت خدمة غيرك ولاصرت اليها الا بعد اذنك • فقال المنتصر بالله : صدقت ، انما قلت هذا مازحا ، أتراني اتجاوز حكم الله عزوجل بقوله «وليس عليكم جناح فيما اخطأتم»(٢) • فاستأذنه المهلبي في الانشاد فاذن له فانشده عدة أبيات منها :

ألا يا قوم قد بــــــرح الخفاء
وبان الصـــــبر مني والعـــزاء

جفاني سيد قــــد كان بــــرا
ولـــم أذنب فما هذا الجفــــاء

حللت بـــــداره وعلمت أني
بــدار لا يخيب بهــــا الرجاء

أمنتصر الخلائف جــــدت فينا
كما جادت على الارض السماء

---

(٢) سورة الاحزاب ، الاية : ٥

وسعت الناس عدلا فاستقاموا
باحكام عليهن الضياء

وليس يفوتنا ما عشت خير
كفانا أن يطول لك البقاء

فاستحسن المنتصر بالله قوله ، وأكد له انه لايزال من ذوي ثقته ، وموضع اختياره ، وطيب نفسه ، ووصله بثلاثة آلاف دينار[٣] .

ولما هناه بتوليه الخلافة بقوله :

ليهنك ملك بالسعادة طائره
موارده محمودة ومصادره

فأنت الذي كنا نرجي فلم نخب
كما يرتجى من واقع الغيث باكره

بمنتصر بالله تمت أمورنا
ومن ينتصر بالله فالله ناصره

أمر المنتصر بالله عريبا المأمونية ان تغني نشيدا في أول الأبيات ، وتجعل البسيط في البيت الأخير ، فعملته وغنته فيه[٤] .

وصلي المنتصر بالله صلاة عيد الأضحى سنة ٢٤٧ هـ ، فانشده يزيد المهلبي عند انصرافه من الصلاة ، قوله :

ما استشرف الناس عيدا مثل عيدهم
مع الامام الذي بالله ينتصر

غدا بجمع كجنح الليل يقدمه
وجه أغر كما يجلو الدجى القمر

---

(٣) الاغاني ٩/٣٠٢-٣٠٣ .
(٤) الاغاني ٩/٣٠٤ .

يؤمهم صـــادع بالحـق أحكمـــه
حزم وعلم بمـــا يأتي وما يـــذر

لو خير الناس فاختـــاروا لأنفسهم
أخط منـــك لما نالوه ما قـــدروا

فأمر له بألف دينار • وطلب من المغني ابن المكي ان يغني هذه الأبيات(٥) •

ومن الأدباء الذين كان المنتصر ينادمهم الأديب الضرير أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد • وقد سأله المنتصر بالله يوما : ما أحسن الجواب ؟ قال : ما اسكت المبطـــل وصير الحق • فقال له : أحسنت والله(٦) •

أما الشاعر البحتري فقد ابتعد عن بلاط المنتصر بالله لانه كان يتهمه بالاشتراك في مؤامرة اغتيال أبيـــه • الا ان سياسة المنتصر بالله الودية تجـاه العلويين جعلت لسان البحتري ينطلـــق بمدحه بقصيدة جاء في أولها قوله(٧) :

حججنا البنيـــة شـكرا لمـــا
حبانـــا بـــه الله في المنتصر

من الحلم عند انتقاض الحلوم
والحزم عند انتقاض المـرر(٨)

تطـول بالعـــدل لمـــا قضى
وأجمـــل في العفو لما قـــدر

---

(٥) نفس المصدر •
(٦) تاريخ بغداد ٣/١٧٧ •
(٧) كامل القصيدة في ديوان البحتري ٢/٨٤٨-٨٥١ •
(٨) المرر جمع مرة • وهي اصالة العقل وقوة الخلق •

ودام على خلـــق واحـــــد
عظيم الغناء جليـــل الخطـر

المنتصر بالله والغناء :

ذكر أبو الفرج الخليفة المنتصر بالله في الفصل الخاص بالمغنين من الخلفاء وأولادهم ، وأورد بعضا من ألحانه ، وقال عنه : انه كان حسن العلم بالغناء سماعا وانشادا ، وقد اولع بذلك منذ ان كان أميرا ، فاذا قال شعرا لحنه وطلب الى المغنين ان يغنوه ، حتى شاعت بعض ألحانه . ومما اشتهر منها :

سقيت كأســـــا كشفت
عن ناظـــري الخمـــرا

فنشــــطني ولقـــــد
كنت حزينـــا خاثـــرا

ورغم ضعف الشـــعر تركيبا ومعنى فقد غني بـــه وتداوله الناس(٩) .

ونسب اليه المسعودي الشعرين التاليين ، وقد غناه بهما بنان بن عمرو المغني في ثاني يوم من العيد الاضحى . وكان المنتصر بالله قد صلي بالناس ، وهما قوله(١٠) :

رأيتك في المنـــام أقل بخـــلا
وأطـــوع منك في غـــير المنام

فليت الصبح بـــاد ولا نراه
وليت الليـــل اخـــر ألف عام

---

(٩) الاغاني ٩/٣٠٠ .
(١٠) مروج الذهب ٤/١٣١-١٣٢ .

ولو ان النعاس يباع بيعـــا
لأغليت النعـاس على الأنـــام

وقوله في نفس المعنى :

اني رأيتك في المنــام كأنما
أعطيتني من ريق فيك البارد

وكأن كفك في يـــدي وكأنما
بتنــا جميعا في لحـــاف واحد

ثم انتبهت ومعصـماك كلاهما
بيدي اليمين وفي يمينك ساعدي

فظللت يومي كله متراقـــدا
لأراك في نومي ولست بـراقد

الا انه عندما استخلف ترك الغناء والتلحين ، ومنع اظهار ما سبق ان صنعه من شعر وألحان ، غير انـــه لم يترك السماع(١١) . فكان كثيرا ما يطلب الى المغنين الذين يرتادون مجلس انسه ولهوه كبنان بن عمرو وعريب المأمونيـــة وابن المكي ، ان يغنوا بعض الاشعار التي تقال فيه ويمتدح بها . كما حدث في الشعر الذي قاله في مدحه الحسين بن الضحاك ويزيد المهلبي .

وقد استدعى المنتصر بالله يوما عبدالله بن العبـــاس المغني الشاعر وطلب اليه ان يصنع لحنا في شعر كان قاله . وكان عبدالله قد اقسم ألا يغني في شعر المنتصر بالله ، فأطرق مليا ، ثم غنى شعرا قاله للوقت ، هو :

يا طيب يـــومي في قراح النرجس
في مجلس مـــا مثلـــه من مجلس

---

(١١) الاغاني ٩/٣٠١ .

تسـقى مشعشعة كأن شـعاعها
نار تشب لبـائس مستقبس

فسمعه المنتصر بالله ولم يصله بشيء[١٢] • ويظهر انه لم يكن مقربا اليه • فقد روى أحمد بن المرزبـان ، صاحب المنتصر بالله ونديمه ، ان عبدالله جاءه مرة يسأله في عرض رقعة له على الخليفة ، فعرضها ، وتردد المنتصر بالله في اجابته الى طلبه ، حتى كلمه ابن المرزبان فيه ، فأمر بقضائها[١٣] •

وغنى بنان بن عمرو بين يديه شعرا لمروان بن أبي حفصة هو:

هل تطمسون من السماء نجومها
بأكفكـم أو تسترون هلالهـا

فقال له المنتصر بالله : اياك ان تغني بحضرتي في هذا الصوت واشباهه ، فما أحب أن أسمع أشعار آل أبي حفصة[١٤] • وحاول مروان ان يترضى المنتصر بالله فاستأذنه للدخول عليه ، فقال : والله لا اذنت للكافر ابن الزانية ، قولوا له لا وصلت الي أبدا • فلما بلغ هذا القول ابن أبي حفصة عمل الشعر الآتي :

لقد طال عهـدي بالامام محمـد
وما كنت أخشى أن يطول به عهدي

فاصبحت ذا بعـد وداري قريبـة
فيا عجبا من قرب داري ومن بعدي

رأيتـك في بـرد النبي محمـد
كبدر الدجى بـين العمامة والبرد

---

(١٢) الاغاني ١٩/٢٣٧ •
(١٣) نفس المصدر •
(١٤) الاغاني ٩/٣٠٥ •

وسأل بنان بن عمرو فصنع فيه لحنا وغنى به المنتصر بالله ، فلما سمعه سأل عن قائلـــه · فقيل له انه لمروان بن أبي حفصة · قال : أما الوصـــول الي فلا سبيل اليه ، ولكن أعطـــوه عشرة آلاف درهم يتحمل بها الى اليمامة(١٥) · فـــكأن ابن أبي حفصة سعى الى حتفه بنفسه ، اذ جعل المنتصر بالله يتذكـــره ويامـــر بنفيـــه الى اليمامة · وكان سبب غضبه عليه ان ابن ابي حفصة كان يتقرب الى المتوكل على الله بما يصنعه من شعر يهجو به آل أبي طالب ، وذلك مالم يكن يرتضيه المنتصر بالله ، مما احفظه عليه ·

وروى عن يزيد المهلبي انه قال : غنى بنان بن عمرو يوما في مجلس المنتصر الصوت الآتي :

يا ربة المنـــــزل بالبرك

وربة السلطان والملـــك

تحرجي بـــالله من قتلنا

لسنا من الديلـم والترك

فضحكت · فقال لي المنتصر بالله : مم ضحكت ؟ قلت : من شرفه قائل هذا الشعر ، وشرف من عمـــل اللحن فيه ، وشرف مستمعه · قال : ومـــاذاك ؟ قلت : الشعر فيه للرشيد ، والغناء لعليـــة بنت المهدي ، وأمـــير المؤمنين مستمعـــه · فاعجبه ذلـــك ، ومازاله يستعيده(١٦) ·

وكان المنتصر بالله يستهتر احيانا في لهوه وعبثه · فقد أراد أن يشرب يوما في الزقاق علانية أمام الناس ، فوافوا من كل جهة ليروه· ثم سار الى شاطىء دجلة وتوقف عنـــده ، فصرف الناس · واختلى بالندماء والمغنين ومن يصلح للأنس والخدمة(١٧) · ولعل ما دفعه الى

---

(١٥) الاغاني ٢٠٥/٢٣ . ومروج الذهب ١٣٠/٤

(١٦) الاغاني ١٦٨/١٠ ·

(١٧) بقية المسامرة في مروج الذهب ١٥٦/٤ـ١٥٨ ·

مثل هذا السلوك ، وهو الشرب واللهو جهارا أمام الناس هو رغبته في التنفيس عما كان يقاسيه من آلام نفسية بسبب شعوره بالذنب من جراء اشتراكه في التآمر على أبيه ٠

٢ ـ المستعين بالله والشعراء والندماء :

كان عهد الخليفة المستعين بالله مفعما بالأحداث ٠ فقد توالت هجمات الروم على الثغور العربية خـــلال السنة الأولى من حكمه ، واشتد الصراع والتنافس بين القواد الأتـــراك انفسهم من جهة ، وبينهم والخليفة من جهة أخرى ، لاسيما عندما قتل القائد اوتامش الموالي للخليفة ٠ وخرج في السنتين التاليتين بعض الزعماء الطالبيين في الكوفة وطبرستان ٠ وعندما قتل القائـــد باغر التركي اشتد الخلاف بين القواد الاتراك ، مما اضطر المستعين بالله على مغادرة العاصمة سامرا والانحـــدار الى بغداد مع مناصريـــه من القواد الاتراك ٠ وتلى ذلك خلعه ومبايعة المعتز بالله بدلا عنه في سامرا ٠ ثم نشوب الحرب بين جيش المعتز بالله وجيش المستعين بالله وانتهائها بتنازل المستعين بالله عن الخلافة ٠

وهكذا كانت المدة التي أمضاها المستعين بالله في الخلافة مليئة بالاضطرابات والحروب ، مما جعله يصرف كـــل وقته وجهوده في مجابهتها ٠ ولم يبق له متسع ليستمع الى المغنين والشعراء ، او يتمتع بمجالسة الندماء ، الا في النزر اليسير ٠

كان المستعين بالله حسن المعرفة بايام العرب واخبارهم ٠ قال أبو البيضاء مولى جعفر الطيار ، وكان من الرواة : وفدنا في أيام المستعين بالله من المدينة الى ســـامرا ، وفينا جماعة من الطالبيين وغيرهم من الانصار ٠ فاقمنا ببابه نحوا من شهر ، ثم وصلنا اليه ٠ وتكلم كل منـــا فانس الخليفة بنا وابتدأ يذكر مـــكة والمدينة واخبارهما ٠ وكنت أعرف الجماعة بمـــا شرع فيه فقلت : أيأذن

أمير المؤمنين في الكلام ؟ قال : ذاك اليك . فشرعت معه فيما قصد اليه . وتسلسل بنا الكلام الى فنون من العلم في اخبار الناس ، ثم انصرفنا . واقيم لنا الانزال والافضال . فلما كان في أول الليل جاءني خادم ومعه عدة من الأتراك والفرسان ، فحملت على جنيبة كانت معهم ، واتي بي الى المستعين بالله . فاذا هو جالس في الجوسق، فقربني وادناني ، ثـــم أخذ بعد ان آنسني ، في اخبـــار العرب وأيامها ، وانتهى بنا الكلام الى اخبار العذريين والمتيمين ، فقال لي : ما عندك من اخبار عروة بن حزام وما كان منه مع عفراء ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ان عروة بن حزام لما انصرف من عند عفراء بنت عقال توفي وجدا بها وصبابة اليها . فمر به ركب فعرفوه . فلما انتهوا الى منزل عفراء صاح صائح منهم :

ألا أيها القصر المغفل أهلـــه
نعينا اليكم عـــروة بن حزام

ففهمت عفراء صوته واشرفت عليه ، وقالت :

ألا أيها الركب المجدون ويحكم
بحق نعيتم عـــروة بن حزام ؟

فاجابها رجل من القوم :

نعم قد تركنـــاه بارض بعيدة
مقيما بهـــا في سبسب وآكام

فقالت لهم :

فان كان حقا ما تقولون فاعلموا
بأن قـــد نعيتم بدر كل ظلام

ثم سالتهم أين دفنوه ، فاخبروها ، فصارت الى قبره فلما رأته نزلت وانسلت اليه فأكبت عليه ، فما راعهم الا صوتها ، فبادروا

اليها فاذا هي ممتدة على القبر وقد ماتت ، فدفنوها الى جانب قبره(١٧) .

وقد مدح البحتري الخليفة المستعين بالله عند توليه الخلافة بقصيدة ذم فيها الوزير أحمد بن الخصيب واستعداه عليه ، منها قوله(١٨) :

ما الغيث يهمي صوب اسباله
والليث يحمي خيس اشباله(١٩)

كالمستعين المستعان الذي
تمت له النعمى بافضاله

تلو رسول الله في هديه
وابن النجوم الزهر من آله

ويحفظ الملك باشرافه
على نواحيه واطلاله

لابن الخصيب الويل كيف انبرى
بافكه المردى وابطاله

كاد امين الله في نفسه
وفي مواليه وفي ماله

ورام في الملك الذي رامه
بغشه فيه وادغاله(٢٠)

فانزل الله به نقمة
غيرت النعمة من حاله

---

(١٨) القصيدة في ديوان البحتري ٣/١٦٣٦–١٦٣٨ .
(١٩) خيس الاسد : عرينه .

ثم يقول :

فغرحة النـــاس بادبـــاره
كغيظهـــم كان باقبالـــــه

يـــا ناصرالدين انتصر موشكا
من كائـــد الدين ومغتالـــه

والرأي كـل الرأي في قتلـــه
بالسيف واستصفاء أموالـــــه

وكان المستعين بالله قد استوزر بعـــد مقتل اوتامش وكاتبه شجاع أبا صالح محمد بن يزداد ، فمدح البحتري الخليفة بقصيدة أثنى فيها على وزيره الجديد بعد أن اشار الى سوء سيرة أوتامش وكاتبه ، منها قوله(٢١) :

لقد سرني أن العواقب روعت
عداكم برأسي تـامش وشجاع

وكان خبيثي ظاهـــر وسريرة
لكم ، وقبيحي رؤيـــة وسماع

أقاما قريني غية وضلالـــــة
وباتا قتيلي غـــرة وضـياع

وقد أمرا بالرشد حينا فعاصيا
وكم آمر بالرشد غـــير مطاع

فقل للامـــام المستعين الذي له
تراث قصي من عـــلا ومساغ

أقم بابن يزداد الامـــور فانه
لها خير وال تصطفيـــه وراع

---

(٢٠) الادغال : ادخال ما يخالف الشيء ويفسده ٠
(٢١) ديوان البحتري ١٢٤٢/٢ ٠

امانة صـدر واضطلاع كناية
وصحة عـزم واتسـاع ذراع

وعندما ترك المستعين بالله حاضرة الخلافة الى بغداد استصحب معه محمد بن الواثق بالله وغفل عن أن يأخـذ معه المعتز والمؤيد ولدي المتوكل على الله • فلما نزل ببغداد علي محمد بن عبدالله بن طاهر خليفته فيها ، قال له محمد : يا أمير المؤمنين اين المعتز والمؤيد؟ قال : بسر من رأى • قال محمد : فجـرى على لساني ان قلت شعر زهير :

أضاعت فلـم تغفر لها غفلاتهـا
فلاقت بيانـا عنـد آخر معهـد

دما حول شلو تحجل الطـير حوله
وبضع لحـام واهـاب مقـدد

ومعنى البيتين : اضاعت البقرة ولدها اذ غفلت عنه بالرعي ، فلم تغفر لها السباع غفلتها وافترست ولدها ، فشهدت دماءه عند آخر موضع فارقته فيه ، ورأت بقية جسده وجلده والطيور تحوم حولها(٢٢) •

كما تنبأ عن مصير المستعين بالله عند شخوصه الى بغداد ، أبو علي أحمد بن الحارث اليمامي ، فقال(٢٣) :

مـازال الا لـزوال ملكـه
وحتفـه من بعـده وهلكـه

ومن الشعراء الذين امتدحوا المستعين بالله محمد بن عبدالله بن داود الهاشمي المعروف باترجة ، فقد قال(٢٤) :

---

(٢٢) الهفوات النادرة/١٩ـ٢٠ •
(٢٣) الطبري ٢٨٢/٩ •
(٢٤) تاريخ بغداد ٨٥/٥ •

غدوت بسعد غرة لـــك باكرة
فلازالت الدنيا بملكك عامـــره

ونال مواليك الغنى بك ما بقوا
وعزوا وعزت دولة لك ناصره

بعثت علينا غيث جود ورحمة
فنلنا بدنيا منك فضـــلا وآخره

فلا خائف الا بسطت امانـــه
ولا معدم الا ســـددت مفاقره

تبين بفضل المستعين ـ بفضله
على غيره ـ نعماء في الناس ظاهره

ويقول الشاعر عندما انشدته الشعر دفع الي خريطة كانت في يده مملوءة دنانير ، ودعا بغالية وجعل يغلفني بيده ·

وكان أهل بغداد قد احبوه ومالوا اليه · وعندما علموا بامر خلعه وثبت العامة بمحمد بن عبدالله بن طاهر وتذمرت عليه(٢٥) · وقال أحد الشعراء البغداديين في خلعـــه شعرا يعكس شعور أهل بغداد نحوه ، اذ يقول(٢٦) :

اني أراك من الفراق جزوعا
أمسى الأمام مســـيرا مخلوعا

وغدا الخليفة أحمـــد بن محمد
بعد الخلافة والبهـــاء خليعا

كانت به الأيام تضـــحك زهرة
وهو الربيع لمـــن أراد ربيعا

---

(٢٥) الطبري ٩/٣٢٨ ·
(٢٦) الطبري ٩/٣٥٠ـ٣٥١ ، ومروج الذهب ٤/١٦٧ ·

فازاله المقـدور من رتب العلا

فثوى بواسط لا يحس رجوعا

وقد اكثر الشعراء القول عندما خلع المستعين بالله نفسه وبايع للمعتز بالله ، وكلها تؤكد ضعفه واستسلامه لتسلط الأتراك ، وتظهر الارتياح لخلافة المعتز بالله . فقد قال البحتري يمتدح الخليفة المعتز بالله ويهجو المستعين بالله عند نفيه الى واسط بعدما اضطر على التنازل عن الخلافة ، منها قوله(٢٧) :

ألا هل اتاها أن مظلمة الدجى

تجلت وأن العيش سهل جانبه

وأنا رددنا المستعار مُذَمَّماً

على أهله، واستأنف الحق صاحبه

عجبت لهذا الدهر أعيت صروفه

وما الدهر الا صرفه وعجائبه

متى أمل الدياك ان تصطفى له

عرى التاج أوتثنى عليه عصائبه

فكيف أدعى حق الخلافة غاصب

حوى دونه ارث النبي أقاربه

بكى المنبر الشرقي اذ خار فوقه

على الناس ثور قد تدلت غباغبه

الى أن يقول :

ولم يكن المعتز بالله اذ سرى

ليعجز و (المعتز بالله) طالبه

(٢٧) ديوان البحتري ١/٢١٣-٢١٨ .

٣ ـ المعتز بالله والشعر والغناء :

بعد ان بويع المعتز بالله بالخلافة دخل في حرب مع المستعين بالله استمرت ما يقرب من السنة • وما أن انتهت الحرب حتى بدأ النزاع بينه وبين القواد الاتراك • وكانت الحرب قد استنزفت مالية الدولة واضعفت اقتصادها ، فلم تعد ايرادات بيت المال تفي بنفقات الجند الأتراك ، مما اثارهم عليه فاشتد صراعهم معه • على ان هذه الظروف العسيرة لم تمنع المعتز بالله من ان يغتنم الفرصة ليجلس الى ندمائه ويستمع الى شيء من الغناء ، والى اشعار بعض الشعراء •

كان للمعتزبالله بعض المعرفة بصنعة الغناء ، وقد ذكر ابو الفرج في الفصل الذي عقده عن اغاني الخلفاء واولادهم ان المعتز بالله لحن الشعر التالي وغناه(٢٨) •

لعمري لقد اصحرت خيلنا
باكناف دجلة للمصعب

فمن يك منا يبت آمنا
ومن يك من غيرنا يهرب

وانه كان ينظم شعرا ويلحنه ، أو يتركه لمغنين آخرين • فقد انشد لنفسه يوما بعض الأبيات ، منها قوله(٢٩) :

اني قمرتك يا سؤلي ويا أملي
أمرا مطاعا بلا مطل ولا علل

---

(٢٨) الاغاني ٩/٣٠٥ ، والشعر لعدي بن الرقاع قاله في الوقعة التي كانت بين الخليفة عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير بطسوج مسكن بالعراق ، وقتل فيها مصعب •

(٢٩) الاغاني ٩/٣١٨ •

حتى متى ياحبيب النفس تمطلني
وقد قمرتك مرات فلم تف لي

وطلب الى عريب المغنية ان تغنيه ، فلحنته وغنته :

وشرب المعتز بالله في مجلس عقده ببستان مملوء من زهر النمام وبينه شقائق النعمان . فدخل اليه يونس بن بغا ، صديقه وألفه ، وعليه قباء أخضر ، فقال(٣٠) :

شبهت حمرة خده في ثوبــــه
بشقائق النعمــان في النمــام

وقال لجلسائه ومغنيه : اجيزوا . فانبرى بنان المغني فقال :

والقد منه اذا بــدا في قرطق
كالغصن في لــين وحسن قوام

فأمره المعتز بالله ان يغني فيه . فصنع فيه لحنا وغناه .

واستدعى المعتز بالله يوما عبيــدالله بن عبدالله ، وطلب اليه المقام عنده بسامرا ، وقال عبيدالله ان المعتز بالله أرسل الى شارية المغنية ان تخرج فتعاللت عليه ، فقال : عندي من يحب ان يسمعك ، واحب لك وله ذلك ، ولابد من حضورك . فخرجت فجلست خلف الستارة ، ثم قالت : لولا الزائر ما جئنا ، ثم غنت الصوت الآتي(٣١):

غشيت المنــازل بالأنعــم
كمنعرج الوشــم في الأعصم

ثم غنت بعده :

لقد راعني للبين صوت حمامة
على غصن بـان جاوبتها حمائم

---

(٣٠) الاغاني ٩/٢١٨-٢١٩ .
(٣١) الديارات/١١٠-١١١ .

فقال لي الخليفة : كيف تسمع ؟ قلت : اسمع شيئا حظ العجب منه أكثر من حد الطرب • فاستحسن هذا الكلام مني • ثم اسمعني زمر زنام الزامر وقد ضعف وارعش وازمنه النقرس • واراني الآلة التي عملها أحمد بن موسى المهندس من صخر يرسل فيها الماء فيسمع له زمر السرناي ، ثم ادخلني الى شباك وأمر أن يجمع بين الفيل والسبع فرأيتهما كيف يتواثبان ، ثم قال لي : أذكر اني اريتك اليوم أربعة أشياء طريفة فايهما أظرف عندك ؟ قلت : غناء شارية • فقال : صدقت •

واصطبح المعتز بالله في أحد الايام واقترح على عريب صوتا فغنته ، فاستحسن غناءها وسر بـه ، فأمر له بثلاثين ألف درهم ، وفرق على الجلساء كلهم الجوائز والخلع والطيب ، وكان الشعر الذي غنته لعلي بن الجهم ، وهو[٣٢] :

العين بعدك لم تنظر الى حسن
والنفس بعدك لم تسكن الى سكن

كأن نفسي اذا ما غبت غائبة
حتى اذا عدت لي عادت الي بدني

وجلس يوما مجلس غناء والجلساء والمغنون حوله ، وقد أعد الخلع والجوائز ، وكان يونس بن بغا بين يديه يسقيه • فدخل بغا واستأذن لأبنه لأن والدته على فراش الموت ، فأذن له فخرج • ففتر المعتز بالله عن السماع ونعس فنام • وقام الجلساء وتفرق المغنون • فلما عاد يونس مساء ورآه المعتز بالله عاد الى الشرب وعاد الندماء والمغنون ، فقال المعتز بالله :

تغيب فلا أفرح
فليتك لا تبرح

---

(٣٢) الاغاني ١٠/٢٢٦-٢٢٧ •

«وان كنت عـــذبتني
بانـــك لا تسـمح

فاصبحت ما بين ذيـــ
ن لي كبـد تجـرح

على ذاك يـا سـيدي
دنــوك لي أصـلح

ثم قال للمغنين غنوة • فجعلوا يفكـرون ، فقال السليمان بن القصار الطنبوري : ويلك الحان الطنبور أصلح وأخف فغن فيه أنت ، فغناه فيه لحنا • فدفع اليه دنانير الخريطة ـ وهي مائة دينار حكية ، ومئتان ، مكتوب على كـل دينار منها «ضرب هذا الدينار بالجوسق لخريطة أمير المؤمنين المعتز بالله»[٣٣] •

وخرج المعتز بالله يوما الى دير مرمار تلبية لدعوة راهب الدير الذي قام بمـا يحتاجه موكب الخليفة ومجلسه • وجـاء بأولاد النصارى فخدموا المجلس أحسن خدمـة • فسر المعتز بالله سرورا عظيما ، ووصل الراهب صلة سنية • ثم اعتاد الخروج الى هذا الدير بين حين وآخر[٣٤] •

كان المعتز بالله يقول الشعر احيانا ، لاسيما في مجالسه الغنائية كما أشرنا آنفا • وعندما تمت له البيعة قال[٣٥] :

توحدني الرحمن بالعز والعلا
فأصبحت فوق العالمـين أميرا

ويقول أبو الفرج ان بنانا المغني أضـاف الى هذا البيت بيتا أخر ، وجعل المخاطبة عن نفسه للمعتز بالله ولحنه وغناه اياه :

---

(٣٣) الاغاني ٩/٢١٩ـ٢٢٠ ، والديارات/١٦٧ـ١٦٨ •
(٣٤) الاغاني ٩/٢٢١ـ٢٢٢ ، والديارات/١٦٥ •
(٣٥) الاغاني ٩/٢٢٢ •

توحدك الرحمن بالعز والعلا

فانت على كــل الأنـــام أمير

تقاتل عنك الترك والخزر كلها

كانهــم أســد لهن زئـــير

ونسب الى المعتز بالله قوله(٣٦) :

يمــوت الفتى من عثرة بلســانه

وليس يموت المرء من عثـرة الرجل

وروى له ابنه عبدالله بن المعتز قوله(٣٧) :

ألا حي الحبيب فدتـــه نفسي

بكأس من مدامـــة خانقينـــا

فاني قد بقيت مـــع الليالي

اقاسي الهـــم في يده سـنينا

ودخل الزبير بن بكار على المعتز بالله ، وهو محموم ، فقال له : اني قلت في ليلتي هـــذه أبياتا وقد اعيا علي اجـــازة بعضها ، وانشد(٣٨) :

اني عرفت علاج الجسم من وجعي

وما عرفت عـــلاج الحب والجزع

جزعت للحب والحمى صبرت لهـــا

اني لأعجب من صبري ومن جزعي

---

(٣٦) تاريخ بغداد ١٢٥/٢ .
(٣٧) الاغاني ٣٢٢/٩ .
(٣٨) بدائع البداتة/١٢٩ ، وجاء بصيغة اخرى في الديارات/١٦٦ . والزبير بن بكار راوية وعالم بانساب العرب واخبارها توفى سنة ٢٥٦ وكان يؤدب الموفق في صغره .

من كان يشغلـــه عن حبه وجـــع
فليس يشغلني عن حبـــكم وجعي

فقال ابن بكار :

وما أمل الحبيب ، ليتني أبدا
مع الحبيب ، ويا ليت الحبيب معي

فأمر له على هذا البيت بألف دينار ٠

وكان جماعة من الشعراء قالوا في المعتز بالله ، حين استقامت له الخلافة ، أقوالا كثيرة ٠ فمن ذلك ما قاله محمد بن مروان بن أبي الجنوب من قصيدة[39] :

قد عادت الدنيا الى حالهـــا
وسرنـــا الله باقبالهـــا

دنيا بـــك الله كفى أهلهـــا
مـــا كان من شـــدة أهوالها

وكان قـــد ملكهـــا جاهـــل
لا تصـــلح الدنيا لجهـــا لها

قد كانت الدنيا بـــه قفلت
فكنت مفتاحـــا لأقفالهـــا

ان التي فـــزت بها دونـــه
عـــادت الى أحسن أحوالهـــا

خلافـــة كنت حقيقـــا بهـــا
فضلـــك الله بسر بالهـــا

(٣٩) الطبري ٩/٣٥١-٣٥٢ ٠
(٤٠) مروج الذهب ٤/١٦٩ ٠

وقال الشاعر أبو علي البصير[40] :

آب أمر الاسلام خير مآبه
وغدا الملك ثابتا في نصابه

مستقرا قراره مطمئنا
آهلا بعد نأيه واغترابه

وقد استدح البحتري الخليفة المعتز بالله كما مدح أباه من قبل بعديد من القصائد قالها في مناسبات مختلفة . فقد مدحه عند انتصاره على المستعين بالله بقصيدة منها قوله[41] :

لقد أعطي المعتز بالله نعمة
من الله جلت أن تحد وتقدرا

تلافى به الورى من عظيمة
أناخت على الاسلام حولا وأشهرا

ومن فتنة شعواء غطى ظلامها
على الافق حتى عاد أقتم أكدرا

الى ان يقول :

أغر من الأملاك اما رأيته
رأيت ابا اسحاق والقرم جعفرا

تقدم في حق الخلافة سهمه
اذا رد عنها غيره فتأخرا

عمرت أمير المؤمنين مسلما
فعمر الندى والجود ان تعمرا

(41) ديوان البحتري ٢/٩٣١-٩٣٤ .

عندما قتل القائد التركي بغا الصغير ، وكان عزم على الوثوب بالخليفة ، قال البحتري قصيدة يشير الى ذلك ، ويهنيء المعتزل بالله بفشل بغا ومؤيديه ، منها(٤٢) :

للدهر عندي منة مشكورة
شفت الذي في الصدر من أوغام

والله ما أسدى مبادئ‍م نعمة
الا تغمد أهلها بتمام

طلب العمامة والقضيب وأين لم
تبلغ حماقة ذلك الحجام

اتراه وهم انه أهل لها
سفها تعدى هذه الاوهام

قد رام تفريق الموالي بعدما
جمعوا على ملك أغر همام

متعزز بالله ، أصبح نعمة
لله سابغة على الاسلام

الى أن يقول :

فاليوم عاودت الخلافة عزها
واضاء وجه الملك بعد ظلام

أضحى بغاء وأقربوه وحزبهم
وكانهم حلم من الأحلام

طاحوا فما بكت العيون عليهم
بدموعها ، ومضوا بغير سلام

(٤٢) ديوان البحتري ٣/٢٠١٩ـ٢٠٢٢ .

وحدث البحتري انه اتفق مع أبي معشر المنجم على زيارة المعتز بالله لما حبسه المستعين بالله ، والتودد اليه أملا في أن يحسن اليهما اذا ما آل الأمر اليه • فتوصلا حتى لقياه في حبسه ، فانشده البحتري أبياتا من الشعر كان قالها في القائد العربي محمد بن يوسف الثغري لما حبس • فاخذ المعتز بالله الرقعة التي بهـــا الابيات ، وطلب الى خادم له ان يحفظها لديه ويذكره بها ان فـــرج الله عنه ليقضي حق الشاعر • وأخذ أبو معشر طالع المعتز وقت عقد له بالعهد ، ووقت مبايعة المستعين بالله ، ونظر في ذلك ، وحكم له بالخلافة بمقتضى الطالع بعد فتنة وحروب ، وان المستعين بالله سيقتل • ولما بويع للمعتز بالله دخـــل اليه البحتري وابو معشر ، فانشـــده البحتري قصيدة مدحه بها وهنأه بالخلافة وهجا المستعين بالله ، منها :

يجانبنـــا في الحب من لا نجانبه
ويبعد عنا في الهوى من نقاربه

وكيف رأيت الحق قـــر قراره
وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه

وهي قصيدة طويلة ذكرنا بعضا آخر من أبياتها في فصل سابق • وقد استعاده المعتز بالله أبياتها مـــرارا فاعادها • ثم دعا بالخادم الذي كان معه في الحبس وطلب الرقعة التي فيها الشعر الذي انشده البحتري في الحبس ، وقال للبحتري انه قد أمر له بألف دينار لكل بيت منها ، ونصحه بأن يشتري بهذا المال ضيعة ينتفع بغلتها وتبقى لولده من بعده • وأمر لأبي معشر بألف دينار ، وجعله رئيس المنجمين في دار الخلافة ، وأجرى له في كل شهر مائة دينار رزقا وثلاثين دينارا نزلا(٤٣) •

---

(٤٣) مفصل القصة في : الفرج بعد الشدة ١/٩٣ـ٩٥ •

وعندما خلع المعتز بالله من الخلافة وقتل رثاه بعض الشعراء · وقد ذكر المسعودي مقاطع من بعض القصائد التي قيلت في ذلك ، منها قول أحدهم(44) :

أصبحت مقلتي تسح الدموعا
اذ رأت سيد الانام خلوعا

لهف نفسي عليه ما كان اعلا
٥ وأسراه تابعا متبوعا

الزموه ذنبا عن غير جرم
فثوى فيهم قتيلا صريعا

وبنو عمه وعم أبيه
أظهروا ذلة ، وابدوا خضوعا

ما بهذا يصح ملك ، ولا يغزى
عدو ولا يكون جميعا

٤ ـ المهتدي بالله :

كان المهتدي بالله حين ولى الخلافة قد اطرح الملاهي وحرم الغناء والشراب · وأمر باخراج المغنين والقيان المغنيات والراقصات من سامرا(45) · ولم يعقد من المجالس سوى جلوسه لرد المظالم ، وقد أشرنا الى ذلك في سيرته · وجلس المهتدي يوما للمظالم فاستعداه رجل على ابن له · فأمر باحضاره ، فاحضر واقامه الى جنب الرجل · فسأله عما ادعاه عليه فأقر به ، فامره بالخروج له من حقه ، وكتب له بذلك كتابا · فلما فرغ قال الرجل : والله يا أمير المؤمنين ما أنت الا كما قال الشاعر :

---

(44) مروج الذهب ٤/١٧٩ ·
(45) الكامل ٧/٢٣٤ ، وتاريخ بغداد ٣/٣٥٠ ، والفخري/٢٢٣ ·

حكمتمـــــوه فقضى بينكـــم
أبلج مثل القمـــر الزاهـــر

لا يقبل الرشـــوة في حكمـــه
ولا يبـــالي غبـــن الخـاسر

فقال له المهتدي بالله : أما أنت أيها الرجل فأحسن الله مقالتك ، وأما أنا فما جلست هذا المجلس حـــتى قرأت في المصحف «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين»(٤٦) الا انه لم تطل مدته اذ اشتد الصراع بينه وبين القواد الأتـــراك ، فانتهى به الامر الى القتل • وكان البحتري قد امتدحه في خلافته بعدة قصائد ، منها تلك التي يشيد فيها بدرعه وتقواه ، وقوة عزيمته في مجابهة المشاكل التي كانت تراجهه ، وسعيه ليسود العدل والأمن في الدولة العربية • منها قوله(٤٧) :

بارك الله للخليفة في الملـــك
الذي حـــازه لـــه المقـــدار

رتبة من خلافة الله قـــــد طا
لت بها رقبـــة لـــه وانتظار

طلبته فقـــرا اليه ، ومـــا كا
ن به ســـاعة اليها افتقـــار

أخذ الأوليـــاء اذ بايعـــوه
بيدي مخبت عليـــه الوقـــار

وتجـــلى للناظـــــرين أبي
فيه عن جانب القبيح ازورار

---

(٤٦) تاريخ بغداد ٣٤٩/٣ ، والاية في سورة الانبياء : ٤٧ •
(٤٧) ديوان البحتري ٨٥٢/٢ـ٨٥٦ •

وأرتنا السجاد سيما طويـــل
الليـل في وجهــه لها آثــار

ولديه تحت السكينة والأخبات
سطو على العــدى واقتــدار

زاد في بهجة الخلافة نـــورا
فهو شمس للنــاس وهي نهار

وأجار الدنيا من الخوف والحـ
يف ، فهل يشكر المجير المجار

٥ ـ المعتمد على الله والشعر والغناء :

بدأ المعتمد على الله خلافته بالانصراف الى اللهو والملذات • وقد اشرنا عنــد الكلام عن سيرته الى ركونه الى أخيــه الموفق في ادارة شؤون الدولة ، فقام بذلك خير قيام ، فاوقف اسراف المعتمد على الله ومنع عنه المال لحاجة الدولة آنــذاك الى الانفاق على تدبير أمور الحرب الداخلية وبخاصة مع الزنج • ومع هذا فقد كان للمعتمد على الله ندماؤه وجلساؤه ، وكانت له بعض مجالس اللهو والغناء • وقد اعتبره أبو الفرج ممن له صنعة في الغناء من الخلفاء ، ويروى عن القاسم بن زرزور ان المعتمد على الله القى عليه لحنا صنعه في هذا الشعر للفرزدق(٤٨) :

ليس الشفيع الذي يأتيـك مؤتزرا
مثل الشفيع الذي يأتيــك عريانا

وللمعتمــد على الله شعر غنت فيه شارية جارية ابراهيــم بن المهدي ، هو(٤٩) :

---

(٤٨) الاغاني ٩/٣٢٣ •
(٤٩) الديارات/١٠٠ •

تأنيت بالحب دهــــرا طويلا
فلم ار في الحب يومـــا سرورا

وروي عن جحظة النديم انه قـــال : كنت عند المعتمد على الله فغنت شارية بشعر مولاها ابراهيم بن المهدي ولحنه :

يا طول علـــة قلبي المعتـــاد
الف الكـــرام وصحبة الامجاد

ما زلت آلف كل قـــدم ماجد
متقدم الآبـــاء والأجـــداد

فاستحسن غناءها . فقالت : هذا غنائي وانا عارية فكيف لو كنت كاسية . فأمر لها المعتمد على الله بألف ثوب من جميع أصناف الثياب الخاصة ، فحمل لها ذلك . وذلـــك مالم يعمله خليفة من قبل(٥٠) .

وعرضت على المعتمد على الله جارية حسنة الغناء سريعة الخاطر، فامتحنها في الغناء والكتابة فرضي بما ظهر له من أمرها . ثم قال لأحد ندمائه ان يقارضها الشعر ، فقال لها النديم : وهبت نفسي للهوى .

فقالت بداهة : فجار لما أن ملك .

فقال : فصرت عبدا خاضعا .

فقالت : يسلك بي حيث سلك .

فأمر المعتمد على الله بشرائها ، فابتيعت بثلاثين ألف درهم(٥١) . ولاشك في ان صلته من الثياب الخاصة ، وشراء هذه الجارية ، كان في أول عهده ، قبل ان تكف يده عن بيت المال .

---

(٥٠) الاغاني ١٦/١٤-١٥ .
(٥١) نساء الخلفاء/١٠٢ .

قالت بدعة جارية عريب ، وكانت مثلهـــــا أديبة مغنية ، ان المعتمد على الله كان يوجه ما ينظم من الشـــعر الى عريب لتصوغ له الالحان المناسبة ، فكانت تقول : ويلي كم أغنى في حروف ألف ، با ، تا[52] ؟

ويبدو ان المعتمد على الله كان معجبا بغناء عريب وألحانها ، رغم تقدمها في العمر ، فأمر أحد ندمائه ان يجمع غناءها . فأخذ هذا منها دفاترها وصحفها ، وكانت قد جمعت فيها غناوها ، وهو في ألف صوت[53] .

ومن المغنين الذين غنوا للمعتمد على الله أبو حشيشة ، فقد غنى يوما بين يديه :

حرمت بـــــذل نوالـــك
واسـوءتا من فعـــالك

لـــما ملكت وصـــــالي
أيســـتني من وصـــالك

فوهبه مائتي دينار . وقال أبـو حشيشة : كان المعتمد على الله يشتهى على أن أغنيه هذا الصوت[54] :

قلبي يحبـــك يـــا مـــنى
قلبي ويبـــغض من يحبـــك

لأكون فـــــردا في هـــوا
ك فليت شـــعري كيف قلبك

---

(٥٢) الديارات/١٠٠ .
(٥٣) الاغاني ٢١/٥٥ .
(٥٤) نهاية الارب ٥/٣٦-٣٧ .

وكان المغني أحمد بن يحيى المكي يحضر مجلس المعتمد على الله مع المغنين ويغني مرتجلا • فيوقع بقضيب على دواة ، أي انه يضبط وزن غنائه بضرب قضيب على دواة ، وكلاهما من معدن[٥٥] •

ويقال ان المعتمد على الله اصطبح يوما واقترح ان يغني بشعر أبي نواس :

يا كثير النــــوح في الدمن

لا عليها بــل على السكن

سنة العشـــاق واحـــدة

فــاذا احببت فاســتكن

فلم يزل يغني به يومه ، ثم اشتكى جوفه ومات في ليلته[٥٦]

وقد نادم المعتمد على الله عدد من الندماء منهم ابن خرداذبة أبو القاسم عبيدالله بن احمد ، وكان قد تولى البريد في اقليم الجبال ، فنادم الخليفة واختص به[٥٧] • وهو صاحب كتاب المسالك والممالك • وكنا ذكرنا شيئا عن سيرته في موضـــوع الجغرافية واشرنا الى ان تصنيفة كتابه المذكور كان استجابة لسؤال المعتمد على الله عن مسالك الأرض وممالكها وصفاتها ، وبعدها وغامرها[٥٨] •

ونادم المعتمد على الله أيضـا أبوالحسن احمد بن جعفر الملقب بـ«جحظة» وهو شاعر مطبوع واديب بارع ، حاذق في صنعة الغناء على الطنبور • ألف كتابا عن المعتمـــد على الله ، اشبه بالمذكرات ، سماه «كتاب ما شاهده من أســر المعتمد»[٥٩] • وكان جحظة ينظم الشعر ويلحنه ويغنيه • وكان عظيم الجثة فاذا قام الخليفة ورجع ،

---

(٥٥) الديارات هامش ص/١٥٤ •
(٥٦) الهفوات النادرة/٥٠ •
(٥٧) الفهرست/٢١٨ •
(٥٨) المسالك والممالك/٣ •
(٥٩) الفهرست/٢١٤ •

قام الندماء ، ونام هو ، وقال هـــذا عوض القيام ، لأنه لا يقدر عليه[٦٠] • ومع قبح منظره وجحوظ عينيه كان أطيب الناس غناء ، واحسنهم مجالسة ، وفيه قال ابن الرومي[٦١] :

نبئت جحظة يستعير جحوظه
من فيـل شطرنج ومن سرطان

يا رحمتي لمنادميـــــه تحملوا
ألـم العيـــون للـــذة الآذان

وكان للمعتمد على‌الله شعر جيد ، وشعر غير موزون • وربما قال الأبيات فيصح بعضها ويفسد باقيها • وذكر له الشابشتي بعضا من اشعاره[٦٢] • ويبدو ان المعتمـد على‌الله كان يعتز بهذه الابيات القليلة التي يقولها من الشعر ، اذ اتخذ له وراقا يكتب شعره بماء الذهب[٦٣] • وقد وجدت في عهد المكتفي بالله الذي تولى الخلافة في سنة ٢٨٩هـ رقـاع ملفوفة فيها اشعار للمعتمـــد على‌الله مكتوبة بالذهب[٦٤] • وممـا ذكره له الشابشتي قوله[٦٥] :

أصبحت لا أملـــك دفعا لمـــا
اســـام من خسف ومن ذلـــة

تمضي أمـور الناس دوني ولا
يشعر بي في ذكرهـــا قلـــة

اذا اشتهيت الشيء ولو بـــه
عني ، وقالـوا : ها هنـا علة

---

(٦٠) الديارات/٢٦ •
(٦١) الملح والنوادر/١٩٨ •
(٦٢) الديارات/٩٨ـ١٠٦ •
(٦٣) تاريخ الخلفاء/٣٦٨ •
(٦٤) الديارات/١٠٠ •
(٦٥و٦٦) الديارات/١٠١ ، ويقول الحصري ان المعتمد على الله قال هذا الشعر او قيل على لسانه ـ جمع الجواهر/١٥٧ •

وقوله لما ضيق عليه ومنع من بيت المال(٦٦) :

أليس من العجـــائب ان مثلي
يرى ما قـــل ممتنعا عليـــه

وتؤخذ باسمه الدنيـــا جميعا
ومـــا من ذاك شيء في يديـــه

اليه تحمـــل الأموال طـــرا
ويمنع بعض مـــا يجبى اليـــه

وقوله في دير العلث(٦٧) :

يا طـــول ليلي بفم الصـــلح
أتبعت خســـراني بالربـــح

لهفي على دهـــر لنا قـــد مضى
بالقصر والقاطـــول والشلح

بالديـــر بالعلث ورهبانـــه
بين الشعانـــين الى الدنـــح

ومما وجد من شعره المكتوب بالذهب قوله(٦٨) :

طـــال والله عـــذابي
واهتمامي واكتئـــابي

بغـــزال من بني الأصفر
لا يعنيـــه مـــا بي

أنـــا مغـــرى بهـــواه
وهو مغـــرى باجتنـــابي

---

(٦٧) الديارات/٩٨ .
(٦٨و٦٩) الديارات/١٠٠ .

وإذا مـــا قلت : صلني
كان (لا) منـــه جوابي

وكذلك قوله(٦٩) :

عجـــل الحب بفرقـــة
فبقلبي منـــه حرقـــة

مالـــك بـــالحب رقي
وأنـــا أملـــك رقـــة

انمـــا يستروح الصب
اذا اظهـــر عشـــقه

وكان الشاعر البحتري أشهر الشـــعراء الذين عاشوا في كنف المعتمد على الله ومدحوه . وحين بويع المعتمد على الله بالخلافة امتدحه ببضعة ابيات هي(٧٠) :

لقد امسك الله الخلافـة بعدما
وهت ، وتلافي سربها ان ينفرا

بمعتمد فيهـــا على الله أسندت
اليه ، فالغتـــه الرضا المتخيرا

ولو لم يقم للمسلمين بحقهـــا
لغودر معروف العواقب منكرا

ولما بدا من ســـدة الملك طالعا
ذكرنا به خير الخلائف جعفرا

شمائل مبسوط اليدين الى الندى
ووجه اضاء الجود فيه فاسفرا

(٧٠) ديوان البحتري ٢/١٠٥٥ .

آتت بركات الارض من كل وجهة
واصبح غض العيش فينان اخضرا

وقد خبر الفتح المعجل اننا اذ
تبلناه ميمون القيـــام مظفرا

ومدحه بقصيدة اشاد فيها بورعــه ويقظته وعلمه وعفوه عن المسيئين اليــه · علما ان المعتمد على الله ، كما أشرنـــا ، كان قد انصرف الى ملاذه ولهوه تاركا شؤون الدولة الى أخيه · ومن هذه القصيدة قوله(٧١) :

ان الخلافــة أحمدت من احمد
شيما اناف بهـــا على الأحماد

ملك تحييه الملوك ، ودونــه
سيما التقى وتخشــع الزهاد

متهجد يخفى الصلاة وقد ابى
اخفاءها أثـــر السجود البادي

سمح اليدين اذا احتبى في مجلس
كان الندى صفة لذاك النادي

متيقظ عصمت بـــوادر أمره
بعرى من الرأي الأصيل شداد

ينسى الذنوب وما تقادم عهدها
ملقي الضغائن دارس الاحقاد

تعفو لعفو الله عنك تحريـــا
والعفو خير خلائـــق الامجاد

---

(٧١) نفس المصدر ٢/٧٣١ـ٧٣٤ ·
راجع تفصيلات هذا المجلس في مروج الذهب ٤/٢٢٠ـ٢٢٦ ·

ويقول المسعودي ان المعتمد على الله كان شغوفا بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع الملاهي • وكان يعقد مجالس للهو والمنادمة(٧٢) واكثر الاحاديث التي تدور فيها كانت عن الطرب وآلاته ، وأنواع اللهو عند مختلف الامم • ويقول ابن خرداذبة ان المعتمد على الله سأل في أحد مجالسه عن أول من اتخذ آلة العود • وقد حاول ابن خرداذبة ان يوضح البداية لهذه الآلة وتطورها عند مختلف الأمم القديمة • فخلص الى ان العود يوناني صنعه أصحاب الهندسة على هيئة طبائع الانسان ، فان اعتدلت اوتاره جانس الطبائع واطرب • وان الطرب انما هو رد النفس الى الحالة الطبيعية دفعة • ثم تطرق الى أنواع الملاهي عند تلك الامم • فذكر آلات الطرب عند الروم والهند وأوصافها • وتكلم بعد ذلك عن الغناء عند العرب وكيف بدأ بالحداء • وكان نشوءه ان مضر بن نزار بن معد سقط عن بعيره في بعض اسفاره فكسرت يده فجعل يتأوه من الألم ويقول : يا يداه ، يا يداه • ويكرر ذلك بنغمة خاصة ، وكان حسن الصوت ، فلاحظ ان الأبل قد استوسقت وطاب لها السير • فأتخذ ذلك برجز الشعر ، وجعلوا كلامه أول الحداء ، ومن قول الحادي : يا هاديا يا هاديا ، ويا يداه يا يداه • ثم اشتق الغناء من الحداء • وكان الغناء ثلاثة اجناس : الركبان ، والسناد الثقيل ، والهزج الخفيف •

واشار ابن خرداذبة الى ان اول من غنى من العرب الجرادتان وهما قينتان لمعاوية بن بكر • وكانت العرب تسمى القينة الكرينة ، والعود المزهر ، ثم تطرق الحديث الى اختلاف الغناء باختلاف الأصقاع العربية • فكان غناء أهل اليمن بالمعازف وايقاعها على جنسين : حنفي وحميري ، والحنفي احسنهما • أما قريش فلم تعرف من الغناء الا النصب • وكانت الحيرة تعرف ضرب العود والغناء عليه ، ومنها انتقل ذلك الى أهل مكة •

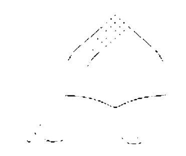
والغناء على رأي ابن خرداذبة يرقق الذهن ، ويلين العريكة ، ويبهج النفس ويسرها ، ويشجع القلب ، ويسخي البخيل • وفضل الغناء على المنطق كفضل النطق على الخرس ، والبرء على السقم • وان المرأة العربية كانت لا تنوم وليدها وهو يبكي خوف ان يسري الهم في جسده ويدب في عروقه • ولذا فهي تنازعه وتضاحكه حتى ينام وهو فرح مسرور • فينمو جسده ويصفو لونه ودمه ، ويشفى عقله • والطفل يرتاح الى الغناء وعنـــد سماعه يستبدل ببكائه ضحكا •

سر المعتمد علىالله وشكر ابن خرداذبة على وصفه واطنابه • ثم سأله عن صفة المغني الحاذق وعن أنواع الطرب • فقال ان المغني الحاذق هـــو من تمكن من انفاسه ولطف في اختلاسه وتفـــرع في اجناسه • أما أنـــواع الطرب فهي ثلاثة : طرب محـــرك مستخف الأريحية ينعش النفس ، وطرب شجن وحزن لاسيما اذا كان في وصف ايام الشباب والشوق الى الأوطان ، وطرب يكون في صفاء النفس ولطافة الحس ولاسيما عند جودة التأليف واحكام الصنعة • وان الاستمتاع بأنواع الطرب يتطلب رفاهة الحس ورقة الشعور • اذ من غلظ حسه وتبلد شعوره ، كره سماع الغناء وتشاغل عنه بل عابه وذمه •

ثم انتقل ابن خرداذبة الى شرح علاقة الايقاع بالغناء ومنزلته منه ، واجناسه الأربعة ، وطرائقـــه الثمانية • وقد فرح المعتمد علىالله في هذا المجلس وخلع على ابن خرداذبـــة وعلى من حضر من الندماء ، وكان مجلس لهو وسرور •

وفي مجلس آخر من مجالس المعتمـــد علىالله طلب الخليفة من بعض الحاضرين من الندماء ان يصفوا له الرقص وانواعه ، وما هي الصفة المحمودة من الراقص وما يجب ان تكون عليه شمائله • فاجابه أحد الندماء بان الاقاليم والبلدان تختلف في رقصها ، وان

أنواع الايقاع في الرقص ثمانيـــة هي : الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وخفيف الثقيل الأول وثقيله وخفيف الثقيل الثاني وثقيلـــه • وان الراقص يحتاج الى أشياء في طباعـــه ، وأشياء في خلقته ، وأشياء في عمله • فأمـــا يحتاجه في طباعه فخفة الروح ، وحسن الطبع على الايقاع ، وان يكون مرحا حسن التدبير في رقصه والتصرف فيه • وان ما يحتاج اليه في خلقته فطول العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل ، والتمايل في الاعطاف ، ودقة الخصر • وأما ما يحتاج اليه في عمله فمقدرة التصرف في ألوان الرقص واحكام كل حد من حـدوده ، وحسن الاســـتدارة ، وثبـــات القدمـــين على مدارهما(٧٢) •



«السنوات الهجرية وابتداؤها وما يقابلها من السنوات الميلادية»

«عن اطلس التاريخ الاسلامي ، ص : ٢٤٤»

الهجرية	يبتديء في	الميلادية	الهجرية	يبتديء في	الميلادية
٢٢٠	٥ كانون الثاني	٨٣٥	٢٤٢	١٠ مايس	٨٥٦
٢٢١	٢٦ كانون الاول	٨٣٥	٢٤٣	٣٠ نيسان	٨٥٧
٢٢٢	١٤ كانون الاول	٨٣٦	٢٤٤	١٩ نيسان	٨٥٨
٢٢٣	٣ كانون الاول	٨٣٧	٢٤٥	٨ نيسان	٨٥٩
٢٢٤	٢٣ تشرين الثاني	٨٣٨	٢٤٦	٢٨ آذار	٨٦٠
٢٢٥	١٢ تشرين الثاني	٨٣٩	٢٤٧	١٧ آذار	٨٦١
٢٢٦	٣١ تشرين الاول	٨٤٠	٢٤٨	آذار	٨٦٢
٢٢٧	٢١ تشرين الاول	٨٤١	٢٤٩	٢٩ شباط	٨٦٣
٢٢٨	١٠ تشرين الاول	٨٤٢	٢٥٠	١٣ شباط	٨٦٤
٢٢٩	٣٠ ايلول	٨٤٣	٢٥١	٢ شباط	٨٦٥
٢٣٠	١٨ ايلول	٨٤٤	٢٥٢	٢٢ كانون الثاني	٨٦٦
٢٣١	٧ ايلول	٨٤٥	٢٥٣	١١ كانون الثاني	٨٦٧
٢٣٢	٢٨ آب	٨٤٦	٢٥٤	١ كانون الثاني	٨٦٨
٢٣٣	١٧ آب	٨٤٧	٢٥٥	٢٠ كانون الاول	٨٦٨

الهجرية	تبتديء في	الميلادية	الهجرية	تبتديء في	الميلادية
٢٣٤	٥ آب	٨٤٨	٢٥٦	٩ كانون الاول	٨٦٩
٢٣٥	٢٦ تموز	٨٤٩	٢٥٧	٢٩ تشرين الثاني	٨٧٠
٢٣٦	١٥ تموز	٨٥٠	٢٥٨	١٨ تشرين الثاني	٨٧١
٢٣٧	٥ تموز	٨٥١	٢٥٩	٧ تشرين الثاني	٨٧٢
٢٣٨	٢٣ حزيران	٨٥٢	٢٦٠	٢٧ تشرين الاول	٨٧٣
٢٣٩	١٢ حزيران	٨٥٣	٢٦١	١٦ تشرين الاول	٨٧٤
٢٤٠	٢ حزيران	٨٥٤	٢٦٢	٦ تشرين الاول	٨٧٥
٢٤١	٢٢ مايس	٨٥٥	٢٦٣	٢٤ أيلول	٨٧٦
٢٦٤	١٣ أيلول	٨٧٧	٢٧٣	٨ حزيران	٨٨٦
٢٦٥	٣ أيلول	٨٧٨	٢٧٤	٢٨ مايس	٨٨٧
٢٦٦	٢٣ آب	٨٧٩	٢٧٥	١٦ مايس	٨٨٨
٢٦٧	١٢ آب	٨٨٠	٢٧٦	٦ مايس	٨٨٩
٢٦٨	١ آب	٨٨١	٢٧٧	٢٥ نيسان	٨٩٠
٢٦٩	٢١ تموز	٨٨٢	٢٧٨	١٥ نيسان	٨٩١
٢٧٠	١١	٨٨٣	٢٧٩	٣ نيسان	٨٩٢
٢٧١	٢٩ حزيران	٨٨٤	٢٨٠	٢٣ آذار	٨٩٣
٢٧٢	١٨ حزيران	٨٨٥			

«المصادر والمراجع

١ ـ المصادر الاولية :

ابن ابي اصيبعة ، موفق‌الدين احمد بن القاسم بن خليفة :

عيون الانباء في طبقات الاطباء ٠
تحقيق الدكتور نزار رضا ٠
دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، ١٩٦٠ ٠

ابن أبي الربيع ، شهاب‌الدين أحمد بن محمد :

سلوك المالك في تدبير الممالك ٠
دراسة وتحقيق : الدكتور ناجي التكريتي ٠
تراث عويدات ـ بيروت ، ١٩٧٨ ٠

ابن الأثير ، عزالدين ابوالحسن علي بن أبي الكرم الشيباني :

الكامل في التاريخ ـ الاجزاء (٦و٧و٨) ٠
دار صادر ـ بيروت ، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م ٠

ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي :

معالم القربة في أحكام الحسبة ٠
نشرة روين لوي ـ مطبعة الفنون بكمبرج، ١٩٣٧٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

ابن بطوطة ، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد الطنجي :

رحلة ابن بطوطة (المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار) ٠

مطبعة التقدم بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٢٢ ·

ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد الاندلسي :

رحلة ابن جبير ·
نشرته المكتبة العربية ببغداد ·
مطبعة عبدالحميد أحمد حنفي ــ مصر ، ١٣٥٦ ــ ١٩٣٧ ·

ابن جلجل ، أبو داود سليمان بن حسان الاندلسي :

طبقات الاطباء والحكماء ·
تحقيق فؤاد سيد ·
مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

ابن الجهم ، أبوالحسن علي بن جهم بن بدر :

ديوان علي بن الجهم ·
تحقيق : خليل مردم ·
لجنة التراث العربي ــ بيروت ، الطبعة الثانية ·

ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي :

المنتظم في تاريخ الملوك والامم (الاجزاء : ٥و٦و٧)
مطبعة حيدرآباد الدكن ، الطبعة الاولى ، ١٣٥٧ ·

ابن حمدون ، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي :

تذكرة ابن حمدون ــ السياسة والاداب الملكية ·
مطبعة النهضة ــ الطبعة الاولى ١٣٤٥هـ ــ ١٩٢٥م
نشرته مكتبة الخانجي بمصر ·

ابن حوقل ، أبوالقاسم محمد بن علي الموصلي :

صورة الارض ٠
مكتبة الحياة ــ بيروت ٠

ابن خرداذبة ، أبوالقاسم عبيدالله :

المسالك والممالك ٠
نشرة دي خوية ــ مطبعة بريل في لندن ، ١٨٩٨ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي :

(١) مقدمة ابن خلدون ٠
المطبعة الخيرية بمصر ، الطبعة الاولى ، ١٣٢٢ ٠
(٢) كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر (الجزء الثالث) ٠
دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ، ١٩٧٧ ٠

ابن خلكان ، أبوالعباس شمس‌الدين أحمد بن محمد :

وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان (٦) أجزاء ٠
تحقيق : محمد محي‌الدين عبدالحميد ٠
الطبعة الاولى ، مطبعة السعادة ، ١٣٦٩هـ ــ ١٩٥٠م

ابن خياط ، خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني :

تاريخ خليفة بن خياط (الجزء الثاني) ٠
تحقيق أكرم ضياء العمري ٠
مطبعة الاداب في النجف الاشرف ، ١٣٨٦ـ١٩٦٧ ٠

ابن دحية ، عمر بن ابي علي حسن بن علي الكلبي :

كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ٠
مطبعة المعارف ــ بغداد ، ١٣٦٥ـ١٩٤٦ ٠

ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي :

الانتصار لواسطة عقد الامصار •
المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع •
طبع بالاوفسيت على طبعة بولاق في سنة ١٣١٠هـ •

ابن ربن ، أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري :

فردوس الحكمة •
تحقيق الدكتور محمد زبير صديقي •
مطبعة آفتاب برلين ، ١٩٢٨ •

ابن رستة ، أبو علي أحمد بن عمر :

الاعلاق النفيسة •
نشرة دي خوية ـ مطبعة بريل بليدن ، ١٨٩١ •
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) •

ابن الساعي ، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب .

نساء الخلفاء •
تحقيق الدكتور مصطفى جواد •
دار المعارف بمصر •

ابن سليمان ، ماري :

اخبار فطاركة كرسي المشرق •
طبع في رومية الكبرى سنة ١٨٩٤ •
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) •

ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا :

الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية •
مطبعة الموسوعات بمصر ، ١٣١٧ •

ابن طلحة ، أبو سالم محمد بن طلحة الوزير :
العقد الفريد للملك السعيد •
المطبعة الرهبية ، ١٢٨٣ •

ابن طيفور ، أبو الفضل أحمد بن طاهر الكاتب :
بغداد •
نشرة عزة العطار الحسني ـ ١٣٦٨ـ١٩٤٩ •

ابن عبدالله ، الحسن :
آثار الاول في ترتيب الدول •
مطبعة بولاق ـ مصر •

ابن عبدالحكم ، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله القرشي الانصاري :
فتوح مصر واخبارها •
تحقيق شارل توري •
مطبعة بريل بليدن ، سنة ١٩٢٠ •
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) •

ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد الاندلسي :
العقد الفريد (٧) أجزاء •
تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابياري
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة •
١٣٦٧ـ١٩٤٨ •

ابن عذاري ، عبدالواحد بن علي التميمي المراكشي :
البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب (الجزء الاول) •
تحقيق : ج• س• كولان و ا • ليفي بروفنسال •
دار الثقافة ـ بيروت •

ابن العماد ، أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي :
شذرات الذهب في اخبار من ذهب (جزآن) ·
المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ بيروت ·

ابن الفراء ، أبو علي الحسين بن محمد :
كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة ·
تحقيق صلاح الدين المنجد ·
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٧ ·

ابن الفقية ، أبوبكر أحمد بن محمد الهمذاني :
مختصر كتاب البلدان ·
نشرة دي خويه ، مطبعة بريل بليدن ، ١٣٠٢ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

ابن الفوطي ، ابوالفضل عبدالرزاق البغدادي :
الحوادث الجامعة في المائة السابعة ·
عنيت بطبعه المكتبة العربية ببغداد باشراف مصطفى جواد ·
مطبعة الفرات ـ بغداد ، ١٣٥١ ·

ابن قتيبة ، أبو محمد عبدالله بن مسلم :
(١) تأويل مشكل القرآن ·
تحقيق السيد أحمد صقر ·
دار أحياء الكتب العربية ، ١٣٧٢ـ١٩٥٤ ·
(٢) عيون الاخبار (٤) أجزاء ·
دار الثقافة والارشاد القومي بمصر ، ١٣٨٣ ـ ١٩٦٣ ·
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ·
(٣) المعارف ·

حققه : ثروت عكاشة ٠
مطبعة دار الكتب ـ مصر ، ١٩٦٠ ٠

ابن قدامة ، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد الكاتب :
كتاب الخراج وصناعة الكتابة ٠
حققه الدكتور محمد حسين الزبيدي ٠
طبع بدار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٨١ ٠

ابن المدبر ، ابراهيم بن محمد بن عبيدالله :
الرسالة العذراء ٠
حققها الدكتور زكي مبارك ٠
مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهـــرة ، ١٣٥٠ـ ١٩٣١ ـ الطبعة الثانية ٠

ابن متي ، عمرو :
اخبار فطاركة كرسي المشرق ٠
طبع رومية الكبرى ، سنة ١٨٩٦ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

ابن المعتز ، عبدالله :
طبقات الشمراء ٠
تحقيق : عبدالستار احمد فراج ٠
دار المعارف ـ مصر ، ١٩٥٦ ٠
ابن منظور ، أبو الفضل جمال‌الدين محمد بن مكرم الانصاري :
لسان العرب ٠
طبعة دار صادر ـ بيروت ، ١٩٥٥ـ١٣٧٤ ٠

ابن النديم ، محمد بن اسحاق بن محمد البغدادي :
الفهرست ٠

المكتبة التجاريـــة الكبرى ـ بمطبعـــة الاستقامة بالقاهرة ·

أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي :
ديوان ابي تمام (٤) أجزاء ·
تحقيق : محمد عبد عزام ·
دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة ·

أبو حيان ، علي بن محمد بن العباس التوحيدي :
البصائر والذخائر (٤) أجزاء ·
تحقيق : الدكتور ابراهيم الكيلاني ·
مطبعة الانشاء بدمشق ·

أبو الفداء ، عمادالدين اسماعيل :
المختصر في اخبار البشر (الجزء الثاني) ·
الطبعة الاولى بالمطبعة الحسينية المصرية ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

أبو الفرج ، علي بن الحسين الاصبهاني :

(١) كتاب الاغاني ·

أ ـ طبعـة وزارة الثقافة والارشـــاد القومي ، ١ـ١٦ ·

ب ـ طبعة الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، الاجـزاء ١٧ـ٢٤ ـ تحقيـــق عبدالكريم العزبادي ، المطبعة الثقافية ، ١٩٧٠ ·

(٢) مقاتل الطالبيين ·
تحقيق السيد احمد صقر ·
دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ، ١٣٦٨ ـ ١٩٤٩ ·

الاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الكرخي :
كتاب الاقاليم ·
نشره الدكتور ج· هـ· موللر سنة ١٨٣٩ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

الأزدي ، علي بن ظافر :
بدائع البدائة ·
ى
تحقيق : محمد ابوالفضل ابراهيم ·
مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ ·

الانباري ، أبوالبركات محمد بن ابي سعيد النحوي :
نزهة الالباء في طبقات الادباء ·
تحقيق : الدكتور عطية عامر ·
المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، ١٩٦٣ ·

البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي :
ديوان البحتري ·
أ ـ طبعة دار صادر (جزآن) بيروت ، ١٩٦٢ ـ ١٣٨١ ·
ب ـ طبعة دار المعارف بمصر (٤) أجزاء ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ·

البخاري ، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل :
الأدب المفرد ·
طبع بمطبعة الاوفسيت بمدينة طشقند ، ١٣٩٠ ·

البغدادي ، أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر :
الفرق بين الفرق ·
تحقيق : محمد زاهد بن الحسن الكوثري ·
نشره السيد عزة العطار الحسني ، ١٣٦٧ـ ١٩٤٠ ·

البغدادي ، اسماعيل باشا :
هدية العارفين ، اسماء المؤلفـــين وآثار المصنفين (جزآن) .
مطبعة المعارف باستانبول ، ١٩٥٥ .

البغدادي ، صفي‌الدين عبدالمؤمن بن عبدالحسن :
مراصد الاطلاع على أسماء الامكنـــة والبقاع (٣) أجزاء .
تحقيق وتعليق : علي محمد البجاوي .
دار أحياء الكتب العربية ــ ١٣٧٧ــ١٩٥٤ .

البكري ، أبو عبيدا لله‌بن عبدالعزيز :
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب .
طبع في الجزائر سنة ١٨٥٧ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

البلاذري ، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر :
فتوح البلدان .
راجعه وعلق عليه : رضوان محمد رضوان .
المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

البلخي ، أبو زيد أحمد بن سهل :
البدء والتاريخ (الجزآن ٤ و ٥) .
نشره كلمان هوار في باريس سنة ١٨٩٩ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

البيروني ، أبو الريحان محمد بن أحمد :
الاثار الباقية عن القرون الخالية .
نشره أدوار سخاو ، طبع في ليبزك سنة ١٩٢٣ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

البيهقي ، الشيخ ابراهيم بن محمد :
المحاسن والمساويء .
دار صادر ـ بيروت ، سنة ١٣٨٠ـ١٩٦٠ .

البيهقي ، ظهيرالدين علي بن زيد :
تاريخ حكماء الاسلام .
عني بتحقيقه ونشره : محمد كرد علي .
الطبعة الثانية بمطبعة المفيد الجديدة بدمشق ، ١٩٣٦ـ١٩٦٧ .

التنوخي ، القاضي أبو علي المحسن بن علي :
(١) كتاب الفرج بعد الشدة .
أ ـ طبعة مكتبة الخانجي بمصر بدار الطباعة المحمدية ١٣٥٧ـ١٩٥٥ ، (جزآن) .
ب ـ طبعة دار صادر بيروت ، تحقيق : عبود الشالجي (خمسة أجزاء) .
(٢) نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة (٨) أجزاء .
تحقيق : عبود الشالجي .
مطابع دار صادر ـ بيروت ، ١٩٧٣ .

الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل :
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب .
تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم .
دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ مطبعة المدني بالقاهرة سنة ١٣٨٢ـ١٩٦٥ .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني :
(١) كتاب البيان والتبين (٤) أجزاء .
تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون .

مكتبة الخانجي بمصر ومكتبـــة المثنى ببغداد ، ١٩٦٠ ·

(٢) رسائل الجاحظ (جزآن) ·
تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ·
مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٦٤ ·

(٣) كتاب التاج في أخلاق الملوك ·
تحقيق : أحمد زكي باشا ·
المطبعة الاميرية بالقاهرة ، ١٣٢٢ـ١٩١٤ ·

(٤) ثلاث رسائل للجاحظ ·
نشرها يوشع فتكل ·
المطبعة السلفية ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٢ ·

(٥) كتاب التبصر بالتجارة ·
عني بنشره والتعليـــق عليه : حســـن حسني عبدالوهاب التونسي ، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الثانية ـ ١٣٥٤ـ١٩٣٥ ·

الجمحي ، محمد بن سلام بن عبدالله :
طبقات الشعراء ·
اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ، ١٩٦٨ ·

الجهشياري ، أبو عبدالله محمد بن عبدوس :
كتاب الوزراء والكتاب ·
تحقيـــق : مصطفى السقا وابراهيـــم الابياري وعبدالحفيظ شلبي ·
مطبعة البابي الحلبي وأولاده ـ القاهرة ·
الطبعة الاولى سنة ١٣٥٧ـ١٩٣٨ ·

الحريري ، أبو محمد القاسم بن علي :
درة الغواص في أوهام الخواص .
طبع في ليبزك سنة ١٨٧١ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

الحموي ، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي :
(١) ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (معجم الادباء)
(٧) أجزاء تحقيق : د. س. مرجليوث . مطبعة هندية بمصر ، ١٩٢٣ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .
(٢) معجم البلدان (٥) أجزاء .
طبعة دار صادر ــ بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٧٦ــ١٩٥٧ .
(٣) كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا .
نشره فرديناند وستفيلد في كوبنهجن بألمانيا سنة ١٨٤٦ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

الحموي ، تقي الدين أبوبكر بن علي بن حجة :
ثمرات الاوراق .
طبع بهامش كتاب المستطرف .
المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ١٣٧٩ .

الحنفي ، أحمد بن محمد الحموي :
النفحات المسكية في صناعة الفروسية .
تحقيق : عبدالستار القرغولي .
مطبعة التفيض ــ بغداد ، ١٣٦٩ــ١٩٥٠ .

الخطيب البغدادي ، الحافظ أبوبكر أحمد بن علي :
تاريخ بغداد أو مدينة السلام (١٤) جزء .
نشر دار الكتاب العربي ــ بيروت .

الخوارزمي ، أبو جعفر محمد بن موسى :
كتاب صورة الارض ٠
تحقيق هانس فون مزيك ٠
مطبعة أدولف هدلزهوزن في فيينا سنة ١٩٢٦ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

الخوارزمي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف :
مفاتيح العلوم ٠
دار الطباعة المنيرية ــ بمطبعة الشرق ، ١٣٤٢ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود :
الاخبار الطوال ٠
مطبعة عبدالحميد أحمد حنفي ــ مصر ٠
بنفقة المكتبة العربية ببغداد ٠

الذهبي ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز :
(١) كتاب دول الاسلام (جزآن) ٠
طبع بمطبعة جمعية المعارف العثمانية ــ الطبعة الثانية ، ١٣٦٤ ٠
(٢) العبر في خبر من غبر (جزآن) ٠
تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ٠
مطبعة الحكومة ــ الكويت ، ١٩٦٠ ٠

الراغب ، أبو القاسم حسين بن محمد الاصبهاني :
محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء (جزآن) ٠
المطبعة الشرقية بمصر ، ١٣٢٦ ٠

الرشيد بن زبير القاضي :
الذخائر والتحف ٠

تحقيق الدكتور محمد حميدالله
راجعه الدكتور صلاح الدين المنجد
طبع في الكويت ، ١٩٥٩ ·

الزمخشري ، جارالله محمود بن عمر :
تفسير الكشاف عن حقـــائق غوامض التنزيل (٤)
أجزاء ·
دار الكتاب العربي ، بيروت ·

السجستاني ، أبوبكر عبدالله بن سليمان بن الاشعث :
كتاب المصاحف
نشره الدكتور ارثر جيفري ·
المطبعة الرحمانية بمصر ، ١٣٥٥ـ١٩٣٦ ·

سهراب (ويعرف بابن سرابيون) :
كتاب عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة ·
تحقيق : هانس فون مزيك ·
طبع بمطبعة أدولف هولز هوزن في فيينا ، ١٩٢٩ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ·

السيرافي ، أبو سعيد الحسن بن عبدالله :
أخبار النحويين البصريين ·
تحقيق: طه محمد الزيني ومحمد عبدالمنعم خفاجي ·
مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٤ـ
١٩٥٥ ·

السيرافي :
رحلة السيرافي الى الهند والصين واليابان واندونوسية
دار منشورات البصري ·
مطبعة دار الحديث ــ بغداد ، ١٣٨٠ـ١٩٦١ ·

السيوطي ، جلال‌الدين عبدالرحمن بن أبي‌بكر :
(١) الاشباه والنظائر في النحو (٣) أجزاء ٠
مطبعة دار المعارف العثمانية ــ حيدراباد الدكن ،
١٣٦٠ ٠
(٢) تاريخ الخلفاء ٠
تحقيق : محمد محي‌الدين عبدالحميد ٠
مطبعة المدني ، مصر ، ١٩٦٤ ٠
(٣) بغيـة الوعاة في طبقات اللغويـين والنحويين
(جزآن) ٠
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ٠
مطبعة عيسى البـابي الحلبي وشركاه ، ١٣٨٤ ــ
١٩٦٤ ٠

الشابشتي ، أبوالحسن علي بن محمد :
الديارات
تحقيق : كوركيس عواد ٠
مطبعة المعارف ــ بغداد ، ١٩٦٦ ــ الطبعة الثانية ٠

الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن ابي‌بكر :
الملك والنحل (جزآن) ٠
تحقيق : محمد سيد كيلاني ٠
مكتبـة ومطبعة البـــابي الحلبي بمصر ، ١٣٨١ ــ
١٩٦١ ٠

الشيزري ، عبدالرحمن بن نصر :
نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٠
نشره السيد الباز العريني ٠
مطبعة لجنة التأليف والترجمـــة والنشر ــ مصر ،
١٣٦٥ ــ ١٩٤٦ ٠

الصابي ، أبو الحسين هلال بن المحسن الصابي :
(١) رسوم دار الخلافة ·
تحقيق : ميخائيل عواد ·
مطبعة العاني ـ بغداد ، ١٣٨٣ـ١٩٦٤ ·
(٢) الوزراء أو تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ·
تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ·
دار أحياء الكتب العربية ، ١٩٥٨ ·

الصابيء ، غرس النعمة أبوالحسن محمد بن هلال الصابيء :
الهفوات النادرة ·
حققه : الدكتور صالح الاشتر ·
من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ·
الطبعة الاولى ، ١٣٨٧ـ١٩٦٧ ·

الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك :
نكت الهميان في نكت العميان ·
وقف على طبعه : أحمد زكي بك ·
المطبعة الجمالية بمصر ، ١٩١١ ·
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفست) ·

الصولي ، أبوبكر محمد بن يحيى الصولي :
١ ـ شعر ابن المعتز (القسم الثاني) ·
دراسة وتحقيق الدكتور يونس أحمد السامرائي ·
دار الحرية للطباعة ـ بغداد ، ١٩٧٨ ·
٢ ـ كتاب الاوراق (قسم اخبار الشعراء) ·
عني بنشره : جي· هيورث دن ·
مطبعة الصاوي بمصر ، ١٩٣٤ ·

الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير :
(١) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) الاجزاء:

٨ ، ٩ ، ١٠ .
دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ .
تحقيق : محمد ابوالفضل ابراهيم .

(٢) جامع البيان عن تأويـــل آي القرآن (الجزء الاول) .
مطبعة ومكتبة البابي الحلبي وأولاده بمصر .
الطبعة الثانية ، ١٣٧٣ـ١٩٥٤ .

الطرطوشي ، أبوبكر محمد بن محمد بن الوليد :
سراج الملوك .
المطبعة الاميرية ببولاق ، سنة ١٢٨٩ .
آثار البلاد واخبار العباد .
دار صادر ـ بيروت ، ١٣٨٠ـ١٩٦٠ .

القفطي ، أبو الحسن جمال‌الدين علي بن يوسف :

(١) انباه الرداة على انباء النحاة (٣) أجزاء .
مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٩ـ١٩٥٠ .

(٢) تاريخ الحكماء .
حققه يوليوس ليبرت .
طبع في ليبزك سنة ١٩٠٣ .
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) .

القلقشندي ، أبوالعباس احمد بن علي :

(١) صبح الاعشى في صناعة الانشا (الجزء ـ ٣) .
طبع المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر .

(٢) مآثر الاناقة في معالم الخلافة .
تحقيق : عبدالستار أحمد فراج .
وزارة الارشاد والانباء في الكويت ، ١٩٦٤ .

القيرواني ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري :
جمع الجواهر في الملح والنوادر
تحقيق محمد علي البجاوي .
الطبعة الاولى ـ دار أحيـاء الكتب العربية بمصر ،
١٣٧٢ـ١٩٥٣ .

الكاتب ، أبو جعفر احمد بن يوسف :
المكافأة .
صححه وعلق عليه : أحمد أمين وعلي الجارم .
الطبعة الاولى ـ المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٩٤١ .

الكاتب ، محمد بن الحسن بن محمد البغدادي :
كتاب الطبيخ .
نشره الدكتور داود الجلبي .
مطبعة أم الربيعين ـ الموصل ، ١٣٥٣ـ١٩٣٤ .

الكتبي ، محمد بن شاكر بن احمد :
فوات الوفيات (جزآن) .
حققه : محمد محيي الدين عبدالحميد .
مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٤ .

الكندي ، أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح :
(١) كتـاب الكندي الى المعتصم بـالله في الفلسفة الاولى .
حققه وعلق عليه : الدكتور أحمد فؤاد الاهواني
دار أحياء الكتب العربية بمصر ، ١٣٦٧ـ١٩٤٨ .

(٢) رسائل الكندي الفلسفية (جزآن) .
حققها واخرجها : محمد عبدالهادي أبو ريدة .
دار الفكر العربي .
مطبعة الاعتماد بمصر ، ١٣٦٩ ـ ١٩٥٠ .

الكندي ، أبو عمر محمد بن يوسف المصري :

كتاب الولاة وكتاب القضاة ٠
تهذيب وتصحيح : رفت كست ٠
مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ، ١٩٠٨ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

الماوردي ، أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب البصري :

(١) الاحكام السلطانية ٠
عني بتصحيحه : السيد محمد بدرالدين النعساني الحلبي ٠
الطبعة الاولى ـ مطبعة السعادة بمصر ٠

(٢) أدب القاضي (جزآن) ٠
تحقيق : هلال السرحان ٠
مطبعة الارشاد ـ بغداد ، ١٣٩١ـ١٩٧١ ٠

المسعودي ، أبوالحسن علي بن الحسين :

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر (الجزء الرابع) ٠
تحقيق : محمد محي‌الدين عبدالحميد ٠
الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٨٧ـ١٩٦٧ ٠

(٢) التنبيه والاشراف ٠
عني بتصحيحه ومراجعته : عبدالله اسماعيل الصاوي ٠
مكتبة الشرق الاسلامية ومطبعتها ، ١٣٥٧ ـ ١٩٣٨ ٠

مسكوية . أبو علي أحمد بن محمد :

كتاب تجارب الامم (الجزء الاول) ٠
اعتنى بتصحيحه وطبعه : هـ ٠ ف٠ امدروز ٠

مطبعة شركة التمدن الصناعية ، مصر ، ١٣٣٢ ـ ١٩١٤ و(الجزء السادس) منه وقد طبعه دي خوية في مطبعة بريل بليدن في سنة ١٨٦٩ ملحقا بكتاب العيون والحدائق في اخبار الحقائق ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

المقدسي ، أبو عبدالله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري :
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ٠
طبعه دي خوية في مطبعة بريل بليدن سنة ١٩٠٦ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

المقريزي ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية (جزآن) ٠
مطبعة بولاق بمصر سنة ١٩٢٤ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

مؤلف مجهول : العيون والحدائق في اخبـــار الحقائق (الجزء الثالث) ٠
نشره دي خوية ٠
مطبعة بريل بليدن في سنة ١٨٧١ ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

مؤلف مجهول :
اخبار الدولة العباسية (المؤلف من القرن الثالث) ٠
تحقيق : الدكتـــور عبدالعزيز الدوري والدكتور عبدالجبار المطلبي ٠
دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت ، ١٩٧١ ٠

الهرثمي ، الشعراني :
مختصر سياسة الحروب ٠

تحقيق : عبدالرؤوف عون ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ٠

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، مطبعة مصر ، ١٩٦٤ ٠

النويري ، شهابالدين أحمد بن عبدالوهاب :

نهاية الارب في فنون الادب (الاجزاء : ١ ، ٥ ، ٧) ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ٠

وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر ٠

الوشاء ، أبو الطيب محمد بن اسحاق بن يحي :

الموشى ٠

حققه : كمال مصطفى ٠

الطبعة الثانية بمطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٣٧٣هـ ١٩٥٣ ٠

وكيع ، القاضي محمد بن خلف بن حيان :

أخبار القضاة (٣) أجزاء ٠

صححه وعلق عليه : عبدالعزيز مصطفى المراغي
الطبعة الاولى ـ المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٦٩هـ ١٩٥٠ ٠

اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح العباسي:

(١) تاريخ اليعقوبي (جزآن) ٠

دار صادر ـ بيروت ، ١٣٧٩هـ ١٩٦٠ ٠

(٢) كتاب البلدان ٠

طبع في مطبعة بريـــل في ليدن سنة ١٨٩١ مع
كتاب الاعلاق النفيسة لابن رستة ٠
(طبعة مكتبة المثنى بالاوفسيت) ٠

(٣) مشاكلة الناس لزمانهم ٠
تحقيق : وليم ملورد ٠
الطبعة الاولى ـ دار الكتـــاب الجديد ، بيروت ،
١٩٦٢ ٠

المراجع الحديثة :

أرنولد ، توماس :

تراث الاسلام ٠
تأليف جمهرة من المستشرقين باشرافه ٠
تعريف : جرجيس فتح‌الله ٠
الطبعة الثانية ـ دار الطليعة ـ بيروت ، ١٩٧٨ ٠

الأزميري ، اسماعيل حقي :

فيلسوف العرب ٠
ترجمة : عباس العزاوي ٠
مطبعة أسعد ـ بغداد ، ١٣٨٢ـ١٩٦٣ ٠

أمير علي ، سيد :

مختصر تاريخ العرب ٠
ترجمة : عفيف البعلبكي ٠
دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦١ ٠

أمين ، احمد :

(١) ضحى الاسلام (٣) أجزاء ٠
الطبعة السابعة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ، ١٩٦٤ ٠

(٢) ظهر الاسلام (الجزء الثاني والثالث) ٠
الطبعة الثالثة ـ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢٠

اتينكهاوزن ، ريتشارد :
فن التصوير عند العرب ·
ترجمة : الدكتـــور عيسى سلمان وســـليم طه التكريتي ·
وزارة الاعلام ـ بغداد ، ١٩٧٣ ·

باتون ، ولتر ملفيل :
احمد بن حنبل والمحنة ·
ترجمه وعلق عليه : عبدالعزيز عبدالحق ·
دار الهلال بمصر ·

باقر ، طه :
(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ·
مطبعة الحوادث ـ بغداد ، ١٣٩٣ـ١٩٧٣ ·
(٢) المرشد الى مواطن الاثار ·
بالاشتراك مع فؤاد سفر ·
مديرية الفنون والثقافة الشعبية بوزارة الارشاد ، بغداد ، ١٩٦٢ ·

بروكلمان ، كارل :
تاريخ الشعوب الاسلامية (الجزء الثاني) ·
ترجمة : الدكتور نبيه فارس ومنير البعلبكي ·
دار العلم للملايين ـ بيروت ، ١٩٤٨ ·

بصمه‌جي ، الدكتور فرج :
كنوز المتحف العراقي ·
وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٧٢ ·

بيتر ، نورمان :
الامبراطورية البيزنطية ·
ترجمة : حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد

مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ،
١٩٥٧ ٠

جب ، هاملتون :
دراسات في حضارة الاسلام
ترجمة احسان عباس وآخرين ٠
دار العلم للملايين ـ بيروت ، ١٩٦٤ ٠

جرونيباوم ، جوستاف ٠ أ ٠ فون :
حضارة الاسلام ٠
ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويـــد ومراجعة :
عبدالحميد العبادي ٠
دار مصر للطباعة ، ١٩٥٦ ٠

جواد ، الدكتور مصطفى جواد ، بالاشتراك مع أحمد سوسة :
دليل خارطة بغداد المفصـــل في خطط بغداد قديما
وحديثا ٠
مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٨ـ١٩٥٨ ٠

الحاني ، الدكتور ناصر :
النقد الادبي وأثره في الشعر العباسي ٠
مطبعة بغداد ـ ١٩٥٥ ٠

حسن ، الدكتور ابراهيم ، والدكتور علي ابراهيم حسن :
النظم الاسلامية ٠
الطبعة الرابعة ـ مطبعة ألسنة المحمدية ، ١٩٧٠ ٠

الخضري ، محمد :
محاضرات تاريخ الامم الاسلامية (الجزء الثالث) ٠
الطبعة الثالثة ، مطبعة مصطفى محمد بمصر ٠

الخليلي ، جعفر :
موسوعة العتبات المقدسة ·
قسم سامراء ـ الجزء الاول ·
دار التعارف ـ بغداد ·
الطبعة الاولى ـ مطابع دار الكتب ، بيروت ·

الخوري ، فارس :
موجز في علم المالية ·
مطبعة الحكومة بدمشق ، ١٩٢٤ ·

الخوئي ، السيد أبوالقاسم الموسوي :
البيان في تفسير القرآن (الجزء الاول) ·
المطبعة العلمية في النجف ، ١٣٧٧ ، ١٩٥٧ ·

خيرالله ، الدكتور أمين أسعد :
الطب العربي ·
تعريب : الدكتور مصطفى أبو عزالدين ·
المطبعة الامريكانية ـ بيروت ، ١٩٤٦ ·

الدوري ، الدكتور عبدالعزيز :
(١) بحث في نشأة علم التأريخ عند العرب ·
المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، ١٩٦٠ ·

(٢) تاريخ العـــراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ·
مطبعة المعارف ـ بغداد ، ١٩٤٨ ·

(٣) النظم الاسلامية (الجزء الاول) ·
مطبعة نجيب ـ بغداد ، ١٩٥٠ ·

دوزي ، رينهارت :
المعجم المفصل للملابس عند العرب ·

ترجمة : الدكتور أكرم فاضل ·
دار الحرية للطباعة ـ بغداد ، ١٣٩١ـ١٩٧١ ·

دي بور ، ت· ج· :
تاريخ الفلسفة في الاسلام ·
ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ·
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ مصر ،
١٣٥٧ـ١٩٣٨ ·

دونلدسن ، م :
عقيدة الشيعة ·
تعريب : ع · م ·
مطبعة السعادة ـ مصر ، ١٣٦٥ـ١٩٤٦ ·

ديماند ، م· س :
الفنون الاسلامية ·
ترجمة : أحمد محمد عيسى ومراجعة الدكتور احمد
فكري ·
الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ·

روزنتال ، فرانز :
علم التاريخ عند المسلمين ·
ترجمة : الدكتور صالح أحمد العلي ·
مراجعة : محمد توفيق حسين ·
مكتبة المثنى ببغداد ، ١٩٦٣ ·

الزركلي ، خيرالدين :
الاعلام ·
قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب
والمستعربين والمستشرقين ·
الطبعة الثانية ، (١٠) أجزاء ·

زيدان ، جرجي :
تاريخ التمدن الاسلامي (٥) أجزاء ·
مطبعة دار الهلال ، مصر ، ١٩٢٢ ·

سابق ، السيد :
فقه السنة (الجزء الثالث) ·
دار الكتــاب العربي ــ بـــيروت · الطبعة الاولى ـ ١٣٩١ــ١٩٧١ ·

السامر ، الدكتور فيصل :
ثورة الزنج ·
الطبعة الثانية ــ مكتبة المنار بغداد ، ١٩٧١ ·

سركيس ، اليان :
معجم المطبوعات العربية والمعربة ·
مطبعة سركيس ــ مصر ، ١٢٨ــ١٣٤٦ ·

سوسة ، الدكتور أحمد سوسة :
ري سامراء في عهد الخلافة العباسية (جزآن) ·
مطبعة المعارف ــ بغداد ، ١٩٤٩ ·

الطائي ، الدكتور فاضل احمد :
أعلام العرب في الكيمياء ·
دار الرشيد للنشر ــ دار الحرية للطباعة ــ بغداد ، ١٤٠١ــ١٩٨١ ·

طوقان ، قدري حافظ :
تراث العرب العلمي ·
اصدار مجلة المقتطف سنة ١٩٤١ ·

عبدالرزاق ، مصطفى :
فيلسوف العرب والمعلم الثاني ·
دار أحياء الكتب العربية ــ ١٩٤٥ــ١٣٦٤ ·

عبدالقادر ، الدكتور علي حسن :
نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي ·
مكتبة القاهرة الحديثة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ·

العبيدي ، الدكتور صلاح حسين :
الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي ·
دار الرشيد للنشر ــ ١٩٨٠ ·

عثمان ، فتحي :
الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ــ الكتــــاب الاول في الظروف التاريخية والجغرافية لقيامها ·
الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة ·

علي ، عبدالله يوسف :
ترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة الانكليزية ·
دار الفكر ــ بيروت ·

العميد ، الدكتور طاهر مظفر :
العمارة العباسية في سامراء ·
دار الحرية للطباعة ــ بغداد ، ١٣٩٦ــ١٩٦٧ ·

عيسى ، الدكتور أحمد :
تاريخ البيمارستانات في الاسلام ·
المطبعة الهاشمية ــ دمشق ، ١٣٥٧ــ١٩٣٩ ·

فازيليف :
العرب والروم ·
ترجمة : الدكتور محمد عبدالهادي شعيرة ·
دار الفكر العربي ·

فراج ، عبدالستار احمد :
اشعار الخليع الحسين بن الضحاك •
دار الثقافة ـ بيروت ، ١٩٦٠ •

كويل ، ارنست :

الفن الاسلامي •
ترجمة : الدكتور أحمد موسى •
دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٦ •

لسترانج ، غن :

(١) بغداد في عهد الخلافة العباسية •

ترجمة : بشير فرنسيس •
المطبعة العربية ـ بغداد ، الطبعة الاولى ، ١٣٥٥ ـ ١٩٣٦ •

(٢) بلدان الخلافة الشرقية •
ترجمة : بشير فرنسيس وكوركيس عواد •
مطبعة الرابطة ـ بغداد ، ١٣٧٣ـ١٩٥٤ •

لوبون ، الدكتور غوستاف :
حضارة العرب •
ترجمة : عادل زعيتر •
الطبعة الثانية ـ مطبعة دار أحياء الكتب العربية ، ١٩٤٨ •

متز ، آدم :
الحضـــارة الاسلامية في القرن الرابـــع الهجري (جزءآن) •

ترجمة : محمد عبدالهادي أبو ريدة •

مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ، ١٣٥٩ـ١٩٤٠ ٠

مختار ، اللواء محمد باشا :

كتاب التوفيقـات الالهامية في مقارنـة التواريخ البحرية بالسنين الافرنكية والقبطية ٠

الطبعة الاولى ـ المطبعـة الاميرية ببولاق ـ مصر ، ١٣١١ ٠

المخزومي ، الدكتور مهدي :

مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ٠

مطبعة دار المعرفة ـ بغداد ، ١٣٧٤ـ١٩٥٥ ٠

مرزوق ، الدكتور محمد عبدالعزيز :

العراق مهد الفن الاسلامي ٠

وزارة الاعلام ٠

مطبعة ثنيان ، ١٩٧١ ٠

المدني ، أحمد توفيق :

المسلمون في جزيرة صقلية ٠

المطبعة العربية ـ الجزائر ، ١٣٦٥ ٠

هرنشو :

علم التاريخ ٠

ترجمة : عبدالحميد العبادي ٠

مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ، ١٩٣٧ ٠

هل ، يوسف :

الحضارة العربية .
ترجمة : الدكتور ابراهيم أحمد العدوي ، ومراجعة الدكتور حسين مؤنس .
مكتبة الانجلـــو المصرية ـ القاهــــرة ، ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ .

اليسوعي ، الاب رتشرد يوسف مكارتي :

التصانيف المنسوبة الى فيلسوف العرب .
مطبعة العاني ـ بغداد ، ١٣٨٢ـ١٩٦٢ .